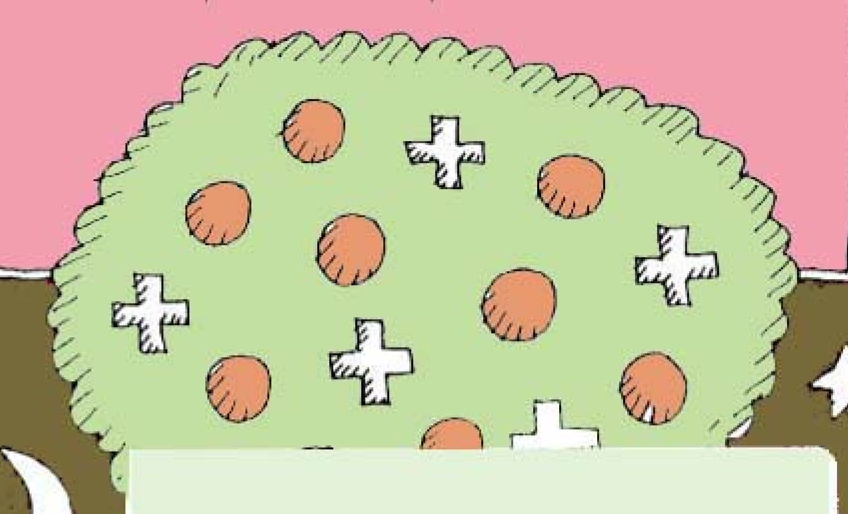


الإستيطان الصليبى فى فلسطين

تاريخ الحملة إلى بيت المقدس
١٠٩٥ - ١١٢٧ م

تأليف فوشيه الشارترى

ترجمة ودراسة وتعليق
د. قاسم عبده قاسم



الإستيطان الصليبى فى فلســـــطين

تأليف فوشيه الشارترى

ترجمة ودراسة وتعليق

د. قاسم عبده قاسم

دار الشروق

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

مقدمة المترجم

لم تكن الحروب الصليبية، التي دارت رحاها في منطقتنا العربية على مدى قرنين من الزمان، مجرد صدام عسكري؛ وإنما كانت صراعا بين حضارتين، بكل ما يحمله هذا الصراع من تيارات واتجاهات. حقيقة أن المعارك العسكرية هي أعلى الأحداث التاريخية صوتا، ولكنها ليست أهم الأحداث في كل الأحوال. فالصدام العسكري، بحد ذاته، يمكن أن يكون تعبيرا عن صدام حضاري على مستويات مختلفة، كما أن المعارك والحروب قد تكون نتيجة لتعارض اتجاهات حضارتين متجاورتين في مرحلة تاريخية ما.

ففي القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، كانت المقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية وحضارة أوربا تكشف عن أن أوربا كانت منطقة متخلفة تماما. وبعد ذلك بقرن من الزمان كانت أوربا تحاول أن تنفض عن نفسها غبار التخلف، ومنذ منتصف القرن الحادي عشر بدأت إرهاصات النمو الأوربي تظهر على المستويات كافة. بيد أن رحلة أوربا نحو التقدم لم تتحقق نتائجها إلا بعد عدة قرون بحيث اكتملت مظاهرها بعد القرن الثامن عشر... وهي رحلة طويلة حقا!

ولكن هذا النمو الذي نقل أوربا من منطقة ريفية متخلفة إلى منطقة يتزايد اعتمادها على التجارة والاقتصاد النقدي، وعلى قدر من النمو الصناعي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، فرض على أوربا منذ البداية أن تصطدم بالحضارة العربية الإسلامية المتفوقة، وبدأت المحاولات الأوربية مبكرا في مزاحمة السيطرة العربية على حوض البحر المتوسط، وأدى ذلك بالضرورة إلى عدة مصادمات عسكرية مع العرب والمسلمين. ومع زيادة معدل النمو الأوربي، زادت الحاجة إلى التوسع خارج جلد القارة الأوربية الضيق، إذ لم تكن موارد أوربا الذاتية قادرة على تلبية حاجات النمو، ولذلك تصاعدت حدة العداء ضد العرب والمسلمين الذين كانوا يفرضون وجودهم على كل الاتجاهات.

وفي ظل الظروف الداخلية للمجتمعات الأوربية، بدأت تتشكل أيديولوجية تمهد لصدام عسكري واسع النطاق ضد الحضارة العربية الإسلامية من ناحية، ولكي يوفر للحضارة الأوربية النامية مجالا حيويا لنموها من ناحية أخرى. وفي خضم هذا التفاعل كانت الدعاية الكنسية وجهود المبشرين الجوالين وتحركات البابوية تكرس العداء ضد المسلمين، وترسم لهم صورة كريهة بغيضة جعلت أبناء الغرب الكاثوليك يتحرقون شوقا للقضاء على العرب والمسلمين. وكانت هذه الأيديولوجية التي أفرزت الحملة الصليبية الأولى وما بعدها سببا في تلك العداوة والكراهية التي رسخها مؤرخو الحملة الصليبية الأولى ضد المسلمين بحيث صارت مثالا احتذاه المؤرخون الذين جاءوا بعدهم.

وتكشف الأوصاف التي أسبغها مؤرخو الحملة الأولى على المسلمين بإسراف شديد عن مدى التعصب الذي كان يحكم أوربا الكاثوليكية آنذاك. وكيف أن الأوربي في ذلك الزمان لم يكن ليسمح، أو يعترف، بوجود «الآخر». فهذا «الآخر» لم يكن نتاجا لمعرفة واقعية، وإنما كانت صورته نتاج دعاية نزقة غذتها الكنيسة، وغلفتها روح التدين العاطفي الذي يشوبه التعصب المقيت.

والأمر المستلفت للنظر حقا أن الشخصية الإسلامية التي صورتها كتابات مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، ونصوص الخطبة التي أوردوها على لسان إربان الثاني في كليرمون عام ١٠٩٥م، تبدو شخصية مثقلة بكل الشرور والخطايا والآثام التي يمكن أن يحملها البشر. هذا التصوير العدائي كتبه مؤرخو الحملة الأولى قبل أن يروا فعلا مسلما واحدا على الطبيعة؛ ،ولذلك استخدموا كل صياغاتهم الكريهة في تحريض الكاثوليك على الانضمام للحملة ومواصلة الحرب ضد المسلمين. ولكن هؤلاء الكتاب أنفسهم، بدءوا يتعرفون على المسلمين الحقيقيين من خلال الصدام العسكري والمعايشة فوق الأرض العربية، ومن ثم بدأت بعض الملامح الواقعية للشخصية الإسلامية تتسرب إلى سطور كتاباتهم، ومع ذلك ظلت النغمة العدائية هي النغمة الدالة في كتاباتهم.

فبعد نجاح الحملة الصليبية الأولى، وزرع المستوطنات الصليبية فوق الأرض العربية، أخذت صورة المسلم في كتابات المؤرخين الصليبيين تقترب من الحقيقة،

كما أن معلوماتهم التاريخية، والجغرافية، والسكانية والدينية عن العالم العربي المسلم تحسنت كثيرا.

* * *

من ناحية أخرى، كانت للحروب الصليبية تأثيراتها القوية على كتابة التاريخ في أوربا العصور الوسطى. إذ إن المؤرخين الأوربيين (أو كتَّاب الحوليات والمؤرخات) كانوا أسرى الأطر القديمةوالكلاسيكية في كتابة التاريخ، وهي الأطر التي ورثوها عن الرومان، أو تلك التي فرضها الفلاسفة المسيحيون من أمثال سان أوغسطين. وجاءت الحروب الصليبية بمثابة تجديد كبير في الحضارة الأوربية الكاثوليكية، وذلك بسبب ما تتسم به قصة الحروب الصليبية من جدة وطرافة، وما تحفل به من إثارة. فقد وجد المؤرخون الأوربيون أنفسهم أمام ظاهرة تاريخية لم يسبق لها مثيل في تاريخ أوربا، بحيث يمكن تقليده أو النسج على منواله. فالعصور الكلاسيكية لم تشهد حربا يمكن مقارنتها بالحروب الصليبية سواء من حيث مداها الزمني، أو مسرحها الجغرافي، أو من حيث أعداد الذين شاركوا في أحداثها.

وهكذا، تعين على كل مؤرخ حاول أن يكتب قصة الحروب الصليبية أن يدون أحداثها ووقائعها بطريقته الخاصة. وعلى الرغم من أن مؤرخي الحروب الصليبية اللاتين قد حاولوا في كثير من الأحيان الربط بين الأحداث التي يرويها الكتاب المقدس وأحداث قصتهم؛ فإنهم كانوا أقل نمطية، وأكثر تلقائية بسبب خصوصية التجربة الصليبية ذاتها. كذلك أوجدت الحروب الصليبية الحافز لكتابة تاريخية جديدة بفضل اتساع ميدانها في رحاب الزمان والمكان.

واكتسب مؤرخو الحروب الصليبية اللاتين خبرات جديدة؛ لأنهم كانوا في حال تمكنهم من التعرف على حضارتين في مرحلة الصدام والتفاعل المتبادل. ولأن الحروب الصليبية كانت متداخلة وطويلة الأمد، فقد وفرت لأولئك المؤرخين فرصة طيبة ليعرفوا أن أعداءهم المسلمين من البشر وليسوا من الشياطين كما صورتهم الدعاية البابوية في فترة ما قبل الحرب.

لقد أنتجت الحروب الصليبية مؤرخين علمانيين، كما تطور الأدب العلماني الأوربي بفضلها. وفي مجال الكتابة التاريخية، كان النمط الجديد الذي أوجدته

الحروب الصليبية مناقضا للتدوين التاريخي الكنسي التقليدي من عدة وجوه؛ على الرغم من أن «يد الرب» كانت دائما من بين الأسباب التي يفسر بها أولئك المؤرخون سير الأحداث التاريخية. ومع أن كتابات مؤرخي الحروب الصليبية قد حفلت بالقديسين الذين يحاربون إلى جانب «جيش الرب»، وامتلأت بالحكايات عن المعجزات والأحلام المقدسة والنبوءات؛ فإن الاحتكاك المستمر بالواقع جعل أولئك المؤرخين أكثر ميلا إلى البحث عن أسباب إنسانية واقعية لتفسير الحدث التاريخي. ومن ناحية أخرى، كانت الأجيال التالية من مؤرخي الحروب الصليبية اللاتين أقل كرما في كتابة أخبار القديسين والمعجزات، وأكثر انتقادا لما مارسه الفرنج الصليبيون.

وفوشيه الشارتري، الذي نقدم ترجمة كاملة لنص كتابه إلى اللغة العربية للمرة الأولى، مؤرخ يجسد هذه الخصائص جميعها في موقفه وكتاباته؛ فهو من رجال الكنيسة، وهو من صانعي الدعاية البابوية، كما أنه شاهد عيان رافق الحملة الصليبية من شارتر في فرنسا حتى استقر في القدس بعد استيلاء الصليبيين عليها، وهو قريب من البلاط الملكي ومن مراكز اتخاذ القرار. ومن ناحية أخرى، كانت عداوة فوشيه للمسلمين صريحة لا لبس فيها ولا غموض. وهو في كتاباته يروج لفكرة الحرب المقدسة، ويخلط بين ما يرويه من أحداث التاريخ وبين الأحداث التي يرويها الكتاب المقدس عن الزمن القديم، كما أنه لا يمل من عقد المقارنات بين الأشخاص الذين يحكي عنهم في روايته وأشخاص العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس. لقد كان يبدي سروره في عبارات بليغة لما يرتكبه الصليبيون من أعمال وحشية ضد المسلمين، ولم يخطر بباله قط أن المسلمين يدافعون عن حقهم في بلادهم، وأن الصليبيين هم الذين جاءوا من بلادهم لشن العدوان على المنطقة العربية؛ بل كان يرى فيهم جماعة من الكفار والوثنيين القساة الغلاظ الذين يستحقون القتل والفناء.

وعلى الرغم من التحيز الواضح في قصة فوشيه الشارتري عن الحملة الصليبية الأولى؛ فإن كتابه يظل كتابا مهما من حيث كونه نموذجا دالا على كتابات المؤرخين الكنسيين الذين دونوا قصة الحروب الصليبية من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية. ذلك أن التعصب المقيت، والعنصرية، والتباهي بالفظائع

التي ارتكبها جنود الرب، كان سمة مشتركة واضحة في كتابات أولئك المؤرخين. ومن هؤلاء روبير الراهب، وجيوبرت النوجنتي، وبلدريك الدوللي، وآلبرت الآيكسي، وريمون الأجويلري.

* * *

لقد جاءت الحركة الصليبية نتاجا للظروف التاريخية التي حكمت المنطقة العربية الإسلامية، والدولة البيزنطية، والغرب الكاثوليكي، في القرن الحادي عشر. وفي ظل سيطرة الكنيسة الكاثوليكية على الغرب الأوربي تطورت هذه الحركة واتخذت نمطا تاريخيا خاصا عبر المعارك التي جرت ضد المسلمين. ومن ناحية أخرى، كان قدوم الصليبيين إلى المنطقة العربية والاستيطان فيها صدمة مؤلمة وحقيقة مريرة تعين على المسلمين أن يواجهوها منذ نهاية القرن الحادي عشر فصاعدا. وفي بطء عنيد تحولت سيطرة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة المتناثرة إلى سيادة مستقرة على أقاليم متصلة أخذت في التوسع دونما مقاومة منظمة أو فعالة من جانب المسلمين. فقد نال العالم العربي الإسلامي، الذي مزقته الخلافات والمنازعات والاقتتال المستمر بين حكامه، ضربة مفاجئة أثارت الذعر في أوصاله، وشلت قدرات الإمارات العربية في حلب، وشيرز، وحماة، وحمص، ودمشق. وكانت معظمها تحت حكم الأتراك السلاجقة الذين عَدُّوا أنفسهم نوابا عن الخلافة العباسية في بغداد. وكان حصاد الحروب والمنازعات التي دارت بين هذه الإمارات، طوال قرن مضى، كما هائلا من الشك والمرارة والحقد المتبادل، وظلت الفجوة بينها عميقة بحيث حالت دون أي تنسيق في مواجهة العدو الصليبي.

وعلى الجانب الآخر كانت مصر، القوة العربية الإسلامية الكبرى، تحت حكم الخلافة الفاطمية الشيعية، منافسا قويا للخلافة العباسية، وكانت كل من الخلافتين تَعُدّ الأخرى مغتصبة للسلطة، وتدَّعى لنفسها الشرعية الكاملة. وقد وصلت المنازعات بين الخلافتين إلى حد الاحتكام إلى السيف في بعض الأحيان. وذلك فضلا عن أن المصالح المكتسبة للحكام المحليين في الإمارات الصغيرة في بلاد الشام والعراق قد منعت تعبئة الجهود والموارد الهائلة في المنطقة العربية الإسلامية؛ سواء على المستوى الاقتصادي، أو البشري، أو العسكري، لمواجهة الغزو والاستيطان الصليبي.

هذه الفوضى السياسية في العالم العربي الإسلامي شجعت الصليبيين على الحرب، ومكنتهم من الوصول إلى القدس والاستيلاء عليها، ثم بدأ التوسع الصليبي في مقابل التراجع العربي. واستمر الوضع على هذا الحال طوال ما يقرب من نصف قرن تمكن الفرنج فى أثنائه من تدعيم وجودهم، وخلق مملكة وكيان استيطاني تمكن من الصمود في مواجهة القوى الإسلامية على مدى قرنين من الزمان تقريبا.

والقصة التي يرويها فوشيه الشارتري في هذا الكتاب تتناول أحداث السنوات الثلاثين الأولى تقريبا من قصة الحروب الصليبية والاستيطان الصليبي تحت السماء العربية الإسلامية (١٠٩٥ـ١١٢٧م). وتكمن أهمية هذا النص في أنه يقدم لنا رواية متكاملة عن هذه الفترة المهمة من عمر الوجود الصليبي في المنطقة؛ فهو المؤرخ اللاتيني الوحيد الذي غطى كل هذه السنوات، ولم يشاركه في ذلك أي من مؤرخي الحملة الصليبية الأولى، وذلك على الرغم من كل الانحيازات، والخرافات، والتفسيرات الغيبية، التي تشوب قصته، وعلى الرغم من جهله الواضح بكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية والدينية عن المسلمين. كما أن اعتماده على الكتاب الكلاسيكيين في وصف مظاهر الطبيعة، وعناصر البيئة من نبات وحيوان وطيور (على الرغم من مشاهداته الخاصة) يبدو لنا في كثير من الأحيان نوعا من الحشو أو الثرثرة التي يتسلى بها رجل عجوز في أواخر أيامه.

* * *

ونظرا لأن الدراسة التي تقدمت الترجمة الإنكليزية لكتاب فوشيه الشارتري، (وهي الترجمة التي اعتمدنا عليها) تبدو كافية وافية بالنسبة لنا، فلم يكن ثمة ضرورة لتكرارها. وعلى الرغم من بعض التحفظات التي أبديناها في الهوامش على بعض آراء وردت في هذه الدراسة، فالحقيقة أنها دراسة كاملة ورصينة بحيث تغني تماما عن تكرار في الجهود لا طائل من ورائه.

وفي هذه الترجمة العربية، رأينا أن نبقي على التقسيم نفسه الذي أوردته الترجمة الإنكليزية، من حيث الفصول والسطور المرقمة في كل فصل. كما أننا

أبقينا على معظم الهوامش التوضيحية التي صاحبت الترجمة الإنكليزية، وأضفنا إليها هوامش تحمل وجهة نظرنا، أو مزيدا من التوضيحات، أو شروحا لبعض غوامض النص. وقد أشرنا إلى الهوامش التي أضفناها بكلمة (المترجم)، وتركنا الهوامش التي صاحبت النص الإنكليزي دون إشارة بصفتها جزءا من النص الذي نقلناه إلى العربية.

ولست أظنني بحاجة إلى التنبيه لمدى الجهد الذي بذل في نقل هذا المصدر التاريخي المهم إلى اللغة العربية للمرة الأولى؛ فهذا أمر يمكن أن يتضح لمن يقرؤه، بيد أني أشير إلى محاولتي أن أبسط لغة النص وأقربها للعقلية العربية قدر الإمكان، كما أنني في كثير من الأحيان عدلت من صياغة النص حين يصف المسلمين بعبارات قاسية قد تصدم مشاعر من يقرأ هذا الكتاب من غير المتخصصين. فإن أكن قد وفقت فالله الموفق، وإن أكن أخطأت فحسبي أنني حاولت واجتهدت. والله الموفق والمستعان.

د. قاسم عبده قاسم



محتويـات الكتـــاب

١٤ ـ أعمال وشجاعة الكونت بلدوين أخي جودفري، وأخذ مدينة الرها .
١٥ ـ وصول الفرنج إلى أنطاكية وتقلبات أحوال الحصار .
١٦ ـ فقر المسيحيين البائس وهرب كونت بلوا .
١٧ ـ استسلام مدينة أنطاكية .
١٨ ـ اكتشاف الحربة .
١٩ ـ حصار المسيحيين داخل أنطاكية بواسطة الأتراك .
٢٠ ـ الرؤى التي ظهرت داخل المدينة .
٢١ ـ الهجوم الذي شنه الفرنج على الأتراك .
٢٢ ـ استعدادات المعركة .
٢٣ ـ المعركة، وانتصار المسيحيين وهرب الأتراك .
٢٤ ـ حول هذه الأمور بعث الزعماء البارزون للجيش الخطاب التالي إلى البابا الروماني .
٢٥ ـ الحملة ضد المدن الأخرى، حصار عرقة، رحلة الفرنج إلى القدس ووصولهم إلى ذلك المكان .
٢٦ ـ موقع القدس .
٢٧ ـ حصار مدينة القدس .
٢٨ ـ الغنائم والأسلاب التي استولى عليها المسيحيون .
٢٩ ـ استقرار المسيحيين بالمدينة .
٣٠ ـ تعيين ملك وبطريرك في المدينة، واكتشاف صليب الرب .
٣١ ـ وصول المسلمين وهجومهم، وانتصار المسيحيين .
٣٢ ـ عودة الأمراء إلى بلادهم .
٣٣ ـ بوهيموند وبلدوين ورحلتهما للحج .
٣٤ ـ عودة الدوق بوهيموند والكونت بلدوين إلى أملاكهما .
٣٥ ـ أسر الدوق بوهيموند .
٣٦ ـ موت الملك جودفري .

الكراسة الثانية:

١ ـ كيف جاء بلدوين لحكم بيت المقدس .

٢ ـ الكمين الذي أعده الأتراك ، ومواهب الكونت بلدوين العسكرية البارزة .

٣ ـ معركة مريرة جدا ضد الأتراك .

٤ ـ حملة بلدوين في بلاد العرب .

٥ ـ البحر الميت .

٦ ـ تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته .

٧ ـ تعيين تنكرد في أنطاكية .

٨ ـ حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها .

٩ ـ كيف تم الاستيلاء على مدينة قيصرية .

١٠ ـ كيف تم اختيار كبير أساقفة في قيصرية .

١١ ـ معركة دموية عنيفة بين المسلمين والمسيحيين انتصر فيها المسيحيون .

١٢ ـ كم عدد المسيحيين الذين هلكوا هناك .

١٣ ـ الحظوظ المتقلبة في هذه المعركة .

١٤ ـ الرسالة التي أرسلها فرنج يافا إلى تنكرد أمير أنطاكية .

١٥ ـ جيش مصر يحتشد ضد المسيحيين .

١٦ ـ الحج الثاني المأساوي للفرنج ، وموت هيو الكبير .

١٧ ـ الاستيلاء على مدينة طرطوس .

١٨ ـ معركة كارثة بين المسيحيين والأتراك ، قتل فيها المسيحيون وانتصر الأتراك .

١٩ ـ هروب الملك بلدوين .

٢٠ ـ كيف دخل الملك أرسوف بعد هربه .

٢١ ـ كيف أسرع هيو أمير طبرية ، وبطريرك القدس لنجدة الملك ، وكيف دارت المعركة بعنف ، ومساعدة الصليب المقدس التي شاهدها المسيحيون .

٢٢ ـ الملك يحاصر مدينة عكا .

٢٣ ـ تحرير الأمير بوهيموند من الأسر .

٢٤ ـ جرح الملك الخطير الذي هدد حياته .

٢٥ ـ الاستيلاء على مدينة عكا .

٥٠ ـ الخوف الكبير الذي سيطر على الجميع .
٥١ ـ الزلزال وزواج الملك من كونتيسة صقلية .
٥٢ ـ الزلزال الذي شعر به الناس في أماكن كثيرة .
٥٣ ـ حشد الجيش التركي، وحصار أهل يافا على أيدي المصريين وأهل عسقلان .
٥٤ ـ المعركة التي جرت بين الأتراك ورجال أنطاكية والتي انتصر فيها الأنطاكيون .
٥٥ ـ القلعة التي بنيت في بلاد العرب .
٥٦ ـ حملة الملك في بلاد العرب وما شاهده هناك .
٥٧ ـ البحر الأحمر .
٥٨ ـ نهر جيحون .
٥٩ ـ نهر الفرات .
٦٠ ـ أسراب الجراد الكبرى .
٦١ ـ خسوف القمر .
٦٢ ـ القلعة التي بنيت قرب صور .
٦٣ ـ العلامة الإعجازية التي ظهرت في السماء .
٦٤ ـ موت الملك بلدوين .

الكراسة الثالثة:

١ ـ تعيين الملك بلدوين في عيد الفصح .
٢ ـ حشد الجيش المصري .
٣ ـ المعركة وذبح رجال أنطاكية الذين كانوا يحاربون الأتراك .
٤ ـ الملك بلدوين يحمل صليب الرب، ويهرع لمساعدة أهل أنطاكية .
٥ ـ المعركة والنصر الذي أحرز بقوة الصليب المقدس، واستقبال الصليب في أنطاكية .
٦ ـ استقبال الصليب في بيت المقدس .
٧ ـ الملك يحصل على إمارة أنطاكية .
٨ ـ إلغاء الضريبة .
٩ ـ حشد الأتراك وحملة الملك ضدهم .
١٠ ـ حملة الملك ضد أهل دمشق وهدم قلعتهم .

١١ ـ حملة الملك ضد كونت طرابلس، ثم ضد الأتراك.
١٢ ـ أسر كونت الرها.
١٣ـ السلام بين البابا والإمبراطور.
١٤ ـ استعدادات البنادقة للإسراع إلى القدس.
١٥ ـ وقت رحيلهم.
١٦ ـ أسر بلدوين، وشخص يدعى إيستاس يحل محله.
١٧ ـ حصار يافا مرة أخرى على يد المصريين ومعاناة أهلها الشديدة.
١٨ ـ المعركة ضد الأتراك وانتصار المسيحيين بمساعدة الصليب المقدس.
١٩ ـ استقبال الصليب المقدس في القدس.
٢٠ ـ وصول البنادقة ومعركتهم البحرية ضد المسلمين.
٢١ ـ لم يكن شعب القدس وحدهم على الرغم من أسر ملكهم.
٢٢ ـ موت إيستاس واعتلاء وليم العرش.
٢٣ ـ كيف هرب الملك بلدوين من السجن.
٢٤ ـ كيف هرب كونت الرها من السجن.
٢٥ ـ حملة أهل بيت المقدس، وأسر بلدوين مرة ثانية.
٢٦ ـ كيف حاصر بيليك الملك وقبض عليه مرة أخرى.
٢٧ ـ الاستعداد لحصار صور.
٢٨ ـ كيف حاصر البنادقة والبطريرك مدينة صور.
٢٩ ـ صور وشهرتها.
٣٠ ـ الاستيلاء على صور من قبل، ومن الذي حاصرها في الزمن القديم.
٣١ ـ انتصار أهل أنطاكية على الأتراك وموت بيليك.
٣٢ ـ ماذا حدث في أثناء حصار صور.
٣٣ ـ الغزو المجنون الذي قام به أهل عسقلان.
٣٤ ـ استسلام مدينة صور.
٣٥ ـ الامتيازات التي منحها البابا باسكال.
٣٦ ـ توزيع الأراضي المحيطة بصور.
٣٧ ـ العلامة التي ظهرت في ذلك الوقت.



هــذه تـرجمــة كتـــاب

Fulcher of Chartres

A History of the Expedition to Jerusalem

edited By

Harold S.Fink

Knoxcille 1968


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم

شخصية فوشيه

كانت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩م) التي بدأها البابا إربان الثاني وباركتها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، قد وجهت الدعوة إلى الرجال كافة من أبناء أوربا المسيحية لحمل الصليب رمز ديانتهم وتحرير قبر المسيح والقدس من قبضة المسلمين. وكان فوشيه دي شارتر واحدا من كثيرين لبوا الدعوة. وكان هو القس الخاص لبلدوين الأول حاكم الرها من عام ١٠٩٨ إلى عام ١١٠٠م، وأول ملك صليبي لبيت المقدس من عام ١١٠٠ إلى عام ١١١٨. واستقرفوشيه بالقدس منذ نهاية عام ١١٠٠ حتى عام ١١٢٧م على أقل تقدير، لأنه يختفي من المشهد في تلك السنة. وقد كتب واحدة من ثلاث مؤرخات لاتينية طويلة عن الحملة الصليبية دونها رجال كانوا من المشاركين فيها. وروايته عن مجمع كليرمون المهم وعن تقدم جيش روبرت النورماندي وستيفن كونت بلوا وشارتر الذي خرج في صحبته، تخلو تمامًا من شبهة الاعتماد على ما كتبه غيره من المؤلفين. وهو ما يصدق أيضا على رواية فوشيه حول تأسيس بلدوين الأول لإمارة الرها عام ١٠٩٨م. بيد أن الرواية التي أوردها في الكراسة الأولى عن تقدم الجيش الصليبي الرئيسي من مايو عام ١٠٩٧ إلى أغسطس عام ١٠٩٨م، وهي الفترة التي كان فوشيه غائبا في أثنائها في الرها، تعتمد كثيرا على رواية اثنين من شهود العيان كتبا تاريخ الحملة الأولى؛ وهما المؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنجة» Gesta Fancorum et Eliorum وريمون الأجويليري صاحب كتاب «تاريخ الفرنجة الذين Heirosalymitanorum

اســتــولوا على بيت المقــدس[1] Historia Francos qui Cerunt Jherusalem وحوادث هذه الفترة تتضمن حصار نيقية في مايو ويونيو سنة ١٠٩٧م، ثم ما أعقب ذلك من مسير الجيش عبر الأناضول، ولاسيما تقدم الصليبيين منذ حصار أنطاكية الذي بدأ يوم ٢٠ ـ ٢١ من أكتوبر سنة ١٠٩٧م حتى الاستيلاء على القدس في ١٥ من يوليو عام ١٠٩٩م، ثم معركة عسقلان التي جرت نتيجة لذلك في ٢١ من أغسطس عام ١٠٩٩م.

وعلى عكس الكاتبين الآخرين، واصل فوشيه تدوين حوادث كتابه «تاريخ الحملة إلى بيت المقدس «Historia Heirosolymitana»[2] حتى جيل آخر أي إلى عام ١١٢٧م حين ينتهي الكتاب فجأة. وقد غطى حكم الملك بلدوين الأول في بيت المقدس من عام ١١٠٠ حتى عام ١١١٨م في الكراسة الأولى، وحكم الملك بلدوين الثاني حتى سنة ١١٢٧ في الكراسة الثانية. وعلى الرغم من أن كتابه يركز حول شئون مملكة بيت المقدس، فإن فوشيه غالبا ما كان يعرج على علاقات المملكة بحكام دمشق، وحلب، والموصل، من الأتراك السلاجقة السنيين، ومع الخلافة الفاطمية الشيعية القوية في القاهرة، والتي كانت عملياتها العسكرية تتم انطلاقا من قاعدتها المتقدمة في عسقلان، كما اهتم بالعلاقات مع الإمارات الصليبية الأخرى

---

(١) تمت ترجمة «أعمال الفرنجة» ونشره عدة مرات، منها على سبيل المثال: -

Jacques Bongars in Gesta Dei per Francos (2 vols Hannav. 1611(Philippe le Bas in RHC, Occ.,lll (Paris 1866), 119 - 63; H. Hagenmeyer (Heildlburg 1890); Beatrice A. Lees (Oxford 1924); Louis Brehier (Paris 1924); Rosalind Hill (London 1926).

وسنشير إلى «أعمال الفرنجة» في طبعة هاجنماير HG. لأنها تمتاز بمقدمة وهوامش قيمة وتسمح بتحديد النص بالصفحة والفقرة. ويمكن الرجوع لريمون الأجويلري في RHC, Occ, III, 231 - 309، وقد انتهى جون هيل ولوريتا هيل من ترجمته وتحقيقه (الجمعية الفلسفية الأمريكية في فلادلفيا ١٩٦٨) ويعدان طبعة جديدة للنص اللاتيني. وفي تقديري أن كتاب تيوبود السيفري «تاريخ الرحلة لبيت المقــدس» Historia de Hierosolymitano Itinere ليس مصدرا لاتينيا مهما لأنه يعتمد كثيرا على «أعمال الفرنجة» للمؤرخ المجهول. انظر؛ RHC. Occ. III, 1 - 117.

(٢) من الواضح أن مؤرخة فوشيه عُرفت للمرة الأولى باسم الكراسة الأولى التي كان عنوانها في البداية Gesta Francorum Heirusalem Peregrinatium، أي أعمال الفرنجة حجاج بيت المقدس، ثم عُرف بعنوان Historia Heierosolymitana عندما أعيد تقييمه (HF, 19 - 20; 119 note a).

في أنطاكية والرها وطرابلس خلال حكم بلدوين الثاني . والواقع أن فوشيه كتب تاريخ الدويلات الصليبية الأربع جميعًا . وهذه حقيقة لأن بلدوين كان وصيًا على أنطاكية فيما بين عام ١١١٩ وعام ١١٢٦ ، كما أنه كان حاميا لكل الفرنج - أو الصليبيين - في الشرق .

والتاريخ الذي كتبه فوشيه هو المؤلف الوحيد الذي كتبه مستوطن فرنجي محلي يغطي كل الفترة التكوينية الباكرة التي أعقبت الحملة الصليبية الأولى . والمؤلّف التاريخي اللاتيني الوحيد الذي يمكن مقارنته به من حيث مداه ، هو كتاب ألبرت الآيكسي «كتاب الحملة المسيحية Liber Christianae Expeditiones » ، إذ يحكي الحوادث حتى سنة ١١٢٠م ، ولكنه كتب في ألمانيا ، ومن ثم يفتقر إلى قيمة شاهد العيان[١] . والواقع أن الفرنج في الأرض المقدسة لم يخرجوا مؤرخا محليا مثل فوشيه ، حتى وليم الصوري ، كبير أساقفة صور الذي كتب مؤلفه الشهير «تاريخ الأعمال التي تمت فيما وراء البحار "Historia rerum in Partibus Tansmarinis Gestarum » . وقد اعتمد هذا الكتاب بصورة جزئية على فوشيه في مراحله الأولى ، وقد تم تأليفه في القرن الثاني عشر (١١٦٧ - ١١٨٤م)[٢] ، ومن ثم فإن كتاب فوشيه غاية في الأهمية ، نظرا إلى كونه شاهد عيان ، وبسبب إقامته الطويلة في العاصمة بيت المقدس ، فضلا عن قربه من بلدوين الأول ، وتعليمه وحماسته وحرصه على الدقة .

ومؤرخنا يُعرف نفسه بأنه «فوشيه» مرات ثلاثا ، وبأنه «فوشيه من شارتر» ثلاث مرات أخرى[٣] . وقد أشار إليه مؤرخ معاصر مجهول يعرف عموما باسم بارتولف النانجي Bartolf of Nangis باسم الأخ فوشيه Frater Fulcherius ، وربما كان

---

(١) تم نشر مؤرخة ألبرت في RCH, Occ, IV, 265. 713. وسوف تتم الإشارة إليها بالكتاب والفصل . وثمة مؤرخان آخران معاصران لكنهما ليسا من اللاتين ، ابن القلانسي ، صاحب ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ومتى الرهاوي ، وهو أرمني

Extraits de la Chronique de Mattheu d'Eddessa in RCH. Arm., l, 1 - 150.

(٢) النص في RHC, Occ. ed. and transl Edoward Delaurier., 1(Paris 1844). وثمة ترجمة إنكليزية لإميلي بابكوك Emily A.Babcock ، وحققها كراي August C, Krey بعنوان A History of Deeds Done Beyond the Sea. (Columbia University Press 1943).

(٣) سيرد هذا في مواضع متفرقة من الكراسة الأولى والكراسة الثانية .

على معرفة شخصية بفوشيه، ويحتمل أن يكون هو مؤلف كتاب «أعمال الفرنجة في حملة القدس Gesta Francorum Jherusalem expugnatium»، وهو كتاب يلخص ما كتبه فوشيه في كتابه حتى شتاء سنة ١١٠٥ ـ ١١٠٦م(١). كذلك ورد ذكر فوشيه عند ثلاثة من معاصريه المعروفين، وهم جيوبرت النوجنتي (ت ١١٢٤) ووليم مالمسبوري (مات بعد ١١٤٢م) وأوردريكوس فيتاليس (مات حوالي ١١٤٢م)(٢). وربما يكون هو فوشيه الذي ورد ذكره في ثلاث وثائق فلسطينية معاصرة، وفي إحداها تحمل تاريخ سنة ١١١٢م وصف بأنه مقدم دير جبل الزيتون.

وقد اتضح أن فوشيه وفد من منطقة شارتر في إقليم Eure - et - loire من خلال ثلاث، أو ربما أربع، طرق. أولا أنه يعرف عامة باسم فوشيه الشارتري، وثانيا: أنه بدأ الحملة الصليبية تابعا لروبرت النورماندي وستيفن أمير بلوا وشارتر، وقد أبدى اهتماما خاصا به حتى موت ستيفن سنة ١١٠٢م. وثالثا: أن فوشيه وقع في الأسر في كمين عند نهر الكلب شمالي بيروت سنة ١١٠٠، وعندها أوضح أنه يود لو عاد إلى شارتر أو أورليان، وهو دليل ساطع على أنه وفد من هذا الإقليم. وأخيرا فإنه يقتبس كثيرا من الكتّاب الكلاسيكيين. وهذه نقطة مهمة لأن الأسقف فولبرت (ت١٠٢٨م) والقس برنار (مات حوالي ١١٣٠م)، وحنا السازلبوري الأسقف المحلي (مات ١١٨٠م)، كلهم حافظوا على دراسة التراث الكلاسيكي في شارتر. وعلى أي حال، فإننا ينبغي أن نضيف أن اهتمام فوشيه بهذه الأمور كان يتعدى قدراته ومهاراته. ويكشف فوشيه أيضا عن أصله الفرنسي بوسائل أخرى،

---

(١) Gesta Francorum Jherusalem expugnatium, RHC, Occ., III, 487 - 543 والتعقيبات والتعليقات على المؤلفات. انظر: HF, I, 45 - 46, 71 - 73.

(٢) Guibert of Nagent, Historia quae dicitur Gesta Dei Per Francos, RHC, Occ. IV, 250, 252, 256 William of Malmesbury, De Gestis Rerum Anglorum Libri Quinque (ed. william Stubbs in Rerum Britannicarum Medu Aevi Scriptores, or Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle. Ages (2 vols. London 1887 - 89 Ordricus Vitalis, Historiae Ecclasiasticae libri XIII in Patrolagia Cursus Completus. Series Latina, CIXXXVIII? Paris 1890.

ويشير ألبرت الآيكسي إلى من يدعى فوشيه أو فوشيه الشارتري، وربما كان فارسا.

إذ إنه يسمّى نفسه «فرنجي غربي»، كما قال إنه لا يفهم اللسان البريتوني أو الألماني. وفي نقطة ما يستخدم كلمة فرنسية قديمة هي كلمة Standarz التي تعني الراية.

ويقول كاتبنا إنه ترك الجيش الصليبي الرئيسي على مسيرة يوم جنوبي مرعش (١٧ أكتوبر ١٩٠٧) ليعمل قسيسا خاصا لبلدوين الأول في تل باشر والرها[١]. هذه العبارة تشي بأنه ربما كان قسيسا مقربا إلى بلدوين. وفي ثنايا مؤرخة فوشيه نجد اهتمامه بمظاهر التدين، ولكنه لا يشارك أبدا في القتال، على الرغم من أنه غالبا ما كان بصحبة بلدوين في حملاته العسكرية حتى سنة ١١١١م على الأقل. وهو غالبا ما يقتبس من الكتاب المقدس، ويحاول إرشاد الآخرين إلى الطريق القويم، كما يتيه غراما بالصليب المقدس، ويظهر التدين البسيط والحماسة التي يمكن أن نتوقعها من رجل الكنيسة. ويسميه جيوبرت النوجنتي «القسيس»، كما نجد اللقب نفسه مستخدما في إحدى نسخ مخطوطة فوشيه الكثيرة. وهناك قدر ضئيل من الشك حول كونه قسيسا.

وفي سنة ١١٢٣ كتب فوشيه يقول إنه كان في الخامسة والستين من عمره، وكذلك في سنة ١١٢٥ يقول إنه في السادسة والستين. ويوضح هذا، على الرغم من عدم معرفتنا باليوم والشهر الذي ولد فيه، أن مولده كان سنة ١٠٥٨ أو ١٠٥٩، وأنه كان رجلا في سن النضج طوال السنوات التي دون أحداثها. ومن سوء الحظ أننا لا نعرف شيئا عن حياته الباكرة في فرنسا.

فوشيه شاهد عيان

وإذ شارك فوشيه في الحملة الصليبية الأولى، ثم عاش بعد ذلك في الشرق، وكان شاهد عيان لكثير مما رواه، فقد انعكس ذلك بوضوح على مؤرخته. وثمة

---

(١) لا يقول فوشيه كم من الزمن استمر قسا خاصا لبلدوين الأول. وآخر مرة يقول فيها إنه كان مع بلدوين كانت في حملة سنة ١١١١م، إذ يقول «نحن» كنا في داخل وخارج معبد الرب على مدى خمسة عشر عاما تقريبا من الاستيلاء عليه سنة ١٠٩٩، ولم يوافق على زواج بلدوين من أديلاد الصقلية سنة ١١١٣م. وكل هذا يبدو أنه يوضح أن فوشيه تباعد عن بلدوين بعد سنة ١١١٢ أو ١١١٣، وليست هناك أي دلائل على أنه كان قسا خاصا لبلدوين الثاني.

سؤال محير وملح يدور حول ما إذا كان فوشيه ممن شهدوا مجمع كليرمون حيث بدأت الحملة الصليبية في نوفمبر سنة ١٠٩٥م؛ لا سيما وأنه أورد وصفا تفصيليا لوقائع المجمع. ويعتقد هنري والون أن معرفة فوشيه بالمجمع تشير إلى أنه كان ضمن الحاضرين، ولكن هاجنماير غير متأكد من حضوره[١]. ولا يقول فوشيه بشكل محدد إنه حضر المؤتمر، ولكن المحتمل أنه لو كان حاضرا في ذلك الجمع الحاشد لأوضح ذلك. ومن المؤكد أنه أحد المصادر الرئيسية لذلك الحدث، ولا بد أنه كان يعرف بعض من حضروا مجمع كليرمون على الأقل.

وبدأ فوشيه الرحلة الصليبية في أكتوبر سنة ١٠٩٦م، ضمن جيش يقوده الدوق روبرت أمير نورماندي، والكونت روبرت أمير الفلاندرز، والكونت ستيفن أمير بلوا وشارتر. وعبر معهم الأراضي الإيطالية، وكتب بطريقة توحي أنه كان حاضرا معهم في لقاء البابا إربان في لوكا في مطلع السنة التالية. وفي روما لاحظ باستياء الفوضى السائدة في المقر البابوي بكنيسة القديس بطرس والتي سببها أنصار البابا المعارض جيوبرت الرافني Guibert of Ravenna. ووصل الجيش إلى باري Bari في أواخر سنة ١٠٩٦م عند اقتراب الشتاء، ولكن روبرت أمير الفلاندرز فقط هو الذي عبر إلى ألبانيا مباشرة[٢]. أما بقية القوة، وفيها فوشيه، فقد أمضت فصل الشتاء في جنوبي إيطاليا وأبحرت من برنديزي في الخامس من شهر إبريل سنة ١٠٩٧. وهناك كتب فوشيه عن الرعب الذي تملكه عندما غرقت السفينة وأخذت معها إلى القاع أربعمائة من ركابها. ثم عبر إلى درازو، وألبانيا، وسافر مع روبرت وستيفن عبر الطريق الروماني القديم Via Egnatia عبر ألبانيا، وتراقيا إلى القسطنطينية. ويقول فوشيه إن السلطات البيزنطية لم تكن تسمح إلا بدخول خمسة أو ستة من الفرنج كل ساعة إلى المدينة للصلاة في الكنائس، ومن الواضح أنه كان واحدا من هؤلاء. وقد أعجبته القسطنطينية إلى حد بعيد، ووصفها بأنها مدينة نبيلة وجميلة تمتلئ بالأديرة والقصور، وترفل في الثراء، كما تزدهر بالتجارة. ويمكن

---

(١) Henry Wallon (ed.), Histoira Iherosolymitana,in RHC,Occ., lll; HF, 3 note 5; D.C Munro, "Urdon and Crusaders" Pennsylvania1902 حيث وضع فوشيه ضمن الحاضرين في كليرمون. كذلك أوضحت مارتا ماكجنتي أن فوشيه كان ضمن الحضور (Fulcher of Chartres, 3).

(٢) في تقدير هاجنماير أن فوشيه وصل باري في نوفمبر سنة ١٠٩٦ (HF, 167, note 16).

للمرء أن يرى أن هذه العاصمة العالمية الكبيرة تركت تأثيرها العميق في فوشيه، وهو رجل ساذج نسبيا لم يسبق له أن رأى مدينة بهذا الثراء والسعة.

وإذ كان فوشيه ما يزال ضمن جيش روبرت وستيفن، فإنه واصل السير إلى نيقوميديا حيث شاهد، وهو حزين، عظام أتباع بطرس الناسك الذين ذبحهم الأتراك في الخريف المنصرم. وبعد ذلك شهد عمليات الحصار حول نيقوميديا واستسلامها إلى الضباط الذين أوفدهم الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس حليف الصليبيين في ١٩ من يونيو عام ١٠٩٧. وكان فوشيه، مثل معظم الفرنج، يظن أن البيزنطيين قد حرموهم من غنائم النصر. وقد واصل الجيش مسيره نحو ضوروليوم (أسكي شهر). وكان فوشيه ما يزال مع روبرت وستيفن، ووصف استبسال الفرنج في القتال ثم انتصارهم على الأتراك في أول يوليو. ثم يتحدث بعد ذلك عن المصاعب التي واجهها هو وآخرون في عبور هضبة الأناضول الحارة الجافة في ذلك الصيف عبر أنطاكية (بالفاشي) في بيسيديا، ثم قونية، وهرقلية (إيرجلي)، ومرعش.

وبعد مسيرة يوم جنوبي مرعش في ١٧ من أكتوبر عام ١٠٩٧م، ترك فوشيه القوة الصليبية الرئيسة لكي يذهب مع بلدوين الأول في منطقة تل باشر والرها. وهو لا يقول شيئا عن أي علاقات سابقة كانت تربطه ببلدوين، ولا عن سبب انضمامه له. والمفروض أنه ذهب لخدمة سيد قادر في مركز المسئولية، أو ربما يكون قد ذهب استجابة لتحدي المغامرة، أو للسببين معا. ويصف فوشيه الرحلة إلى تل باشر وصفا موجزا، كما يذكر لنا أن بلدوين أمّنها بالحرب والسلام، ثم يصف الرحلة إلى مدينة الرها التي أخذها بلدوين نتيجة علاقته الآثمة بحادث اغتيال حاكمها الذي كان قد دعاه لحمايته.

وكانت بؤرة اهتمام فوشيه، على أي حال، هي الحملة الصليبية الرئيسية. وهو لا يتحدث عن الرها إلا قليلا. بل إنه يذكر تفاصيل تقدم القوة الصليبية الرئيسية منذ وصولها أمام مدينة أنطاكية في ٢٠ ـ ٢١ من أكتوبر عام ١٠٩٧ حتى الاستيلاء على القدس في ١٥ من يوليو عام ١٠٩٩م. ولأن فوشيه كان مع بلدوين ولم يشهد هذه

الأحداث، فقد استخدم مصادر أخرى لكي يسد الثغرات في معلوماته، واعتمد على المؤرخ المجهول وريمون الأجويلري بوجه خاص.

وعلى أي حال، عاد فوشيه مرة أخرى شاهد عيان في أخريات سنة ١٠٩٩م، عندما وصف رحلة الحج التي قام بها بوهيموند، الذي كان قد أخذ حكم أنطاكية، وبلدوين حاكم الرها، عبر بلاد الشام للوفاء بالقسم الصليبي تجاه الضريح المقدس. وقد رافقهما فوشيه ووصف الطريق من اللاذقية، عبر طرابلس وقيصرية، ثم إلى بيت المقدس وبيت لحم، ثم رحلة العودة عبر وادي الأردن، وبحيرة طبرية، وبانياس، وبعلبك، وطرطوس، ثم اللاذقية.

ويبدأ فوشيه الكراسة الثانية برواية عن رحلته الثانية مع سيده بلدوين من الرها إلى بيت المقدس عندما يذهب بلدوين جنوبا لكي يخلف أخاه جودفري. وفي هذه الرحلة التي تستمر من ٢ من أكتوبر حتى حوالي ٩ من نوفمبر عام ١١٠٠، يخبرنا فوشيه عن الكمين الذي نصب لهم قرب بيروت (حوالي ٢٤ ـ ٢٥ نوفمبر) وهو الكمين الذي جعله يتمنى العودة إلى شارتر أو أورليان. وكان الطريق نحو الجنوب يمر عبر أنطاكية واللاذقية وضواحي المدن العربية في جبلة، ومرقلية، وطرطوس، وعرقة، وطرابلس، وبيروت، وصور، وحيفا، وعبر قيصرية وأرسوف ويافا إلى بيت المقدس. وهناك يستوطن فوشيه في بيت المقدس، ويراقب الأحداث ويشارك في كثير منها، ويسأل شهود العيان، ويسجل الوقائع بعد حدوثها مباشرة.

والحدث الأول الذي يسجله فوشيه بعد قدومه إلى بيت المقدس كان رحلة استطلاع صحب فيها بلدوين إلى الضفة الغربية ثم البحر الميت، ثم جنوبا إلى البتراء، ليعود إلى البحر الميت ثم الضفة الغربية، ومنها عبر بيت لحم إلى بيت المقدس، في الفترة من منتصف نوفمير حتى ٢١ من ديسمبر. وكان فوشيه يتميز بحب الاستطلاع والرغبة في المعرفة، ووصفه للمنطقة بأزهارها وتضاريسها ونباتاتها وأهلها، وصف ممتع للغاية. وبعد العودة من هذه الرحلة تم تتويج بلدوين ملكا في بيت لحم في الخامس والعشرين من ديسمبر. ولأن فوشيه كان القس الخاص لبلدوين، فمن المحتمل أنه كان بين الحاضرين في حفل التتويج. وعلى

الرغم من أنه لا يذكر حضوره، فإن وصفه للحال اليائسة في بيت المقدس في شتاء عام ١١٠١م يوضح أنه ربما كان موجودا هناك.

وربما يكون فوشيه قد ذهب في مطلع سنة ١١٠١م مع بلدوين للترحيب بالأسطول الجنوي الذي وصل إلى اللاذقية قبل عيد الفصح سنة ١١٠١. وعلى أي حال، فإنه أمضى عيد الفصح في بيت المقدس، ووصف الانزعاج والقلق الناجم عن عدم ظهور النار المقدسة في سبت النور، وهو موضوع تناوله في عبارة واحدة، ومن المحتمل أنه كان متشككا في الموضوع. وليس بوسعنا أن نتأكد من أنه شهد حصار بلدوين والجنوية لأرسوف والاستيلاء عليها في ٢٩ من إبريل، بيد أن معرفته بالمعاهدة التي عقدت بين الحلفاء وتفاصيل الحصار تشي بأنه كان من بين شهودها. وهو يقول إنه شهد الاستيلاء على قيسارية في ١٧ من مايو. وفي سياق تعصبه الديني يمدنا بتفاصيل كثيرة مفزعة عن النهب والحرق الذي مارسه الصليبيون في جثث القتلى المسلمين. وربما كان برفقة بلدوين خلال الأحداث التي تلت ذلك، أي تأسيس أسقفية كبرى في قيسارية، والصمود أربعة وعشرين يوما في الرملة، ثم سبعين يوما في يافا ضد المصريين المنطلقين من عسقلان. وفي معركة الرملة في ٧ من سبتمبر عام ١١٠١م يقول فوشيه إنه كان بالقرب من بلدوين عندما غرس الأخير حربته في جسد أحد الأعداء ثم سحبها لكي يحملها مستعدا للقاء العدو التالي. ويمجد فوشيه النصر لكنه يخفي خوفه في طيات وصفه الفصيح لمخاطر المعركة وأهوالها. وحينئذ يقول إنه في اليوم التالي حضر صلاة القداس في خيمة بلدوين، وإن الفرنج عادوا عبر يافا إلى بيت المقدس حيث استقروا آمنين على مدى ثمانية شهور.

ولا نعرف بالضبط أين كان فوشيه طوال سنتي ١١٠٢، ١١٠٣م، ولكن معلوماته الكثيرة عن القدس توحي أنه كان داخل هذه المدينة، أو بالقرب منها. وفي عيد الفصح سنة ١١٠٢م ربما يكون قد شاهد وصول الناجين من حملة سنة ١١٠١م إلى المدينة المقدسة وبينهم الكونت ستيفن أمير بلوا. ولا يمكن أن يكون فوشيه قد رافق بلدوين في المعركة التي هزم فيها في الرملة في ١٧ من مايو عام ١١٠٢م على الرغم من استخدامه لضمير المتكلم الجمع (نحن)، وإلا كان ضمن

الناجين الستة من هذه المعركة. وفضلا عن ذلك فإن فوشيه لا يصف لنا انتصار بلدوين التالي قرب يافا في ٢٧ من مايو بطريقة توحي أنه كان موجودا.

ويذكر فوشيه قصة حصار بلدوين الخائب لعكا بين ٦ من إبريل و١٦ من مايو عام ١١٠٣م؛ بيد أنه لا يوضح ما إذا كان حاضرا في الحصار. ويقول إن أحد الحشاشين (الإسماعيلية) قد جرح بلدوين في تلك السنة. ولأن فوشيه يعرف موقع الجرح الذي كان في الظهر قريبا من القلب، وكيفية نزع السهم بالضبط، فلا بد أنه كان مقربا من بلدوين بالقدر الذي يجب أن يحظى به قسيسه الخاص. وربما يكون قد احتفل بعيد الفصح سنة ١١٠٤ في مدينة بيت المقدس، لأنه يذكر هذه الواقعة. وسواء كان مع بلدوين في الحصار الذي انتهى بسقوط عكا فيما بعد، أي في ٢٦ من مايو أم لا، فهذا أمر غير مؤكد. بيد أننا نعرف بعض المعلومات القيمة. وعلى أي حال، فقد غاب فوشيه عن معركة جرت بالقرب من يافا حيث ألحق بلدوين الهزيمة بقوة مشتركة من رماة السهام الأتراك والمصريين قادمة من دمشق في ٢٧ من أغسطس عام ١١٠٥م. ويكتب أيضا أن أولئك الحاضرين في المدينة عشية احتفال عيد الميلاد قد عانوا من زلزال داهم المدينة. وهو يقول أيضا إنهم شاهدوا نجما مذنبا واثنين من الشهب في فبراير عام ١١٠٦م، ونجما مذنبا آخر وبعض الشهب في مارس.

ويبدو أن فوشيه قد توقف عن الكتابة سنة ١١٠٦م، فهو يختفي عن المشهد حتى يكتب عن نجم مذنب شوهد في الفترة من مايو حتى يوليو عام ١١١٠م. وعندما يستأنف كتابة مؤرخته يتناول الأحداث التي وقعت سنة ١١٠٦ وسنة ١١٠٧ في سرعة واختصار؛ وثمة موضوع يتعلق بموت «هيو» أمير طبرية سنة ١١٠٦م، وموضوع آخر يشير إلى مناوشات عسكرية جرت بالقرب من يافا سنة ١١٠٧م. ومنذ سنة ١١٠٧ ـ ١١٠٨م يعاود فوشيه تقصي الأحداث التي جرت إبان الحرب التي شنها بوهيموند ضد أليكسيوس وخرج منها خاسرا. وهناك رواية عن الحصار الذي انتهى بالاستيلاء على طرابلس في مطلع صيف سنة ١١٠٩ أنهى بها فوشيه مراجعته لفترة السنوات الأربع التي يبدو واضحا أنه لم يكتب في أثنائها الحوادث فور حدوثها.

وفي وصفه لحوادث ثلاث وقعت في العام التالي، أي سنة ١١١٠م ـ وهي أخذ بيروت، وحملة بلدوين على الرها في الصيف، ثم أخذ صيدا في شهر ديسمبر ـ لا يوضح فوشيه أنه كان شاهد عيان لأي من هذه الحوادث. وقد نفترض أنه رأى الملك سيجورد ملك النرويج King Sigurd of Norway في بيت المقدس قبل حصار صيدا، لأنه يذكر شباب هذا الملك ووسامته، على الرغم من أنه لم يذكر اسمه. ويقول فوشيه إنه سافر مع بلدوين في حملته الأخيرة في إقليم الرها سنة ١١١١م، وهي آخر إشارة واضحة بأنه رافق الملك في ميدان المعركة. وليس مؤكدا ما إذا كان ضمن الحاضرين في الحصار الفاشل الذي دام حول عكا أربعة شهور في شتاء سنة ١١١١ ـ ١١١٢م، على الرغم من أن هاجنماير يظن أنه كان هناك، اعتمادا على المعلومات الوثيقة التي ذكرها فوشيه.

في سنة ١١١٢م كان الرجال في القدس متخففين من أعباء القتال والحرب على حد رواية فوشيه، وربما كان يقصد تلك الفترة التي أعقبت نهاية حصار صور في إبريل عام ١١١٢ وامتدت حتى الغزو الذي قام به شرف الدين مودود حاكم الموصل وطغتكين أمير دمشق في ١٣ من يونيو عام ١١١٣م. ومن المحتمل تماما أن فوشيه كان موجودا في المدينة طوال الشطر الأكبر من تلك الفترة. ويبدو أنه كان في بيت المقدس عندما قام مودود وطغتكين بهجومهما الخطير على فلسطين في صيف سنة ١١١٣ م، لأنه يقول إنه كان من الصعب وصول الرسائل إلى الملك الذي كان بالقرب من طبرية خلال تلك الفترة. وقد عايش زلزالين في ١٨ من يوليو وفي ٩ من أغسطس عام ١١١٣م وزلزالا آخر في ١٠ من أغسطس عام ١١١٤م، كما شهد وباء من الجراد في إبريل ومايو من السنة نفسها. وربما يكون قد رافق بلدوين في مسيره لمساعدة روجر حاكم أنطاكية في سبتمبر عام ١١١٥م، ولكن هذا لا يبدو محتملا لأن فوشيه يصف دفاعات بيت المقدس ضد هجوم الحامية المصرية في عسقلان في تفاصيل كثيرة وبدرجة تؤكد حضوره.

وليست هناك إشارة على أن فوشيه ذهب مع الملك بلدوين إلى الشوبك عندما بنى قلعة مونتريال سنة ١١١٢. ونحن نعرف أن فوشيه بقي في القدس سنة ١١١٦م عندما قام بلدوين بزيارة خليج العقبة في البحر الأحمر لأنه يقول إنه استفسر من رجال بلدوين كثيرا عن هذه المنطقة لدى عودتهم. وهو يذكر رحيل أديلاد أميرة

صقلية وزوجة بلدوين المخلوعة من عكا سنة ١١١٧م، ويقدم لنا بعض التفصيلات الوصفية عن إنشاد الكورس، وعدد السفن (سبع) التي استخدمتها أديلاد، بحيث يجعل المرء يتساءل عما إذا كان فوشيه المتعاطف مع أديلاد قد حضر هذا المشهد.

وفي مايو سنة ١١١٧م شهد فوشيه غزو أسراب الجراد، كما رأى خسوف القمر في ١٦ من يونيو و١١ من ديسمبر، وشهد الزلزال الذي وقع يوم ٢٦ من يونيو، فضلا عن الأضواء الشمالية الحمراء والخضراء aurora borealis التي شاهدها تبرق في السماء في فجر يوم ١٦ من ديسمبر. ومن الواضح أنه لم يرافق بلدوين في رحلته التي لقى فيها حتفه في الفرما على أطراف دلتا مصر في ربيع سنة ١١١٨م، ولكن بوسعنا أن نفترض أنه كان حاضرا في جنازة الملك ببيت المقدس بعد يوم أحد السعف في ٧ من إبريل من تلك السنة.

وتهتم الكراسة الثالثة في مؤرخة فوشيه بعهد الملك بلدوين الثاني. وليس ثمة دليل على أنه كان قسيسا خاصا لهذا الملك مثلما كان الحال مع بلدوين الأول، كما أنه لم يسافر معه في حملاته العسكرية إلا قليلا. وربما يكون السبب في ذلك أن فوشيه كان آنذاك في العقد السادس من عمره بحيث لم يكن يخاطر بالابتعاد عن موطنه. وعلى الرغم من أنه يستخدم ضمير المتكلم الجمع في حديثه عن بعض حملات بلدوين الثاني، فإنه يقرر أحيانا أنه كان في القدس في تلك الأثناء، مما يوضح أن استخدامه لضمير المتكلم الجمع كان ضربا من البلاغة. وإذا كانت معرفته بالأحداث التي جرت في أماكن بعيدة قد جاءت تفصيلية إلى حد ما، فربما يكون قد استقاها من شهود العيان؛ والواقع أنه يقول في بعض الأحيان إن هذا قد حدث بالفعل. وهكذا يبدو معقولا أن نفترض أنه، فيما عدا بعض الأمثلة النادرة، كان فوشيه مقيما في القدس أو بجوارها طوال عهد بلدوين الثاني، وهناك كتب كراسته الثالثة. فهذا المكان له عدة مميزات؛ لأن القدس هي العاصمة، ومركز القادمين والراحلين، والمكان الذي اتخذت فيه القرارات المهمة، كما أنها نقطة يمكن الحصول منها على المعلومات الدقيقة. كذلك توافرت في القدس ميزة المكتبات التي يبدو أن فوشيه قد استخدمها.

لقد تم اختيار بلدوين في عيد الفصح يوم الأحد ١٤ من إبريل سنة ١١١٨م، وتم

تتويجه في بيت لحم في عيد الميلاد سنة ١١١٩م، وربما يكون فوشيه قد حضر كلا من الاحتفالين. كما أنه عرف تفاصيل الفوضى العسكرية التي جرت في فلسطين صيف سنة ١١١٨م، وعرف تفاصيل انتصار بلدوين الحاسم في تل دانيت في بلاد الشام في ١٤ من أغسطس عام ١١١٩م، كما وصلته أنباء اقتراح بلدوين بالوصاية على أنطاكية بعد هزيمة روجر وموته في ٢٨ من يونيو من تلك السنة؛ بيد أنه لم يكشف لنا عن المكان الذي كان يقيم فيه.

ويقول فوشيه إنه قضى الشهور الستة الأولى من سنة ١١٢٠م في بيت المقدس، وأنه كان هناك عندما جاءته الأنباء بأن إيلغازي بن أرتق صاحب حلب كان يشن حملة في أراضي أنطاكية. وهو يسجل مسيرة بلدوين صوب الشمال ولكنه لا يكتب بالشكل الذي يوضح أنه كان في صحبته. كذلك يصف حملة الملك في جرش ضد طغتكين حاكم دمشق سنة ١١٢١م، ومحاولته الاستيلاء على مدينة زردانة Zardania في صيف سنة ١١٢٢م، ولكنه لا يوضح أنه كان موجودا.

وفي ربيع سنة ١١٢٣م يقول فوشيه إنه وآخرين في القدس علموا بقرب وصول الأسطول البندقي. وفي نفس الفترة تقريبا سمعوا بوقوع الملك بلدوين في أسر خليفة إيلغازي وأن أخاه نور الدين بيليك حاكم حلب، وأنه مسجون في قلعة خربُت البعيدة شرقي الأناضول. كما علموا كذلك أن الحامية المصرية في عسقلان تقدمت لمهاجمة يافا عن طريق البر والبحر. ويخبرنا فوشيه كيف تم إرسال جيش تصدى للمصريين وهزمهم قرب الرملة في ٢٩ من مايو عام ١١٢٣م؛ بيد أنه يقول إنه ظل في القدس مع اللاتين واليونان والسوريان ـ أي القساوسة ـ لكي يصلُّوا حفاة الأقدام ويكونوا في استقبال الصليب عند عودته إلى الضريح المقدس.

وفي منتصف سبتمبر عام ١١٢٣م شهد فوشيه وسكان القدس وصول الكونت جوسلين أمير الرها، الذي كان قد هرب لتوه من سجن الأتراك في خربُت، وأخبرهم أن بلدوين قد بقي للدفاع عن القلعة التي استولى عليها المسيحيون من الداخل بغتة قبل هروب جوسلين مباشرة، وقد دهمتها قوات تركية تحت قيادة نور الدين بيليك أمير حلب. ثم يحكي فوشيه عن الحملة الخائبة التي توجهت لإطلاق سراح بلدوين ووصلت إلى تل باشر؛ ولكن الواضح أن فوشيه بقي في القدس لأنه يقول إنه علم من آخرين أن بيليك استولى على خربُت.

ومن المفترض أن فوشيه كان ما يزال في بيت المقدس في عيد الميلاد سنة ١١٢٣م حينما جاء دوج البندقية (دومينيكو ميشيل) للوفاء بقسمه الصليبي، ولكي يبحث إمكانية التحالف مع البطريرك جورموند (الذي تولى الوصاية في القدس عندما كان بلدوين ما يزال قاصرا)، ولكي يسأل عن الدعم المطلوب لترميم النقوش الدينية في كنيسة القدس. ويذكر فوشيه هذا السبب الأخير من أسباب زيارة جورموند دون تعليق، وربما يكون صمته تعبيرا عن عدم موافقته. وهو يتحدث عن حصار صور سنة ١١٢٤م باختصار مثير للدهشة؛ بيد أنه على الرغم من استخدامه للضمير «نحن»، فقد كان في بيت المقدس، لأنه يحكي كيف وصل ثلاثة من الرسل الذين أرسلهم البطريرك بنبإ أخذ صور في ٧ من يوليو، ثم يقدم لنا وصفا حيا لما جرى من احتفالات في القدس بهذه المناسبة. كما يروي قصة غارة شنها المصريون من عسقلان ضد دفاعات القدس الواهنة، مما يوضح أن فوشيه كان في المدينة ولم يكن مع الجيش الصليبي تجاه صور.

ولا يقدم فوشيه ما يوضح أنه كان مع بلدوين حين دفعت فديته وأطلق سراحه في أغسطس سنة ١١٢٤م، أو في حملته ضد حلب أواخر سنة ١١٢٤م وشتاء عام ١١٢٥م، بيد أنه يذكر أنه كان بالقدس عندما عاد بلدوين في ٣ من إبريل عام ١١٢٥م. ويكتب عن انتصار بلدوين على آقسنقر البرسقي حاكم الموصل وطغتكين حاكم دمشق في عزاز يوم ١١ من يونيو قائلا إنه علم بهذه الأخبار من شهود العيان.

ويكتب مؤلفنا بالتفصيل عن غارة بلدوين التظاهرية في الشمال ضد ضواحي دمشق في يناير عام ١١٢٦م، وعن أخذ رافانيا Raphania في شهر مارس، ولكنه لا يذكر أنه كان حاضرا في أي من الواقعتين. والحقيقة أن روايته توحي أنه كان بالقدس عند عودة بلدوين من حملته الأولى. كما يقول إنه كان في المدينة المقدسة في عيد الفصح ١١ من إبريل عام ١١٢٦م عندما وصلت الأنباء بموت الإمبراطور هنري الخامس في ألمانيا في ٢٣ من مايو من السنة السابقة. ومن المحتمل أن فوشيه كان في القدس خلال الشطر الأكبر من سنة ١١٢٦م، لأنه يحكي أنه في مرات كثيرة كان الحجاج والمسافرون يأتون إلى المدينة بإشاعات تقول إن بوهيموند الثاني وريث عرش أنطاكية سوف يأتي لكي يأخذ أملاكه. وأخيرا يقول إن بلدوين،

الوصي على أنطاكية آنذاك، أخبر من في بيت المقدس عن استقباله لبوهيموند في أنطاكية. وقد وصل بوهيموند إلى أنطاكية في أواخر أكتوبر، ومن ثم فلا بد أن يكون فوشيه قد سمع الأنباء في أثناء الشهر التالي.

كان آخر موضوع تناوله فوشيه هو وباء الفئران الذي حدث سنة ١١٢٧م، وقد ظلت جثثها العفنة موجودة حتى الصيف. وهنا تتوقف المؤرخة فجأة، كما لو كان مؤلفها قد راح ضحية مرض مفاجئ في أثناء كتابتها، وربما يكون السبب موت المؤلف المسن. ولو كان فوشيه قد بقي حيا أو سليما، لكان من المؤكد أن يحكى لنا قصة حملة بلدوين الثاني في وادي موسى في شهر سبتمبر سنة ١١٢٧م، أو قصة وصول الكونت فولك أمير أنجو في ربيع سنة ١١٢٨م لكي يتزوج ابنة بلدوين ويصير ولي العهد في المملكة.

زمن التأليف

يجب استقاء المعلومات عن الوقت الذي ألف فيه فوشيه مؤرخته من المؤرخة ذاتها. ففي البداية تقريبا، وبعد مناقشة مجمع كليرمون، يقول إنه سوف يكتب تاريخ المسيرة إلى القدس ونجاحها المجيد. وفي الافتتاحية التي كتبها فيما بعد، ربما سنة ١١١٨م أو سنة ١١١٠م، يعلن نفس الإعلان: إنه سوف يكتب تاريخ أولئك الذين قاموا برحلة الحج إلى بيت المقدس. هذه العبارات توضح أن فوشيه بدأ مؤرخته بعد أن اكتملت الحملة الصليبية الأولى في القدس سنة ١٠٩٩م، وليس قبل ذلك.

ولكن، متى بدأ فوشيه الكتابة بالضبط؟ لقد رأينا أنه ترك الجيش الصليبي الرئيسي على مسيرة يوم من مرعش جنوبا سنة ١٠٩٧م؛ ومن ثم فإنه لم يشهد المحاولات والانتصارات التي انتهت بالاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م. ومع ذلك، فإنه كتب عن هذه الحوادث بتفصيل كبير اعتمادا على كتاب المؤرخ المجهول وكتاب ريمون الأجويلري. ويبدو أن هاتين المؤرختين قد تم استكمالهما حول بيت المقدس بعد معركة عسقلان في ١٢ من أغسطس سنة ١٠٩٩م؛ لأنها آخر الحوادث التي ذكرتها كل منهما؛ ولكننا لا نعرف في أي وقت بعدها بالتحديد.

وعلى أي حال، فإن مؤرخة إيكهارد الأوري، الذي جاء إلى فلسطين أصلا ضمن حملة سنة ١١٠١م، تذكر أنه رأى كتابا يبدو أنه «أعمال الفرنجة»، والمقارنة بين النصين تكشف عن صدق هذا الكلام[١]. وقد أوضح هاجنماير أن كتاب ريمون قد استكمل بعد «أعمال الفرنجة»، وأن كلا من الكتابين قد استكمل قبل أن يبدأ فوشيه الكتابة لأنه اعتمد عليهما[٢].

لقد ذهب فوشيه إلى بيت المقدس أول مرة في ٢١ من ديسمبر عام ١٠٩٩م، عندما ذهب بوهيموند أمير أنطاكية وبلدوين الأول حاكم الرها للوفاء بالتزاماتهما المسيحية، وبدأ رحلة العودة معهما في ٢ من يناير عام ١١٠٠م. ومن ثم لم يكن لدى فوشيه متسع من الوقت لكي يبدأ الكتابة في أثناء الرحلة. وعاد إلى القدس حوالي ٩ من نوفمبر عام ١١٠٠م[٣]. وفي هذه المرة جاء ليقيم إقامة دائمة. وفي وصفه للرحلة الثانية إلى مدينة بيت المقدس، أشار فوشيه إلى زمنها بقوله: «عندما دخلنا أرض فلسطين للمرة الأولى»، أي في سنة ١٠٩٩م، وهو بيان واضح على أنه لم يكتب عقب رحلته الأولى إلى القدس سنة ١٠٩٩م، ولكن بعد رحلته الثانية سنة ١١٠٠م.

إلى أي مدى تأخر فوشيه في الكتابة؟ في موضع متقدم من مؤرخته يتحدث فوشيه عن «السنة التي مر فيها الفرنج عبر روما للمرة الأولى في طريقهم إلى القدس». وربما تكون هذه إشارة إلى بداية الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦م. وربما يكون المرور الثاني للصليبيين عن طريق روما قد حدث في مطلع سنة ١١٠١م، عندما قام بعض الصليبيين بحملة سنة ١١٠١م هي التي أسماها فوشيه الحج الثاني Secunda peregrinatio في بداية الفصل السادس عشر الكراسة الثانية. ويوضح هذا أن فوشيه ربما يكون قد بدأ الكتابة بعد أن وصلته أنباء

---

(١) Ekkchard of Aura, Hicrosolymita, RHC, Occ., V, 21 and Passim; HF 75.

(٢) HG 50 - 58, 58 - 60 HF 66 - 67.

(٣) للتحقق من التاريخ انظر Heinrich Hagemeyer, "Chronologie de la Premiére Croisade (1094 - 1100) "Revue de l'Orient Latin, VI - VIII. وفيما بعد سوف نشير إلى هذا المرجع برمز ROL.

ومن أجل استكمال هذه المؤرخة انظر:

"Chronologie de l'histoire de Royaume de Jerusalem, Rgene de Baudwin l(1101 - 1118)".

حملة عام ١١٠١م. ومن المحتمل أنه سمع الإشاعات عن قرب وصولها في مطلع سنة ١١٠١م، ومن المؤكد أنه سمع عن فشلها بعد أن وصل الناجون منها إلى أنطاكية في أكتوبر أو نوفمبر عام ١١٠١م.

وثمة توضيح أكثر حسما عن الزمن الذي بدأ فيه فوشيه الكتابة يمكن استخلاصه من أسلوب معاملته لستيفن كونت بلوا. ففي البداية كان فوشيه يَعُدُّ هروب ستيفن من أنطاكية عارا، ويقول: «إن البداية الجيدة لا تؤتى ثمارها ما لم تكن نهاية المرء جيدة أيضا». وبعد ذلك يرى أن نهاية ستيفن كانت جيدة لأنه «استشهد» في الرملة في ١٩ من مايو سنة ١١٠٢م. وفي روايته عن هذا الصليبي يقول فوشيه مادحا إنه «رجل نبيل حاذق». ومن الواضح أن فوشيه كان قد كتب العبارة الأولى قبل أن يعرف أن ستيفن استرد سمعته بموته في الرملة في ربيع سنة ١١٠٢م.

ومن ثم، فإننا قد نستنتج أن فوشيه بدأ الكتابة بعد أن جاء ليقيم في القدس أواخر سنة ١١٠٠م، وقبل أن يسمع عن موت ستيفن أمير بلوا في مايو سنة ١١٠٢م. كذلك فإنه بدأ الكتابة، أو كان يكتب فعلا، عندما وصلته أنباء صليبية سنة ١١٠١م، في السنة نفسها على ما يبدو. ومن البديهي أن هذا الاستنتاج يعني أن كتاب «أعمال الفرنجة» للمؤلف المجهول وكتاب «تاريخ الفرنجة» الذي ألفه ريمون الأجويلري تم إنجازهما ما بين أواخر سنة ١١٠٠، وأواخر سنة ١١٠١م، وقبل أن يبدأ فوشيه في استخدامهما.

ويبدو أن فوشيه استمر في الكتابة حتى وصل بمؤرخته إلى قمة الحبكة في الفصل الثالث والثلاثين من الكراسة الثانية، عندما روى انتصار بلدوين الكبير على المصريين عند الرملة في ٢٧ من أغسطس عام ١١٠٥م. ثم أضاف فوشيه فصلا آخر، يذكر فيه اسمه ويشكو من نقص المهارة، كما يعطي الإذن لشخص ما لكي يقرأ مؤرخته لمراجعتها وتحسين أسلوبها إذا اقتضى الأمر، بيد أنه يرجو هذا الشخص ألا يضحي بالحقيقة في سبيل الفصاحة. وهذا كله يوحي بأن فوشيه كان يستعد لإنهاء كتابه. لكنه لا يلبث أن يجول بنا في فصل جديد ويحكي عن زلزال وقع في ٢٤ من ديسمبر سنة ١١٠٥م، وبعض الحوادث الفلكية سنة ١١٠٦م.

وهكذا كان هناك اثنان مجهولان في ذلك الوقت يكتبان مؤرخة فوشيه ويضيفان

بعض التفاصيل، ويغيران مواضع التركيز، ويحسنان صيغة فوشيه. أحدهما هو مؤلف كتاب أعمال الفرنجة في حملة بيت المقدس Gesta Francorum Jherusalem Expugantium وهو المعروف عامة باسم بارتولف النانجي Bartolf of Nangis، وقد كتب ما نصه «هنا ينتهي الكتاب Atque finis hic est» في نهاية الفصل الثالث والثلاثين من الكراسة الثانية في مؤرخة فوشيه، ثم أضاف تفاصيل الظواهر الفلكية التي وردت في الفصلين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين، وينهي كلامه بعبارة «انتهى التاريخ Explicit Hystoria». ويوضح هذا أنه ربما يكون فوشيه قد أنهى كتابه في البداية بنهاية الفصل الثالث والثلاثين، ثم أضاف تحذيراته في الفصل الرابع والثلاثين، ثم توقف مرة أخرى في الفصل الخامس والثلاثين، ربما في شهر مارس سنة ١١٠٦م، أو بعد ذلك بقليل، وربما يكون مؤلف هذا الكتاب قد ألف كتابه مع فوشيه في وقت واحد[(١)]

وقد كتب المؤلف المجهول الآخر نصا عُرف باسم .Codex L. وهو يوحي أنه نص لفوشيه لأنه يحمل في بدايته تلك الخصائص المميزة. وعلى أي حال، فإن مؤلف .Codex L يبدأ في الكتاب الثاني بتوضيح وجهة نظر مستقلة، وهو مثل بارتولف يضيف بعض التفاصيل ومن بينها جزء طويل عن النار المقدسة سنة ١١٠١م، وهو الجزء الذي كتبه فوشيه في عبارة واحدة. لكنه بدأ روايته بحديث عن وقائع سنة ١١٠٣م، أي في النقطة التي يطلب فيها فوشيه من شخص ما ألا يضحي بالحقيقة في سبيل الفصاحة، ونجد أن مؤلف .Codex L ناسخ أمين لنص فوشيه. وربما كان هذا نتيجة لرجاء فوشيه[(٢)] .

ومن المحتمل أن يكون فوشيه والاثنان اللذان نسخا كتابه قد حاولوا إنهاء رواياتهم عن أعمال الفرنج في الأرض المقدسة في وقت يتيح لهم ترويجها في

---

(١) Gesta Francorum Jherusalem expugnatium, RHC, Occ., III, 541; HF, 46, 71 -73.

(٢) ربما يكون نص .Codex L موجودا بين هوامش طبعة والون Wallon لكتاب فوشيه الشارتري، انظر: (RHC, Occ., III, 321 - 418). انظر مدخل إلى نص .Codex L منذ سنة ١١٠١م (RHC, Occ., III, 406) حيث يتشابه مع ما جاء في الكراسة الثانية لفوشيه، في الفصل الثاني والعشرين.

الغرب الأوربي لإذكاء الحماسة تجاه مهمة بوهيموند (١١٠٥ - ١١٠٧م) التي كان يأمل من ورائها أن يجرد حملة صليبية جديدة. وعلى أي حال، فإن بوهيموند استخدم جيشه المجند حديثا في حرب ضد الإمبراطور أليكسيوس في ألبانيا (١١٠٧ - ١١٠٨م). ويتضح من كتاب جيوبرت النوجنتي «أعمال الرب التي أظهرها عن طريق الفرنجة Gesta Dei per Francos» أن نص كتاب فوشيه، أو أحد نصوص المراجعة، قد وصل أوربا في ذلك الحين، إذ كانت ستة أجزاء من كتاب جيوبرت متداولة سنة ١١٠٨م، وفيها يشير إلى أنه رجع إلى فوشيه الشارتري عدة مرات. وفي موضع من كتابه يقول جيوبرت إن فوشيه والقس الخاص بالبطريرك صعدا جبل الزيتون في وقت ظهور النار المقدسة سنة ١١٠١م. وربما يكون جيوبرت قد استخدم نسخة من «Codex L.» وحرّفها[١] . ومهما يكن من أمر، فإنه يبدو واضحا أن فوشيه توقف عن الكتابة في بواكير سنة ١١٠٦م، كما أن الاثنين اللذين قلداه أنهيا كتابيهما في الوقت نفسه تقريبا.

وإذا كان فوشيه قد أنهى كتابه أصلا سنة ١١٠٦م، فإنه غير رأيه وعاود الكتابة فيما بعد. وربما يكون هذا قد حدث سنة ١١٠٩م، وهي السنة التي وصلت فيها أنباء هزيمة بوهيموند وموت ملك فرنسا فيليب الأول، وهما حادثتان وقعتا سنة ١١٠٨م، وربما يكون الخبر عنهما قد وصل إلى الأرض المقدسة.

وقد سجل فوشيه هاتين الحادثتين، كما سجل سقوط طرابلس بأيدي الفرنج سنة ١١٠٩م. والحوادث التي سجلها في صيف سنة ١١٠٦م وسنة ١١٠٧م مختصرة للغاية. ومن ثم فمن المحتمل ألا يكون قد كتب شيئا حتى بدأ يؤرخ للحوادث التي علم بوقوعها سنة ١١٠٩م.

وليس بالإمكان أن نعرف متى بدأ فوشيه يسجل الأحداث بعد وقوعها في مؤرخته من عام ١١٠٩ حتى عام ١١١٣م. وربما يكون قد كتبها ساعة وقوعها ثم توقف فترة. وعلى أي حال، فإنه في حديثه عن الأزمة العسكرية التي نجمت عن

---

(١) See Guibert in RHC, Occ., IV, 256; Codex L. RHC, Occ. III, 386; and discussion in HF 73 - 74; 395, note 5.

هجوم مودود أتابك الموصل سنة ١١١٣م يقول: «لم يستطع رجالنا في ذلك الحين أن يلحقوا بالعدو أي ضرر»، وهذه عبارة تشي بأنه قد كتبها بعد الهجوم. وفي الحملة السابقة عليها وصف فوشيه بلدوين بأنه «متهور، مندفع وفوضوي» في الأمور العسكرية. ويعجب المرء كيف يجرؤ فوشيه على مثل هذا القول لو أن بلدوين، الذي مات سنة ١١١٨م، كان ما يزال حيا؟ وإذا كان فوشيه قد فقد بعض حماسته لبلدوين سنة ١١١٣م، أو بعدها، فربما يكون من أسباب ذلك زواج الملك من أديلاد الصقلية في تلك السنة، إذ إن فوشيه قد عَدَّ هذا الزواج بمثابة جريمة تعدد الزوجات (وفقا للمفهوم المسيحي). وبعد أن طردها بلدوين قال فوشيه إنه هجرها. ومن الواضح أنه لم يكن يوافق على تصرف الملك في هذا الموضوع. كذلك فإنه يتناول في الفصل الرابع والخمسين حوادث سنة ١١١٥م، وربما يكون هذا الفصل وبقية الكراسة الثانية قد كتب سنة ١١١٨م أو بعدها. ويبدو هذا صحيحا لأنه يشير في الفصل الرابع والخمسين إلى باسكال الثاني بوصفه «البابا في ذلك الوقت»، أي سنة ١١١٥م. وبما أن باسكال مات سنة ١١١٨م، فالواضح أن فوشيه كتب عبارته في هذه السنة أو بعدها. ويستنتج المرء أن فوشيه، بعد أن استأنف الكتابة في مؤرخته سنة ١١٠٩ أو سنة ١١١٠م، توقف ثانية سنة ١١١٥م، وربما في سنة ١١١٣م.

وعندما مات بلدوين الأول سنة ١١١٨م، كتب فوشيه مرثية فصيحة عنه واعترف بأن بلدوين قد حقق أمورا عظيمة من أجل المملكة وأن موته نهاية عصر. ومن الواضح أن هذا كان كافيا لحفز فوشيه على معاودة الكتابة، لأنه بعدها يبدأ الكراسة الثالثة التي تُعَدُّ مؤرخة لعهد بلدوين الثاني. وتغطي الفصول الستة والثلاثين الأولى الفترة من سنة١١١٨م حتى سقوط صور سنة ١١٢٤م. وربما كانت هذه الفصول قد كتبت في زمن معاصر للأحداث بشكل أو بآخر. فعلى سبيل المثال، يقول فوشيه في أواخر سنة ١١٢٣م: «لقد أكملت الآن السادسة والخمسين من عمري»، وبعدها بقليل يوضح أنه يكتب في أخريات سنة ١١٢٣م.

وتنتهي مخطوطات ما كتبه فوشيه في مسودته الأولى بالفصل السادس والثلاثين. ويبدو أنه في ذلك الحين قد بدأ مراجعة ما كتبه، وربما يكون قد كتب

مسودة جديدة[1]، فأعاد كتابة النص بأكمله من سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١١٢٤م، مع تعديلات بسيطة في عدة مواضع، كما راجع وصفه لبيت المقدس مراجعة شاملة. وأضاف فصلا عن معركة حران سنة ١١٠٤م، وفصلا آخر عن إطلاق سراح بلدوين حاكم الرها (الذي يسميه ملك بيت المقدس مستقبلا) من الأسر التركي سنة ١١٠٩م، وفصلا ثالثا عن رحلة بوهيموند إلى بلاد الغال سنة ١١٠٦م. وأخيرا يضع فوشيه حوادث المدة من سنة ١١٢٤ إلى سنة ١١٢٧م بداية من الفصل الثامن والثلاثين من الكراسة الثالثة.

ومن الواضح أن فوشيه قد دوّن أحداث هذه السنوات الثلاث الأخيرة فور حدوثها. إذ إنه يشير إلى سنة ١١٢٥م بأفعال الزمن المضارع، ويقول فيما بعد إنه يكتب مع نهاية سنة ١١٢٥م وبداية سنة ١١٢٦م، ثم يذكر بعد ذلك أن سنة ١١٢٦م تتلاشى لكي تفسح مكانا لسنة ١١٢٧م. وفي كل من هذه المناسبات الثلاث يستخدم ظرف الزمان «الآن nunc». والفصل الأخير الذي كتبه يعطي دليلا دامغا على أن شيئا ما قطع سياقه سنة ١١٢٧م.

دوافع التأليف عند فوشيه

يشرح فوشيه في مواضع مختلفة من كتابه السبب الذي دفعه إلى التأليف. فبعد أن يصف مجمع كليرمون مباشرة يقرر: «ومن ثم فإنني يجب أن أحول قلمي إلى التاريخ لكي أحكي بوضوح لمن لا يعلمون قصة الرحلة التي قام بها أولئك الذين ذهبوا إلى بيت المقدس، وما الذي حدث لهم، وكيف أن العمل الذي اضطلعوا به انتهى تدريجيا إلى نهاية ناجحة بمساعدة الرب». هذه الفقرة، التي يحتمل أن تكون قد كتبت سنة ١١٠١م، تعكس رغبة فوشيه في أن تكون الحملة الصليبية، التي يَعُدُّها حربا مقدسة، معلومة في أرجاء الغرب الأوربي وبحيث تحظى بالدعم والتأييد. وفيما بعد، أي في شتاء سنة ١١٠٥ ـ ١١٠٦م يقول إنه يكتب حتى لا

---

(١) للاطلاع على قائمة ووصف مخطوطات المسودة الأولى والثانية، انظر: HF 92 - 104، وتقسيمات الفصول والعناوين في مؤرخة فوشيه وضعها النساخون، لأنها لا تتوافق دائما مع محتويات الفصول. ومن الواضح أن فوشيه لم يضع أي تقسيمات للفصول ولكنه كان قانعا بالتقسيمات والعناوين التي وضعها لكراساته الثلاث. انظر: HF 20 - 21.

تذوب منجزات الصليبيين في موجات النسيان. وكان هذا هو الموقف الذي اختتم فيه المؤلف المجهول الذي كتب «أعمال الفرنجة في حملة بيت المقدس» والمؤلف الآخر الذي كتب Codex L. ما كتباه. وكلاهما قلد ما كتبه فوشيه. وربما كان ذلك كله بهدف الحصول على التأييد والمساندة لدعوة بوهيموند أمير أنطاكية الذي كان يطلب قدوم المزيد من الأوربيين إلى الشرق.

وبعد ذلك، يقرر فوشيه في المدخل الذي كتبه سنة ١١١٨ أو سنة ١١١٩م على ما يبدو، أن غرضه من الكتابة أن يحكي أعمال أولئك الذين يحاربون في سبيل الرب لكي يلهم أولئك الذين يهتمون بالدنيا أن يتركوا الآباء والزوجات والثروة، ويعانقوا الرب، أي أن يذهبوا في الحملة الصليبية حتى لو كان معناها الموت المبارك في ثياب الشهداء. ويضيف أنه تحرك بسبب تحريض رفيق سابق له على أن يكتب أعمال الفرنجة التي يقارنها بحروب بني إسرائيل والمكابيين، وهي الحروب التي تُعَدّ معجزة رائعة من معجزات الرب»[١].

ولكن غرض فوشيه حتى ذلك الحين لم يكن مجرد استدعاء المزيد من الرجال للقتال من أجل الصليب في الأرض المقدسة، بل أيضا لكي يقنع بعضهم بالبقاء مستوطنين دائمين في فلسطين لتدعيم المملكة الصغيرة التي قامت حول بيت المقدس وزيادة قوتها. وفي فقرة مثيرة كتبت بعد سقوط صور سنة ١١٢٤م، وبنغمة تناقض ما كتبه في مقدمة كتابه إلى حد ما، يقول فوشيه كيف كان من السهل على أبناء الغرب الأوربي أن يعتادوا الحياة تحت سماء الشرق، وكيف نسوا أوطانهم القديمة، وتعلموا أساليب الحياة في الأرض المقدسة، وكيف يحوزون المنازل ويكونون العائلات والثروات أيضا.

إضافات فوشيه الأصلية في المعلومات

تقدم لنا مؤرخة فوشيه الكثير مما يتسم بالطرافة والقيمة والأهمية. ففي الكراسة الأولى تتألف الفصول العشرة الأولى من معلومات أصلية. إذ تحكى

(١) يفترض هاجنماير أن الملك بلدوين الأول ربما يكون واحدا من أولئك الذين استحثوا فوشيه على الكتابة (HF 116u note 8). بيد أن فوشيه لا يقول هذا، ومن المستحيل أن نحدد من يكون.

الفصول الثلاثة الأولى قصة الأحداث التي جرت في مجمع كليرمون. ومن المدهش أن نعرف أن معظم أعمال المجمع تناولتها مراسيم أصدرها البابا إربان الثاني زعيم حركة الإصلاح الكلونية في الكنيسة. وحتى الفصل الثالث لا يحكي لنا فوشيه قصة الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى وما قوبلت به من حماسة. ويعالج الفصل الرابع تنظيم الحملة الصليبية. أما الفصل الخامس فيصف نزاع إربان مع البابا المضاد جيوبرت الرافني، ويذكر المساعدة التي حصل عليها إربان من ماتيلدا أميرة تسكانيا. ويتحدث الفصل السادس عن الرخاء الاقتصادي في ذلك الحين، وعن مختلف الزعماء الصليبيين وفرقهم العسكرية، والمشاهد المؤثرة للزوجات وهن يقبلن الأزواج الذين يشعرن بأنهن لن يرونهم مرة أخرى. والفصول من ٧ ـ ٩ تصف الرحلة التي قام بها فوشيه من فرنسا حتى نيقية ضمن جيش روبرت أمير نورماندي وستيفن أمير بلوا. ويحكي الفصل العاشر قصة حصار نيقية والاستيلاء عليها في تفصيل كبير.

أما الفصول الثلاثة التالية، ١١ ـ ١٣، فهي تتناول معركة ضورليوم، وفرار الأتراك، ومصاعب مسيرة الصليبيين من ضورليوم حتى قونية. وتفاصيل الأحداث مستمدة من مشاهدات فوشيه وتجاربه من ناحية، ومما كتبه المؤرخ المجهول في «أعمال الفرنجة» من ناحية أخرى. ولا بد أن فوشيه قد وضع في ذهنه أن يستخدم هذا الكتاب مرة أخرى في الفصول من ١٥ ـ ٣١. ويصف الفصل الرابع عشر توجه بلدوين الأول صوب الرها في شتاء سنة ١٠٩٧ ـ ١٠٩٨م، وهي رواية قيمة لشاهد عيان لحادث لا تتوافر عنه معلومات كثيرة، وكم كنا نتمنى لو كانت أكثر اكتمالا.

وبدلا من أن يقدم لنا فوشيه تفصيلات عن رحلة بلدوين إلى الرها، يستمر في رواية موضوعه الرئيسي، أي تقدم الحملة الصليبية. ويحكى قصة الأحداث التي جرت من حصار أنطاكية أواخر سنة ١٠٩٧م حتى الاستيلاء على بيت المقدس ومعركة عسقلان صيف سنة ١٠٩٩م. ويحتوي هذا الجزء على سبعة عشر فصلا، ١٥ ـ ٣١، ويعتمد إلى حد كبير على مصادر من الدرجة الثانية. وعلى أي حال، فالمعلومات ليست كلها مأخوذة عن المؤرخ المجهول أو ريمون الأجويلري. فالفصل الرابع والعشرون نص لخطاب شهير من بوهيموند والأمراء الصليبيين إلى

البابا إربان الثاني، مؤرخ من أنطاكية في ١١ من سبتمبر عام ١٠٩٨م. والفصل السادس والعشرون وصف على لسان فوشيه لبيت المقدس؛ وفي الفصول ٢٧، ٢٨، ٣١ تفاصيل نهب بيت المقدس ومعركة عسقلان، وهي معلومات ربما جمعها فوشيه من شهود العيان بعد قدومه إلى بيت المقدس للمرة الأولى بعد سقوطها سنة ١٠٩٩ مباشرة.

وتعتمد الفصول الأخيرة من الكراسة الأولى، ٣٢-٣٦، اعتمادا تاما على معلومات فوشيه. إذ يحكي عن عودة معظم أمراء الصليبيين إلى أوربا، ثم عن رحلة الحج التي قام بها بوهيموند إلى بيت المقدس مع بلدوين في نهاية العام. ويحكي قصة المتاعب التي لاقوها في مسيرهم بسبب الشتاء القارص والأمطار الغزيرة، واشمئزازه من رائحة العفن في القدس، وكانت تنبعث من جثث المصريين الذين قتلوا وهم يدافعون عن المدينة في يوليو الماضي، ولم تكن جثثهم قد ووريت التراب بعد. ثم يذكر انتخاب دايمبرت لمنصب البطريرك ويصف في إيجاز رحلة العودة عبر بحيرة طبرية وبعلبك. ويذكر فوشيه أن بوهيموند وقع أسيرا في قبضة جيمشتكين بن الدانشمند أمير سيواس قرب ملطية في يوليو سنة ١١٠٠م. كما يحكي عن جهود بلدوين لإنقاذ بوهيموند، وهي الجهود التي لم تسفر عن شيء. ثم ينهي الكراسة الأولى بالحديث عن وصول رسول من بيت المقدس ليعلن موت جودفري حاكم بيت المقدس، وشقيق بلدوين في ١٨ من يوليو عام ١١٠٠م.

والكراسة الثانية في مؤرخة فوشيه عبارة عن قصة رجل والمملكة التي أسسها؛ أي قصة بلدوين والملكية العسكرية التي أقامها حول بيت المقدس بين سنة ١١٠٠م وسنة ١١١٨م. وهي قصة سيد جسور نشيط كان هو المهاجم عادة، دون أن يترك لأعدائه فرصة للراحة إلا قليلا. وأنهى حياته بغزو مصر، أقوى جيرانه وأكثرهم خطرا. ومع أن رواية فوشيه تتعلق أساسا بالتاريخ العسكري، فهو يصف أيضا العلاقات بين المملكة والبطريركية ومدينتي جنوا وبيزا البحريتين، وعلاقاته مع الدويلات الفرنجية الأخرى، كما يحكى عن جهود بوهيموند للحفاظ على مركز الفرنج، الذي هو في الحقيقة مركز بوهيموند حول أنطاكية التي كانت المحور الشمالي لنشاط الفرنج.

وتتناول الفصول الثلاثة الأولى من الكراسة الثانية اعتلاء بلدوين العرش في بيت المقدس. ونجد بلدوين يسلم ممتلكاته في الرها إلى ابن عمه بلدوين ويجمع نحو مائتي فارس وسبعمائة من المشاة، ليسير صوب القدس في الثاني من أكتوبر سنة ١١٠٠م. وهجره كثيرون من الرجال، ثم تقلصت قوة بلدوين أكثر بسبب كمين خطير نصبه له دقاق حاكم دمشق عند نهر الكلب في ممر ضيق بين البحر والمرتفعات شمالي بيروت. ووصل الحاكم الجديد إلى القدس في ٩ من نوفمبر على ما يبدو.

وتبدو طبيعة بلدوين النشيطة الحية في رواية فوشيه في الفصلين الرابع والخامس عندما يتحدث عن عمليات التمشيط العسكرية التي قام بها سيده في منطقة الخليل والبحر الميت ووادي موسى جنوبا (١٥ من نوفمبر - ١٥ من ديسمبر تقريبا). وقد رافق فوشيه بلدوين وأبدى اهتماما كبيرا بطبيعة البحر الميت، والسكان والثمار والأرض، وتاريخ المنطقة كما يرويه الكتاب المقدس.

ثم يحدثنا عن العلاقات بين بلدوين والبطريرك. ذلك أن البطريرك دايمبرت الذي كان قد رفض مقابلة بلدوين عندما قدم إلى الرها، كان هو الذي وضع التاج على رأسه في عيد الميلاد سنة ١١٠٠م، ولكن الاحتفال تم في بيت لحم وليس في القدس. وعلى أي حال، فإن فوشيه، القس الخاص لبلدوين ورفيقه، لم يشرح لنا كيف أن دايمبرت كان يَعُدُّ القدس مدينته بمقتضى انتخابه لمنصب البطريرك، وليست مدينة الملك، وبذلك كان التتويج في بيت لحم اعترافا ضمنيا بهذه الحقيقة[١].

ويقدم الفصل السادس تقريرا واضحا عن الضعف البادي في المملكة الصغيرة. إذ يقول فوشيه إنها كانت تتألف من أربع مدن: بيت المقدس، ويافا، والرملة، وحيفا. ولم يكن لدى بلدوين أكثر من ثلاثمائة فارس وعدد من المشاة لا يكفي للدفاع عنها جميعا. وكانت قوة الملك الضئيلة تفتقر إلى الخيول اللازمة للفرسان وتفتقر إلى القوة البشرية من كل نوع، لأن كثيرين من الجنود اختاروا الرجوع إلى أوربا بدلا من البقاء للدفاع عن الضريح المقدس. وكان الطريق الوحيد لقدوم

---

(١) عن الغيرة بين البطريرك والملك انظر:

H.S. Fink "The Foundation of the Latin States" in Keneth M. Setton (ed) A History of the Crusades, 1381 - 402, (Uuniversity of Pennsylvania Press 1955).

المساعدة هو طريق يافا، لأن أنطاكية كانت بعيدة المنال. وفي الفصل السابع نعلم أن طبرية أضيفت إلى قائمة المدن التي يجب الدفاع عنها لأن تنكرد، أحد أتباع بلدوين الإقطاعيين، كان يحكم حيفا وطبرية. ومهما يكن من أمر، ففي مارس سنة ١١٠١م أعاد تنكرد المدينتين إلى بلدوين ليتولى هو الوصاية على أنطاكية في غياب قريبه بوهيموند، الذي كان أسيرا لدى جمشتكين بن الدانشمند. ولا شك في أن رحيل تنكرد، بقدرته وقوته وموقفه المجافي للملك، كان من أسباب تقوية كل من القدس وأنطاكية على السواء.

وتشكل رواية فوشيه عن غزو مدن ساحل البحر المتوسط أهم أحداث الكراسة الثانية على الرغم من عدم ترابطها وبعثرتها في تسعة فصول. ولأن بلدوين كان يعاني من انقطاع الموارد البشرية والدعم الأوربي إلا عن طريق ميناء يافا، فإنه انتهج سياسة ثابتة وعنيدة بحيث تمكن في غضون عشر سنوات أن يضم لمملكته خمسة موانئ بحرية، فضلا عن ميناء طرابلس الذي صار إمارة إقطاعية تابعة له. فقد تم الاستيلاء على أرسوف وقيسارية سنة ١١١٠م. كما فرض بلدوين حصارا خائبا على عكا سنة ١١٠٣م، لكن المدينة سقطت في السنة التالية بعد الهجمات الناجحة، وأخذ طرابلس سنة ١١٠٩م، وبيروت وصيدا سنة ١١١٠م. وفرض حصارا فاشلا على صور لمدة ستة شهور (١١١١ ـ ١١١٢م). ولكن حتى بدون صور كان مركزه آمنا. فقد أعاد بلدوين بناء علاقات حيوية مع أوربا، كما وسَّع من قاعدة الدخل في مملكته عن طريق جمع الضرائب، وجعل مسلمي الداخل، وبخاصة أهل دمشق، يعتمدون عليه في المرور إلى المنافذ البحرية.

وتضمنت رواية فوشيه عن غزو المدن الساحلية أحداثا أخرى. فعلى سبيل المثال، هناك خمسة عشر فصلا تتناول هزيمة الفرنجة أمام ثلاث هجمات كبرى قام بها المصريون انطلاقا من عسقلان في سنوات ١١٠١، ١١٠٢، ١١٠٥ على التوالي، وثلاث هجمات أخرى صغيرة في سنوات ١١٠٧، ١١١٣، ١١١٥م. وهجوم سنة ١١٠٢م ذو أهمية كبرى لأن قوات الملك بلدوين اندحرت تماما قرب الرملة في ١٧ من مايو، كما هرب بلدوين نفسه إلى الرملة وأرسوف، ثم وصلته الإمدادات ليحرز انتصاره النهائي قرب يافا في ٢٧ من مايو. وقد وصف فوشيه كل هذه الأحداث بأسلوب حيوي ميلودرامي. وكان من بين ضحايا الكارثة التي جرت

قـرب الرملة بعض الناجين من حـملة سنة ١١٠١م التي حـاقت بهـا كـارثة في الأناضول. ويكرس فوشيه فصلا عن تلك الحملة الصليبية وقادتها من الفرنج، كما يخصص ثلاثة فصول أخرى للحديث عن هروب أولئك إلى بلاد الشام وفلسطين وموت عـدد منهم في الرملة، ومنهم ستيفن كونت بلوا الذي كـان فوشيه يوليه اهتماما خاصا على الدوام.

كذلك فإن التفاصيل التي يمدنا بها فوشيه عن بوهيموند أمير أنطاكية تقع في ستة فصول مفيدة وقيمة. فهو يقول إن بوهيموند الذي أسره ابن الدانشمند سنة ١١٠٠م أطلق سراحه سنة ١١٠٣، ثم هـزم أمام الأتراك عنـد حران في ٧من مايـو سنة ١١٠٤م، ورحـل إلى أبـوليـا أواخـر ذلك العـام لتـجنيـد عـدد من الرجـال سنة ١١٠٥م، كمـا رحل إلى فرنسا سنة ١١٠٦م. وينهي روايته عن بوهيـموند نهـاية منطقية عندما يحكي عن حملاته الخائبة ضد الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس سنة ١١٠٧ـ١١٠٨م، ثم معاهدته المهينة مع الإمبـراطور، وعودته إلى أبوليـا سنة ١١٠٨م. وفي خط مواز يـروي فوشيـه قصـة رحلة البـطريرك السابق دايمبرت إلى روما سنة ١١٠٤ـ١١٠٥م لاستعادة منصبه، ويخبرنا أن دايمبرت نجح في مسعاه، ولكنه مات في رحلة العودة.

في خمسة فصول يتناول فوشيه محاولات شرف الدين مودود، أتابك الموصل، وممثل الخليفـة السني في بغداد لتـوحيـد السلطة في الموصل وحلب ودمشق لغـزو الدويلات اللاتينية في الشرق. ولا يحكي فـوشيـه قصـة حصـار مودود للرها سنة ١١٠٩، ولكنه يذكر حصاره لها سنة ١١١٠م، وهو الحصـار الذي سار بلدوين بجيشه لإنقاذ الرها منه. وقد قام الملك بهذه الحملة فيما بين سقوط بيروت في مايو وبداية حصار صيدا في أكتوبر. ثم يحكي فوشيه عن حملة سنة ١١١١م التي يقول إنه صـحب بلدوين فـيهـا إلى الرقة وأفـاميـا وشيرز، ولكنه يغفـل ذكـر حملة سنة ١١١٢م التي كان اهتمامها موجها إلى الرها أساسا. وفي الفصل التاسع والأربعين يحكي عن جهود مودود مع طغتكين حاكم دمشق سنة ١١١٣م، وهي الجهود التي كـادت تسحق مملكة بلدوين. ورواية فـوشيـه في هذا الصـدد بالغـة القيـمـة غنيـة بالمعلومات. فهو يحكي لنا كيف اندفع بلدوين للاشتباك مع طليعة القوة التركية عند الصنبرة قرب بحيرة طبرية، وكيف اجتاح الأتراك بلدوين وجيشه. وقرر الملك

أن يتـراجع بما بقي من قـوات إلى تل يمنعـه مـن هجـوم الأعـداء، وهناك تحـصن بلدوين، على حين كانت مملكته من أقصاها لأقصاها تتعرض للسلب والنهب على أيدي الفرسان الأتراك وبمساعدة الفلاحين العرب داخل المناطق التي يحتلها الفرنج. ولكـن المدن المسـورة، باسـتـثناء نابلس، صـمـدت لهـذه الهـجـمـات، وجـاءت المساعدات من بونز أمير طرابلس وروجر أمير أنطاكية، كما أن وصول الحجاج الكاثوليك من أوربا أوجد الاحتياطي البشري، وسرعان ما تقهقر الأتراك، ثم تلا ذلك اغتيال مودود في دمشق. وقد أتاح هذا كله لفوشيه فرصة الاعتراف بقدرة الأتراك الهائلة.

ويتبع فوشيه هذه الأحداث برواية عن الغزو التركي سنة ١١١٥م بقيادة بُرْسُق بن بُرْسُق خليفـة مودود أتابك الموصل وقائد قـوات خليفـة بغداد في الجهـاد ضـد الفرنج. وكان برسق يقاتل ضـد تحالف جديد بين طغتكين حاكم دمشق (تحت وطأة الشك في مصـرع مـودود) واثـنين مـن أمراء الفرنج، همـا بلدوين حـاكم بيت المقدس وروجر أمير أنطاكية. وعلى حد رواية فوشيه، اضطر برسق إلى التراجع وعـاد بلدويـن إلى مملكتـه. وطارد روجـر جـيش الأتراك، ونجح في أن يكمن له كمينا وقتل برسق بالقرب من تل دانيت في ١٤ من سبتمبر في معركة حاسمة أوقفت خطر الجهاد إلى حين.

ويروي لنا فوشيه روايـة إضافية عن زواج بلدوين من أديلاد الصقلية، ثم ينهي الكراسـة الثـانية بنظرة عـامة على قوة المملكة المتنامية. لقد تم احـتـواء الخطر التركي من الشمال بالهزيمة التي ألحقهـا روجر ببرسق، وبعـد ذلك في سنة ١١١٥م شيد بلدوين قلعة مونتريال المهمة في الشوبك جنوبي البحر الميت. وفي سنة ١١١٦م سار من قاعدته حتى ميناء العقبة ليمد نفوذ مملكته إلى خليج العقبة. وإذ كان بلدوين جسورا مندفعا، فقد جرؤ على غزو دلتا مصر سنة ١١١٨م ووصل الفرما. وهناك ألمَّ به مرض عضال ومات بالعريش في الثاني من إبريل في أثناء رحلة العودة. ثم يختتم فوشيه حديثه باقتباس مرثية أوجزت منجزات بلدوين في دقة وبلاغة: دفاع عسكري ناجح عن شعبه، وفتح الموانئ البحرية المهمة، ومد سلطانه إلى البحر الأحمر.

وقد كتب فوشيه الكراسة الثالثة من مؤرخته بفلسطين، ولها قيمتها الفريدة، لأنها الرواية اللاتينية المعاصرة الوحيدة بين سنتي ١١٢٠م و١١٢٧م. ويتناول أربعة موضوعات أساسية هي: وصاية بلدوين الثانية على أنطاكية ودفاعه عن الرها وطرابلس مع أنطاكية، وحروبه مع طغتكين صاحب دمشق، وأخذ صور سنة ١١٢٤م، ثم الدفاع عن القدس ضد هجمات المصريين من عسقلان. والواقع أن الموضوعين الأولين (إذ ارتبطت الحرب ضد طغتكين دائما بالدفاع عن أنطاكية وطرابلس والرها) كانا من الطول والأهمية بحيث تبدو الكراسة الثالثة تاريخا للدويلات اللاتينية الأربع أكثر منها تاريخا لمملكة بيت المقدس وحدها، مثلما هو الحال في الكراسة الثانية. وكما قال فوشيه عن بلدوين: «أعطاه الرب طولا وعرضا من مصر حتى بلاد النهرين».

لقد بدأ تورط بلدوين في شئون أنطاكية والدفاع عن الشمال عندما هُزِمَ روجر الذي كان وصيا على أنطاكية منذ موت تنكرد سنة ١١١٢م، وقتل في سرمدا يوم ٢٨ من يونيو عام ١١١٩م. وفي سبيل حماية مصالح الفرنج، بادر الملك بالمسير شمالا حيث أحرز نصرا مدويا على إيلغازي أمير حلب وطغتكين عند تل دانيت. وهذا النصر أكد سيطرة بلدوين على المنطقة المحيطة بأنطاكية. ونتيجة لهذا صار وصيا على بوهيموند الثاني الذي كان مايزال صبيا يعيش في أبوليا. وبعد هذا، وجد بلدوين أن عليه أن يسير صوب الشمال كل سنة تقريبا للدفاع عن أراضي أنطاكية والرها وطرابلس في بعض الأحيان. وربما يكون قد أمضى نصف عهده في هذا الأمر. وتزايدت متاعبه بعد أسر جوسلين الأول وخلفه في كونتية الرها وسط شكوك كثيرة، ودام أسر جوسلين من سبتمبر عام ١١٢٢م إلى أغسطس عام ١١٢٣م، ثم أسره هو شخصيا وحبسه من إبريل عام ١١٢٣ حتى أغسطس عام ١١٢٤م. وعندما أطلق سراح بلدوين شن هجوما شتويا عنيفا ضد حلب وهزم عدويه آقسنقر البرسقي حاكم الموصل وحلب وطغتكين في عزاز يوم ١١ من يونيو سنة ١١٢٥م. وينهي بلدوين وصايته بتتويج بوهيموند الثاني أميرا على أنطاكية وزواجه من ابنته آليس أواخر سنة ١١٢٦م. وقد سجل مؤرخنا هذه الأحداث برضاء واضح.

ورواية فوشيه عن علاقات بلدوين مع طغتكين مبعثرة في ثنايا الكراسة الثالثة، ولكن خيط الرواية متصل غير منقطع. فهو يبدأ بالتحالف بين طغتكين والحامية المصرية في عسقلان سنة ١١١٨م، وهو ما نتج عنه الترقب الحذر من جانب المصريين والفرنج لأن كل جانب كان «يفضل الحياة على الموت». وفي العام التالي أحرز بلدوين نصرا على طغتكين، الذي تحالف آنذاك مع إيلغازي، في تل دانيث ببلاد الشام. ثم اشتبك في مناوشات معهما سنة ١١٢٠م، ومع طغتكين بمفرده عند جرش سنة ١١٢١م. وبعد ذلك بثلاث سنوات يقوم الوصي على بيت المقدس، في أثناء أسر بلدوين عند الأتراك، بحصار صور وقتال طغتكين، ثم يتفاوض مع القائد المسلم على تسليم المدينة. وبعد إطلاق سراح بلدوين يمسك بزمام المبادرة ويهزم طغتكين وآقسنقر البرسقي في عزاز في صيف سنة ١١٢٥م، ويشن الغارات على أملاك طغتكين في نهاية تلك السنة. وفي يناير سنة ١١٢٦م بدأ هجوما قويا على إمارة دمشق ليصل إلى ضواحي المدينة، ثم يضطر إلى العودة من حيث أتى. وتتسم روايات فوشيه عن معركة عزاز وحملة سنة ١١٢٦م بالكمال، ولها قيمة خاصة.

ووفر الاستيلاء على صور ميزة حاسمة للفرنج، نظرا لأهمية المدينة الفائقة من الناحية الإستراتيجية والاقتصادية لبيت المقدس ولمسلمي الداخل على السواء. وقد قاومت صور بنجاح الحصار الذي كان بلدوين الأول قد فرضه عليها سنة ١١١١ - ١١١٢م. ومنذ ذلك الحين، وجه فوشيه عناية كبيرة لرواية حادثة حصار المدينة الأخير وسقوطها، على الرغم من أنه يهتم بتاريخها الأسطوري وشهرتها أكثر مما يكتب عن حصارها الفعلي سنة ١١٢٤م. وبوصفه أحد رجال الكنيسة في القدس، فقد اهتم كثيرا بنقل الإشراف الكنسي على صور من بطريركية أنطاكية إلى بطريركية بيت المقدس. ويقتبس النص الكامل لمرسوم امتيازات أصدره البابا باسكال الثاني بتاريخ ١١١١م لتأييد مزاعم ودعاوى بطريركية بيت المقدس في هذا الصدد. وهناك جانب آخر في الحصار شد انتباه فوشيه وهو مشاركة الأسطول البندقي. ويكشف فوشيه عن أن الأسطول قد أمضى الشتاء في كورفو التي كانت من أملاك البيزنطيين، وأن البحارة ارتكبوا كثيرا من أعمال السلب والنهب والتدمير في عدد من الجزر البيزنطية في كل من رحلتي الذهاب والإياب. وقد

أحس فوشيه بالصدمة عندما عرف هذا، ومن ثم ألقى بعض الضوء على المنافسة بين البندقية وبيزنطة آنذاك.

أما علاقات بيت المقدس بالقاعدة المصرية المتقدمة في عسقلان، فيمكن عَدُّها استمرارا لقصة معركة عسقلان في أغسطس سنة ١٠٩٩م. فقد كان ثمة خطر سنوي يتهدد بيت المقدس من عسقلان منذ ذلك الحين، على الرغم من أن فوشيه لم يسجل سوى أكثر الهجمات المصرية أهمية. ويتحدث فوشيه في الكراسة الثالثة عن الأعمال العدوانية في سنوات ١١١٨، ١١٢٣، ١١٢٥، ١١٢٦م. وكانت حوادث سنة ١١١٨م مهمة لأنها كانت هجوما مشتركا قام به الأتراك من دمشق وهم من السُّنَّة مع التنسيق مع الحامية المصرية في عسقلان والتي كانت خاضعة لحكم الخليفة الفاطمي الشيعي في القاهرة. وبعد ذلك شن المصريون هجوما بريا وبحريا ضخما انطلاقا من عسقلان ومن مصر سنة ١١٢٣م. ثم هاجموا عن طريق البر سنتي ١١٢٤م، ١١٢٥م وعن طريق البحر سنة ١١٢٦م، كما يقول فوشيه ـ إذا استطعنا أن نصدقه ـ إن الهجوم الفرنجي المضاد سنة ١١٢٥م كاد أن يخترق بوابات عسقلان. ولو نجح الفرنج لاختلف تاريخ بيت المقدس بعد ذلك اختلافا بينا، لأن عسقلان لم تسقط سوى سنة ١١٥٣م. وغالبا ما تعرضت حقول وكروم مملكة بيت المقدس لغارات المصريين عندما كان بلدوين وجيشه في الشمال؛ وهو الأمر الذي منح فوشيه الفرصة لكي يكتب عنهم في حنق. وفي الفصل الثاني والأربعين يكتب صراحة أن الفلاح في سنة ١١٢٥م لم يكن لديه فرصة لالتقاط أنفاسه، وأنه كان يعيش في توتر بسبب دقات طبول الحرب، لدرجة أنه كان يعود إلى منزله محملا بالمؤن والأغذية، متسائلا عما إذا كان سيستطيع العودة إلى حقله مرة أخرى. كما يذكر أن فلاحين كثيرين لقوا مصرعهم أو وقعوا في أسر الجنود المصريين الذين كانوا ينصبون الكمائن في كل مكان.

ولعل أهم انطباع نخرج به من قراءة الكراسة الثالثة هو القوة الداخلية لمملكة بيت المقدس والدويلات الفرنجية الثلاث الأخرى في الشرق. ففي العقد الثالث من القرن الثاني عشر لم تكن هذه الدويلات تعاني الضعف، وإنما صارت قائمة على أساس متين. إذ كانت مملكة بيت المقدس في الجنوب لا تعاني من نقص النظام أو القيادة في وقت غياب الملك بلدوين الثاني لفترات طويلة للدفاع عن الدويلات

الثلاث في الشمال؛ بل إن هذا لم يحدث حتى وهو في أسر الأتراك. إذ كان البطريرك جورموند ومساعداه إيستاس جارنييه، ووليم البوري يتولون حكم البلاد. وعندما تأزمت الأمور عقدوا تحالفا مع دوج البندقية، ثم استولوا فيما بعد على صور وطرابلس على الرغم من أن فوشيه يكتب عنهم قليلا. هذه المدن تمتعت بميزة أن حاميها بلدوين الثاني كان يعرف المنطقة جيدا لأنه كان كونت الرها بين سنتي ١١٠٠ ـ ١١١٨م. ويقدم فوشيه لمحة مهمة عن الكيفية التي تمت بها السيطرة على أنطاكية وحمايتها عندما يخبرنا أنه عندما صار بلدوين وصيا عليها سنة ١١١٩م وجد الأتباع الذين يمكنهم الدفاع عن الأرض بعد أن تمكن من تزويج الأرامل صاحبات الإقطاعيات التي ظلت خالية بعد هزيمة روجر وموته في سرمدة. وهكذا صمدت أنطاكية عندما غاب الملك. ثم سلم الإمارة إلى الوريث بوهيموند الثاني سنة ١١٢٦م، ودعم العلاقات بينهما بأن زوج ابنته لبوهيموند. كذلك ظلت الرها آمنة عندما كان الكونت جوسلين في الأسر سنة ١١٢٢ ـ ١١٢٣م. وفي سنة ١١٢٥م جاء انتصار بلدوين وجوسلين على الأتراك فرصة للفرنج في الشمال لكي يستمتعوا بأمن أكثر استقرارا. وظلت طرابلس محمية بين بيت المقدس وأنطاكية خلال عشرينيات القرن الثامن عشر، على الرغم من أنها أجبرت على العودة لتتبع بلدوين سنة ١١٢٢م.

وتتضح قوة بيت المقدس وغيرها من الدويلات اللاتينية بشكل حاسم في الفصل السابع والثلاثين من الكراسة الثالثة. فهنا يحكي فوشيه كيف بدأ الفرنج يشعرون بأنهم في بلادهم في الأرض التي غزوها منذ جيل مضى. لقد بدءوا ينسون الأرض التي شهدت مولدهم، ويرون في أنفسهم قوما شرقيين لا غربيين، ويتحدثون لهجة فرنجية شرقية، ويؤسسون البيوت، وينجبون الأولاد والحفدة، ويتوارثون الممتلكات، ويكون بعضهم الثروات. لقد كان الصليبيون الأوائل قوما عسكريين وطنيين. أما الذي كان ينقصهم ويحتاجون إليه، على الرغم من أن فوشيه لم يكن على هذه الدرجة من الثقافة ليدركه، فهو نسق حياة Modus Vivendi وإحساس بالمجتمع تربطه المصلحة بجماهير العرب والأتراك في الشرق الأدنى، وهم الذين دخلوا أرضهم ليشاركوهم مصيرهم في ذلك الحين.

مواقف فوشيه واتجاهاته

كان فوشيه الشارتري رجلا تقيا مخلصا، وكان على اقتناع تام بعدالة قضيته. كما أن الحملة الصليبية بالنسبة له كانت حربا مقدسة تشبه حروب بني إسرائيل أو المكابيين القديمة. وكان يرى في الفرنج الذين غزوا الأرض المقدسة قوما ضعفاء يدافعون عن حقوقهم ويحيط بهم أعداء سفاحون عدوانيون. كذلك كان يرى الحملة الصليبية رحلة حج، ويَعُدُّ الصليبيين سواء كانوا مسلحين أم غير مسلحين، حجاجا. وكان يساوي موت الصليبيين بالاستشهاد، بحيث يكون الموت شيئا مرغوبا فيه. ولذا فإنه كان يحتقر أولئك الذين عادوا القهقرى من روما وباري سنة ١٠٩٦م هروبا من الحملة الصليبية، أو من برنديزي سنة ١٠٩٧م.

وكما هو متوقع، لم يكن فوشيه يحمل أي مشاعر ودية أو تعاطف تجاه الأتراك أو العرب. فمثلا عندما قبض على بعض النسوة من معسكر كربوغا أمام أنطاكية سنة ١٠٩٨م، يقول إن الفرنج «. . . لم يلحقوا بهن أذى، ولكنهم غرسوا الحراب في بطونهن. . .». وفي كلامه عن العرب الذين ذُبحُوا في بيت المقدس عام ١٠٩٩م، أو في قيسارية عام ١١٠١م، يلاحظ أن جثثهم كومت ثم أحرقت لكي تستخرج منها الأموال التي بلعوها. وفي بيت المقدس، أطيح برءوس عشرة آلاف شخص في ساحة المسجد، يقول فوشيه ببساطة إن الفرنج كانوا يغوصون في دماء المذبوحين حتى أعقابهم، وإن النساء والأطفال لم ينجوا من المذبحة. ولم يخطر بباله أن لهؤلاء الناس حقوقا في وطنهم. فقد كان يراهم قساة بلا رحمة، ووثنيين أعداء للمسيح. ونادرا ما كان فوشيه يمتدح أعداءه على الرغم من أنه يصف الأتراك بأنهم «جنس جسور ماهرون في استخدام القوس»، ثم يقول بعد ذلك عن مودود أمير الموصل «غنى، قوي، مشهور، ولماح» على الرغم من أنه نقمة من الرب. ولم يكن يبالي بالتفرقة بين السنة والشيعة من المسلمين، أو بين خليفة بغداد وخليفة القاهرة مثلما كان الكتاب المسلمون لا يبالون بالفروق الدينية بين المسيحين. وجهله بالإسلام كان فادحا لدرجة جعلته يتحدث عن صنم قائم باسم محمد.

وكان فوشيه شديد الإعجاب بالبابا إربان الثاني وحركة الإصلاح الكلونية في الكنيسة. ولذلك كان طبيعيا أن يعادي البابا المضاد جيوبرت الرافني والإمبراطور

هنري الرابع خصم إربان. وأعجب كثيرا بإديمار أسقف لوبوي الذي اختاره البابا مندوبا في الحملة الصليبية.

وينبغي أن نتوقع أن فوشيه كان مخلصا أيضا لخطط البابا إربان للحملة الصليبية الأولى. فقد كانت الأهداف الأولية تبدو نوعا من إعادة ضم الكنيسة الأرثوذكسية والإمبراطور البيزنطي بعد انشقاق عام ١٠٥٤م، واستعادة معظم الأناضول من الأتراك لحساب البيزنطيين، فضلا عن إعادة الضريح المقدس في القدس[١]. والحقيقة أن فوشيه كان معجبا بالإمبراطور أليكسيوس بسبب ثروته وسلطانه، وتفهَّم حاجته ليمين الولاء الذي طلبه من الأمراء الفرنج. ومن ناحية أخرى يبدو أنه كان يتقبل وجهة النظر الفرنجية العامة والقائلة بأن أليكسيوس دبر استسلام نيقية سنة ١٠٩٧م ثم خدع الفرنج في حقوقهم من الأسلاب.

وبعد أن وصل الصليبيون إلى بلاد الشام وفلسطين، تحول انتباه فوشيه إلى الدفاع عن هذه المناطق بعيدا عن مشكلات البيزنطيين الذين كانوا يريدون استعادة هذه الأقاليم حتى أنطاكية. ولم يتعاطف معهم عندما احتل بوهيموند أنطاكية واستولى بلدوين على الرها، على الرغم من أن خطط البابا لأمراء الصليبيين لم تكن تتضمن إقامة إمارات لهم على أرض كانت ملكا لبيزنطة من قبل. وعندما كان بوهيموند يقاتل أليكسيوس سنة ١١٠٧ ـ ١١٠٨م، قبل فوشيه دعاية بوهيموند برمتها واتهم أليكسيوس «باستخدام الخداع والعنف المكشوف» لسد طريق الحجاج برا وبحرا. ونسي فوشيه تماما أن تنظيم البطريركيات والهيئة الكنسية اللاتينية ببلاد الشام قام حيث وجدت، أو كانت توجد مؤسسة أرثوذكسية ولم تكن تتوافق مع آمال إربان في التصالح مع الكنيسة البيزنطية.

في هذه السنوات صار فوشيه مهتما على نحو خاص بالترويج لفكرة الحملة

---

(١) Carl Erdmann, Die Entstehung des Kreuzzugsgedenkens (Stuttgart, 1965), 206 - 306; August C. Krey, "Urban's Crusade - Success or failure?" American Historical Review, VIII (1948), 235 - 50; Frederick Duncalf, "The Councils of Piacenza and Clermont" in Setton (ed.) I. 220 - 52; Alfons Becker, Papst Urban II (1088 - 1099): Herkunft und Kirchl Laufbahn: Der Papst und die lateinische Christenheit (Schriften der Monuments Germania Historica" 191 Stuttgart 1964).

الصليبية، ولم يكن مهتما بمناقشة أسئلة تتعلق بالماضي، مثل خطط إربان للتقارب مع البيزنطيين، أو المسائل السياسية التالية والمثيرة لاهتمامنا. وهكذا، يذكر يمين الولاء الذي طلبه أليكسيوس من أمراء الصليبيين، بيد أنه لا يشرح ماذا كان يمين الولاء يقتضيه، ولم يشرح أيضا لماذا أقسم بوهيموند، وجودفري، وروبرت أمير الفلاندرز هذا اليمين، ولماذ رفض ريمون السانجيلي. وهو يتحدث عن المنافسة بين بلدوين الأول وتنكرد على طرسوس، ولكنه يمر عليها مر الكرام. كما أنه لا يذكر شيئا عن طموح ريمون في تولي منصب القائد العسكري للحملة الصليبية، ولا يشرح السبب الذي جعل ريمون يعارض خطط بوهيموند في امتلاك أنطاكية، ولا يقول سوى أن بوهيموند طرد في نهاية الأمر حرس ريمون من المدينة. ولم يذكر اعتراض ريمون على تأسيس دولة علمانية سيادية في القدس، كما أنه لم يشرح السبب الذي جعل الاختيار يقع على جودفري «أميرا للمملكة» وليس ملكا، ولماذا حصل بلدوين الأول وبلدوين الثاني على اللقب الملكي.

ولأن فوشيه كان قسا، فإنه لا يقول شيئا عن الجدل الذي ثار حول ما إذا كان يجب إخضاع القدس للبطريرك أم لحاكم علماني. ولا يذكر أن أرنولف دي شوك قد اختير بطريركا في يوليو عام ١٠٩٩م، ثم خلع في ديسمبر، وإنما يقول فقط إن قرار تعيين البطريرك تأجل لاستشارة روما. ثم يكتب بعد ذلك أنه تم اختيار دايمبرت البيزي في ديسمبر عام ١٠٩٩م، بيد أنه لا يذكر شيئا عن موافقة البابا. كما أنه لا يتحدث عن طموحات دايمبرت البعيدة المدى لأن يكون حاكما لدولة كنسية في بيت المقدس. وعلى أي حال، يكشف فوشيه عن أن دايمبرت كان يغار من بلدوين، كما يلاحظ أن البطريرك وافق على تتويج بلدوين سنة ١١٠٠م بعد تدخل «الرجال العقلاء». وبعد ذلك يقرر فوشيه باختصار أن دايمبرت ذهب إلى إيطاليا سنة ١١٠٤م لكي يستعيد منصب البطريركية الذي خلعه بلدوين، ونجح في مسعاه ـ لكنه مات في أثناء رحلة العودة. ولهذا السبب سافر خليفته إيفرمار إلى روما سنة ١١٠٧م لكي يدعم مركزه، ولا يحكي لنا فوشيه شيئا عن نتيجة هذا المسعى. ثم نسمع بعد ذلك أن البطريرك أرنولف قد عُزل سنة ١١١٥م، ثم ذهب إلى روما لاستعادة منصبه، ونجح في ذلك. بيد أن فوشيه لم يجب على أي من الأسئلة التي تتعلق بكيفية أو وقت انتخاب أرنولف مرة ثانية (سنة ١١١٢م)، أو سبب عزله سنة

١١١٥م وإعادته . وعلى الرغم من أن اختيار فوشيه للتفاصيل مخيب للآمال ، فإننا يجب أن نذكر أنفسنا بأنه كان يكتب مروجا لما كان يعتقد أنه حرب مقدسة . ولم يكن مهتما بمناقشة المسائل التي قد تشوش على هذه القضية .

وعادة ما يلتزم فوشيه الصمت تجاه علاقات الصداقة أو التعاون مع الدويلات الإسلامية المجاورة . وثمة إشارة واحدة لمعركة جرت بالقرب من تل باشر سنة ١١٠٨م بين تنكرد من جهة ، وبلدوين الثاني وجوسلين من جهة أخرى ، وفي هذه المعركة استعان الطرفان بحلفاء من الأتراك . ولكن فوشيه لا يذكر سوى حلفاء بلدوين وجوسلين الأتراك لأنهما خسرا المعركة ، وربما يكون قصده أن يجعلنا نظن أنهما هزما بسبب هؤلاء الحلفاء . ثم كتب بعد ذلك عن تحالف مشابه سنة ١١١٥ بين بلدوين وروجر حاكم أنطاكية وطغتكين حاكم دمشق وبرسق بن برسق ؛ ولكن لم يخطر ببال فوشيه أن هذا التحالف يوضح الحكمة في التعاون الدائم بين الفرنج وأتراك الشام ضد الضغط المتزايد من العراق . كذلك فإن فوشيه وبلدوين الثاني لم يدركا حماقة الغارة التي قام بها بلدوين على دمشق في يناير سنة ١١٢٦ .

وموقف فوشيه تجاه سيده بلدوين الأول مثير للغاية . إذ إنه لا يذكر شيئا عن بلدوين قبل أن يصير القس الخاص به سنة ١٠٩٧م . ثم يكشف بإيجاز عن فشل بلدوين في حماية حياة ثوروس أمير الرها . ولكنه يسبغ مديحا كثيرا على قدرات بلدوين العسكرية التي تجلت حول تل باشر والرها ، ويمتدح طاقته وجسارته في سجل من الانتصارات التي أحرزها عندما صار ملكا . وثمة فقرة مدهشة في صراحتها ضمن كلام فوشيه عن بلدوين ، فعندما سمع بموت جودفري سنة ١١٠٠م ، حزن بلدوين إلى حد ما لموت أخيه ، بيد أن فرحه كان كبيرا لأنه الوريث الذي سيخلف أخاه على العرش . كذلك عندما هُزم بلدوين عند الرملة سنة ١١٠٠م ، وعند الصنبرة عند مصب بحيرة طبرية سنة ١١١٣م ، وجه فوشيه اللوم صراحة إليه بسبب تهوره وسلوكه الخاطئ ، ولم يكن راضيا عن زواج بلدوين من أديلاد الصقلية . ويبدو أنه في ذلك الوقت كان مؤلفنا قد تباعد عن الملك ، ولكنه لم ينكر شهرة بلدوين المحارب القدير عندما مات عام ١١١٨م .

وإذا لم يكن فوشيه قد أدرك أهمية الصداقة مع الدمشقيين ، فإنه كان يعرف على الأقل قيمة وجود إمارات فرنجية قوية في أنطاكية والرها لحماية فرنج بيت المقدس .

وقد أوضح أن حكم بلدوين الأول للرها وحكم بوهيموند لأنطاكية وفر الحماية لبقية الفرنج في أثناء سيرهم جنوبا لغزو بيت المقدس، ومن ثم كان اهتمامه الدائم بأنطاكية والرها، وكان يكتب باستمرار عن بوهيموند وتنكرد بلهجة متعاطفة، لأنهما توليا الدفاع عن المنطقة باقتدار كبير.

وكان أكثر اهتماما ببوهيموند بعد رحيله إلى القدس أواخر سنة ١٠٩٩م وحتى الحرب التي خاضها ضد البيزنطيين سنة ١١٠٧ ـ ١١٠٨م، وقد رأينا أن تعاطفه كان في جانب بوهيموند تماما في هذه الحرب.

ومؤرخنا معجب على نحو خاص بتنكرد على الرغم من حقيقة أن تنكرد وقف من بلدوين الأول، حامي فوشيه، موقف الخصومة واللدد سنة ١٠٩٧ وسنة١٠٩٩م عند طرسوس وحيفا. بل إن فوشيه ينحاز إلى جانب تنكرد في حربه ضد بلدوين في الرها سنة ١١٠٨م، على الرغم من أن بلدوين كان يحاول استعادة أملاك الرها التي كان تنكرد يستولي عليها دون وجه حق.

وتمشيا مع اهتمامه بوجود قاعدة فرنجية قوية في الشمال، كان فوشيه فخورا للغاية ببلدوين الثاني عندما صار وصيا على أنطاكية سنة ١١١٩م، كما كان راضيا تماما عن الطريقة التي أعطى بها بلدوين إمارة أنطاكية لبوهيموند الثاني سنة ١١٢٦م عندما زوجه ابنته، وبذلك وحد مصير الفرنج في الشمال والجنوب على نحو ما كان فوشيه يأمل.

وفي معظم الأحوال، كان فوشيه شخصا عاديا تماما. تعكس مواقفه تناقضات تثير الاهتمام. فقد كان يقول إنه كتب بأسلوب لاتيني بسيط، وهو ما كان يفعله عادة. ولكنه غالبا ما كان يحاول زخرفة كتاباته باقتباسات من الكتاب المقدس والتراث الكلاسيكي، وبعض الخطب التي تخيلها على ألسنة المشاركين في الأحداث، كما حاول أن يلعب بالصنعة في الأسلوب. وهو ما لم يكن ناجحا فيه. وكان له اهتمام بالظواهر الطبيعية مثل خصائص منطقة البحر الميت. ومع ذلك فإنه استخدم كتاب سولينيوس المسمى Collectanea Rerum Memorabilium وهو مراجعة لكتاب التاريخ الطبيعي Historia Naturalis الذي كتبه بليني الكبير، واعتمد عليه في كثير من الوصف الأسطوري لحياة الحيوان في الشرق الأدنى

على حين كنا نتطلع إلى ملاحظاته الشخصية المبنية على أساس حياته في المنطقة. وكان يؤمن بالمعجزات، ويعزي كثيرا من الانتصارات الصعبة إلى وجود صليب الرب، ومع ذلك فإن قلقه كان واضحا عندما حملوا هذا الصليب في إحدى المعارك ولم يشعر بالراحة إلا بعد عودة الصليب سالما إلى القدس. وكان يشعر بأن الحملة الصليبية حرب مقدسة حتى وهو يوضح أن هذه الحرب ساعدت بعض الفرنج على تكوين الثروات. كما كان يعتقد أنه مسيحي طيب تقي؛ ولكننا إذا طبقنا عليه مقاييس اليوم فسوف يكشف ذلك عن الكثير من المواقف غير المسيحية تجاه البشر من المسلمين.

ونحن ندين بالجميل لإحدى نقاط التناقض في رواية فوشيه. فعلى الرغم من أنه كتب دائما يمجد الحملة الصليبية بحسبانها قضية مقدسة، فقد كتب ذات مرة يقول «أيتها الحرب، يكرهك الأبرياء، وتبثين الرعب في أوصال من يشاهدونك! الحرب ليست جميلة على الرغم من أنهم يصفونها هكذا... لقد رأيت المعركة... واضطرب عقلي، وخفت أن تصيبني ضربة ما... ضربة واحدة ويسقط عدوه. أحدهما لم يعرف الرحمة، والآخر لم يطلبها منه. يفقد أحدهم يدا، ويخسر آخر عينه. والتفاهم الإنساني يضمر ويتلاشى عندما يتجلى هذا البؤس». هنا يميط فوشيه اللثام في أسلوب بليغ عن الحرب وعن إنسانيته الداخلية.

مصادر معلومات فوشيه

كانت المصادر التي استقى منها فوشيه معلوماته هي؛ أولا، المعرفة التي اكتسبها بصفته شاهد عيان مشاركا في الأحداث، وثانيا المصادر المكتوبة. ويقول في مقدمته إن قصده أن يكتب ما رآه وتذكره بقدر المستطاع، ولأن فوشيه عبر في مرات مختلفة عن اهتمامه بالحقيقة، كما عبر أحيانا عن شكوكه في معلومات بعينها، ولأن أقواله تتفق مع أقوال الآخرين، فإن ثقتنا في كتابه كبيرة. ومن دواعي سرورنا أن نكتشف أننا يمكن أن نعتمد على مؤرخته[1].

(١) يستخدم فوشيه عدة طرق في ترتيب الأحداث، مثل أيام الأعياد في الكنيسة، وعلاقات فلكية أو نظام التقويم الروماني. وهو عادة ما يبدأ السنة المسيحية في يوم ٢٥ من ديسمبر، أي في يوم ميلاد المسيح، ولا يبدؤها في يوم الأول من يناير.

وكثير مما سجله فوشيه، خاصة في الكراستين الأولى والثانية، نتاج لملاحظاته الشخصية. وفي الحالات التي لم يكن فيها شاهد عيان كان يستقى معلوماته غالبا من شهود العيان والوثائق. ولابد أنه جمع بعض تفاصيل الحملة الصليبية الأولى خلال سنتي ١٠٩٨ ـ ١٠٩٩م من المشاركين الذين قابلهم فيما بعد بمدينة بيت المقدس؛ إذ من المؤكد أنه لم يعتمد تماما على كتاب «أعمال الفرنجة» للمؤرخ المجهول وكتاب «تاريخ الفرنجة» لريمون الأجويلري في تغطية هذا الفترة. أما معلوماته عن حملة سنة ١١٠١م، والكارثة التي حلت بالصليبيين في الرملة، فالواضح أنه استقاها من الناجين. ولا بد أيضا أنه عرف أخبار هزيمة بلدوين الأول الفادحة عند الصنبرة سنة ١١١٣م، وعن حملة الملك ضد مصر سنة ١١١٨م ممن شاركوا فيهما.

ولأنه من غير المحتمل أن فوشيه كان القس الخاص لبلدوين الثاني، وربما يكون قد استقر قرب القدس إبان حكم هذا الملك، فلا بد أنه استقى من الآخرين التفاصيل التي نجدها في الكراسة الثالثة عن نشاط بلدوين بعيدا عن القدس، ومنها دفاعه عن أنطاكية بوصفه وصيا عليها من سنة ١١١٩م حتى سنة ١١٢٦م. ثم أسره في خربت سنة ١١٢٣ ـ ١١٢٤م، ونقل الحكم إلى بوهيموند الثاني سنة ١١٢٣م. وقد علم بموت نور الدين بيليك الذي أسر بلدوين في العام التالي من حاجب بلدوين. كما عرف خبر استسلام صور سنة ١١٢٤م من الرسل الذين أرسلهم البطريرك. وفي خضم هذه التفاصيل الفرنجية يثيرنا أن نكتشف أن فوشيه قد أفاد من التراث العربي في مناسبتين على الأقل.

ومن المصادر المكتوبة، كان كتاب «أعمال الفرنجة» وكتاب «تاريخ الفرنجة» أهم مصادر فوشيه في معلوماته التي أوردها في الكراسة الأولى. وهناك نص مكتوب آخر استخدمه في الكراسة الأولى هو نص الخطاب الشهير المنسوب إلى بوهيموند وأمراء الصليبيين في أنطاكية إلى البابا إربان الثاني في ١١ من ستبمبر عام ١٠٩٨م. وقد أورده فوشيه في النص الأصلي لمؤرخته. ويبدو أيضا أنه رأى وثيقة أخرى وأفاد منها قليلا، وهي الخطاب الثاني من الكونت ستيفن أمير شارتر إلى زوجته أديلا في ٢٩من مارس عام ١٠٩٨م. وربما يكون قد وجد هاتين الوثيقتين وغيرهما

من المصادر المكتوبة في مكتبة، أو مكتبات، القدس لأنه يشير مرة إلى استخدامه مثل هذه المكتبة[1].

وهناك مصدران من المصادر الكلاسيكية الصغري كانا مصدر عون لفوشيه في الحصول على التفاصيل. أحدهما كتاب روفينوس Flavu Josephi Hebraei Opera وهو ترجمة لاتينية لكتابين كتبهما باليونانية المؤرخ اليهودي فلافيوس جوزيفوس؛ وهما الحرب اليهودية Bellum Judaicum وتاريخ اليهود القديم Antiquitates Judaicae . وربما يكون فوشيه قد استخدم الترجمة لأنه لم يكن يعرف اليونانية. وهناك أدلة من كتاب الحرب اليهودية في وصفه لبحيرة طبرية، ومنطقة البحر الميت، ومنطقة عكا، وتاريخ صور. كما يكشف تاريخ صور عن اعتماده على كتاب تاريخ اليهود القديم. أما الكتاب الصغير الثاني فهو كتاب سولينوس Collectanea Merum Memorabilium وهو عبارة عن ملخص لكتاب «التاريخ الطبيعي» لبليني الكبير، وقد اعتمد عليه فوشيه في وصف الكائنات الحية. كذلك أشار فوشيه مرتين، لتدعيم كلام سولينوس، إلى وثيقة تعرف باسم Epistula Alexandri Regis Magni ad Aristotelem Magistrum Suum . وتتناول مراسلات الإسكندر الأكبر إلى أرسطو. ويعجب المرء عن السبب الذي جعل فوشيه لا يستخدم النص الأصلي لكتاب بليني. فربما لم يكن متاحا.

والمصادر الكلاسيكية الأخرى التي اعتمد عليها فوشيه هي: حوليات إنياس وكتاب «الحرب اليوجورتية Bellum Jugurthium» لسالست، وكتاب بوبليوس سيروس Mimi، وإنياذه فرجيل وأشعاره الجورجية، وأوديس لهوراسيوس، وكتاب أوفيديوس «مسخ الكائنات»، وكتاب Fasti، وكتاب لوكان Pharsalia. وربما يكون قد اعتمد على كتاب ليفيوس Ab urbe Condita، أو كتاب أيوتروبيوس الذي اختصر فيه كتاب ليفيوس تحت اسم Breviarium ab urbe Condita . أما الكتب المسيحية التي استخدمها، إلى جانب الكتاب المقدس، فهي أوائل المؤلفات المسيحية: مثل كتاب أمبروز Hexaemeron، وكتاب

---

(١) Epistula II Stephani Comitis Carnotensis od adelam, in Heinrich Hagenmeyer (ed.) Epistulae et Chartae ad Historiam Primi Belli Sacri Spectantes: Die Kreuzzugshriefe aus den Jahren 1088 - 1100, (Imsbruck,1901)150.

وكتاب جيروم المسمى Libr de Situ et Nominibus Jocorum Commentaria Hebraiorum وكتاب أوروسيوس Historiarum Adversum Paganos libri VIII وكتاب بؤثيوس سلوى الفلسفة De Consolatione Philosophia وكتاب جريجوري الأول Homilise، ومجموعة Decretales Pseudoisidorianae.

ومن الوثائق التي يحتمل أن يكون فوشيه قد وجدها في مكتبات القدس خطاب ربما تكون الملكة زوجة بلدوين الأول قد أرسلته إلى تنكرد في سبتمبر سنة ١١٠١[1]، والامتيازات Privilegium التي منحها البابا «باسكال الثاني» للبطريرك جبلين في ١١ من يوليو عام ١١١١م. وقد أدرج فوشيه الوثيقتين في سياق كتابه. وربما كانت «الامتيازات» في أرشيف الضريح المقدس. ويحتمل أيضا أن فوشيه وجد هناك المرسوم الخاص بإسقاط الضرائب سنة ١١٢٠م. إذ يذكر إسقاط الضرائب على الرغم من أنه لا يورد نص المرسوم.

وفي رأي هاجنماير أن فوشيه أفاد من كتاب Bella Antiochena الذي ألفه والتر المستشار، وكتاب Gesta Tancredi الذي كتبه رالف الكايني بعد سنة ١١١٨-١١١٩م. ومن المثير للسخرية، أن أولئك الكتاب اعتمدوا على ما كتبه فوشيه في الفترة السابقة[2]. وفي رأيه أيضا أن فوشيه أفاد من نسخة لمعاهدة وورمس التي عقدت بين البابا كاليكستس الثاني والإمبراطور هنري الخامس سنة ١٢٢٢م، وخطاب من البابا إلى هنري في ١٣ من ديسمبر من تلك السنة.

اهتمام الكتّاب الآخرين بفوشيه

كان أمرا محتوما أن يستخدم الكتّاب الآخرون مؤرخة فوشيه. وقد لاحظنا بالفعل كيف أن نص كتابه بالحال التي كان عليها في شتاء سنة ١١٠٥-١١٠٦م كان موضوع عمل اثنين من مؤلفي التواريخ المجهولين هما مؤلف Gesta Francorum

---

(١) يقتبس فوشيه هذا الخطاب بتصرف كبير، وإذا اقتضت الحاجة لا يستخدمه كأداة بلاغية.

(٢) For Walter see the text in RHC, Occ., V, 75 - 132 أو في: ؛ Hagenmeyer (ed,), HF 68. Galteru Cancellaru Bella Antiochena (Jnnsbruck 1806).

وعن رالف الكايني انظر Gesta Tancredi in Expeditione Hierosolymitan, in RHC, Occ. III, 587 - 716.

Jherusalem Expupgnantuim ومـؤلف .Codex L. وكلاهما يبدو أنهما من تأليف فوشيه. هذا النص الذي يرجع تاريخه إلى ١١٠٥ ـ ١١٠٦م، استخدمه ثلاثة مؤرخين آخرين على الأقل؛ أحدهم جيوبرت النوجنتي الذي ألف كتابه في فرنسا (حوالي سنة ١١٠٨ ـ ١١٠٩م)، وهو عبارة عن تاريخ الحملة الصليبية الأولى من سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١١٠٤م. وقد أفاد جزئيا من شهادات العائدين من أفراد الحملة، ومن كتاب «أعمال الفرنجة» للمؤرخ المجهول. وفي كراسته السابعة والأخيرة أفاد جيوبرت على ما يبدو من .Codex L، بعد أن كان هذا الكتاب قد وصل فرنسا. والمؤرخ الثاني هو إيكهارد الأوري Ekkehard of Aura الذي ذهب إلى فلسطين سنة ١١٠١م، ثم عاد إلى ألمانيا حيث كتب (فيما بين سنة ١١١٢ وسنة ١١١٥م) رواية قصيرة عن الحملة الصليبية الأولى من سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١١٠٥م، وأفاد تماما من «أعمال الفرنجة» ومن كتاب فوشيه[١]، وأشار إليهما إشارات غامضة، كما اعتمد على تجاربه الشخصية. والمؤرخ الثالث والأخير هو رالف الكايني Ralph of Caen الذي جاء إلى بلاد الشام (حوالي سنة ١١٠٧ ـ ١١٠٨م) ودخل في خدمة تنكرد، وألف كتابه «أعمال تنكرد Gesta Tancredi» (١٠٩٦ ـ ١١٠٥م) فيما بين سنة ١١١٢ وسنة ١١١٨م. وقد أفاد إلى حد ما من كتاب فوشيه[٢].

وهناك عدد آخر من الكتاب، نشطوا بعد المجموعة الأولى، وأفادوا من مسودة فوشيه التي تنتهي سنة ١١٢٤م. ومنهم والتر المستشار، الذي كان مقيما في أنطاكية ومات بعد عام ١١٢٢م، وقد كتب تاريخا لأنطاكية من سنة ١١١٤ إلى سنة ١١٢٢م. ويبدو أنه أفاد بقدر ما من فوشيه فيما يتعلق بهزيمة روجر أمير أنطاكية على يد إيلغازي سنة ١١١٩، وعن النصر الذي أحرزه بلدوين على إيلغازي في وقت لاحق من تلك السنة. أما ألبرت الآيكسي الذي لم يحضر أبدا إلى الشرق، بيد أن روايته عن التاريخ الفرنجي بين عامي ١٠٩٩، ١١٢٠م تلي في قيمتها كتاب فوشيه، فقد اعتمد على كتاب فوشيه في عدة أماكن مثلما اعتمد على كتاب المؤرخ المجهول والتراث الشفوي. وفي الفترة نفسها تقريبا كتب أحد الألمان، وهو

---

(١) Ekkehard, Heirosolymita, in RHC, Occ., V. 11 - 40.

(٢) HF, 68.

مجهول، باللغة الألمانية كتاب Millstater Exodus الذي ربط فيه بين غزو فلسطين على يد الصليبيين وغزو العبرانيين في قديم الزمان، مصورا كلا من الغزوين على أنه عمل الرب. واقتبس كثيرا من فوشيه، ومن تواريخ أخرى للحملة الصليبية الأولى (١). وفي نورماندي كتب القس أوردريك فيتال Ordericus Vitalis كتابه Historia Ecclesiasticae Librie XIII الذي اقتبس من فوشيه، بطريقة غير دقيقة في أغلب الأحوال، ما يتعلق بالحوادث التي أعقبت الحملة الصليبية الأولى. هذه الاقتباسات تظهر أساسا في الكراسات من ١٠ ـ ١٣ (وقد كتبت حوالي سنة ١١٣٥ ـ ١١٤٢م). أما وليم المالمسبوري الذي ألف كتابا شهيرا في تاريخ ملوك إنجلترا من سنة ٤٤٩م إلى سنة ١١٢٩م، فقد اعتمد على كتاب فوشيه، وربما على نص كتاب .Codex L في روايته لأحوال الأرض المقدسة سنة ١١٠٢م. وعلى أي حال، فإن ما كتبه عن حوادث مابعد سنة ١١٠٢م لا يمكن أن ننسبه إلى فوشيه يقينا، لأن الكثير منها يدخل في نطاق المعلومات العامة. وحوالي سنة ١١٤٦م، أو سنة ١١٤٧م، رأى شخص مجهول في الأرض المقدسة أن من الضروري أن يسد الفجوة الزمنية بين نهاية كتاب فوشيه والعصر الذي يعيش فيه، مثلما فعل وليم الصوري فيما بعد. وكانت النتيجة كتاب Historia Nicaena vel Antiochene الذي اختصر نص فوشيه، ولكنه أضاف إضافات قيمة؛ إذ توقف هذا الكتاب بحوادث سنة ١١٢٣ (٢). وهناك تلخيص آخر لكتاب فوشيه هو Secunda pars Historia Hierosolymitanae (١٠٩٩ ـ ١١٢٤م) لأنه يبدو أن الجزء السابق (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩م) مفقود. وقد نسبه الباحث كاسبر فون بارث، الذي عاش في القرن السابع عشر، إلى ليزيارد التوري Lisiard of Tours الذي كان حيا في لاون حتى سنة ١١٦٨م (٣). وهو يضيف قيمة ضئيلة إلى المعلومات التي تتناول الفترة مثلما يفعل ريتشارد الكلوني، الذي ألف كتابه في النصف الثاني

---

(١) HF 79 - 81; Peter Knoch, Studien 24 Albert von Aachen; Der erste Kreuzzug in der Deuhschen Chronistik (Stuttgart 1966), 71 note 4; DH Green, The Millstatter Exodus, A Crusading Epic (Cambridge 1966).

(٢) انظر النص في: .RHC., Occ., V, 133 - 85; HF 83 - 85

(٣) انظر نص الجزء الثاني Secunda Pars في .RHC, Occ. III, 545 - 85
أيضا: .HF 84. note 3

من القرن الثاني عشر، ليغطي من سنة ٨٨٠م، إلى سنة ١١٦٢م، وأفاد من كتاب فوشيه في مسودته الأولى(١).

كذلك يرى هاجنماير أن كاتبين آخرين اعتمدا على مؤرخة فوشيه، بيد أنه ليس واضحا على أي نسخة كان اعتمادهما. أحدهما هو متى الرهاوي، المؤرخ الأرمني الذائع الصيت الذي كتب فيما بين سنة ١١٢٤ وسنة ١١٣٦م. وعلى أي حال، فإن الدليل الذي قدمه هاجنماير ليس مقنعا، وهو نفسه يعترف بأن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة. وبعد ذلك بقليل، أي في منتصف القرن الثاني عشر كتب مؤلف مجهول خطبة عن الاستيلاء على بيت المقدس سنة ١٠٩٩م، ونسبها إلى فوشيه، ولكنها عديمة القيمة.

وحوالي سنة ١١٧٠م بدأ وليم الصوري كتابه، وكان وليم من مستوطني فلسطين وأحد كبار مؤرخي العصور الوسطى، وتناول كتابه تاريخ الحركة الصليبية منذ بدايتها حتى زمانه(٢). وكان مؤرخا مجتهدا يمتاز بالدقة، ومن ثم كرّس كراسة في كتابه لمقدمات الحملة الأولى وضمنه الأسطورة القائلة بأن بطرس الناسك هو الذي بدأها، وهي قصة خيالية صدقها بعد أن قرأ كتاب ألبرت الآيكسي. وغطى وليم الحملة الأولى في الكراسات الثماني التالية، واعتمد على مؤلفات المؤرخ المجهول وريمون الأجويلري، وفوشيه الشارتري، وغيرها من المصادر. وكتب كراستين عن حكم بلدوين الأول وكراستين عن حكم بلدوين الثاني. وفي هذه الكراسات الأربع اعتمد كثيرا على فوشيه، كما اعتمد قليلا على والتر المستشار في بعض المواضع. وواصل تاريخه حتى سنة ١١٨٤م، في الكراسات العشر الأخيرة.

وفاقت شهرة وليم الصوري شهرة فوشيه وغيره من مؤرخي الفترة الصليبية الباكرة. وكان كتاب وليم شاملا، متكاملا، ومتوازنا بشكل جيد، كما كانت لغته اللاتينية جيدة، ولذا يبدو أنه الرواية العمدة فيما يتعلق بتاريخ الحركة الصليبية

---

(١) Richard of Cluny, Chronicon ab imperis magni 800 - 1162, in L. A Muratori (ed.), Antiquitates Italicae Medu Aevi (6 vols. Milan 1738 - 42) IV 1079 - 1104, quated in HF 85.

(٢) Krey (ed.), A History of Deeds Done Beyond the See, by William Ardibishop of Tyre,I. 27 - 28; HF 85 - 86.

الباكر. وهذا هو السبب في أن روايته لأسطورة بطرس الناسك ظلت مقبولة دون مناقشة على مدى قرون ستة.

وعلى الرغم من أهمية مؤرخة وليم الصوري، التي فاقت غيرها، فإن الاعتماد على فوشيه والنقل عنه من آن لآخر ظل قائما من آن لآخر في الكتب الخفيفة[١].

وفي سنة ١٦١١م، أي في الأيام الأولى للبحث العلمي الحديث، نشر جاك بونجار مجموعة نصوص لدراسة الحروب الصليبية حققها من كل المخطوطات التي استطاع العثور عليها. وكان أحد هذه النصوص هو نص كتاب فوشيه، وهو أول نص أمكن تحقيقه ونشره. وثمة نص آخر لفوشيه نشر سنة ١٦٤١م في مجموعة مؤرخات لدراسة التاريخ الفرنسي بدأها أندريه دوشيسن الذي توفى سنة ١٦٤٠م، وأكملها ابنه فرنسوا[٢]. وفي الوقت نفسه تقريبا، كتب بارث سلسلة من التعليقات على نص فوشيه الذي نشره بونجار، ولكن هذه التعليقات لم تنشر سوى سنة ١٧٢٠م[٣].

وفي القرن الثامن عشر نشر إدموند مارتين، وأورسين ديراند مقدمة فوشيه سنة ١٧١٧م بعد أن لاحظا أن بونجار ودوشيسن لم ينشراها[٤]. وفي سنة ١٧٣٤م، لاحظ فابريكيوس الذي طبع قائمة بأدبيات العصور الوسطى، أهمية كتاب

---

(١) يضع هاجنماير قائمةتضم علي سبيل المثال:
Narratio Profectionis Godefridi ducis ad Jerusalem, in RHC, Occ, V, 187 - 98. وربما يكون مؤلفه هو Theadore of Kloster Pohde. وكذلك Anonymaus, Estoire du Jearusalem et d'Antioche. وأيضا مؤلفات كل من: أوليفر أستاذ كولوني، وسيكارد الكريموني، وألبريك من تروا فونتان وقد كتبت كلها في القرن الثالث عشر. وكذلك كتاب Vitae Pontificum Romanorum عن سير بابوات روما، وكتبه ديتريخ فون نيم (ت ١٤١٨) واستخدم فيه بعض مستخرجات من كتاب فوشيه.

(٢) André Duchesne (ed.), Historia Francorum Scriptores (5 vols., Paris 1636 - 49) IV, 816 -89; HF 106 - 108, 108 - 109.).

(٣) Barth, "Anmadversiones", in Luduing, Reliquiae Manuscriptorum, III, 291 -365.

(٤) Edmond Martene and Urisn Durand (eds.), Thesaurus Novus Anecdotorum (5 vols, Paris 1717 FF.)

فوشيه لتاريخ الفترة من الحملة الصليبية الأولى حتى سنة ١١٢٧[١]. وبعـد ذلك بخمس سنوات بدأ الرهبان الفرنسيون البندكتيون في دير سان مور بجمع المعلومات اللازمة لدراسة الحروب الصليبية، وانضم إليهم الباحث الشهير دون برتيرو سنة ١٧٧٢ تقـريبـا ولكن عـملهم توقف سنة ١٧٩٤م بسـبب مـوته واندلاع الثـورة الفـرنسـيـة. ومن حـسن الحظ أن حـفظت أعـمـالـهم في المكتـبـة الإمـبراطورية سنة ١٨١٣م. وكان برتيرو قد دون بعض الملاحظات على كتاب فوشيه من النص الذي نشره بونجار ومن بعض المخطوطات، بيد أن هذه الملاحظات لقيت تجاهلا حتى قام بول ريان بنشرها سنة ١٨٨٤م[٢].

وبعد الحروب النابليونية قام ميشو، وفردريش ويلكين بإحياء دراسة الحروب الصليبية واقتبس كل منهم من فوشيه في مؤلفاتهم التاريخية. كما ألف ميشو كتابه Bibliotheque des Croisades الذي حلل فيه مؤرخة فوشيه. وفي سنة ١٨٢٥ نشر جيزو ترجمة لمؤرخة فوشيه ضمن مجموعة ضخمة من الترجمات لمصادر تاريخ فرنسا بينها كثير من مؤرخات الحروب الصليبية. وبعد ذلك بقليل، أي في سنة ١٨٣٧م تولى ليوبولد فون رانكه الإشراف على حلقة دراسية (سمنار) لدراسة المصادر الأصلية للحملة الصليبية الأولى. وواصل العمل واحد من تلاميذه هو هنريخ فون سيبل الذي كشف زيف أسطورة بطرس الناسك. وقد قام فون سيبل بتحليل قيمة كل من مؤرخات الحملة الصليبية الأولى، وأوضح أن هناك الكثير ما يزال ينتظر الإنجاز، ومن ذلك تعليق شامل على ما كتبه فوشيه دي شارتر[٣]. وبعد ذلك بعامين، وصف أوجست مولينيه في كتابه Sources de l'Histoire de France فوشيه بأنه رفيق بلدوين الأول، وشاهد عيان، ورجل سليم الحس، ولكن

---

(١) J.A. Fabricuis, Bibliotheca Latina Mediae et Inffimae Aetatis (6 vols; Hamburg, 1734-46) II, 643 - 46.

(٢) Henri Deherain, "Les Origin des Recueil des Historiens des Croisades" Journal des Savants, Paris 1919, 260 - 66; Paul Riant, "Inventaire des Materiaux Rassemblés par les Bén édictines au XVIII e siécle Pour le Publication des Historiens des Croisades", AOL,II, 105 - 130.

(٣) Oliver J. Thather, "Critical Work on the Latin Sources of the First Crusade", Annual Report of the American Historical Association for the year 1900 (2 vols. Washington, 1901), I, 501 - 509.

أسلوبه يتسم بالغموض والركاكة[1]. وفي سنة ١٩١٠م نشر إرنست باركر مقالة شهيرة بعنوان «الحروب الصليبية The Crusades » ما تزال تحتفظ بجدتها وحيويتها، وثبتت في دائرة المعارف البريطانية حتى سنة ١٩٦٣م. فقد كتب أن رواية فوشيه عن الحملة الصليبية الأولى نفسها رواية هزيلة، بيد أن فوشيه مصدر ممتاز على الرغم من هذا. وأضاف أن مؤلفنا «كان رجلا طيبا»، حشى تاريخه بكثير من الاستطرادات في الجغرافيا والحيوان والتاريخ المقدس. . .»[2].

وكان الفضل لهاجنماير، الذي كان قد نشر حولية إيكهارد الأوري، وأعمال الفرنجة، وحرب أنطاكية لوالتر المستشار؛ فقد نشر مؤرخة فوشيه سنة ١٩١٣ في طبعة جديدة مستخدما المسودة الثانية للنص اللاتيني لكتاب فوشيه، وبنى نصه الأصلي على أساس مقارنة وتحقيق مخطوطات المسودة الثانية، ثم أوضح في الهوامش الاختلافات بين هذه المسودة والمسودة الأولى و .Codex L. وقد حلل فوشيه من حيث حياته، وموقفه، ومنهجه، ومصادر معلوماته، وقيمته، ومحتويات المؤرخة، في دقة وشمول ليست ممكنة أو ضرورية في هذه الدراسة[3].

ثم أعقبت ذلك الترجمة التي قامت بها الراهبة فرنسيس ريتاريان لنص هاجنماير سنة ١٩١٦. وقد نشرت الكراسة الأولى من هذه الترجمة بعد ذلك في كتاب كراي The First Crusade. وهو عبارة عن مجموعة محققة من الترجمات لمصادر الحركة الصليبية الرئيسية. وقد لاحظ كراي في مقدمته[4] أن اهتمام فوشيه كان منصبا على الشئون العسكرية لعامة الفرنج وربطها «بالاهتمام والشفقة لدى القس الفرنسي البسيط». ثم استمر في القول بأنه لا شك في أن فوشيه كان أهم مصدر عن التاريخ الباكر لمملكة بيت المقدس اللاتينية.

وفي سنة ١٩٢٨م نشر إيورجا نقدا قيما للمصادر الأولية لدراسة الحركة الصليبية. وقام بتحليل شامل لمحتويات مؤرخة فوشيه وإمكاناته الأدبية، وموقفه،

---

(١) Auguste Molinier, Les sources de France (6 vols; Paris, 1901 - 1906), II, 284.

(٢) Ernest Barker, "The Crusades", Encyclopaedia (1910), VIII 550 وقد طبع فيما بعد مجلد منفصل تحت عنوان: The Crusades (london 1923), see P. 106.

(٣) انظر مقدمة هاجنماير على نحو خاص: HF 1 - 112,

(٤) Krey, First Crusade, 10.

وهو أكمل مجهود منذ المقدمة التي كتبها هاجنماير لطبعته. وقد بدأ بأن وصف فوشيه بأنه المؤرخ الرسمي ومستشار بلدوين الأول وبلدوين الثاني. ومن المؤكد أن ثمة مبالغة في حالة بلدوين الثاني، على الرغم من أن فوشيه هو المصدر اللاتيني الرئيسي للأخبار بين سنتي ١١١٨ ـ ١١٢٧م في حكم بلدوين الثاني. وقدم إيورجا فوشيه في صورة المشارك والقسيس والمستوطن المحلي والمراقب الدائم، كما صوره تقيا مؤمنا بالخرافة، ومتعلما بالقدر الذي يجعله يقتبس من الكتاب الكلاسيكيين مهتما بعلم الحيوان والجغرافيا المحلية. كما صوره في صورة المتعاطف مع «صغار الناس». وهكذا لاحظ الأستاذ إيورجا، مثلما فعل باركر وكراي، موقف فوشيه الخير تجاه عامة الفرنج[١]. وبعد ذلك بسنتين، نشر هارولد لامب مؤلفه التاريخي الشهير عن الحروب الصليبية، وقد ألفه اعتمادا على البحث في المصادر الأصلية، ومنها كتاب فوشيه. وكتب تحليلا قصيرا عن فوشيه ووصفه بأنه «أقل ذكاء» من ريمون الأجويلري، ولكنه مصدر قيم بالنسبة لسنوات ١١٠٠ ـ ١١٢٦، وقادر على تقديم «الصورة الواضحة الوحيدة تقريبا عن الصليبيين في الأرض التي غزوها»[٢].

أما دانا مونرو، فعندما صار رئيسا لأكاديمية العصور الوسطى في أمريكا سنة ١٩٣٢، قدم بحثا عن فوشيه بعنوان «A Crusader»، ونشر هذا البحث في مجلة Speculum في وقت لاحق من تلك السنة. وركز على أهمية فوشيه لدراسة الفرنج خلال سنواتهم الأولى في الشرق بعد الحملة الأولى. وعَدَّ فوشيه «رجلا فوق المتوسط في ذكائه وتعليمه» وشاهدا على حوادث مثيرة، ومراقبا ذكيا، وبأنه «في مركز يسمح له بمعرفة الحقائق[٣]». وأنهى دراسته بالتحذير من أن المادة التاريخية حول الفترة شحيحة، والكثير منها يمكن قراءته من بين السطور.

وفي سنة ١٩٤٠ حلل كلود كاهن في إيجاز مصادر الحملة الأولى ووصف فوشيه بأنه «دقيق ذكي محب للاستطلاع» ويغطي الفترة حتى سنة ١١٢٧م[٤]. وفي سنة ١٩٤١ قامت مارتا إيفلين ماكجنتي تحت إشراف جون لامونت بنشر ترجمة جديدة للكراسة الأولى في كتاب فوشيه مع مقدمة ممتازة وتحقيق موجز.

(١) Nicols Iorga, Les Narateurs de la Prémeire Croisade, (Paris, 1928) 38 - 61.

(٢) Harold Lamb, The Crusades; Iron Men and Saints (New York 1980) 354.

(٣) D.C. Munro, "A Crusader", Speculum, VIII (1932), 321 - 35.

(٤) Claude Cahen, Le Syrie du Nord A l'Epouque des Croisades, (Paris 1940) 10 - 11.

وقالت إن فوشيه في وضع يسمح له بالحصول على المعلومات حتى سنة ١١٢٧م. كما وصفته بأنه متعلم على الرغم من «أسلوبه الريفي»، وانحيازه النسبي، وبأنه تقي ولكنه أقل إيمانا بالخرافات من ريمون الأجويلري، ويهتم كثيرا بالأماكن الجديدة والتجارب الجديدة والتاريخ والجغرافيا[١].

وبعد ذلك بسنة حلل ثومبسون النصوص اللاتينية لمؤرخي الحروب الصليبية. ووصف فوشيه بأنه مراقب ذكي، مهتم بالتتابع الزمني، وصاحب قدرة غير عادية على الوصف، لا سيما تصويره الكلامي للمعارك، كما وصفه بأنه أفضل مصدر للمعلومات عن السنوات الباكرة للفرنج في بيت المقدس[٢]. وفي سنة ١٩٥١م نشر ستيفن رنسمان المجلد الأول من دراسته التي جاءت في ثلاثة مجلدات تحت اسم History of the Crusades. وفي أحد ملاحق كتابه وصف مؤرخات الحملة الصليبية الأولى. وقد وصف فوشيه بأنه «أفضل المؤرخين اللاتين تعليما وأجدرهم بالثقة». وقد لاحظ أنه موضوعي فيما عدا موقفه تجاه البيزنطيين في النص الذي كتبه فيما بين سنتي ١١٢٤ - ١١٢٧م.

ومن بين المؤرخين المحدثين الذين امتدحوا فوشيه أدولف واس، وماير، وريتشارد، وبرونداج. وقد تأثر واس بفوشيه بوصفه مصدرا لمجمع كليرمون وحماسة الصليبيين، كما أعجبته تلك اللمحات التي بدا فيها فوشيه كارها للحرب، وغربيا تحول إلى شرقي بفعل طول إقامته في الشرق. كما لاحظ ماير أن فوشيه مصدر ممتاز لكليرمون، ومقرب إلى ستيفن أمير بلوا وبلدوين الأول، وأن فوشيه أبدى في نهاية عمره تعاطفا تجاه عامة الناس المستوطنين في بلاد جديدة شرقي المتوسط. ولاحظ ريتشارد أن فوشيه يقدم أهم رواية عن تأسيس الدويلات الفرنجية في بلاد الشام وفلسطين. وكتب برونداج أن «فوشيه يمثل مصدرا رئيسا يعول عليه بشكل غير عادي».

وأخيرا، فإن قيمة فوشيه تؤكدها الإشارات الكثيرة إليه في كل مؤلفات المؤرخين المحدثين المهتمين بدراسة الحملة الأولى والفترة الباكرة للدويلات اللاتينية في الشرق.

---

(١) Mc Ginty (?trans) - Fulcher of Chartres, 47.

(٢) James Westfall Thompson "The Latin Historians of the Crusades" Chap. XVIII in A History of Historical Writring (2 Vols. New York 1942), I, 312.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

افتتاحيـــــة

افتتاحيـــة

هنـا تبـدأ افتتـاحيـة السيـد فوشيـه للكتـاب التـالي

١ ـ من دواعي غبطة الأحياء، بل من المفيد للموتى، أن تتلى أعمال الرجال الشجعان؛ لا سيما أولئك الذين يحاربون في سبيل الرب، من سجلات مكتوبة، أو تُستعاد من الذاكرة لكي تُروى على أسماع المؤمنين. لأن أولئك الذين ما يزالون على قيد الحياة في عالمنا هذا، عندما يسمعون عن مقاصد أسلافهم الدينية، وكيف أنهم اتبعوا نهج الإنجيل فتخلوا عن أجمل الأشياء، وهجروا الوالدين، ونبذوا ممتلكاتهم مهما كبرت، سوف يدفعهم الإلهام إلى اتباع الرب، وسوف يعانقونه في حماسة(١). ومن المفيد تماما لأولئك الذين ماتوا في سبيل الرب، أن المؤمنين عندما يسمعون عن الأعمال الخيرة التقية التي أتاها أسلافهم، سوف يباركون أرواح الراحلين ويغدقون الصدقات التي تصحبها الصلوات من أجلهم؛ سواء كان الأحياء يعرفون الراحلين أم لا.

٢ ـ لهذا السبب تحركت بناء على طلبات متكررة من بعض رفاقي، لكي أحكي في أسلوب منظم دقيق أعمال الفرنج الباهرة التي فعلوها عندما قاموا برحلة حج مسلح إلى بيت المقدس بأمر إلهي في سبيل المسيح المخلّص. وقد حكيت بالأسلوب المعتاد في وطني والتزمت بالحقيقة بقدر ما أسعفتني الذاكرة، أو وفقا لما رأيته بعيني في أثناء الرحلة نفسها(٢).

---

(١) انظر: إنجيل متى ١٢ : ٢٩؛ مرقص ١٠ : ٢٩؛ لوقا ١٨ : ٢٩ حيث ورد هذا المعنى (المترجم).

(٢) عندما يحدد فوشيه أسلوبه بأنه «الأسلوب المعتاد في وطني»، فهو يذكرنا بأنه قدم من شارتر التي اشتهرت آنذاك بالدراسات الكلاسيكية. ولا بد أن فوشيه كان مدركا لهذا. والواقع أنه اقتبس من بعض الكتاب القدامى، واستخدم لاتينية العصور الوسطى أكثر من استخدامه اللاتينية الكلاسيكية. كذلك فهو هنا يوضح أنه كان من شهود الحملة الأولى.

٣ ـ وعلى الرغم من أنني لا أجرؤ على مقارنة أعمال الفرنج المذكورة أعلاه بإنجازات بني إسرائيل، أو المكابيين، أو كثيرين غيرهم من أبناء الشعب المختار ممن شرفهم الرب بالمعجزات الكثيرة المدهشة، فإنني ما زلت أرى أن أعمال الفرنج لا تكاد تقل عنها لأن معجزات الرب كانت تحدث بينهم في غالب الأحيان. وقد أخذت على عاتقي أن أحفظ ذكرى هذه الأعمال كتابة. فما وجه الخلاف بين الفرنج وكل من الإسرائيليين والمكابيين؟ الواقع أننا نشاهد أولئك الفرنج معنا في نفس المناطق والأقاليم مباشرة في الغالب، كما سمعنا عنهم في مناطق بعيدة عنا، يعانون التشرذم، والصلب، والهرب، والموت رشقا بالسهام، أو بالذبح، أو بأي وسيلة أخرى للاستشهاد. وكل هذا في حب المسيح. ولم يكن ممكنا التغلب عليهم بالتهديدات أو الإغراءات. بل إنه حتى عندما كان سيف الجزار بيده، لم يكن الكثيرون منا يرفضون الاستشهاد حبا في المسيح.

٤ ـ آه، لقد قضى آلاف الشهداء نحبهم في ميتة مباركة في حملتهم هذه، ولكن من ذا الذي يقسو قلبه فيسمع عن أعمال الرب هذه دون أن تحركه أعمق مشاعر التقوى فيسجد شكرا للرب؟ من ذا الذي لا يتملكه العجب لأننا، ونحن قلة في أرض الأعداء، استطعنا أن نقاوم وأن نبقى؟ من ذا الذي يجسر على هذا؟ في جانب كانت مصر وأثيوبيا، وفي الجانب الآخر كانت بلاد العرب والكلدان، وسوريا وآشور وميديا، وبارثيا وبلاد النهرين، وفارس وسكيثيا. وهنا بحر كبير[١] يفصلنا عن العالم المسيحي، وبأمر الرب يضعنا بين أيدي الجزارين[٢]؛ ولكن يده العظيمة القوية شملتنا بالحماية والرحمة «طوبى للأمة التي الرب إلهها»[٣].

هنا تنتهي الافتتاحية

(١) البحر المتوسط. ويجب أن نلاحظ أن فوشيه يستخدم الأسماء الواردة في الكتاب المقدس للدلالة على المناطق الجغرافية المحيطة بفلسطين؛ ولا غرو فهو من رجال الكنيسة. (المترجم).

(٢) سوف نلاحظ طوال النص كثرة الأوصاف والنعوت العدائية التي يسبغها فوشيه على المسلمين بإسراف شديد، ولم نحاول تغييرها في الترجمة حرصا على مضمون النص ودلالته من ناحية، وكشفا عن التعصب والكراهية التي حكمت فوشيه من ناحية أخرى. (المترجم)

(٣) مزامير ٣٣ : ١٢.

الكراسة الأولى



هنا تبدأ الكراسة الأولى التي تحكي
عن أعمال الفرنج حجاج بيت المقدس

(١)

مجمع كليرمون:

١ ـ في سنة ١٠٩٥ بعد تجسد سيدنا، بينما كان هنري الإمبراطور المزعوم يحكم ألمانيا[(١)]، والملك فيليب يحكم فرنسا[(٢)]، وكانت الشرور من كل جنس ونوع تتكاثر في شتى أنحاء أوربا بسبب تأرجح العقيدة، في ذلك الحين كان البابا إربان الثاني[(٣)] يحكم مدينة روما، وكان رجلا يستحق الإعجاب بحياته ومسلكه، وقد ناضل بجسارة وقوة لكي يعلي من شأن الكنيسة المقدسة.

٢ ـ كذلك، فإنه رأى الجميع يتجاسرون على العقيدة المسيحية بشكل متزايد؛ سواء من رجال الكنيسة أو العلمانيين، وانتهك السلام تماما لأن أمراء الأرض كانوا في حال من الاقتتال الدائم بعضهم ضد بعض. ورأى الناس يسرقون متاع الدنيا بعضهم من بعض، بحيث إنهم أخذوا بعض الأسرى ظلما وعدوانا، وألقوا بهم في غياهب السجون في همجية شديدة طلبا لفدية باهظة وإلا تعرضوا في سجونهم للعذاب بشرور ثلاثة هي الجوع والعطش والبرد، ثم يعدمون سرا. كما أنه رأى الأماكن المقدسة تستباح، والأديرة والقصور تفترسها النيران التي لا تبقي ولا تذر. وكذلك وجود الأمور الإنسانية والإلهية محط المهانة والازدراء.

---

(١) هنري الرابع (١٠٥٤ ـ ١١٠٦م) الملك الألماني وعدو البابوية الجريجورية، وقد توج إمبراطورا على يد البابا المناوئ كليمنت الثالث سنة ١٠٨٤م. ويبدو واضحا تعاطف فوشيه مع البابا إربان الثاني.

(٢) فيليب الأول (١٠٦٠ ـ ١١٠٨م) الذي كان متورطا في مشكلات مع البابوية بسبب علاقته الآثمة مع برترادا دي مونتفورت. وأعاد البابا توقيع عقوبة الحرمان ضده في كليرمون.

(٣) إربان الثاني (١٠٨٨ ـ ١٠٩٩) صديق جريجوري السابع وتلميذه.

٣ ـ وعندما سمع أن المناطق الداخلية من رومانيا قد احتلها الأتراك، وأن المسيحيين خضعوا لغزو مدمر وساحق[١]، اهتز إربان كثيرا بفضل تقواه وتدينه العميق وزيادة حبه للرب؛ فعبر الجبال، وهبط في بلاد الغال، وأمر بعقد مجمع ديني في أوفريني بكليرمون، وهو اسم المدينة. وتم الإعلان عن هذا المجمع بصورة سليمة بواسطة المبعوثين الذين أوفدوا إلى جميع الأنحاء، وحضره ثلاثمائة وعشرة من الأساقفة ومقدمي الأديرة ممن يحملون العصي المعقوفة[٢].

٤ ـ وفي اليوم المحدد[٣] جمعهم إربان حوله، وفي خطاب فصيح أعلمهم بالغرض من الاجتماع، وفي صوت آسف صادر عن كنيسة تعاني تحدث البابا عن معاناة الكنيسة الكبرى. وألقى خطبة شاملة تحدث فيها عن أشد شرور هذه الدنيا وطأة حيث أهينت العقيدة على النحو الذي ذكرناه آنفا.

٥ ـ ثم حث الناس على العودة للتمسك بقوى العقيدة، وأن يوقظوا في نفوسهم العزم الأكيد على التغلب على فعال الشر، وأن يحاولوا قدر الطاقة إعادة الكنيسة المقدسة، التي أضعفها الشر، إلى مكانتها المبجلة التي كانت لها في سالف الزمان.

(٢)

مرسوم إربان في المجمع نفسه:

١ ـ قال: «أيها الأخوة الأعزاء أنا إربان، البابا الأعلى بإذن الرب، وأسقف العالم كله، جئت إليكم في هذا الوقت بدافع من الحاجة الماسة إليكم ياخدام الرب في هذه الأرجاء، بصفتي رسولا من العناية الإلهية. إنني آمل أن يكون أولئك الحاضرون من وزراء الرب (القساوسة) مصدر خير وعون، متحررين من النفاق.

---

(١) يشير فوشيه إلى اجتياح الأتراك السلاجقة شبه جزيرة الأناضول في الإمبراطورية البيزنطية بعد جيل من هزيمة رومانوس ديوجنيس في مانزكرت في أغسطس سنة ١٠٧١م.

(٢) ورد عدد الحاضرين بتقديرات مختلفة، وربما يكون العدد قد اختلف زيادة ونقصانا خلال أيام مجمع كليرمون، بيد أن معظم الحاضرين كانوا من الفرنسيين.

(٣) من ١٨ إلى ٢٨ من نوفمبر عام ١٠٩٥م.

٢ ـ «لأنه إذا كان هناك شرير أو غير أمين، جاوز حدّ الاعتدال والعقل، يعطل قانون الرب، فإنني بعون الرب سوف أعمل على تقويمه. لأن الرب جعلكم قوّامين على خدمه، فإذا حان الحين تمدونهم بطعام الخلاص المتواضع. طوبى لكم إذا وجدكم تفعلون هكذا[1].

٣ ـ «أنتم تسمون الرعاة، فيجب أن تحترزوا فلا تكونوا مأجورين. كونوا رعاة حقيقيين وعصيكم المعقوفة دائما بأيديكم، ولا تناموا بل احرسوا القطيع الذي عهد به إليكم من كل جانب[2].

٤ ـ «لأنه إذا حدث بسبب إهمالكم أن خطف الذئب خروفا، فمن المؤكد أنكم لن تفقدوا المكافأة التي أعدها لكم الرب فحسب، بل إنه سيقذف بكم في درك الملعونين بعد أن ينالكم الضرب من عصا الجلاد.

٥ ـ «وبنص كلمات الإنجيل أنتم ملح الأرض، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملح[3]؟». آه كم من الرجال يحتاجون إلى النصح. لقد كان من الضروري لكم أن تملحوا بملح حكمتكم الجيد أولئك الجاهلين الذين شغفوا كثيرا بمتاع الدنيا، وإلا فسدتم بخطيئتهم، وعندما يكلمهم الرب سيجدهم يفتقرون إلى النصح والهداية.

٦ ـ «لأنه إذا وجد الرب فيهم الدود، أي الخطايا، بسبب تخاذلكم في أداء واجبكم فسوف يأمر بإلقائهم في غياهب العفن والقذارة احتقارا لشأنهم[4]. ولأنكم لن تقدروا على استعادة هذه الخسارة فإن الرب سوف يعاقبكم على الفور لأنكم ملعونون لديه يحجب عنكم حبه.

٧ ـ «بيد أن الذي يملح يجب أن يكون واعيا، بعيد النظر، متواضعا، متعلما، صانعا للسلام، باحثا عن الحقيقة، تقيا، عادلا، متوازنا ونقيا. إذ كيف يمكن لغير

---

(١) متى ٢٤: ٤٥ـ٤٦ «فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيده على خدمه ليعطيهم الطعام في حينه. طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيده يجده يفعل هكذا» (المترجم).

(٢) يوحنا ١٠: ١٢ـ١٣ «أما الذي هو أجير وليس راعيا، الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا ويترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبددها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالي بالخراف». (المترجم).

(٣) متى ٥: ١٣ وقد وردت المعاني نفسها بإنجيل مرقس ٩: ٧٥٠.

(٤) مرقس ٩: ٤٤ـ٤٨.

المتعلم أن يعلم الآخرين، وأنى لغير المتواضع أن يجعل الآخرين يتواضعون، وكيف لمن ليس نقيا أن يحث الآخرين على النقاء؟ وإذا كان المرء يكره السلام فكيف يمكنه أن يسعى للسلام؟ أو كيف لمن اتسخت يده بالتراب أن ينظف من علقت بهم أوساخ الآخرين؟ فقد جاء في الإنجيل: «وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة»[1].

٨ ـ «ومن ثم عليكم بإصلاح أنفسكم أولا، حتى يمكنكم بسهولة أن تصلحوا من شأن أولئك الذين تتولون رعايتهم. إذا كنتم راغبين حقا في صداقة الرب فعليكم أن تعلموا ما يسره بنفس راضية مبتهجة.

٩ ـ «عليكم بصفة خاصة مراعاة إدارة شئون الكنيسة حسب قانونها حتى لا تضرب الهرطقة السيمونية بجذورها بيننا[2]، واحذروا أن تحولوها إلى تجارة فالرب يضرب البائعين والمشترين بسياط غضبه[3].

١٠ ـ «احفظوا الكنيسة بكل مستوياتها حرة تماما من السلطة العلمانية، ولتعطوا عشر ثمار الأرض بإيمان للرب، ولا تعرضوها للبيع أو تتمسكوا بها.

١١ ـ وكل من يمسك أسقفا تحل عليه اللعنة. وكل من يمسك الرهبان، أو القساوسة، أوالراهبات، وخدامهم، أو يحتجز الحجاج أو التجار، وينهبهم، سوف تحل عليه اللعنة[4]. ولنترك اللصوص ومن يحرقون المنازل ورفاقهم يقطعون من الكنيسة وينالهم الحرمان.

١٢ ـ «ويقول جريجوري» وبعد ذلك يجب أن نعتبر بوجه خاص كيف ستكون

---

(١) متى ١٥: ١٤؛ لوقا ٦: ٣٩

(٢) السيمونية أهم الشرور التي عانت منها الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، وهي مصطلح أطلق للدلالة على ظاهرة بيع وشراء الوظائف الكنسية بالرشوة. (المترجم).

(٣) متى ٢١: ١٢

(٤) يشير فوشيه هنا إلى «سلام الرب» الذي جاء نتاجا للحروب الإقطاعية التي مزقت أوربا في القرنين العاشر والحادي عشر. وكانت هذه الحركة تهدف إلى حماية العناصر المنتجة والتجار ورجال الدين من الحرب وأضرارها. انظر: قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية ـ نصوص ووثائق (القاهرة ١٩٨٥م)، ص ٦٦ ـ ص ٦٨. (المترجم).

قسوة العقاب النازل بالذي يسرق الآخرين، إذا ما وضعنا في حسباننا أنه سيكون ملعونا إلى الأبد لأنه لم يكن كريما مع الآخرين في ممتلكاته الخاصة»(١). لأن هذا ما يحدث للرجل الغني في القصة المعتادة في الإنجيل(٢) إذ إن العقاب لم يقع عليه لأنه يسرق من رجل آخر، وإنما لأنه أساء استخدام الثروة التي جاءته.

١٣ ـ «أيها الأخوة الأعزاء، يقال إن هذه الشرور هي التي سببت اضطراب العالم على نحو ما ترون لفترة طويلة لا سيما في بعض أجزاء بلادكم كما علمنا. ربما بسبب ضعفكم في فرض العدالة لا يكاد أحدكم يجرؤ على السفر وهو آمن في الطريق خوفا من أن يمسك به اللصوص نهارا أو قطاع الطرق ليلا، بالقوة أو الحيلة الشريرة، داخل الأبواب أو خارجها.

١٤ ـ «ولذا فإن الهدنة التي يعرفها العامة بهذا الاسم(٣)، والتي كانت مستقرة منذ زمن طويل بواسطة الآباء المقدسين، يجب أن تعقد من جديد. إنني أحث كلا منكم على أن يفرضها بصرامة في منطقته. ولكن إذا انتهكها أي فرد، بدافع الطمع أو الكبرياء، فيجب أن توقع عليه عقوبة الحرمان بمقتضى سلطة الرب، وبقوة المراسيم التي يصدرها هذا المجمع».

(٣)

دعوة إربان إلى القيام برحلة حج إلى بيت المقدس(٤):

١ ـ وعندما تم إقرار هذه الأمور، وأمور كثيرة غيرها، بشكل طيب شكر كل الحاضرين؛ سواء من رجال الكنيسة أو من الشعب، الرب بحرارة على كلمات السيد البابا، ووعدوه مخلصين بمراعاة قراراته ومراسيمه التي أصدرها في هذا المجمع. بيد أن البابا أردف قائلا في الحال: إن ثمة محنة أخرى ليست أقل شأنا، وإنما هي أعظم وقعا مما ذكره؛ بل إنها من أسوإ ما عرف من محن ومصائب، وتمسك بخناق المسيحية الآن في جزء آخر من العالم.

---

(١) انظر: Gregorii Magni Homil, ii, 40:3.

(٢) لوقا ١٦: ١٩ ـ ٣١.

(٣) يقصد هدنة الرب.

(٤) هذا العنوان لا ينطبق على الفصل الثالث حيث لا يرد ذكر بيت المقدس أو الأرض المقدسة.

٢ ـ قال: «بما أنكم يا أبناء الرب قد وعدتموه بحفظ السلام فيما بينكم، وأن تخلصوا في الحفاظ على حق الكنيسة المقدسة أكثر من ذي قبل، فإنه ما يزال أمامكم، يا من بعثتم الإصلاح المقدس حديثا، مهمة عاجلة منوطة بكم وتتعلق أيضا بالرب. ومن خلال هذه المهمة يمكنكم الكشف عن قوة إرادتكم وحسن نواياكم. إذ يجب أن تقوموا بمساعدة إخوتكم المسيحيين في الشرق، فهم يحتاجون إلى مساعدتكم وطالما طلبوها.

٣ ـ «وذلك لأن الأتراك، وهم شعب فارسي[١]! كما يعلم الكثيرون منكم قد توغلوا في الأراضي الرومانية حتى ذلك الجزء من البحر المتوسط الذي يعرف باسم ذراع القديس جورج[٢]. وقد استولوا على المزيد من أرض المسيحيين، وهزموهم سبع مرات، وفي معارك كثيرة قتلوا وأسروا كثيرين منهم، كما دمروا الكنائس، وخربوا مملكة الرب. وإذا سمحتم لهم بأن يتمادوا في ذلك فإنهم سوف يهزمون شعب الرب من المؤمنين ويوقعون بهم المزيد من الأذى.

٤ ـ «ومن ثم فإنني بصلاة خاشعة أحثكم، بل إن الرب هو الذي يحثكم، بصفتكم قساوسة المسيح أن تحضوا الناس من شتى الطبقات؛ من الفرسان ومن الجنود المشاة أغنياء وفقراء، بأن يسارعوا إلى استئصال شأفة هذا الجنس الشرير من أرضنا وأن تساعدوا السكان المسيحيين قبل فوات الأوان.

٥ ـ «إنني أخاطب الحاضرين، وأعلن لأولئك الغائبين، كما أن المسيح يأمر بهذا، أن ذنوب كل أولئك الذاهبين إلى هناك سوف تُغْفَر إذا انتهت حياتهم بأغلالها الدنيوية سواء في أثناء مسيرتهم على الأرض، أو عند عبورهم البحر، أو في خضم قتالهم ضد الوثنيين[٣]. هذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أسبغها الرب علي.

---

(١) هذا الخلط بين الأتراك والفرس يمكن تفسيره في ضوء ما نعرفه عن جهل الأوربيين آنذاك بحقائق الجغرافيا والتاريخ في الشرق العربي الإسلامي. هذا الجهل، الذي كان من أسباب التعصب المقيت الذي ميز الحروب الصليبية التي شنها الغرب الكاثوليكي ضد الشرق العربي الإسلامي، كان أيضا من مظاهر ذلك التعصب. وقد ظن فوشيه أن الأتراك السلاجقة شعب فارسي لأنهم دخلوا بلاد الشام والأناضول عن طريق فارس، كما أنهم تأثروا ببعض ظواهر ثقافية فارسية (المترجم).

(٢) يقصد البسفور وبحر مرمرة.

(٣) يقصد المسلمين، وهذا هو نوع الدعاية التي استخدمتها البابوية للحروب الصليبية (المترجم).

٦ ـ «يا له من عار إذا قام جنس خسيس مثل هذا، جنس منحل تستعبده الشياطين، بهزيمة شعب يتحلى بإيمان عظيم بالرب، ويزهو ويتألق باسم المسيح. ياالهول التهم التي سيوجهها لكم الرب نفسه إذا ما تقاعستم عن مساعدة أولئك الذين يتبعون المسيحية مثلكم.

٧ ـ وقال: «فليبادرأولئك الذين اعتادوا شن الحرب الخاصة ضد المؤمنين بالمسير ضد الكفار في حرب يجب أن تبدأ الآن لتنتهي بالنصر. وأولئك الذين ظلوا لصوصا فترة طويلة ينبغي أن يتحولوا الآن إلى جنود المسيح، وليبادر أولئك الذين حاربوا ذات مرة ضد الإخوة والأقارب إلى شن الحرب بحق ضد البرابرة. وأولئك الذين كانوا مرتزقة مأجورين من أجل حفنة من النقود الفضية[١] عليهم أن يعملوا للحصول على مكافأة خالدة. وأولئك الذين كانوا يجهدون أنفسهم لإيذاء الجسد والروح، ينبغي أن يعملوا من أجل مجد الجسد والروح معا. نعم في ناحية سيكون الحزانى والفقراء، ومن ناحية أخرى سيكون الفرحون والأثرياء؛ هنا أعداء الرب وهنا أصدقاؤه.

٨ ـ لا ينبغي لشيء أن يؤجل سفر الراغبين في الرحيل، فلينتهوا من تدبير شئونهم وليجمعوا الأموال، وعندما ينصرم الشتاء ويهل الربيع، يجب أن يبدءوا رحلتهم في حماسة برعاية الرب.

(٤)

ما يتعلق بأسقف لوبوي والحوادث التالية:

١ ـ بعد النطق بهذه الكلمات اشتعلت حماسة المستمعين، وقام كثيرون منهم، وفي فكرهم أنه ليس هناك ماهو أجدر من ذلك وأهم، ووعدوا في الحال بأن يذهبوا ويحثوا أولئك الذين لم يكونوا حاضرين على أن يحذوا حذوهم. وبينهم كان

---

(١) إنجيل متى ٢٧ : ٣، «حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى الكهنة والشيوخ». ويريد فوشيه أن يشبه المرتزقة الذين يحاربون المسيحين الكاثوليك في غربي أوربا آنذاك بيهوذا. (المترجم).

أسقف لوبوي [١] الذي صار فيما بعد المندوب البابوي ورأس جيش الرب بحكمة واقتدار، وألهمه بقوة لكي ينجز المهمة الملقاة على عاتقه.

٢ ـ ولذلك عندما تقررت هذه الأمور التي ذكرناها في المجمع ووافق الجميع عليها تماما، أسبغت بركة الخلاص على كل الذين رحلوا. وبعد أن عادوا إلى منازلهم أخبروا أولئك الذين لم يعلموا بما جرى. وعندما نشر مرسوم المجمع في كل مكان عبر كل الأقاليم، فقد وافقوا وأقسموا على الحفاظ على السلام الذي يسمى «هدنة الرب».

٣ ـ والواقع أن كثيرين من الناس من مختلف المشارب، عندما اكتشفوا أنه سيكون هناك غفران للخطايا، أقسموا أن يذهبوا بأرواح متطهرة إلى حيث يؤمرون بالذهاب.

٤ ـ آه! كم كان مناسبا ومبعث سرور لنا جميعا أن نرى تلك الصلبان المصنوعة من الحرير، والقماش المذهب، أو غير ذلك من الأقمشة الجميلة والتي خاطها أولئك الحجاج، من الفرسان أو غيرهم من العلمانيين، أو القساوسة، على أكتاف معاطفهم. لقد فعلوا هذا بأمر البابا إربان الثاني بمجرد أن أقسموا على الذهاب. فقد كان من اللائق لجنود الرب الذين كانوا يستعدون للقتال في سبيل شرفه أن يتميزوا ويحتموا برمز انتصاره. وبما أنهم زينوا أنفسهم على هذا النحو برمز عقيدتهم، فإنهم حصلوا في نهاية الأمر من الرمز على الحقيقة نفسها. لقد رقعوا ملابسهم بالعلامة الخارجية في سبيل الحصول على الحقيقة الداخلية.

٥ ـ ومن الواضح حقا أن النية الحسنة تؤدي في نهاية الأمر إلى إنجاز العمل

---

(١) هو أديمار دي مونتيل Adhemar de Monteil من عائلة إقطاعية في فالنتينوا، أصبح أسقف Le Puy بتأييد البابا جريجوري السابع. وكانت أسقفيته خاضعة للبابوية مباشرة، ومن ثم كانت مركزا للنفوذ البابوي والكلوني في منطقتها. وقد جاء البابا إربان الثاني إلى لوبوي في ١٥ من أغسطس سنة ١٠٩٥، ومن هناك أرسل الدعوة لعقد مجمع كليرمون. ومن المفترض أنه استشار أديمار حول خططه في المجمع وللحملة الصليبية، وربما يكون قد قرر حينذاك أن يجعل من أديمار المندوب البابوي في الحملة. وربما يكون السبب في ذلك راجعا إلى قدرات أديمار وإخلاصه للبابوية الجريجورية، ومكانته في منطقته، فضلا عن علاقته الطيبة بريمون السانجيلي كونت تولوز ـ انظر:
Hill, Raymond IV, Count of Toulous (Syracuse, 1962) 29 - 34.

الطيب، والعمل الطيب يجلب خلاص الروح. وإذا كان من الخير أن تكون النوايا حسنة فإنه يظل من الأفضل أن تضعها موضع التنفيذ بعد التدبر والتأمل. ومن ثم فالأحسن أن يكون ثمة رصيد من الأعمال الطيبة حتى يمكن للمرء أن يحوز لروحه النشوة بفضل الأعمال الحسنة. وعليه فليبادر كل واحد إلى النية الطيبة حتى يصل إلى عمل الخير، ويحصل على الأفضل في النهاية عن جدارة، وهو ماسيظل خالدا.

٦ ـ بهذه الوسيلة دعا إربان الرجل الحكيم المبجل إلى العمل الذي ازدهر به العالم، لأنه أعاد السلام، كما استعاد للكنيسة الحقوق التي كانت لها من قبل. كذلك بذل جهودا قوية لطرد الوثنيين من أراضي المسيحيين. ولأنه حرص بكل وسيلة على تمجيد كل شيء ينتمي للرب، فإن كل فرد تقريبا خضع مطيعا لسلطته الأبوية.

(٥)

ما يتعلق بالنزاع بين البابا إربان وجيوبرت:

١ ـ ولكن الشيطان الذي يسعى دائما لدمار الإنسان ويتجول مثل أسد، يبحث عمن يفترسه[١]، انتقى لكي يضل الشعب، منافسا للبابا إربان، هو جيوبرت[٢]. هذا الرجل أغواه الشيطان، ودعمته صفاقة الإمبراطور المذكور إمبراطور البافاريين[٣] إلى حين، ولذلك بدأ يغتصب المنصب الرسولي، عندما كان جريجوري سلف إربان وهو هيلدبراند، يعتلي عن حق الكرسي البابوي، بل إنه أبعد جريجوري نفسه من المقر البابوي في بازيليكا القديس بطرس.

---

(١) جاء في رسالة بطرس الأول (إصحاح ٥ :٨): «اصحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه هو». (المترجم).

(٢) كان جيوبرت كبير أساقفة رافنا. وفي خضم الصراع العلماني الشهير بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع انحاز جيوبرت إلى جانب الإمبراطور، ولذلك تم اختياره بابا مضادا سنة ١٠٨٠م واتخذ اسم كليمنت الثالث. ومات سنة ١١٠٠م.

(٣) يشير فوشيه ساخرا إلى الإمبراطور هنري الرابع، لا بصفته إمبراطور الرومان ولكن بصفته إمبراطور البافاريين. فقد كان هنري دوق بافاريا سنة ١٠٥٥م، وكان يستمد معظم قوته من هذه المنطقة.

٢ ـ ولأن جيوبرت تصرف على هذا النحو المعكوس، فإن أفضل الناس لم يكترثوا بالاعتراف به. وبما أن إربان قد انتخب بطريقة شرعية، بعد موت هيلدبراند، من قبل الكاردينالات[١] فإن الشطر الأكبر والأكثر تقوى بين الناس كانوا يرحبون بطاعته.

٣ ـ وعلى أي حال، فإن جيوبرت، الذي أغرته مساندة الإمبراطور المذكور، وحمية معظم سكان مدينة روما، جعل إربان غريبا في دير بطرس المبارك[٢] أطول فترة ممكنة. ولكن إربان خلال الوقت الذي أبعد فيه عن كنيسته أخذ يجوب أرجاء البلاد يدعو الناس الذين ضلوا إلى سبيل الرب.

٤ ـ وجيوبرت الذي ارتقى بحكم رئاسته للكنيسة أظهر أنه بابا يتسامح مع الخاطئين. لقد مارس السلطة البابوية، على الرغم من عدم أحقيته، فيما بين أتباعه وسخر من أفعال إربان بحُسبانها غير قائمة.

٥ ـ بيد أن إربان، في السنة التي عبر فيها الفرنج عن طريق روما صوب بيت المقدس[٣]، حصل على السلطة الرسولية كاملة بمساعدة سيدة نبيلة للغاية، هي ماتيلدا، التي كانت في ذلك الحين قوية للغاية في موطنها قرب روما[٤].

٦ ـ كان جيوبرت آنذاك في ألمانيا. وهكذا كان اثنان من البابوات يحكمان روما، ولكن الكثيرين لم يكونوا يعرفون لمن تكون الطاعة، ولا يعرفون عند من يبحثون عن المشورة أو من منهما سوف يساعد المرضى. وحبذ البعض أحدهما، على حين ساند آخرون الآخر.

---

(١) مات جريجوري سنة ١٠٨٥م، وحكم فيكتور الثالث فترة قصيرة من ١٠٨٦ ـ ١٠٨٧م، ثم اختير الراهب الكلوني الفرنسي أودو دي لايني Odo de Lagny، الكاردينال وأسقف أوستيا لكرسي البابوية سنة ١٠٨٨م تحت اسم إربان الثاني.

(٢) استخدم مصطلح «دير Monesterium» أحيانا بدلا من البازيليكا Basilica لأن كثيرين من رجال الكنيسة كانوا يحيون حياة ديرية. والمقصود هنا المقر البابوي.

(٣) يشير فوشيه إلي سنة ١٠٩٦م عندما مر الفرنج بروما لأول مرة، وكان يكتب في وقت كان الفرنج فيه قد مروا بروما عدة مرات. ويعني فوشيه بكلمة «الفرنج» هنا «الصليبيين» لأن معظم الصليبيين حينئذ كانوا من الفرنج.

(٤) ماتيلدا كونتيسة تسكانيا، اشتهرت بمساندة جريجوري السابع وإربان الثاني ضد هنري الرابع وجيوبرت، وأرسلت قوات عسكرية لمصاحبة إربان الثاني في دخول روما في مطلع سنة ١٠٩٦م بعد مجمع كليرمون.

٧ ـ ولكن كان من الواضح للأذكياء من الناس أن إربان كان الأفضل ؛ لأنه كان يُعَدُّ بحق أفضل من يتحكم في عواطفه تجاه مؤيديه ومعارضيه على السواء .

٨ ـ وبوصفه كبير أساقفة رافنا ، كان جيوبرت ثريا للغاية . وكان يتباهى بمظاهر العز . كان من الملاحظ أن مثل هذه الثروات لا تشبعه . ألم يكن من الأجدر به أن يَعُدَّه الجميع نموذجا للحياة الصحيحة ، ذلك الذي أحب التظاهر والتباهي فتجاسر على اغتصاب رمز سلطة الرب؟ من المؤكد أن منصبه لا يمكن الحصول عليه بالقوة وإنما يتم قبوله بالتقوى والتواضع .

٩ ـ كذلك لم يكن عجبا أن اضطربت الدنيا بأسرها وسادها الانزعاج . لأنه إذا كانت الكنيسة في روما ، مصدر الصواب لكل المسيحيين ، قد روعت بالفوضى ، فلا شك في أن الأعضاء من رعاياها سرعان ما يسوقون المرض إلى عصبها الرئيسي ويضعفون بمعاناتهم معها .

١٠ ـ إن هذه الكنيسة ، التي هي أمنا في الحقيقة ، والتي ربينا في حجرها والتي من مثالها أفدنا ، وتقوينا بمشورتها ، هذه الكنيسة قد ضربت حقا بهذا المتكبر جيوبرت . وعندما يكون الرأس فاسدا على هذا النحو سرعان ما يمتد الأذى إلى بقية الأعضاء .

إذا تعب الرأس عانت بقية الأعضاء .

١١ ـ وفضلا عن ذلك ، فعندما يمرض الرأس بهذه الطريقة تضعف الأعضاء بالألم ، لأنه في الأرجاء كافة في أوربا ، انتهك السلام ، والفضيلة ، والعقيدة بهمجية بأيدي الرجال الأقوياء ومن هم دونهم ، داخل الكنيسة وخارجها . وكان من الضروري وضع نهاية لهذه الشرور . ووفقا للخطة التي وضعها البابا إربان الثاني ، كان لا بد من تحويل الاقتتال الذي كان من العادة أن يدور بين المسيحيين إلى قتال ضد الوثنيين .

١٢ ـ والآن ينبغي أن أحوّل قلمي إلى التاريخ لكي أقص بوضوح لمن لا يعلمون قصة رحلة أولئك الذاهبين إلى بيت المقدس ، وما الذي حدث لهم ، وكيف تمت المهمة والواجب تدريجيا حتى انتهت بالنجاح بمساعدة الرب . وأنا فوشيه

الشارتري، الذي ذهبت مع حجاج آخرين، جمعت هذا كله فيما بعد في ذاكرتي بحرص وروية من أجل الخير، تماما على نحو مارأيته بعيني رأسي.

(٦)

وقت رحيل المسيحيين وأسماء قادة الحجاج:

١ ـ في سنة ١٠٩٦ من تجسد سيدنا، وفي شهر مارس الذ ي أعقب المجمع الذي كان البابا إربان قد عقده في أوفريني، بدأ البعض ممن كانوا أسرع من الآخرين في الانطلاق في الرحلة المقدسة. وتبعهم آخرون في إبريل ومايو، وفي يونيو أو يوليو، بل وحتى في أغسطس أو سبتمبر أو أكتوبر، حسب قدرة كل منهم على تدبير وسائل الحصول على النفقات[١].

٢ ـ في هذه السنة كان السلام مستتبا، وكانت الغلال وفيرة في جميع البلاد بفضل رحمة الرب، وبحيث لم يكن هناك نقص في الخبز في أثناء الرحلة لمن اختاروا أن يتبعوا الرب بصلبانهم حسب أوامره.

٣ ـ وبما أنه من المناسب أن نتذكر أسماء قادة الحجاج في ذلك الوقت، لذلك أذكر هوف الكبير أخا الملك فيليب ملك فرنسا[٢] أول الأبطال الذين عبروا البحر. وقد هبط هوف برجاله قرب مدينة درازو، وهي مدينة في بلغاريا[٣]. بيد أنه اندفع بقوات صغيرة فقبض عليه سكان المنطقة وقادوه إلى الإمبراطور في القسطنطينية. وهناك بقي بعض الوقت دون أن يطلق سرحه تماما[٤].

---

(١) في إعلان إربان لأهالي الفلاندرز في ديسمبر سنة ١٠٩٥م حدد يوم ١٥ من أغسطس سنة ١٠٩٦م موعدا لرحيل الجيش تحت إشراف الأسقف أديمار.

(٢) هوف كونت فرماندوا Hugh Count of Vermandois الأخ الأصغر للملك فرنسا فيليب الأول والذي يعرف عامة بالعظيم «Magnus»، وهي ترجمة لاتينية خاطئة للمصطلح الفرنسي moins ne (أي الأخ الأصغر): Brehier (ed.) Histoire Anonyme de la Premiere Croisade, 14, note3.

(٣) حاليا في ألبانيا، وكانت ضمن أراضي بلغاريا حتى قضى الإمبراطور البيزنطي باسيل الثاني الشهير بسفاح البلغار، على المملكة البلغارية سنة ١٠١٨م.

(٤) أراد الإمبراطور أليكسيوس أن يرسي هوف سابقة لغيره من الأمراء، بأن يقسم بإعادة الممتلكات البيزنطية السابقة التي قد يستولي عليها إلى الإمبراطور، ويقسم بأن يكون تابعا للأمبراطور. وقد فعل هوف ذلك. انظر: Duncalf F., "The First Crusade: Clermont to Constantinople" in Setton (ed.) Crusades, I, 284.

٤ ـ وبعده بوهيموند أمير أبوليا، وهو أحد أبناء روبرت جويسكارد، من وطن النورمان، وقد مضى بجيشه على نفس الطريق.

٥ ـ ثم جودفري دوق اللورين، الذي سافر عبر بلاد المجر بقوات كبيرة.

٦ ـ أما ريمون، كونت البروفنسال، ومعه القوط والجاسكون، وكذلك أديمار أسقف لوبوي، فقد ساروا عبر أراضي دلماشيا.

٧ ـ وثمة رجل يدعى بطرس الناسك، جمع حوله جمعا من المشاة، وعددا قليلا من الفرسان، وكان أول من عبر بلاد المجر، وبعده والتر المفلس، الذي كان جنديا ممتازا بالتأكيد، وكان هو قائد أولئك القوم. وقد لقي مصرعه بعد ذلك فيما بين نيقوميديا ونيقية على أيدي الأتراك.

٨ ـ وفي شهر أكتوبر، بدأ روبرت كونت النورمان، وأحد أبناء وليم ملك إنجلترا، رحلته. وقد جمع جيشا كبيرا للغاية من النورمان والإنجليز والبريتون، وذهب معه ستيفن كونت بلوا، صهره، ومعهما روبرت كونت الفليمنج، وكثيرون غيرهم من النبلاء.

٩ ـ ومن ثم جاءت جموع كبيرة من شتى بلدان الغرب، وتكاثر عدد الجيش رويدا رويدا، ويوما بعد يوم، بحيث صار عدة جيوش. وكان بإمكان المرء أن يرى أعدادا لا تحصى من بلدان كثيرة يتحدثون بلغات شتى. وعلى أي حال، فإنهم لم يجتمعوا في جيش واحد حتى وصلنا مدينة نيقية.

١٠ ـ ماذا عساي أن أقول؟ لقد تحركت جزر البحر و ممالك الأرض كافة بشكل يجعل المرء يعتقد أن نبوءة داود قد تحققت، إذ قال في المزامير: «كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجدون اسمك»[١]. وما قاله الذين جاءوا من بعد حقا وصدقا: «لندخل إلى مساكنه. لنسجد عند موطئ قدميه»[٢]. وعن هذه الرحلة قرأنا الكثير في النبوءات التي لا نمل ترديدها.

١١ ـ أواه! يا له من حزن، ويا لها من زفرات ونحيب وبكاء، ويا له من أسى بين

---

(١) مزامير ٨٦: ٩.

(٢) مزامير ١٣٢: ٧.

الأحباء والأصدقاء، حين يترك الزوج زوجته الحبيبة، ويترك أطفاله، وممتلكاته مهما كبرت، وحين يترك المرء أباه وأمه، وأخوته، وغيرهم من الأقارب.

١٢ ـ ولكن، مهما كانت الدموع التي ذرفها الباقون من أجل أحبائهم الراحلين، فإن أحدا لم يتقاعس عن الرحيل لأنهم كانوا يتركون كل ما تركوه في سبيل حب الرب، لأنهم كانوا مقتنعين تماما بأنهم سينالون أضعافها مائة مرة حسبما وعد الرب محبيه[١].

١٣ ـ ثم أخبر الزوج زوجته عن الوقت الذي يتوقع أن يعود فيه، مؤكدا أنه إذا نجا بفضل الرب فسوف يرجع إليها. فقد تركها في رعاية الرب، ثم قبّلها، وحين بكت وعدها بأن يعود. أما هي، فقد خشيت ألا تراه ثانية ولم تتمالك نفسها، فسقطت على الأرض مغشيا عليها تنعى حبيبها الحي كما لو كان ميتا. أما هو فقد ظهر عليه التأثر لبكاء زوجته ولكنه أخفاه، ولم يبد عليه الشعور بالحزن والألم لحزن أصدقائه، ومع ذلك فإنه كان يعاني هذه المشاعر في السر، ومضى في طريقه عاقدا العزم على الرحيل.

١٤ ـ وعلى أي حال، فإن الحزن الذي أصاب الباقين كان مبعث سرور الراحلين. فما الذي يمكن أن نقوله إذن؟ «من قبل الرب كان هذا، وهو عجيب في أعيننا»[٢].

(٧)

رحلة كونت النورمان والأحداث التي جرت في روما في أثناء وجودهم بها:

١ ـ ثم عبرنا نحن الفرنج الغربيين بلاد الغال وسافرنا عبر إيطاليا حتى وصلنا إلى لوكا، وهي مدينة مشهورة جدا. وبالقرب منها قابلنا البابا إربان الثاني، وتكلم معه روبرت النورماني وستيفن كونت بلوا وغيرهما ممن رغبوا في ذلك. وبعد أن منحنا بركاته واصلنا مسيرتنا فرحين إلى روما.

---

(١) جاء بإنجيل متى (١٩ : ٢٩) «وكل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمي يأخذ مئة ضعف ويرث الحياة الأبدية».
انظر أيضا إنجيل لوقا ١٨ : ٢٩ـ ٣٠. (المترجم).

(٢)مزامير ١١٨ : ٢٣.

٢ ـ وعندما دخلنا إلى كنيسة بطرس المبارك، قابلنا أمام المذبح رجالا من أتباع جيوبرت البابا المزيف، ذلك البابا المعتوه[١]، وكانت سيوفهم بأيديهم فاختطفوا القرابين التي قدمت على المذبح. وكان هناك آخرون يجرون فوق سقف الكنيسة نفسها جيئة وذهابا، ومن هناك أخذوا يقذفون الأحجار علينا ونحن نصلي، لأنهم عندما كانوا يرون أحدا مخلصا لإربان يودون لو ذبحوه فورا.

٣ ـ وفي أحد أبراج الكنيسة كان هناك رجال البابا إربان، وكانوا يحرسون البرج من أجله بإخلاص، صامدين في مواجهة خصومهم قدر طاقتهم. وانتابنا حزن شديد عندما رأينا مثل هذه الأفعال الشنيعة ترتكب هناك، بيد أننا لم نكن نرغب في شيء سوى أن يحل بهم عقاب من الرب. ولهذا السبب، انتاب الضعف والجبن كثيرين ممن جاءوا معنا حتى هذا المكان فعادوا إلى ديارهم دون تردد.

٤ ـ وعلى أي حال، فإننا مضينا عبر كامبانيا حتى وصلنا إلى باري، وهي مدينة غنية على شاطئ البحر. وهناك في كنيسة سان نيقولاس صلينا للرب بحرارة. وبعد ذلك اقتربنا من الميناء وفي ظننا أن نعبر البحر في ذلك الوقت. ولكن معارضة البحارة، وسوء الحظ، وطقس الشتاء، تحالفوا علينا، وتهددنا الخطر. فكان من الضروري أن ينسحب الكونت روبرت أمير نورماندي إلى كالابريا حيث يقضي الشتاء القاسي هناك. ومع ذلك فإن الكونت روبرت أمير الفلاندرز عبر البحر بجيشه في ذلك الوقت.

٥ ـ وفي ذلك الوقت، فإن كثيرين من عامة الناس الذين تركهم قادتهم وخشوا ما قد يحمله المستقبل من سوء، باعوا أقواسهم، وخلعوا شارات الحج، وعادوا أدراجهم إلى بلادهم كالجبناء، ولهذا السبب بدوا في أعين الناس وأمام الرب بلا قيمة، وحل بهم عار وخزي كبير.

---

(١) استخدم فوشيه الكلمة اللاتينية «Stolidus»، بيد أننا يجب أن نضع في حُسباننا أن جيوبرت لم يكن معتوها، وربما كانت هذه صيغة احتقار للبابا الذي عدّه فوشيه، (نصير إربان) بابا مزيفا. (المترجم).

(٨)

غرق الحجاج وتجلي المعجزة الربانية:

١ ـ وفي سنة ١٠٩٧ من سنوات الرب، وعندما كان جو الربيع تهل بشائره في شهر مارس، اتجه روبرت النورماندي والكونت ستيفن أمير بلوا، اللذان كانا ينتظران تحسن الأحوال الجوية، برجالهما صوب البحر في الحال. وتم تجهيز الأسطول. وفي إبريل، في عيد الفصح المبارك، ركبوا السفن من ميناء برنديزي.

٢ ـ «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء»[1]. لأننا شاهدنا قاربا واحدا بين القوارب الأخرى. كان قرب الشاطئ، ولم يكن يبدو أن ثمة شيئا يعوقه، وفجأة انشق من منتصفه. وكان على متنه أربعمائة شخص من الجنسين هلكوا غرقا، بيد أنهم حمدوا الله وسبحوه حالا بصوت عال.

٣ ـ ذلك أنه حين تمكن الموجودون في المكان من جمع الجثث التي تمكنوا من جمعها اكتشفوا أن الصلبان قد وسمت على لحومهم على أكتاف بعضهم. لأن ما كان يحمله الأحياء على ملابسهم، أي العلامة المنصورة (الصليب)، كان ينبغي بإرادة الرب أن يظل معهم؛ لأنهم قضوا نحبهم على هذه الحال وهم في خدمته بفضل إيمانهم. وفي الوقت نفسه، فإن العقل يجعل الأمر واضحا لمن يتدبر ويفكر فيه. لقد كان من المناسب أن يحصل أولئك الموتى، من خلال معجزة كهذه، على سلام الحياة الخالدة بفضل رحمة الرب، وبالدليل الواضح الذي حققته النبوءة القائلة بأن العادل سيجد السلام، حتى لو مات قبل الأوان.

٤ ـ أما الآخرون الذين كانوا يصارعون الموت، فلم ينج منهم سوى عدد قليل. وقد أودت أمواج البحر بالخيول والبغال، وضاعت أموال كثيرة. وعندما شاهدنا هذه الكارثة تملكنا خوف شديد لدرجة أن كثيرين من أصحاب القلوب الضعيفة، ممن لم يكونوا قد صعدوا بعد على متن السفن، عادوا أدراجهم إلى بلادهم، وتخلوا عن رحلة الحج، قائلين إنهم لا يمكن أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة مياه البحر الغادرة.

---

(١) رسالة بولس الرسولي إلى أهل رومية ١١ : ٣٣.

٥ ـ ولكننا إذ وضعنا أملنا في الرب العظيم في أعماقنا، اندفعنا إلى البحر على حين هبت ريح لطيفة، ورفعت الأشرعة من جديد، ودوى صوت الطبول عاليا. وبعد أن توقفنا في أعالي البحر ثلاثة أيام بسبب سكون الريح، وصلنا في اليوم الرابع(١) إلى أرض تبعد حوالي عشرة أميال عن مدينة درازو حسب تقديري. وقد أرسينا أسطولنا في ميناءين. ثم واصلنا رحلتنا البرية في سرور واقتربنا من المدينة التي ذكرناها من قبل.

٦ ـ وقد مضينا عبر أرض البلغار، في مناطق جبلية وأماكن صحراوية إلى حد ما. ثم وصلنا جميعا إلى النهر السريع الذي يسميه سكان هذه المناطق نهر الشيطان، وهو اسم يستحقه(٢)، لأن كثيرين غالبهم التيار القوي فجأة، فهلكوا وهم يحاولون الخوض فيه خطوة فخطوة. ولم يستطع أحد ممن شاهدوا المنظر مساعدتهم. وهناك أرقنا دموعا غزيرة حزنا عليهم وشفقة بهم، ولو لم يقدم الفرسان المساعدة للسائرين على أقدامهم لهلك كثيرون بنفس الطريقة. ثم أقمنا معسكرنا قرب ضفة النهر، حيث توقفنا ليلة واحدة. وكانت الجبال الشاهقة غير المأهولة تطل علينا كالأبراج من كل اتجاه.

٧ ـ وفي الصباح الباكر عندما لاح ضوء النهار، ومع دقات الطبول والإشارات، بدأنا في تسلق الجبال التي يسمونها الباجولاتوس (الباجورا Bagora). وبعد أن عبرنا المدن الجبلية مثل لوكريتيا، وبوتيلا، وبونفينات، وستيلا، وصلنا إلى نهر يسمى بارداريوس (فردار). وكان المعتاد عبوره بالقوارب فقط، ولكننا تمكنا من عبوره بمساعدة الرب، وفرحنا لهذا. وعندما عبرناه ضربنا خيامنا في اليوم التالي قبالة تسالونيكا، وهي مدينة تنعم بالرخاء وبها البضائع كافة.

٨ ـ وبعد أن تأخرنا هناك أربعة أيام (٣)، ذهبنا من هناك إلى مقدونيا عبر وادي

---

(١) التاسع من إبريل عام ١٠٩٧م.

(٢) الطريق من درازو إلى القسطنطينية كما وصفه فوشيه هو الطريق العسكري الروماني القديم Via Egnatia. وهو طريق يمر بوادي نهر Skumbi الذي سمي في نص فوشيه «نهر الشيطان Flumen Daenmonis»

William R. Shepherd, Historical Atlas (9th ed., New York 1964), Plates 10 - 11.

(٣) من ٢٢ إلى ٢٦ من إبريل سنة ١٠٩٧م.

فيليبي [١]، ثم عبرنا كريسوبولس، إلى خريستو بوليس، وبارتيوريا، ومسينوبوليس، وماكرا، وترايانا بوليس، ونيابوليس، وبانا دوكس، وهيراكليا، وسالومبريا، وناتورا، ثم القسطنطينية [٢]. وبعد أن ضربنا خيامنا أمام المدينة استرحنا على مدى أربعة عشر يوما.

٩ ـ ولكننا لم نحاول دخول المدينة، لأن الإمبراطور لم يسمح بهذا (إذ كان يخشى أن ننتهز الفرصة ونتآمر للإضرار به)، فقد كان من الضروري أن نشتري من خارج الأسوار ما نحتاج إليه من مؤن يوميا. وكان سكان المدينة يحضرون إلينا بناء على أوامر الإمبراطور. ولم يكن مسموحا إلا لخمسة أو ستة أفراد بالدخول إلى المدينة مرة كل ساعة. وهكذا كان البعض يخرجون ليدخل غيرهم للصلاة في الكنائس [٣].

(٩)

من القسطنطينية إلى نيقية:

١ ـ أواه! يا لها من مدينة ممتازة وجميلة! كم بها من الأديرة والقصور التي شيدت بمهارة وفقا لطرز مدهشة. وكم من الأعمال الباهرة تصافح البصر في شوارع المدينة وأحيائها! سيكون أمرا مضجرا أن نعدد وفرة أصناف البضائع كافة الموجودة هناك؛ من ذهب وفضة، وأنواع كثيرة من العباءات، والذخائر المقدسة. ففي كل فصل من فصول السنة، يُحضِر التجار الذين يفدون كثيرا عن طريق البحر

(١) وادي نهر سترايمون.

(٢) ١٤ من مايو سنة ١٠٩٧م.

(٣) لم يشأ الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ ـ ١١١٨م) أن يترك شيئا للظروف في علاقته مع الصليبيين تحت قيادة روبرت النورماندي وستيفن أمير بلوا، لأنه كان قد واجه المتاعب قبل ذلك مع أتباع بطرس الناسك، وجودفري البويوني وبوهيموند النورماندي، ولكن فوشيه الذي يكتب تحت تأثير رغبة البابا إربان لمساعدة البيزنطيين بصفتهم أخوة مسيحيين لم يعترض على إجراءات الإمبراطور، بل إنه صلى في الكنائس البيزنطية على الرغم من الشقاق الذي حدث بينها وبين الكنائس الكاثوليكية منذ سنة ١٠٥٤م.

إلى هذا المكان جميع ما يمكن أن يحتاج إليه الإنسان[1]. وفي ظني أن بالمدينة حوالي عشرين ألف خصي يعيشون هناك باستمرار[2].

٢ ـ وبعد أن استرحنا بما فيه الكفاية، تشاور قادتنا ثم اتفقوا على أن يقسموا اليمين للإمبراطور بعد إلحاحه[3]. وكان بوهيموند والدوق جودفري اللذان سبقانا قد وافقا بالفعل على ذلك. ولكن الكونت ريمون رفض الخضوع. وعلى أي حال، فإن كونت الفلاندرز أقسم يمين الولاء مثلما فعل الآخرون.

٣ ـ كان من الضروري للجميع أن يمدوا أواصر الصداقة مع الإمبراطور لأننا لا يمكن أن نتم رحلتنا بسهولة دون مساعدته ومشورته، ولا يمكن أن يتمها أولئك الذين يتبعوننا على الطريق.

٤ ـ وعندما تم هذا، عبرنا البحر الذي يسمى ذراع سان جورج، ثم هرولنا إلى مدينة نيقية[4]. وكان السيد بوهيموند، والدوق جودفري، والكونت ريمون، وكونت الفلاندرز قد فرضوا الحصار عليها منذ منتصف شهر مايو. وكانت حينئذ في حوزة الأتراك، وهم شعب عنيف من الشرق ماهرون في استخدام القوس. وقد عبروا نهر الفرات من فارس قبل خمسين سنة وأخضعوا الأراضي الرومانية كافة حتى مدينة نيقوميديا[5].

٥ ـ آه كم هي كثيرة رءوس القتلى وعظامهم التي وجدناها ملقاة في الحقول قرب البحر في المناطق المحيطة بنيقوميديا! ففي تلك السنة (١٠٩٦م) استأصل الأتراك

---

(١) نجد أن طابع الانبهار بمدينة القسطنطينية يغلب على أسلوب الكاتب المجهول مؤلف
Gesta Francorum (RHC., Occ., III, 494),

(٢) كان فوشيه، مثل غيره من الأوربيين غير العارفين، يظن أن الإمبراطور البيزنطي يحتفظ في قصره بعدد من الحريم والخصيان.

(٣) وافق كل من هيوفرماندوا وجودفري البويوني وأخيه بلدوين، وبوهيموند، وروبرت أمير الفلاندرز وروبرت النورماندي على أن يعيدوا لأليكسيوس الأملاك الإمبراطورية السابقة.

(٤) وصلوا مدينة نيقية في الثالث من يونيو سنة ١٠٩٧م.

(٥) كانت قبائل الأتراك السلاجقة قد عبرت نهر الفرات واستقرت في المناطق الواقعة إلى الغرب منه منذ حوالي سنة ١٠٥٧م، واكتسحوا الأناضول كلها تقريبا بعد أن هزموا البيزنطيين في مانزكرت سنة ١٠٧١م.
Claude Cahen. "The Turkish Invasions the Selchukids" in Setton (ed.), I, 247, - 49.

أفراد شعبنا الذين كانوا يجهلون القوس وكيفية استخدامه. وإذ حرك هذا المشهد مشاعرنا سكبنا كثيرا من دموعنا[1].

(١٠)

حصار نيقية والاستيلاء عليها:

١ ـ عندما سمع الذين كانوا على حصار نيقية بوصول قادتنا، كونت نورماندي، وستيفن أمير بلوا، خرجوا للقائنا وهم مسرورون ورافقونا حتى مكان جنوبي المدينة حيث ضربنا خيامنا.

٢ ـ وحدث من قبل أن جمع الأتراك قواهم على أمل طرد قوات الحصار بعيدا عن المدينة قدر الإمكان، أو على الأقل الدفاع عنها بجنودهم بفعالية أكثر، ولكن رجالنا دمروهم تماما، وقتلوا منهم حوالي مائتين. وفضلا عن ذلك، فإنهم حين رأوا مدى قوة الفرنج وشجاعتهم في القتال تقهقروا مهرولين داخل أراضي رومانيا حتى تواتيهم فرصة مناسبة لمعاودة هجومهم.

٣ ـ وكان الأسبوع الأول من يونيو، عندما وصلنا نحن، آخر القادمين لكي ننضم إلى قوات الحصار.

٤ ـ في ذلك الوقت، تم تشكيل جيش موحد من تلك الجيوش الكثيرة التي كانت هناك وقدره العارفون بالحساب بحوالي ستمائة ألف جندي مقاتل. ومن بينهم كان حوالي مائة ألف تحميهم معاطف الزرد والخوذات. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك من لا يحملون السلاح مثل القساوسة والرهبان والنساء والأطفال.

٥ ـ فما الذي حدث إذن؟ لو أن كل المحاربين الذين رحلوا من ديارهم للقيام بالرحلة المقدسة كانوا موجودين هناك، فلا شك في أن عددهم كان سيصل إلى ستة ملايين مقاتل[2] ولكن من روما، ومن أبوليا، ومن المجر، أو من دلماشيا عاد

---

(١) هذه إشارة إلى المذبحة التي جرت على أتباع بطرس الناسك في أكتوبر سنة ١٠٩٦م. انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، (طبعة ثانية، الكويت ١٩٨٨)، ص١٦٦ ـ ص ١٦٩. (المترجم).

(٢) تبدو المبالغة الشديدة واضحة في كلمات هذا القسيس الذي صحب الحملة الصليبية الأولى، وربما كان دافعه إلى ذلك الرغبة في تصوير الحملة الصليبية في صورة أخاذة مبهرة. (المترجم)

البعض من الذين لم يكن لديهم استعداد للتعرض للصعاب. وفي أماكن كثيرة لقي آلاف مصرعهم، كما أن بعض المرضى الذين واصلوا السير معنا ماتوا في نهاية الأمر. وكان بوسع المرء أن يرى الكثير من المقابر على طول الطريق وفي الحقول التي دفنا فيها حجاجنا[١].

٦ ـ ويجب أن أشرح أنه طوال مدة حصارنا لنيقية كانت السفن تحضر لنا الطعام بموافقة الإمبراطور. ثم أمر زعماؤنا بصنع آلات القتال، مثل المنجنيقات والكباش[٢] والأبراج الخشبية غيرها، وقاتل رجالنا ورجال العدو، كرا وفرا، بكل قوة. وغالبا ما كنا نهاجم المدينة بآلاتنا، ولكن الأسوار المنيعة التي كانت قائمة في مواجهتنا جعلت هجومنا غير ذي جدوى. وغالبا ما كان الأتراك الذين تصيبهم الأقواس أو الحجارة يهلكون، وكان الفرنج يلقون نفس المصير.

٧ ـ حقا، كان لابد لك أن تحزن وتأسى عندما يقتل الأتراك أيا من رجالنا بأي طريقة بالقرب من الأسوار؛ لأنهم كانوا ينتشلون الجثث بالخطاطيف المدلاة بالحبال لكي ينهبوها. ولم يكن أحد من رجالنا يجرؤ، أو يستطيع، أن يمنع عنهم هذه الجثث، وبعد أن يجرد الأتراك القتلى من متعلقاتهم كانوا يقذفون بالجثث خارج السور.

٨ ـ ثم سحبنا السفن الصغيرة بمساعدة الثيران والحبال من كيفيتوت برا حتى نيقية، ثم وضعنا السفن في البحيرة لمنع الاقتراب من المدينة ولكي لا تصلها المؤن والإمدادات[٣].

٩ ـ ولكن بعد أرهقنا المدينة بحصار استمر خمسة أسابيع، وأوقعنا الرعب شديدا في نفوس الأتراك بهجماتنا، عقدوا مؤتمرا في تلك الأثناء، وسلموا المدينة

---

(١) هروب الصليبيين في روما وعودتهم إلى بلادهم سبق ذكره في الفصل السابع. أما أولئك الذين هربوا في المجر، فلابد أنهم من أتباع بطرس الناسك، ووالتر المفلس، وجودفري، والذين هربوا في دالماشيا من أتباع ريمون السانجيلي. ولا شك في أن فوشيه قد تأثر، وهو يشير إلى الموتى، ببقايا جثث أتباع بطرس الناسك الذين لقوا حتفهم قرب نيقوميديا.

(٢) آلات لتقويض الأسوار وحماية الحفارين الذين يعملون تحتها (المترجم).

(٣) حاصر الصليبيون المدينة من ثلاث جهات لكنهم لم يحكموا الحصار حولها تماما إلا بعد أن منعوا الإمدادات عن طريق بحيرة أسكانيوس Ascanius الواقعة غربي المدينة.

سرا إلى الإمبراطور من خلال الوسطاء، بعد أن كان الإرهاق قد نال منها فعلا تحت وطأة قوتنا ومهارتنا[١].

١٠ ـ بعد ذلك، سمح الأتراك لقوات التركبولي[٢] التي أرسلها الإمبراطور بدخول المدينة. وقد استولى هؤلاء على المدينة وكل ما بها من أموال باسم الإمبراطور وتنفيذا لأوامره. وبعد أن تم الاستيلاء على هذه الأموال، أمر الإمبراطور بتقديم الهدايا إلى زعمائنا، وهي هدايا من الذهب والفضة والنفائس، ووزع على الجنود المشاة عملات نحاسية تعرف باسم التارتون.

١١ ـ في ذلك اليوم عندما تم الاستيلاء على نيقية بعد أن استسلمت بهذه الطريقة كان شهر يونيو قد وصل إلى عشريه[٣].

(١١)

المعركة المميتة التي خاضها المسيحيون ضد الأتراك:

١ ـ عندما تلقى باروناتنا الإذن بالرحيل قبل ثلاثة أيام من شهر يوليو، تركنا نيقية لكي نتوغل في المناطق الداخلية من رومانيا[٤]. ولكن بعد أن مضينا في رحلتنا لمدة يومين، أعلن أن الأتراك، بعد أن أعدوا الكمائن في السهول التي توقعوا أن نمر بها، ينتظرون أن يخوضوا المعركة.

٢ـ عندما سمعنا بهذا لم نفقد شجاعتنا. ولكن في ذلك المساء، عندما شاهد كشافونا الكثيرين منهم على بعد مسافة، حذرونا في الحال؛ ولذلك وضعنا حراسة

---

(١) تروي آنا كومنينا، المؤرخة البيزنطية وابنة الإمبراطور أليكسيوس كومنينوس، قصة استسلام نيقية للضابط البيزنطي «بوتو ميتيس» الذي لعب دور الوسيط بينهم وبين الإميراطور. ويتضح من قصتها كيف فضل أهل نيقية الاستسلام للبيزنطيين الذين يعرفونهم على الاستسلام للصليبيين المتوحشين ـ انظر.

Anna Comnena, The Alexiade, (transl. by E. R. A. Sewter, Penguin 1979), PP. 333 - 341. (المترجم).

(٢) كان التركبولي فرسانا خفيفي التسليح من أصل تركي يخدمون كمرتزقة في الجيش البيزنطي.

(٣) يقصد فوشيه يوم ٢٠ من يونيو سنة ١٠٩٧م، ولكن التاريخ الفعلي هو ١٩ من يونيو. راجع: Hagenmyer, chronalogie, 160).

(٤) ليست رومانيا الحديثة، وإنما المقصود هنا أملاك الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى.

على خيامنا من جميع الجوانب في تلك الليلة. وفي الصباح الباكر، في مطلع شهر يوليو، وبعد أن أخذ كل منا سلاحه، وتم ترتيب الجيش في أجنحة لمواجهة الأتراك، بقيادة قادة السرايا والكتائب، ومعهم بوق للتحذير والراية بأيديهم، بدأنا نتقدم في تشكيل قتالي.

٣ ـ في الساعة الثانية من ذلك اليوم[1] اقتربت مقدمتهم من كشافتنا. وعندما علمنا بهذا ضربنا خيامنا قرب أحد المستنقعات، وإذ تخففنا من أحمالنا أصبحنا أكثر استعدادا للقتال.

٤ ـ وبعد هذا، كان هناك الأتراك وأميرهم سليمان[2] الذي كان يسيطر على مدينة نيقية وبلاد رومانيا، وحوله الأتراك والفرس الوثنيون الذي رحلوا على مدى ثلاثين يوما أو أكثر لمساعدته. كما كان معه الكثير من الأمراء منهم Amircacardi-gum و Miriathos[3] وكثيرون غيرهما. وكان مجموعهم ثلاثمائة وستين ألفا من المحاربين من رماة السهام، لأن من عادتهم استخدام مثل هذه الأسلحة. وكانوا جميعا من الفرسان، أما نحن فقد كنا من الفرسان والمشاة.

٥ ـ في ذلك الوقت لم يكن الدوق جودفري والكونت ريمون وهيو الكبير معنا. وعلى مدى يومين، ولسبب لا أعرفه، افترقوا عن جيشنا عند مفترق الطرق ومعهم عدد كبير من رجالنا. وبسبب هذا حل بنا أذى لا يمكن إصلاحه، فقد ذبح عدد كبير من رجالنا، ولم يجد الأتراك من يقتلهم أو يصدهم. ولأنهم تلقوا رسالتنا في وقت متأخر جاءت مساعدتهم لنا متأخرة.

٦ ـ وأطلق الأتراك سحابة من السهام علينا وهم يصيحون كالذئاب. ووسط صليل صياحهم، وإذ أصابتنا وكدنا نموت بعد أن جرح الكثيرون، لذنا بالفرار. ولا غرابة في ذلك لأن هذا النمط من القتال مجهول لنا جميعا.

---

(١) أول يوليو سنة ١٠٩٧م. ويقصد فوشيه بالساعة الثانية الصباح الباكر ما بين السادسة والسابعة.

(٢) قلج أرسلان الأول ابن سليمان سلطان سلاجقة الروم (١٠٩٢ ـ ١١٠٧م).

(٣) هذه الأسماء مربكة وغامضة في النص الأصلي. وفي رأي هاجنماير أن اسم Amircacardigum يقصد به الأمير قراجا، و Miriathos هو الأمير أتسيز. وكان ثمة أمير اسمه قراجا حكم حمص سنة ١١٠٤، كما حكم أتسيز في فلسطين سنة ١٠٧١ ـ ١٠٧٢م، ولكننا لا نعرف على وجه التحديد من يقصدهم فوشيه.

٧ ـ ومن جزء آخر من المستنقع، أقبلت عصبة كبيرة منهم يشقون طريقهم بعنف حتى وصلوا إلى خيامنا. وحين دخلوها انتزعوا أشياءنا، وقتلوا بعضا منا، ثم حدث بتدبير من الرب أن أطبقت مقدمة جيوش هيو الكبير، وريمون والدوق جودفري عليهم من الخلف. وبينما تقهقر رجالنا نحو خيامنا، رحل الأتراك ظنا منهم أن رجالنا قد عادوا لقتالهم. ولكن ماحسبوه شجاعة، كان في الحقيقة خوفا عظيما لو كانوا يعلمون.

٨ ـ ترى ماذا أحكي بعد ذلك؟ لقد تراكمنا جميعا، مثل قطيع من الماشية في حظيرة، نرتعش ونرتجف خوفا ورعبا، وقد أحاط بنا العدو من كل جانب، لدرجة أننا لم نكن قادرين على التحول في أي اتجاه. وكان من الواضح أن هذا حدث لنا بسبب خطايانا. ذلك أن الإسراف أفسد البعض، كما أفسد الجشع وشرور أخرى البعض الآخر. وانطلقت صيحة عظيمة تستغيث بالسماء، أطلقها الرجال والنساء والأطفال الصغار، وأيضا من الوثنيين الذين اندفعوا نحونا، ولم يبق أمل في الحياة.

٩ ـ ثم اعترفنا بأننا مذنبون خطاة، وتوسلنا في طلب رحمة الرب، وكان أسقف لوبوي حامينا هناك، ومعه أربعة آخرون من الأساقفة. وكان هناك كثيرون من القساوسة في مسوحهم البيضاء، وتوسلوا إلى الرب أن يرفع قوة العدو ويصب هبات رحمته علينا، وغنوا وهم يبكون، وبكوا وهم يغنون. ولأن كثيرين خشوا من الموت العاجل، جروا نحوهم واعترفوا لهم بخطاياهم[1].

١٠ ـ وقاوم زعماؤنا؛ روبرت كونت نورماندي، وستيفن كونت بلوا، وروبرت كونت الفلاندرز، وبوهيموند أيضا، وبذلوا في المقاومة كل ما في طاقتهم، وناضلوا كثيرا لضربهم. وقد تلقى أولئك ضربات عنيفة من الأتراك أيضا.

---

(١) هذه القصة التي تقول إن أديمار استمع إلى اعترافات في أثناء المعركة، تنقضها رواية المؤرخ المجهول صاحب Gesta Francorum التي تقول إن الأسقف أديمار كان واحدا من قادة القتال، وأنه كان واحدا ممن يجمعون جنود المؤخرة.

(١٢)

فرار الأتراك وانتصار المسيحيين:

١ ـ إن الرب لا يعطي النصر لنبالة المولد، أو للتفوق في استخدام السلاح، ولكنه يساعد من يحمل قلبا نقيا والذي يتقوى بالقوة الربانية ساعة الحاجة. ومن ثم، فإن الرب، وربما أرضاه تضرعنا وتوسلاتنا، أعاد لنا الشجاعة والقوة رويدا رويدا، وأضعف الأتراك شيئا فشيئا. فعندما رأينا حلفاءنا الذين هبوا لنجدتنا، وهم يمجدون الرب، استعدنا شجاعتنا ونظمنا أنفسنا في فرق وكتائب وكافحنا في سبيل المزيد من المقاومة.

٢ ـ وا أسفاه! كم قتلوا من رجالنا الذين كانوا قد تخلفوا وراءنا في ذلك اليوم! بل إنه منذ الساعات الأولى في النهار، أحاطت بنا المتاعب حتى الساعة السادسة، ولكن حينئذ، رويدا رويدا، وبعد أن تحفزنا وتقوينا بالاتحاد مع بعض حلفائنا، حلت بنا النعمة الربانية بشكل إعجازي. وفجأة رأينا ظهور الأتراك وهم يولون هاربين.

٣ ـ وطاردناهم، ونحن نصيح بوحشية فوق الجبال وخلال الوديان، ولم نتوقف عن استئصالهم حتى وصل أسرع رجالنا إلى خيامهم. وهناك حمَّل بعضهم الجمال والخيول الكثيرة بمتاع الأتراك، وبخيامهم التي تركوها في غمرة الخوف والهلع. وتتبع البعض الآخر الأتراك الهاربين حتى أرخى الليل سدوله. ولأن خيولنا كانت جائعة ومتعبة، فقد احتفظنا ببعض خيولهم.

٤ ـ كانت تلك معجزة ربانية عظيمة بحيث إنهم، في اليوم التالي واليوم الثالث، كانوا ما يزالون سادرين في هربهم على الرغم من أن أحدا لم يكن يطاردهم سوى الرب نفسه.

٥ ـ وإذ ابتهجنا بهذا النصر قدمنا الشكر للرب. لقد شاء ألا تنتهي رحلتنا نهاية سيئة، بل أن تكون مجيدة بشكل غير عادي من أجل المسيحية التي تنتمي إليه هو. ومن ثم، فإن الأنباء السارة لهذا النصر سوف يتردد صداها ما بين الشرق والغرب إلى الأبد.

٦ ـ ثم واصلنا رحلتنا في حرص وروية. وفي أحد الأيام عانينا من عطش شديد

لدرجة أن بعض الرجال والنساء لقوا حتفهم من جرائه. أما الأتراك الذين كانوا يفرون أمامنا في فوضى، فقد راحوا يبحثون لأنفسهم عن ملاجئ في أنحاء رومانيا.

(١٢)

معاناة المسيحيين وعوزهم:

١ ـ ثم وصلنا إلى أنطاكية، التي يسمونها الدنيا، في مقاطعة بيسيديا، ثم وصلنا إلى قونية. وفي هذه الأقاليم غالبا ما كنا في حاجة إلى الخبز وغيره من الطعام. لأننا وجدنا رومانيا، أرضا ممتازة وخصبة للغاية بها منتجات من كل الأنواع، ولكنها تعرضت للتدمير المرعب وأخليت من سكانها على يد الأتراك[١].

٢ ـ وعلى أي حال، فإنه كان باستطاعتك أن ترى أناسا كثيرين يعيشون على منتجات المزارع المبعثرة التي كنا نجدها بين الحين والآخر في أنحاء الريف. كانت هذه مساعدة من الرب الذي استطاع بخمسة أرغفة وسمكتين أن يطعم خمسة آلاف شخص[٢]. وبذلك صرنا راضين، واستمتعنا بهذه النعم التي اعترفنا بأنها فضل من رحمة الرب.

٣ ـ ثم حدث ما قد يثير الضحك، أو يستدعي البكاء شفقة، لأن كثيرين من قومنا الذين كانوا يحتاجون إلى حيوانات لنقل أمتعتهم لأن كثيرا منها هلك، وضعوا أحمالهم فوق الجديان، والماعز، وإناث الخنازير، والكلاب التي حملت الملابس، والطعام، وأي أمتعة ضرورية للصليبيين. وشاهدنا

---

(١) وصل الصليبيون أنطاكية في بيسيديا (قرب بالفاش الحالية) قرب نهاية شهر يوليو سنة ١٠٩٧م ووصلوا قونية في منتصف أغسطس تقريبا. ويشير المؤرخ المجهول إلى أن الصليبيين وصلوا بلدا أحسن حالا عندما اقتربوا من قونية ـ انظر:

Anonymous, Gesta Francorum et Aliorum Hieroso lymitanorum: The Deeds of Frenks and other Pilgrims to Jerusalem,(edited and transl, by: Rosalind M. Hill, London 1962),PP. 21-27.. (المترجم)

(٢) إنجيل متى ١٤ : ١٧ ـ ٢٠؛ مرقص ٦: ٣٨ـ٤٤؛ لوقا: ٩: ١٣ـ١٦؛ يوحنا ٦: ٩ـ١٠.

ظهور هذه الحيوانات الصغيرة تنوء بأحمال هذه الأمتعة. وفي بعض الأحيان ركب الفرسان المسلحون الثيران.

٤ ـ ومن ذا الذي سمع من قبل عن مثل هذا الخليط اللغوي في جيش واحد؟ كان هناك الفرنجة، والفلمنج، والفريزيون، والغال، والألوبروجيون، واللوثرنجيون، والأليماني، والبافاريون، والنورمان، والإنجليز، والإسكتلنديون، والأقطانيون والإيطاليون، والداشيون، والأبوليون، والأيبيريون، والبريتون، واليونان، والأرمن. وإذا أراد واحد من البريتون أو التيوتون أن يسألني فإنني لم أكن أستطيع الرد أو أن أفهم ما يقول[١].

٥ ـ ولكن على الرغم من اختلاف ألسنتنا، كنا نبدو أخوة في حب الرب، وتفكيرنا واحد تقريبا. لأنه عندما كان أي فرد يفقد أمتعته فإن من يجدها يحتفظ بها في حرص عدة أيام ويسأل عن صاحبها حتى يجده ويعيدها إليه[٢]. كان هذا في الواقع التصرف الصحيح لأولئك الذين قاموا برحلة الحج بدافع من التقوى.

(١٤)

أعمال وشجاعة الكونت بلدوين، أخي جودفري، وأخذ مدينة الرها:

١ ـ عندما وصلنا مدينة هرقلية، شاهدنا علامة معينة في السماء تجلت في بياض براق على شكل سيف نصله مشرع صوب الشرق. وما كان يخبئه المستقبل لم نكن نعرفه، ولكننا تركنا الحاضر والمستقبل للرب.

٢ ـ ثم وصلنا إلى مدينة مزدهرة اسمها مرعش. واسترحنا في هدوء هناك على

---

(١) هذه القائمة من الأسماء بلاغية يستعرض فيها فوشيه معلوماته الجغرافية المستقاة من مصادر كلاسيكية. ويقصد بكلمة الفرنج Franci القادمين من شمالي فرنسا حيث موطنه هو شخصيا. أما الغال Galli فيقصد بهم سكان وسط فرنسا. أما Allobrages فهم أهل دوفين وسافوي؛ والأليماني ـ Alemanni سكان جنوبي ألمانيا وسويسرا، والداشيون Daci هم سكان رومانيا الحالية وشرقي المجر.

(٢) يكتب فوشيه هذه العبارة من منطلق أخلاقي عما كان ينبغي أن يكون عليه سلوك الصليبيين، ولكن واقع الأحداث ـ حتى في روايته ـ يقول إن تصرفات جنود وأفراد الحملة الصليبية كان يتسم بقدر كبير من الوحشية والفوضى. (المترجم)

مدى أيام ثلاثة[1]. ولكن عندما سرنا مسافة يوم من هناك، ولم نكن نبعد أكثر من ثلاثة أيام من مدينة أنطاكية في سوريا، انسحبت أنا فوشيه من الجيش الرئيسي مع الكونت بلدوين شقيق الدوق جودفري، ودخلنا البلاد باتجاه الشمال[2].

٣ ـ والواقع أن بلدوين كان فارسا فائق القدرة. فقد سبق له أن ترك الجيش مع أولئك الذين أحضرهم معه واستولى ببسالة عظيمة على المدينة التي تسمى طرسوس في قليقية. وانتزعها من تنكرد الذي كان قد دفع برجاله بموافقة الأتراك. وقد ترك بلدوين حامية بهذه المدينة ثم عاد إلى الجيش الرئيسي[3].

٤ ـ وهكذا، وضع بلدوين ثقته في الرب وفي قوته شخصيا، وجمع عددا قليلا من الفرسان وانطلق صوب نهر الفرات. وهناك استولى على عدة بلدان بالقوة وبالاتفاق. ومن بينها مدينة كانت أكثرها أهمية اسمها تل باشر. وقد سلمها الأرمن الذين كانوا يقيمون فيها إلى بلدوين سلما، كما خضعت له مدن أخرى كثيرة.

٥ ـ وعندما ذاعت أنباء ما حدث في شتى الأرجاء، أرسل أمير مدينة الرها مندوبا إلى بلدوين[4]. وهذه المدينة مشهورة جدا وتقع في منطقة خصيبة للغاية. فهي في إقليم ما بين النهرين على مسافة حوالي عشرين ميلا أو أكثر من أنطاكية[5].

٦ ـ وقد طلب الدوق من بلدوين أن يذهب إلى هناك بحيث يتبادلان الصداقة،

---

(١) من ١٣ إلى ١٦ من أكتوبر سنة ١٠٩٧م.

(٢) منذ ذلك الوقت (١٧ من أكتوبر سنة ١٠٩٧)، كان فوشيه يتابع أحوال بلدوين في مغامرته بالرها. ولم يكن شاهد عيان للقصة المركزية للصليبيين حتى قدوم بلدوين إلى بيت المقدس ليصبح ملكا فيما بعد سنة ١١٠٠م. ويقصد فوشيه بعبارة «البلاد باتجاه الشمال» منطقة أرمينية، وكانت تمتد من تل باشر حتى الرها.

(٣) قصة الصراع الذي جرى على طرسوس بين بلدوين وتنكرد استمرت منذ منتصف شهر سبتمبر حتى منتصف شهر أكتوبر سنة ١٠٩٧م ـ انظر:

Robert Lawrence Nicholson, Tancred: Crusading Leader and Lord of Galilee and Antioch (Chicago: University of Chicago Press, 1940), PP. 38 - 56.

(٤) كان حاكم الرها هو الأرمني Thoros، الذي كان يحكم بوصفه حاكما بيزنطيا، وفي الوقت نفسه كانت تربطه علاقة تبعية بالأتراك المجاورين.

(٥) الرها (أورفا حاليا) على مسافة حوالي ٤٥ ميلا شرقي الفرات، ومسافة حوالي ١٦٠ ميلا شمال شرقي أنطاكية.

مثل أب وابنه، طالما بقيا على قيد الحياة. وإذا حدث أن مات دوق الرها تكون المدينة ملكا لبلدوين هي وجميع أملاك الدوق في الحال بوصفها إرثا له كما لو كان ابنا للدوق. وبما أن الدوق لم يكن له ابن أو ابنة، ولأنه لم يكن قادرا على الدفاع عن نفسه ضد الأتراك، فإنه أراد أن يضع نفسه وأملاكه تحت حماية بلدوين. فقد سمع أن بلدوين وفرسانه مقاتلون أشداء للغاية.

٧ ـ وبمجرد أن سمع بلدوين هذا العرض واقتنع بجديته بعد أن أقسم المندوبون القادمون من الرها على ذلك، تحرك بجيشه الصغير المؤلف من ثمانين فارسا لكي يعبروا نهر الفرات. وبعد أن عبرنا هذا النهر واصلنا السير بسرعة كبيرة طوال الليل، وفي خوف شديد مررنا من خلال المدن الإسلامية التي كانت مبعثرة هنا وهناك.

٨ ـ وعندما سمع الأتراك الذين كانوا في مدينة سميساط الحصينة بهذا، أعدوا الكمائن لنا على الطريق الذي حسبوا أننا سنطرقه. ولكن في الليلة التالية آوانا أحد الأرمن في قلعته. وحذرنا لكي نحترس من ألاعيب العدو هذه، ولهذا السبب اختبأنا هناك لمدة يومين[1].

٩ ـ ولكن في اليوم الثالث، كان الأتراك قد ضجروا من هذا التأخير، فاندفعوا نحونا من الأماكن التي اختبئوا فيها وراياتهم تخفق أمام القلعة التي كنا بها، وأمام عيوننا ساقوا القطعان التي وجدوها في المراعي غنيمة لهم.

١٠ ـ وخرجنا ضدهم، ولكن نظرا لقلة عددنا لم نستطع أن نصمد أمامهم. وقد أطلقوا السهام لكنهم لم يجرحوا أيا منا. وعلى أي حال، فإنهم تركوا واحدا من رجالهم قتيلا أصابته حربة في ميدان المعركة. واحتفظ الرجل الذي أنزله بفرسه لنفسه. ثم رحل العدو، لكننا بقينا هناك.

١١ ـ في اليوم التالي واصلنا رحلتنا. وعندما كنا نمر بمدن الأرمن، كان من المدهش أن نراهم يقبلون في تواضع للترحيب بنا، وهم يحملون الصلبان

---

(١) كان أمير سميساط يسمى بلدوق (Mathew of Eddessa, RHC. Arm. I. 36) ولسنا نعرف اسم الأرمني الصديق الذي آواهم.

والرايات، ويقبلون أقدامنا وملابسنا حبا في الرب لأنهم كانوا قد سمعوا أننا ذاهبون لحمايتهم ضد الأتراك الذين كانوا يئنون تحت نيرهم منذ وقت طويل(١).

١٢ ـ وأخيرا وصلنا الرها حيث كان الأمير السابق ذكره وزوجته، ومعهم مواطنوهم، قد استعدوا فرحين لاستقبالنا، وأوفوا بوعودهم لبلدوين دونما تأخير.

١٣ ـ وبعد أن بقينا هناك خمسة عشر يوما، تآمر المواطنون في مؤامرة شريرة لذبح أميرهم لأنهم كانوا يكرهونه ولكي يرفعوا بلدوين إلى القصر ليكون حاكمهم. لقد تم هذا الاقتراح ونفذ بالفعل. وقد حزن بلدوين ورجاله كثيرا لأنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا له على الرحمة(٢).

١٤ ـ وبمجرد أن قبل بلدوين منصب الرجل هدية من المواطنين الذين اغتالوه بمؤامرة شريرة، بدأ يشن حربا ضد الأتراك الذين كانوا في البلاد. وفي مرات كثيرة هزمهم وقتل منهم البعض. وعلى أي حال، فقد لقي كثيرون من رجالنا أيضا مصرعهم على يد الأتراك.

١٥ ـ لقد كنت أنا، فوشيه، القس الخاص لبلدوين هذا. وأرغب الآن في مواصلة الحكاية، التي قطعت سياقها، حكاية جيش الرب.

(١٥)

وصول الفرنج إلى أنطاكية وتقلبات أحوال الحصار:

١ ـ في شهر أكتوبر(٣) وبعد عبور النهر الذي يسمونه فيرنوس أو الأورنط (نهر العاصي) وصل الفرنج إلى أنطاكية في بلاد الشام، ،وهي المدينة التي أسسها

---

(١) كان الأتراك السلاجقة قد استولوا على الرها سنة ١٠٧٨م، واستولى عليها توروس الأرمني سنة ١٠٩٤م.

(٢) الإيجاز الذي أورد به فوشيه هذه القصة مخيب للآمال. وربما يكون السبب في ذلك أنه لم يستطع أن يبرر فشل بلدوين في الدفاع عن توروس ثم ترحيبه بأن يكون المستفيد من موت توروس. انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، (الطبعة الثانية، الكويت ١٩٨٨م)، ص ٢٠١. (المترجم).

(٣) ٢٠ من أكتوبر سنة ١٠٩٧م.

سليوكوس بن أنطيوخوس[١] لتصير عاصمة لسوريا. وكانت قبل ذلك تسمى ربلاتا[٢]. وصدرت الأوامر بضرب الخيام على مسافة قبالة المدينة، وهناك جرت مواجهات عنيفة كثيرة بين الجانبين. ذلك أنه عندما كان الأتراك يخرجون من المدينة، كانوا يقتلون عددا من رجالنا، لكن كانت الإجراءات الانتقامية تتم بحيث حزنوا على قتلاهم أيضا.

٢ ـ ومن المؤكد أن أنطاكية مدينة كبيرة للغاية، وهي جيدة التحصين ذات موقع حسن. ولم يكن للأعداء أن يستولوا عليها أبدا من الخارج طالما توالت إمدادات الطعام للسكان، وطالما عقدوا العزم على الدفاع عنها[٣]. وفي أنطاكية كنيسة مشهورة جدا مكرسة لشرف بطرس الرسولي، حيث تمت رسامته أسقفا بها. وحيث تلقى من السيد المسيح شرف السبق للكنيسة وتسلم منه مفاتيح السموات[٤].

٣ ـ وهناك كنيسة أخرى أيضا، دائرية الشكل، بنيت تكريما لمريم المباركة، مع كنائس أخرى تم بنيانها بالشكل الملائم. وكانت هذه تحت سيطرة الأتراك لمدة طويلة، ولكن الرب، الذي يعرف الغيب كله، أبقى عليها لنا حتى نشرف اسمه فيها يوما من الأيام.

٤ ـ وأظن أن البحر يبعد حوالي ثلاثة عشر ميلا عن أنطاكية. ولكن نهر فيرنوس يفيض في البحر في تلك البقعة، فإن السفن المحملة بالبضائع تجيء من الأراضي النائية حتى تأتي في مجراه حتى أنطاكية. وهكذا فإن المدينة التي كانت البضائع من كل نوع تصلها برا وبحرا كانت ترفل في النعيم من كل نوع.

---

(١) تأسست أنطاكية على يد سليوقوس الأول نيكاتور، الذي كان واحدا من قادة الإسكندر الأكبر سنة ٣٠٠ ق.م. وسميت أنطاكية على اسم أنطيوخوس الذي كان ضابطا في خدمة فيليب المقدوني.

(٢) ربلاتا تقع إلى الجنوب من مدينة حماة السورية. وقد اختلط الأمر على سان جيروم، فخلط بين ربلاتا وأنطاكية، ونقل عنه فوشيه هذا الخطأ.

(٣) دخل فوشيه المدينة وتعرف عليها جيدا في أكتوبر سنة ١١٠٠م.

(٤) يقرر المؤرخ المجهول أن القديس بطرس أسس أسقفية أنطاكية، ويذكر كنيسة القديس بطرس عدة مرات في سياق كتابه. لمناقشة هذا الموضوع انظر:

G. Lanville Downey, A History of Antioch in Syria (Princeton University Press, 1961) 56 ff 67 ff and 581 - 82.

٥ ـ وعندما رأى أمراؤنا مدى الصعوبة التي ستواجههم في الاستيلاء على المدينة أقسموا على أن يتعاونوا سويا في الحصار، حتى يستولوا عليها بمشيئة الرب عنوة أو صلحا.

٦ ـ ووجدوا بعض القوارب على صفحة النهر المذكور. فاستولوا عليها وكونوا منها جسرا يعبرون عليه. وكان باستطاعتهم العبور على هذا الجسر لتنفيذ خططهم، حيث كان عليهم قبل ذلك أن يخوضوا في الماء بصعوبة.

٧ ـ ولكن الأتراك عندما رأوا أنهم محاصرون بهذا العدد الكبير من المسيحيين خافوا ألا يمكنهم مقاومتهم. وبعد أن تشاوروا سويا قام أوكسيان أمير أنطاكية [١] بإرسال ابنه سانكسادو[٢] إلى السلطان (بركياروق ١٠٩٤ ـ ١١٠٤م)، إمبراطور فارس لكي يرسل له نجدة سريعة، لأنهم لم يكن لديهم أمل في مساعدة أحد سوى نبيهم محمد[٣]. وهكذا قام بسفارته على وجه السرعة.

٨ ـ وأولئك الذين بقوا داخل المدينة يحرسونها، في انتظار المساعدة المطلوبة، غالبا ما كانوا يدبرون لإيقاع صنوف الأذى بالفرنج. ومع هذا فإن الفرنج قاوموا مكرهم بكل قوتهم.

٩ ـ وحدث ذات يوم أن قتل الفرنج سبعمائة من الأتراك، وانهزم الأتراك الذين أعدوا الكمائن لإيقاع الفرنج فيها عندما داهمهم هؤلاء في أحد الكمائن. وكانت قوة الرب ماثلة هناك. وعاد جميع رجالنا سالمين باستثناء جريح واحد.

١٠ ـ وا أسفاه، كم من المسيحيين اليونانيين والأرمن والسوريان من سكان المدينة قتلوا ضحية غضب الأتراك المجنون، بينما كان الفرنج يشاهدون الأتراك وهم يقذفون رءوس القتلى بالقاذفات والمقاليع. وقد تسبب هذا في حزن قومنا. ذلك أن

---

(١) هذا تحريف لاسم «ياغي سيان» حاكم أنطاكية التركي (١٠٨٨ ـ ١٠٩٨م) والذي كان السلطان ملك شاه قد عينه حاكما عليها.

(٢) يقصد «شمس الدولة».

(٣) تكشف هذه العبارة عن عدم فهم فوشيه لحقيقة الدين الإسلامي، وعلاقة النبي عليه الصلاة والسلام بالمؤمنين وبالله سبحانه تعالى، وهو يسقط مفاهيم المسيحية الكاثوليكية على الإسلام في هذا النص. (المترجم).

الأتراك كانوا يكرهون أولئك المسيحيين، وخافوا أن يقوموا بمساعدة الفرنج في هجومهم ضد الأتراك.

١١ ـ وعندما مر بعض الوقت على حصار الفرنج للمدينة، ونهبوا المناطق المحيطة للحصول على الطعام اللازم لهم، وخربوا النواحي كافة، لم يَعُدْ ممكنا أن يجدوا الخبز ليشتروه من أي مكان، وعانوا من الجوع معاناة متزايدة. ونتيجة لهذا، تسرب اليأس إلى الجميع، وبدأ كثيرون ينسحبون من الحصار سرا، عن طريق البر وعن طريق البحر على السواء.

١٢ ـ ولكن لم يكن لديهم المال الذي يكفي لإعالتهم. بل إنهم اضطروا إلى البحث عن الطعام في أماكن بعيدة وقد غشيهم خوف شديد، وأخذوا يبتعدون لمسافة أربعين أو خمسين ميلا عن مكان الحصار، وهناك في الجبال غالبا ما كان مصيرهم القتل بأيدي الأتراك الذين كانوا يكمنون الكمائن.

١٣ ـ وأحسسنا بأن هذه الكوارث حلّت بالفرنج بسبب خطاياهم، وأنهم لهذا لن يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة. ذلك أنهم فسدوا بسبب الإسراف والجشع والكبرياء والطمع.

١٤ ـ وبعد عقد اجتماع استشاري، طردوا النساء من المعسكر، سواء المتزوجات أو غير المتزوجات حتى لا يغريهن الطمع فيقمن بعمل يغضب الرب. وحينئذ ذهبت أولئك النسوة للبحث عن أماكن يقمن فيها بالمعسكرات المجاورة.

١٥ ـ وكان الغني والفقير، على حد سواء، مكتئبين من الجوع وبفعل حوادث القتل اليومية. وبدا أنه لو لم يقم الرب، مثل الراعي الطيب، يجمع قطيعه سويا، فلا شك في أنهم سوف يهربون جميعا على الرغم من أنهم أقسموا على البقاء في الحصار. ذلك أن نقص الخبز على مدى عدة أيام جعل الكثيرين يبحثون عن ضروريات الحياة في القلاع المجاورة، ولم يعودوا بعد ذلك إلى الجيش لأنهم تركوا الحصار بصفة نهائية.

١٦ ـ في هذا الوقت، رأينا وهجا مدهشا في السماء، وفي الوقت نفسه شعرنا بحركة عظيمة في الأرض جعلتنا نهتز جميعا. وكثيرون رأوا في هذا الوقت أيضا

علامة معينة على هيئة صليب ذات لون يميل إلى البياض، تتقدم صوب الشرق في مسار مستقيم[١].

(١٦)

فقر المسيحيين البائس وهرب كونت بلوا:

١ ـ في سنة سيدنا ١٠٩٨ م، بعد أن كانت المنطقة المحيطة بأنطاكية قد نهبت تماما وأجدبت بسبب عددنا الكبير، تعرض الشباب والشيوخ على السواء لوطأة الجوع المتزايد.

٢ ـ عندئذ التهم الناس الذين كانوا يتضورون جوعا أعواد الفول التي كانت ما تزال تنمو في الحقول، كما أكلوا أنواعا كثيرة من الأعشاب بدون الملح، بل أكلوا الأشواك التي لم يتم طهوها جيدا بسبب نقص أخشاب الوقود مما تسبب في إيذاء ألسنة الذين أكلوها. كما أنهم أكلوا الخيول والبغال والجمال والكلاب، بل وحتى الفئران. بل إن الناس الأكثر فقرا أكلوا جلود الحيوانات وبذور الغلال التي وجدوها في القمامة والسباخ.

٣ ـ وفي حب الرب تحمل الناس البرد والحرارة، وهطول الأمطار الغزيرة. وقد صارت خيامهم بالية ممزقة، وتعفنت من الأمطار المستمرة. ولهذا السبب لم يكن بعضهم يملك ما يلتحف به غير السماء.

٤ ـ ومثل الذهب الذي عولج بالنار، وتمت تنقيته سبع مرات، أعتقد أن المختارين الذين جربهم الرب تطهروا من خطاياهم بهذه المعاناة. فعلى الرغم من أن سيف القتلة لم يتوقف يوما، فإن كثيرين من الناس عانوا من العذاب الطويل واستشهدوا وهم فرحون. وربما أخذوا العزاء من المثال الذي ضربه لهم أيوب المقدس الذي طهر روحه بمعاناة الجسد وعذابه. وكان يذكر الرب بصفة دائمة. فإنهم عندما كانوا يناضلون ضد الوثنيين، إنما كانوا يعملون من أجل الرب.

---

(١) سنلاحظ كثيرا في ثنايا كتاب فوشيه أنه كلما اشتد الكرب بالصليبيين جاء الكلام عن المعجزات والعلامات الربانية لمساعدة الصليبيين، وطالما كانت الأمور في صالحهم تختفي هذه الأخبار، أو تكاد، من صفحات الكتاب. (المترجم)

٥ ـ وعلى الرغم من أن الرب الذي يخلق الجميع، يأمر جميع خلقه، ويحفظ ما أمر به، يحكم بقوته، ويقدر على أن يدمر أو يصلح ما يريد، فإنني أشعر بأن ثمن المعاناة التي عاناها المسيحيون سيكون تدمير الوثنيين، لأنهم كثيرا ما وطئوا بأقدامهم في حماقة كل ما ينتمي إلى الرب على الرغم من أن ذلك كان بإذنه، ولأن الناس كانوا يستحقونه. والحقيقة أنه سمح بأن يُذبح المسيحيون لزيادة خلاصهم، وسمح للأتراك أن يفعلوا ذلك من أجل لعنة أرواحهم. ولكن أولئك الأتراك الذين قدر لهم سلفا أن ينالوا الخلاص، استحقوا فرح الرب حين نالوا المعمودية على أيدي قساوستنا. «والذين دعاهم فهؤلاء بررهم أيضا. والذين بررهم فهؤلاء مجّدهم أيضا»[1].

٦ ـ وماذا بعد؟ انسحب بعض رجالنا كما سمعتم من الحصار الذي كان صعبا للغاية. كان انسحاب بعضهم بسبب العوز والحاجة، على حين انسحب البعض الآخر بسبب الجبن، وانسحب البعض خشية الموت. وكان الفقراء ينسحبون في البداية، ثم تبعهم الأغنياء.

٧ ـ ثم ترك ستيفن، كونت بلوا، الحصار وعاد إلى موطنه في فرنسا عن طريق البحر. وقد حزنا جميعا لأنه كان رجلا نبيلا كما كان بارعا في استخدام السلاح. وفي اليوم التالي لرحيله استسلمت مدينة أنطاكية للفرنج. ولو أنه بقي لفرح كثيرا مع الآخرين، لأن ما فعله كان عارا عليه. ذلك أن البداية الطيبة لن تفيد المرء إذا لم تكن نهايته طيبة أيضا. وفي الأمور التي تتعلق بالرب سوف أختصر لئلا أشرد أو أضل، لأنه في هذه الأمور يجب أن أكون حريصا حتى لا أبتعد عن الحقيقة.

٨ ـ ومن شهر أكتوبر هذا، كما ذكرنا، استمر حصار المدينة طوال الشتاء التالي والربيع حتى شهر يونيو[2]، وتبادل الفرنج والأتراك عدة هجمات واشتبكوا في مصادمات كثيرة، ونالوا النصر ولحقتهم الهزيمة. وعلى أي حال، فإننا في الغالب كنا نكسب أكثر منهم. وحدث ذات مرة أن غرق عدد كبير من الأتراك في نهر العاصي وهم يحاولون الهرب. وعلى ضفتي النهر تقاتل الناس مرات عديدة.

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨ : ٣٠.

(٢) من ٢٠ من أكتوبر سنة ١٠٩٧ حتى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨م.

٩ ـ وشيد أمراؤنا القلاع في مواجهة المدينة[١]، وقد تمكن رجالنا من صد الأتراك بعدد من الهجمات العنيفة. ونتيجة لهذا كانوا يمنعون حيوانات العدو من المرعى.

١٠ ـ ولم يكن شيء يجلب إلى الداخل بواسطة الأرمن القاطنين خارج المدينة، ومع ذلك فإنهم غالبا ما كانوا يتصرفون وفق ما نريد.

(١٧)

استسلام مدينة أنطاكية:

١ ـ وعندما شاء الرب، الذي استجاب لصلوات شعبه، أن ينهي عمل شعبه الذين كانوا يتوسلون إليه يوميا طالبين العون والمساعدة، منحهم حبه، بحيث تسلم المدينة لهم سرا بفضل خيانة هؤلاء الأتراك أنفسهم، وتعود للمسيحيين ثانية. فاستمعوا إلى قصة خيانة، ومع ذلك فهي ليست خيانة.

٢ ـ لقد تجلى سيدنا لواحد من الأتراك اختاره بنعمته[٢]، وقال له: «انهض أيها النائم، فإنني آمرك أن تعيد المدينة للمسيحيين». وقد سكت الرجل المذهول ولم ينبئ أحدا بهذه الرؤيا.

٣ ـ ومرة أخرى تجلى له الرب وقال: «أعد المدينة للمسيحيين، لأنني أنا المسيح حقا آمرك بهذا». وحار الرجل في أمره، ولم يدر ماذا يفعل؛ فذهب إلى سيده أمير أنطاكية[٣]، وأخبره بخبر الرؤيا؛ فأجابه بقوله: «هل تريد أن تطيع شبحا أيها الرجل؟». فعاد الرجل أدراجه وظل صامتا.

٤ ـ ثم تجلى له الرب مرة أخرى قائلا: «لماذا لم تفعل ما أمرت به؟ ليس لك أن

---

(١) برج ماليجارد في شرقي أنطاكية، وبرج لاماهومري في الشمال، وبرج تنكرد في غربي المدينة.

(٢) يشير فوشيه هنا إلى فيروز، أو بيروس Pirus، الذي تشير المصادر الصليبية إليه بصفته من الأتراك السلاجقة، بينما توضح المصادر العربية أنه كان أرمنيا اعتنق الإسلام بعد أن استولى الأتراك على أنطاكية. واسمه الأرمني (فيروز) معناه «المنتصر» وكان من عائلة تشتغل بصناعة السلاح. وتبدو هنا نغمة كنسية تريد إرجاع كل نصر إلى تدخل إلهي لصالح الصليبيين. (المترجم).

(٣) ياغي سيان.

تتردد لأنني أنا سيد الجميع آمرك بهذا» . وإذ تخلص التركي من شكوكه رتب مؤامرة مع رجالنا بحيث يستولون على المدينة .

٥ ـ وعندما تم الاتفاق على هذا ، أعطى التركي ابنه رهينة للسيد بوهيموند الذي كان أول من عرف بأمر هذه الخطة وأول من تأثر بها . وفي الليلة الموعودة ساعد التركي عشرين من رجالنا على تسلق الأسوار بواسطة سلم من الحبال ، وتم فتح البوابة . ودخل الفرنج الذين كانوا على أهبة الاستعداد إلى المدينة . وقام أربعون من جنودنا الذين كانوا قد دخلوا المدينة بذبح ستين تركيا وجدوهم يحرسون الأبراج ، ثم صاح الفرنج كلهم بصوت عال «الرب يريدها ، الرب يريدها» . لأن هذه الصيحة كانت صيحة الحرب التي كنا نطلقها عندما نكون على وشك إنهاء أي مشروع جيد .

٦ ـ وعندما سمع الأتراك هذه الصيحة غشيهم خوف شديد . وسرعان ما بدأ الفرنج في مهاجمة المدينة . وبدأت أنوار الفجر تلوح في الأفق . وعندما لاحظ الأتراك راية بوهيموند الحمراء في بداية الأمر ، تخفق عالية ، وسمعوا الضوضاء تشق المكان بصمته ، على حين راحت أصوات طبول الفرنج تدوي فوق أسوار المدينة ، والفرنج يجرون في شوارع المدينة ، وسيوفهم مشرعة ، يقتلون الناس في وحشية ، تملكتهم الحيرة وبدءوا يحاولون الهرب هنا وهناك ، وهرب أكبر عدد ممكن من الأتراك صوب القلعة التي كانت تقوم على تل مرتفع .

٧ ـ واستولى العامة من رجالنا على كل ما وجدوه في الشوارع والبيوت ، دونما تمييز ، لكن الفرسان الذين كانت لهم خبرة بشئون الحرب ، استمروا في البحث عن الأتراك وقتلهم .

٨ ـ أما أمير أنطاكية المدعو أوكسيانوس(١) فقد قطعت رأسه بيد فلاح أرمني ، وهو يحاول الهرب ، وقد أحضر الفلاح رأسه إلى الفرنج .

(١٨)

اكتشاف الحربة:

١ ـ وحدث بعد الاستيلاء على المدينة أن رجلا وجد حربة في حفرة بالأرض ، تحت كنيسة بطرس المبارك . وعندما تم اكتشافها ، أكد الرجل أنها نفس الحربة التي

---

(١) يقصد ياغي سيان .

طعن بها لونجينوس الجانب الأيمن للمسيح، كما يقول الكتاب المقدس[1]. وقال إن سان أندرو الحواري هو الذي كشف عنها له[2].

٢ ـ وعندما تم اكتشافها، وأخبر الرجل بنفسه الكونت ريمون وأسقف لوبوي، ظن الأسقف أن القصة زائفة، ولكن الكونت كان يأمل في أن تكون قصة حقيقية.

٣ ـ وعندما سمع الناس كلهم بهذا مجدوا الرب وعظموه. وعلى مدى مائة يوم تقريبا كانت الحربة تحظى بتبجيل شديد، ويحملها بتكريم كبير الكونت ريمون الذي تولى حراستها. ثم حدث أن كثيرين من القساوسة والعلمانيين ترددوا وظنوا أن هذه ليست حربة الرب، ولكنها حربة أخرى لفقها هذا الرجل المعتوه.

٤ ـ وبعد صيام وصلوات استمرت ثلاثة أيام أشعلوا النار في كومة من الأخشاب في الميدان الكائن قبالة مدينة أركاس في الشهر الثامن بعد الاستيلاء على أنطاكية[3] وقام الأساقفة بمباركة النيران. ثم جرى مكتشف الحربة وسط النيران بسرعة لكي يبرهن على أمانته، بناء على طلبه. وعندما مر الرجل خلال اللهب ثم خرج وجدوه مذنبا، لأن جلده احترق وعرفوا أنه لحق به ضرر مميت داخل جسده. وقد عرف هذا الأمر وشاع لأنه مات في اليوم الثاني عشر مثقلا بوطأة الذنب الذي جناه.

٥ ـ ولأن الجميع كانوا يبجلون الحربة، حبا للرب وتكريما له، فعندما انتهت المحاكمة عن طريق المحنة تملك الحزن والريبة أولئك الذين كانوا يعتقدون فيها من قبل. ومع هذا فإن الكونت ريمون ظل يحتفظ بالحربة بعد ذلك لفترة طويلة[4].

---

(١) جاء في إنجيل يوحنا ١٩ : ٣٤ «لكن واحدا من العسكر طعن جنبه بحربة، وللوقت خرج دم وماء». (المترجم).

(٢) كان فوشيه آنذاك في الرها، بيد أن كلماته تكشف عن مدى تشككه في قصة الحربة المقدسة، كما كان فوشيه من المعارضين لمحاولة ريمون كونت تولوز لاستغلال قصة الحربة لكي يحرز لنفسه مكان الزعامة. ـ انظر: قاسم عبده قاسم، الخلفية الأيديو لوجية، ص ١٠٤ ـ ص ٢٠٥. (المترجم)

(٣) هذه المحاكمة التي جرت على الطريقة الجرمانية وقعت يوم ٨ من إبريل سنة ١٠٩٩ م في مدينة عرقة، على مسافة حوالي ثلاثة عشر ميلا شرقي طرابلس.

(٤) احتفظ ريمون السانجيلي بالحربة حتى حملة سنة ١١٠١م.

(١٩)

حصار المسيحيين داخل أنطاكية بواسطة الأتراك:

١ ـ في اليوم التالي للاستيلاء على أنطاكية، كما حكينا من قبل، فرضت أعداد كبيرة من الأتراك الحصار على أنطاكية. ذلك أنه بمجرد أن عرف السلطان، الذي هو ملك الفرس، أن الفرنج يحاصرون أنطاكية، أمر بحشد عدد كبير من الرجال، وأرسل جيشا ضد الفرنج. وكان قائد هؤلاء الناس هو كربوقا[١].

٢ ـ وظل قبالة مدينة الرها ثلاثة أسابيع، وكان يحكمها آنذاك السيد بلدوين، ولكنه حين فشل في تحقيق شيء هناك أسرع يحث الخطى صوب أنطاكية لكي ينقذ الأمير أوكسيانوس (ياغي سيان).

٣ ـ وعندما رأى الفرنج هذه الأمور خارت شجاعتهم من جديد، وكان ذلك عقابا مضاعفا لهم بسبب خطاياهم. لأنهم عندما دخلوا المدينة ارتكب الكثيرون منهم جريمة الزنا.

٤ ـ وحينئذ دخل المدينة حوالي ستين ألفا من الأتراك عن طريق القلعة القائمة على جانب التل المرتفع[٢]، وبدءوا يطبقون على رجالنا بهجمات جسورة كثيرة، ولكنهم لم يمكثوا طويلا لأن الرعب تملكهم فتركوا المدينة لكي يحاصروها من الخارج. وظل الفرنج محصورين داخل أسوار المدينة تحت وطأة متاعب تفوق الخيال.

(٢٠)

الرؤى التي ظهرت داخل المدينة:

١ ـ في الوقت نفسه تجلى الرب للكثيرين من الناس، وهي حقيقة رددوها كثيرا، واستراحوا عندما وعدهم أنهم سيفرحون بالنصر عما قريب. ثم تجلى الرب لأحد

---

(١) هو أتابك الموصل الطموح ممثل السلطان بركيا روق الذي يحكم في خراسان آنذاك.

Runciman, S., A History of the Crusades, I, PP. 78, 203 - 204, 213 - 214.

(٢) هذه القلعة على جبل سيلبيوس Mount Silpius. ورقم «ستين ألفا» مجرد تعبير بلاغي عن الكثرة، وليست له قيمة عددية حقيقية. وقد كان المسلمون داخل أحد أقسام المدينة من ٨ إلى ١٤ من يونيو.

القساوسة وكان هاربا، خشية الموت، وقال له: «إلى أين تذهب أيها الأخ؟» فقال: «إنني هارب حتى لا أهلك».

وهكذا هرب الكثيرون خشية الهلاك بأنياب الموت المرعب[1]. وأجاب الرب على القسيس بقوله: «لا تهرب، ولكن عد بسرعة، وأخبر الآخرين أنني سأكون معهم في المعركة لأنني استجبت لصلوات أمي وسأكون رحيما بالفرنج. ولكن لأنهم ارتكبوا الخطايا فقد أوشكوا على الهلاك. وليكن أملهم فيّ دائما، وسوف أجعلهم ينتصرون على الأتراك. وليتوبوا ويكفروا عن خطاياهم وسوف أنقذهم. لأنني أنا الرب الذي أتحدث إليك». وعاد القسيس أدراجه ثم حكى ما سمعه[2].

٣ ـ لأنه لم يكن بوسعهم أن يتحملوا مثل هذه المشقة أكثر من ذلك، إذ لم يعد لديهم ما يأكلونه، فقد كانوا هم وجيادهم غاية في الضعف. وعندما أذن الرب بإنهاء معاناة عباده، وافقوا على صيام ثلاثة أيام مع الصلاة على أمل أن يرضوا الرب بتوبتهم هذه.

(٢١)

الهجوم الذي شنه الفرنج على الأتراك:

١ ـ في الوقت نفسه، وبعد أن تشاور الفرنج، أرسلوا بطرس الناسك إلى الأتراك ليخبرهم أنهم إذا لم يخلوا الأرض التي كانت ملكا للمسيحيين من قبل في هدوء، فإن الفرنج سوف يهاجمونهم بكل تأكيد. وإذا قبل الأتراك ستكون المعركة بين خمسة أو عشرة أو عشرين، أو حتى مائة من الفرسان يختارون من كل جانب، تجنبا لموت عدد كبير في القتال الشامل. والجانب الذي ينتصر رجاله على الآخرين، تكون المدينة وحكمها من حقهم دون منازع.

---

(١) هذه ترجمة لبيت من الشعر كتبه فوشيه تعليقا على روايته، وهو أمر يتكرر بين الحين والآخر في تاريخه كما سنرى. (المترجم).

(٢) انظر رواية ريمون الأجويلري عن وليم دي جرانت منسيل William de Grant - Mensil RHC, Occ., III, 256. انظر الترجمة العربية لرواية ريمون في: قاسم عبده قاسم، الحروب الصليبية ـ نصوص ووثائق (القاهرة ١٩٨٥م). ص ٢٢٦ ـ ص ٢٣٨. (المترجم).

٢ ـ كان هذا هو المطلب، ولكن الأتراك رفضوه، إذ إنهم كانوا واثقين بأعدادهم الكبيرة وبقوتهم، وظنوا أن بمقدورهم أن يهزمونا ويدمرونا.

٣ ـ وكان عددهم يقدر بحوالي ثلاثمائة ألف من الفرسان والمشاة[١]. وكانوا يعرفون أن فرساننا يعانون من الضعف وأن المشاة لا حول لهم ولا قوة.

٤ ـ كان قادة الأتراك كثيرين، ويطلق عليهم «الأمراء»، وهم كورباجات[٢]، ومالدوكات[٣]، وأميسليمان[٤] وكثيرون غيرهم لا مكان لذكرهم.

(٢٢)

استعدادات المعركة:

١ ـ كان أمراء الفرنج هم هيو الكبير، وروبرت كونت نورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز، والدوق جودفري، والكونت ريمون، وبوهيموند، فضلا عن كثير من النبلاء الأقل رتبة. وليمنح الرب بركته إلى روح أديمار أسقف لوبوي الذي كان هو نفسه رجلا رسوليا بحق، وكان دائما يواسي الناس ويقويهم في الرب بحبه وحنانه.

٢ ـ يا لها من استعدادات تغلفها التقوى! ففي الليلة السابقة أمر أديمار نفسه بأنه ينبغي على كل فارس في جيش الرب أن يعطي جواده أكبر قدر ممكن من الغلال المخصصة له مهما ارتفع ثمنها، خوفا من أن ينهار الجواد في اليوم التالي ساعة المعركة، تحت وطأة الضعف والجوع. وصدر الأمر وتم تنفيذه على هذا النحو.

٣ ـ وهكذا انطلق جميع من كانوا مستعدين للمعركة خارج المدينة مع تباشير النهار في اليوم الرابع قبل نهاية شهر يوليو[٥]. وتم تنظيم المشاة والفرسان في

---

(١) هذه مبالغة أخرى من مبالغات فوشيه في الأرقام. (المترجم)

(٢) هذه هي تسمية فوشيه الشارتري لكربوقا أتابك الموصل والقائد العام للجيش الإسلامي في معركة أنطاكية.

(٣) شمس الملوك دقاق حاكم دمشق.

(٤) يرجح أن يكون من يقصده هو الأمير سليمان بن إيلغازي.

(٥) ٢٨ من يوليو سنة ١٠٩٨م.

جماعات وفيالق تتقدمها بيارقها وأعلامها، وكان بينهم القساوسة في مسوحهم البيضاء. وكان هؤلاء يبكون من أجل الشعب كله، ويغنون للرب ويصلون كثيرا من أعماق أرواحهم التقية المتدينة.

٤ ـ ثم شاهد أمير تركي يدعى «أميرداليس»، وهو فارس متميز للغاية، رجالنا يتقدمون ضد الأتراك وراياتهم ترفرف عالية فانتابته الدهشة. وعندما رأى بيارق قادتنا وتعرف عليها، وهي تتقدم الواحدة تلو الأخرى في ترتيب ونظام أدرك أن المعركة آتية عن قريب حتما.

٥ ـ وكانت له دراية بأنطاكية كما كان يعرف الفرنج. فأسرع إلى كربوقا وأخبره بما شاهد، وقال: «لماذا تلعب الشطرنج؟ إن الفرنج قادمون». وأجابه هذا: «هل هم قادمون للقتال؟» فأجابه أمير داليس: «حتى هذه اللحظة لست أدري، ولكن انتظر قليلا»[١].

٦ ـ وعندما أيقن أمير داليس أن رايات أمرائنا كانت مرفوعة في المقدمة بأسلوب عسكري، وأن صفوف الجيش قد اصطفت استعدادا للمعركة بطريقة ذكية خلف الرايات، عاد مسرعا إلى كربوقا، وقال: «انظر إلى الفرنج». فرد عليه بقوله: «ماذا تظن؟». قال: «أظن أن المعركة ستنشب، ولكن انتظر قليلا لأنني لا أعرف الرايات التي أراها».

٧ ـ وعندما دقق النظر تعرف علي راية أسقف لوبوي تتقدم الفيلق الثالث.

ولم ينتظر أكثر من ذلك فقال لكربوقا

انتبه فالفرنج قادمون، فلا تهرب وقاتل بشجاعة

لأنني أرى راية البابا الجبار تتقدم صوب الأمام[٢].

---

(١) هذه واحدة من محاولات فوشيه في صياغة الأحداث شعرا، والواضح أنها تحمل من الخيال ما يناسب الشعر بالفعل. (المترجم).

(٢) على الرغم من أن فوشيه نقل هذا الفصل بكامله تقريبا عن ريمون الأجويلري، فإنه يحاول صياغته وفق أسلوبه الخاص كأنه نوع من التأليف بغض النظر عن الحقائق التاريخية، لا سيما فيما يتعلق بالحوار المزعوم بين الأمير التركي وكربوقا. (المترجم).

فاليوم قد يتملكك الخوف من أن تهزم بأيدي أولئك الذين كنت تظن أنك قادر على استئصال شأفتهم.

٨ ـ قال كربوقا: «سوف أبعث برسالة إلى الفرنج، أوافق على طلبهم الذي طلبوه أمس». فقال له أميرداليس: «لقد جاء كلامك بعد فوات الأوان». ومع ذلك تقدم كربوقا بطلبه، ولكن طلبه قوبل بالرفض.

وفي الحال قام أميرداليس.

وانسحب تاركا سيده، وامتطى صهوة جواده وفكر في الهرب، ولكنه بقي يحث جميع رفاقه على القتال وعلى سرعة قذف سهامهم(١).

(٢٣)

المعركة وانتصار المسيحيين، وهرب الأتراك:

١ ـ وا فرحتاه! كان هيو الكبير، والكونت روبرت النورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز قادة الصف الأول في الهجوم. وتبعهم الدوق جودفري في الصف الثاني مع الألمان واللوثرنجيين. وبعدهم جاء أسقف لوبوي مع رجال الكونت ريمون والجاكسون والبروفنساليين. وبقي الكونت نفسه في المدينة لحراستها، على حين كان بوهيموند بمهارته يتولى حراسة مؤخرة الجيش.

٢ ـ وعندما رأى الأتراك أن الجيش الفرنجي قد اخترق صفوفهم بهجمة قوية، بدءوا يهاجمون فرادى ويطلقون سهامهم على نحو ما جرت عادتهم. ولكن الخوف الذي سلطته عليهم السماء تملكهم بحيث ولوا الأدبار هاربين في فزع كما لو كانت الدنيا بأسرها تطاردهم. وطارد الفرنج الهاربين بقدر ما استطاعوا.

٣ ـ ولكن لأن الفرنج كانوا يملكون خيولا قليلة ضعيفة وجائعة، فإنهم لم يتمكنوا من أسر عدد كبير من الأتراك كما يجب. وعلى أي حال، كانت خيام الأتراك ما تزال قائمة في معسكرهم، وفيها وجد الفرنج أشياء من كل نوع، مثل

---

(١) محاولة شعرية أخرى لفوشيه من ذلك النمط الشعبي الذي كان شائعا في تلك الفترة وعرف باسم Les Chansors des Croisades.

الذهب والفضة والحبال والملابس والأواني وأشياء أخرى كثيرة كان الأتراك قد تركوها، أو رموها، في أثناء هربهم المذعور من معسكراتهم. وعلى سبيل المثال كانت هناك الخيول والبغال والحمير، والعمائم الفاخرة، والأقواس والسهام في جعباتها.

٤ ـ وهرب كربوقا، مسرعا مثل الغزال، بعد أن كان يتهجم كثيرا على الفرنج بالكلمات المحمومة والتهديدات. ولكن لماذا هرب، وعنده مثل هذا الجيش الكبير المدعم بالفرسان؟ لأنه جرؤ على احتقار الرب، فالرب الذي شاهد أبهة كربوقا من بعيد هو الذي دمر قوته.

٥ ـ وأولئك الأتراك الذين كانت خيولهم قوية وسريعة تمكنوا من الهرب، ولكن الضعفاء تركوا الفرنج. وتم أسر عدد كبير من المشاة على نحو خاص. ومن ناحية أخرى، جرح عدد قليل من رجالنا. أما النساء اللاتي وجدن في خيام الأتراك، فإن الفرنج لم يرتكبوا شرا معهن، وإنما بقروا بطونهن بحرابهم فحسب(١).

٦ ـ ثم مجد الجميع الرب بصوت يتهلل فرحا، فإنه برحمته وعطفه حررهم من أقسى أعدائهم. وعلى الرغم من أنهم كانوا في كرب وعوز، فإنهم وضعوا ثقتهم في الرب. وبعظمته بعثر الأتراك مهزومين بعد أن كانوا على وشك إلحاق الهزيمة بالمسيحيين، وعاد رجالنا يرفلون في الثراء بفضل الغنائم والأسلاب التي استولوا عليها(٢).

٧ ـ عندما تم الاستيلاء على مدينة أنطاكية القديمة.

كانت قد مرت ألف ومائة سنة، تنقص سنتين.

---

(١) تكشف هذه العبارة، بما فيها من تلذذ ووحشية، عن موقف هذا القسيس تجاه المسلمين وتعصبه الأعمى الذي لم يجد معه غضاضة في إعلان تلذذه واستمتاعه بوحشية رفاقه الصليبيين، ولم يكن قادرا على رؤية الحقيقة القائلة بأن للمسلمين الحق في الدفاع عن أوطانهم. (المترجم).

(٢) في تفسير هذه الهزيمة التي لقيتها قوات كربوقا أمام أنطاكية يقول المؤرخ ابن الأثير: إن كربوقا عامل الأمراء المتحالفين تحت قيادته باستهانة، وأعرض عن قبول مشورتهم، فلما هاجمهم الفرنج ولوا منهزمين «... ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم...». ثم تفرق الجيش المهزوم واختفى، وتسلم بوهيموند قلعة مدينة أنطاكية من قائدها أحمد بن مروان ـ انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ١٠، ص ١٠٣. قاسم، الخلفية الأيديولوجية، ص ٢٠٥. (المترجم)

على ميلاد سيدنا من العذراء .
في علامة الجوزاء[1] .
وذلك يوم ٤ يونيو[2] .

٨ ـ ثم مات الأسقف أدمار في شهر أغسطس[3]، فلتنعم روحه بالسلام الأبدي آمين. ثم رحل هيو الكبير إلى القسطنطينية بموافقة الأمراء، ومن هناك رحل إلى فرنسا .

(٢٤)

بخصوص هذه الأمور، فإن الزعماء البارزين للجيش كله بعثوا الخطاب التالي إلى البابا الروماني:

١ ـ إلى السيد المبجل البابا إربان؛ من بوهيموند، وريمون كونت سان جيل، والدوق جودفري أمير اللورين، وكونت روبرت أمير نورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز والكونت إيستاس البولوني[4]. تحياتنا، ومثلما يبعث الأبناء إلى أبيهم الروحي؛ نعلن أننا خدام مخلصون ورعايا حقيقيون للمسيح .

٢ ـ ونحن نرغب في أن نحيطكم علما أنه بفضل رحمة الرب العظيمة، وبفضل مساعداته الرائعة، استطعنا أن نستولى على مدينة أنطاكية؛ بحيث إن الأتراك الذين سببوا كثيرا من العار لسيدنا يسوع المسيح، وقعوا ضحية للأسر والذبح؛ وأننا حجاج المسيح الذاهبين إلى القدس قد انتقمنا للرب العظيم، كما أننا حاصرنا الأتراك أولا ثم وقعنا تحت حصار أتراك آخرين قدموا من خراسان، والقدس، ودمشق، وأماكن أخرى كثيرة، ثم نجونا بفضل رحمة يسوع المسيح .

---

(١) هذه أيضا صياغة شعرية لتاريخ سقوط أنطاكية .

(٢) كان المتوقع أن يرد تاريخ سقوط المدينة وقت حدوثه في مكانه من الرواية، ولكن فوشيه يضعه هنا في نهاية روايته عن أحداث أنطاكية . وعلى الرغم من دقته في التواريخ عادة، فإنه يخطئ هنا ويجعل تاريخ سقوط المدينة ٤ من يونيو بدلا من ٣ من يونيو .

(٣) أول أغسطس سنة ١٠٩٨م .

(٤) هو إيستاس الثالث، كونت بولوني، والأخ الأكبر للدوق جودفري البويوني وبلدوين الأول. وقد عاد لوطنه بعد نهاية الحملة .

٣ ـ فبعد الاستيلاء على نيقية[١]، انتصرنا على الأعداد الكبيرة من الأتراك الذين قابلونا في شهر يوليو[٢] كما سمعتم في وادي ضورولیوم، وهزمنا سليمان القوي وجردناه من كل أملاكه. وبعد أن استولينا على رومانيا (آسيا الصغرى) وأخضعناها، زحفنا لفرض الحصار على أنطاكية[٣]. وفي حصارها كابدنا مصاعب ومشاق كثيرة، لا سيما من جراء الهجمات التي كان يقوم بها الأتراك والوثنيون الذين غالبا ما كانوا يندفعون نحونا بقوة كبيرة لدرجة أننا يمكن أن نقول إننا كنا تحت حصار أولئك الذين حاصرناهم في أنطاكية.

٤ ـ وأخيرا، كسبنا المعارك كافة، وارتقت العقيدة المسيحية بفضل هذا النجاح الذي تم على النحو التالي: فقد اتفقت أنا بوهيموند مع أحد الأتراك وسلمني المدينة. فقبل الفجر بقليل من الثالث من شهر يونيو وضعت السلالم على سور المدينة، وهكذا استوليت على المدينة التي كانت تقاوم المسيح. وقد ذبحنا كاسيانوس[٤] طاغية المدينة، وكثيرين من جنوده، وأبقينا على زوجاتهم وعائلاتهم والذهب والفضة وسائر أملاكهم غنائم لنا.

٥ ـ وعلى أي حال، لم نستطع الاستيلاء على قلعة أنطاكية، التي كان الأتراك قد دعموا تحصيناتها من قبل، ولكن عندما أكملنا استعدادنا للهجوم عليها في اليوم التالي، شاهدنا أعدادا لا تحصى من الأتراك يتحركون خلال أرجاء الريف كافة. وظللنا عدة أيام نتوقع أن يصلوا ويقاتلونا على حين كنا ما نزال خارج المدينة. وفي اليوم الثالث، بعد أن أخذنا المدينة، فرضوا الحصار علينا، ودخل أكثر من مائة ألف منهم القلعة المذكورة، وعلى أمل أن يندفعوا من خلال بواباتها إلى ذلك الجزء من المدينة الذي فيه القلعة، والذي كان قسمة بيننا وبينهم.

٦ ـ ولكننا كنا نعسكر على مرتفع آخر قبالة القلعة، وتولينا حراسة الممر الذي يربط بين الجيشين، والذي ينحدر إلى المدينة، بحيث لم يتمكن الأتراك بأعدادهم

---

(١) ١٩ من يونيو سنة ١٠٩٧م.
(٢) أول يوليو سنة ١٠٩٧م.
(٣) ٢٠ ـ ٢١ من أكتوبر سنة ١٠٩٧م.
(٤) يقصد ياغي سيان.

الكبيرة من أن يمروا خلاله. وكنا نحارب داخل الأسوار وخارجها ليلا ونهارا. وأخيرا أجبرنا أعداءنا على الرجوع إلى معسكرهم عبر بوابة القلعة التي كانت تؤدي إلى داخل المدينة.

٧ ـ وعندما أدركوا أنهم لا يستطيعون إيذاءنا من هذا الجانب، أحاطوا بنا من جميع النواحي بحيث إن أحدا لم يكن يقدر على دخول المدينة أو الخروج منها. ولهذا السبب انهارت شجاعتنا جميعا، وتخاذلنا، لدرجة أن كثيرين منا كانوا على حافة الموت جوعا أو إرهاقا، فذبحوا خيولهم وحميرهم والتهموها على الرغم من أنها كانت تتضور جوعا هي الأخرى.

٨ ـ وفي الوقت نفسه، وجدنا الحربة التي اخترقت جنب مخلصنا بيد لونجينوس، بفضل رحمة الرب العظيم الذي كان يرعانا ويساعدنا، وقد تم الكشف عنها ثلاث مرات لواحد من خدام الرب على يد القديس أندرو الحواري الذي دله على المكان حيث كانت الحربة مدفونة في كنيسة بطرس المبارك، أمير الحواريين. وإذ استرحنا لهذا الكشف، وبفضل عدد كبير من الرؤى والأحلام المقدسة، قوي ساعدنا لدرجة أننا بعد أن تملكنا التخاذل والتقاعس من قبل، صرنا وقتذاك نستحث بعضنا البعض على القتال في شجاعة وإقدام متناهيين.

٩ ـ وبعد أن مكثنا تحت الحصار ثلاثة أسابيع وأربعة أيام، اعترفنا بخطايانا، ثم وضعنا أنفسنا تحت تصرف الرب، وخرجنا من بوابات المدينة لنخوض المعركة عشية عيد القديسين الرسوليين بطرس وبولس. وكنا من القلة بحيث ظن العدو أننا لن نحاربه، وإنما سنفر هاربين.

١٠ ـ وعلى أي حال، فعندما أتممنا جميعا استعدادنا، واصطف مشاتنا وفرساننا في نظام وترتيب، تقدمنا في جسارة، ومعنا حربة الرب، صوب مكان أكبر قوة من الأتراك. وقد أجبرناهم على الهرب والفرار من موقعهم المتقدم. وبدءوا ينتشرون في كل مكان حسب عادتهم، واحتلوا التلال والطرق من كل صوب وحدب محاولة منهم أن يحكموا الخناق حولنا. وبذلك كانوا يأملون أن يذبحونا جميعا. ولكننا كنا قد خبرنا أساليبهم وحيلهم في عدة معارك. وساعدتنا نعمة الرب ورحمته على أن نقهرهم جميعا على الرغم من قلة عددنا بالنسبة لهم. ولأن يد

الرب اليمنى كانت تقاتل معنا، فقد أجبرنا الأتراك على الهرب وهجران معسكرهم بكل محتوياته.

١١ ـ وبعد أن تغلبنا على الأتراك وطاردناهم على مدى يوم كامل، وقتلنا منهم عدة آلاف، رجعنا إلى المدينة فرحين سعداء. ثم قام أحد الأمراء بتسليم القلعة، التي سبق ذكرها، إلى بوهيموند وبها ألف من الرجال، وبفضل بوهيموند أدخلهم جميعا العقيدة المسيحية. وهكذا قام سيدنا يسوع المسيح بتخليص أنطاكية كلها وتسليمها إلى الديانة والعقيدة الرومانية (الكاثوليكية).

١٢ ـ ولأن شيئا محزنا يقع دائما وسط الأفراح، فإن أسقف لوبوي، الذي كنت قد أرسلته نائبا عنك، مات في شهر أغسطس. وكان ذلك بعد المعركة التي كان له فيها دور نبيل، وبعد أن كان السلام قد خيم على ربوع المدينة.

١٣ ـ ولهذا فإننا أبناءك المفجوعين في الأب الذي عينته لنا، نسألك يا أبانا الروحي مايلي:

بما أنك أنت الذي بدأت هذا الحج، وبخطبك ومواعظك جعلتنا جميعا نترك بلادنا بكل ما فيها، منذ أن حفزتنا على أن نتبع المسيح بحمل الصليب، وبما أنك حرضتنا على أن نرفع عاليا اسم المسيح بتحقيق ما ناديت به، فإننا نرجوك أن تأتي إلينا وأن تحث من يستطيع الحضور معك، لأن اسم المسيحية نبع من هنا، فبعد أن تم تتويج بطرس المبارك في الكنيسة التي نراها يوميا، كان أولئك الذين يسمون الجليليين قبل ذلك هم أول من تسموا مسيحيين. ومن ثم، فماذا في الدنيا يمكن أن يكون أكثر صوابا من أن تأتي أنت، وأنت أبو العقيدة المسيحية ورأسها، إلى المدينة الرئيسية عاصمة الاسم المسيحي، وتنهي الحرب، وهي مشروعك، بنفسك؟

١٤ ـ لقد أخضعنا الأتراك والوثنيين، ولكننا لم نستطع التغلب على الهراطقة من اليونانيين والأرمن والسوريان واليعاقبة. ولذلك نسألك ونلح في السؤال أن تأتي أنت أيها الأب العزيز أبا ورئيسا إلى مكان سلفك. أنت نائب بطرس المبارك يجب أن تجلس على عرشه وتستخدمنا أبناء مطيعين لتنفيذ كل ما هو صحيح، وحتى يمكنك بسلطانك أن تدمر الهرطقات كلها وتستأصلها أيا كان نوعها. وهكذا تنهي معنا الحج الذي قمنا به إلى يسوع المسيح بعد أن أعلنت عن بدايته. سوف

تفتح لنا بوابات أورشليم السماوية والأرضية، وتحرر ضريح سيدنا وترفع الاسم المسيحي فوق الجميع. لأنك إذا جئت إلينا، وأنهيت معنا الحج الذي بدأناه بك ستكون الدنيا كلها رهن إشارتك، فليدفعك الرب الذي يحيا ويحكم إلى الأبد لفعل هذا آمين[١].

(٢٥)

الحملة ضد المدن الأخرى، الحصار الذي فرض على عرقة، رحلة الفرنج إلى القدس ووصولهم إلى ذلك المكان:

١ ـ بعد أن استراح رجالنا وخيولنا، وكان التعب قد أضناهم من جراء القتال أياما عديدة، ونعموا بالطعام أربعة شهور في ضواحي أنطاكية، عادت إليهم صحتهم كسابق عهدها[٢]. وقام قسم من الجيش، بعد التشاور، بالتوغل داخل سوريا رغبة في تأخير المسير إلى بيت المقدس. وكان بوهيموند وكونت ريمون قائدين لهذا القسم من الجيش[٣]. وظل الآخرون في المناطق المجاورة لأنطاكية.

---

(١) كتب هذا الخطاب في ١١ من سبتمبر سنة ١٠٩٨م، وهو إدانة للبيزنطيين والمسيحيين الشرقيين بحسبانهم هراطقة. والخطاب يحث البابا إربان الثاني على جعل مدينة أنطاكية مقر الكرسي البابوي، ومنها يتولى قيادة الصليبيين صوب القدس. وهذه الدعوة الغريبة المدهشة تكشف عن التعصب حتى ضد المسيحيين الشرقيين الذين كان إربان قد سعى إلى كسب ودهم، وأعلن في كليرمون أنه سيدافع عنهم. ويبدو أن بوهيموند وراء كتابة هذا الخطاب. وربما يكون كاتبه هو المؤرخ المجهول صاحب «أعمال الفرنجة». وفي هذا الخطاب، تتضح خطة بوهيموند لنقض الاتفاق مع البيزنطيين والاستيلاء على أنطاكية لحسابه الخاص. ولسنا ندري رد فعل البابا تجاه هذا الخطاب الغريب؛ فقد مات قبل أن يتمكن من عمل شيء.

(٢) في هذا الفصل، يلخص فوشيه تاريخ الجيش الرئيسي من أنطاكية حتى بيت المقدس (٢٨ من يونيو سنة ١٠٩٨ إلى ٧ من يونيو سنة ١٠٩٩م) وهو يضفي أسلوبه الأدبي على بعض المعلومات الجغرافية التي استقاها من كتاب Antiquitates Judaicae للمؤرخ اليهودي القديم يوسيفوس Josephus.

(٣) بعد هزيمة كربوقا مباشرة في ٢٨ من يونيو سنة ١٠٩٨م أرسل الأمراء الصليبيون رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس أن بوسعه أن يأخذ أنطاكية إذا انضم إليهم في أول نوفمبر. وكان كل من بوهيموند وريمون السانجيلي يريد أن يؤجل المسير إلى بيت المقدس لأن بوهيموند كان يأمل في أن يحوز المدينة لنفسه، على حين كان ريمون يدافع عن حقوق الإمبراطور.

٢ ـ وقد تمكن هذان الزعيمان من الاستيلاء على مدينتي البارة والمعرة (معرة النعمان)[1]، في هجوم كشف عن شجاعة عظيمة. وقد استوليا على المدينة الأولى بسرعة فائقة، وقتلا كل رجل من سكانها، وصادرا كل شيء. ثم أسرعا إلى المدينة الأخرى وحاصراها على مدى عشرين يوما. وهنا عانى رجالنا من الجوع المتزايد. إن الرعب يتملكني وأنا أقول إن كثيرين من رجالنا الذين عذبهم الجوع الضاري بجنونه، كانوا يأكلون جثث المسلمين الذين كانوا يرقدون هناك بعد قتلهم. وكانوا يطبخون القطع التي انتزعوها من هذه الجثث ويأكلونها، ويلتهمون اللحم الآدمي بوحشية على الرغم من أنه لم ينضج في الشواء. وبهذه الطريقة كان الضرر الذي نال ممن فرضوا الحصار أشد وطأة من الضرر الذي حاق بمن فرض عليهم الحصار.

٣ ـ وفي الوقت نفسه، شن الفرنج، الذين صنعوا بعض الآلات وحركوها نحو الحائط، هجوما جسورا جدا. وفي ذلك اليوم واليوم التالي قتلوا جميع المسلمين كبيرهم وصغيرهم، ونهبوا كل الممتلكات.

٤ ـ وعندما تم تدمير المعرة بهذه الطريقة عاد بوهيموند إلى أنطاكية. ثم طرد منها الرجال الذين كان الكونت ريمون قد وضعهم هناك ليكونوا بمثابة حامية للقطاع الذي احتله. وفيما بعد امتلك بوهيموند أنطاكية بكامل مساحتها، لأنه قال إن المدينة سقطت بفضل مفاوضاته وخططه.

٥ ـ ونتيجة لهذا انضم الكونت ريمون إلى تنكرد وواصلا التقدم صوب القدس. كما أن الكونت روبرت النورماندي انضم إلى نفس القوة بعد يوم من الرحيل عن معرة النعمان.

٦ ـ وفي سنة ١٠٩٩م بعد تجسد سيدنا المسيح واصلت هذه القوة المسير إلى القلعة التي تسمى عرقة عند سفح جبل لبنان. وقد قرأنا أن مؤسسها هو عرقايوس

---

(١) البارة على بعد ٤٢ ميلا جنوب شرقي أنطاكية، وعلى مسافة ثمانية أميال إلى الشرق من البارة تقع معرة النعمان. وقد استولى الكونت ريمون على الأولى، على حين استولى هو وبوهيموند على الثانية في ١١ من ديسمبر سنة ١٠٩٨م.

Aracaeus بن كنعان وحفيد نوح. ونظرا لصعوبة الاستيلاء حاصروها حوالي خمسة أسابيع دونما نتيجة [١].

٧ ـ أما الدوق جودفري، وروبرت كونت الفلاندرز، فقد تبعا هذا الجيش على مسافة غير بعيدة خلفه. وعندما كانوا يحاصرون قلعة جبيل وصلتهم رسالة تطلب منهم المساعدة للرجال الذين يحاصرون عرقة. ولذلك تركوا جبيل في الحال وهرولوا لمساعدة الجيش كما طلب منهم. ولكن، بعد أن أحاطوا بالمدينة لم تقع المعركة.

٨ ـ في حصار عرقة هذا قتل أنسلم من ريبمونت Anselm of Ribemont الذي كان فارسا مقداما، نتيجة إصابته بحجر.

٩ ـ عند هذا الحد تشاور الفرنج سويا، وقرروا أنهم إذا استمروا في البقاء هناك فترة ثم فشلوا في أخذ القلعة فإن ضرراً بليغا سوف يلحق بهم جميعا. وقالوا إن الحكمة تقتضي رفع الحصار ومواصلة السير، لأنهم عرفوا أن القوافل التجارية تتحاشى الطريق الذي اختاروه، ولكن كان مايزال أمامهم الوقت للوصول إلى القدس في أثناء موسم الحصاد. فإذا ساروا على هذا النحو فسيكون بمقدورهم أن يعيشوا اعتمادا على المحصولات في كل مكان، وعلى المؤن التي يوفرها الرب، وسيصلون بقيادته إلى هدفهم الذي يتوقون إليه. هكذا تم طرح الاقتراح، وهكذا تقرر الأمر.

١٠ ـ ولذا فإنهم بعد أن طووا خيامهم، انطلقوا ومروا عبر مدينة طرابلس. وعندما تم هذا وصلوا إلى قلعة جبيل. ثم واصلوا السير أبعد من ذلك ومروا في وقت ما قرب مدينة بيروت ووصلوا إلى مدينة أخرى اسمها صيدا، ونقرؤها «صيدون» في لغتنا. ومن صيدا واصل رجالنا السير حتى شربتا. ومن هناك استمروا في السير إلى صور، وهي مدينة جميلة جدا. ومنها جاء أبوللونيوس

---

(١) تقع عرقة على مسافة تقرب من ثلاثة عشر ميلا شمال غربي طرابلس. وصل الفرنج إليها في ١٤ من فبراير سنة ١٠٩٩م تقريبا. واستمر الحصار اثنى عشر أسبوعا ونصف الأسبوع (١٤ من فبراير ـ ١٣ من مايو) وليس خمسة أسابيع كما يقول فوشيه.

الذي نقرأ عنه. وعن هاتين المدينتين يقول الإنجيل: «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيدا»(١).

١١ ـ ثم جاءوا إلى قلعة الزيب على بعد ستة أميال من بطلمية (عكا). ثم مروا أمام بطلمية التي كانت تسمى قديما عكا. والواقع أن عكا، أي بطلمية، قريبة من جبل الكرمل الذي يقع إلى جنوبيها. وعندما مر الجيش بها وصلوا إلى مدينة تسمى حيفا كانت إلى يمين الطريق. وبعد ذلك اقتربوا من دورا ثم قيصرية في فلسطين. وهذه الأخيرة كان لها اسم آخر منذ العصور القديمة، وهو برج ستراتون. وفيها مات هيرود آجريبا Herod Agrippa حفيد هيرود الذي ولد المسيح في عهده، وقد مات ميتة بائسة بعد أن أكله الدود(٢).

١٢ ـ ثم تركوا البحر ومدينة أرسوف في الليل، ومروا خلال المدينة التي تسمى الرملة، وكان سكانها المسلمون قد هجروها في اليوم السابق. وهناك وجد الفرنج كثيرا من الغلال التي حملوها على حيواناتهم ونقلوها إلى القدس.

١٣ ـ وبعد أن استراحوا هناك أربعة أيام، وعينوا أسقفا لكنيسة سان جورج ووضعوا حامية للدفاع عن البلدة، شق الفرنج طريقهم صوب القدس. وفي ذلك اليوم ساروا حتى عمواس(٣)، وبالقرب منها مودين مدينة المكابيين.

١٤ ـ وفي الليلة التالية امتطى مائة من خيرة الفرسان خيولهم، ومع ضوء الفجر مروا بالقرب من بيت المقدس مسرعين صوب بيت لحم. وكان بينهم تنكرد وبلدوين(٤). وعندما اكتشف المسيحيون الذين كانوا يقطنون هناك من اليونانيين والسريان أن الفرنج قد وصلوا، غلبهم الفرح تماما. وعلى أي حال، فإنهم في بداية الأمر لم يعرفوا هؤلاء القوم، وظنوا أنهم ربما كانوا من الأتراك أو العرب.

---

(١) إنجيل متى ١٥ : ٢١؛ كذلك مرقص ٧: ٢٤.

(٢) جاء في أعمال الرسل (الإصحاح الثاني عشر: ٢٣): «ففي الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله، فصار يأكله الدود ومات». (المترجم).

(٣) على مسافة خمسة عشر ميلا من بيت المقدس.

(٤) هو بلدوين البورجي Baldwin of Le Bourg قريب بلدوين الأول الذي صار كونت الرها سنة ١١٠٠م وملك بيت المقدس سنة ١١١٨م.

١٥ ـ ولكن بمجرد أن تأكدوا من هويتهم عندما اقتربوا، وعرفوا أنهم من الفرنج غمرهم الفرح. وفي الحال حملوا الصلبان والرايات وخرجوا للقائهم، وهم يبكون وينشدون في خشوع. لقد كانوا يبكون لأنهم خافوا على هذا العدد القليل من الفرنج أن يلقوا حتفهم بأيدي الكثرة من المسلمين [١] الذين كانوا يعرفون أنهم موجودون في البلاد. وكانوا يغنون مرحبين بأولئك الذين انتظروهم منذ زمن طويل، والذين كانوا يعتقدون أنهم سوف يعيدون للمسيحية مكانتها السابقة التي اغتصبها المسلمون[١] منذ زمن بعيد.

١٦ ـ وبعد أن قام رجالنا بإعلان خضوعهم التقى للرب في كنيسة مريم المباركة وبعد أن زاروا المكان الذي كان المسيح قد ولد فيه، وأعطى قبلة السلام للسوريان، عادوا أدراجهم مسرعين صوب المدينة المقدسة؛ القدس.

١٧ ـ تأمل! هناك ظهرت بقية الجيش وهو يقترب من القدس. وعندما رفع حاملو الرايات في مقدمة الجيش راياتهم عالية بحيث يراها أهل المدينة، شن هؤلاء هجوما عنيفا ضدهم في الحال. ولكن أولئك الذين خرجوا مسرعين من المدينة، سيقوا بسرعة أكبر ليعودوا أدراجهم داخل المدينة.

وكان شهر يونيو يتوهج بحرارة شمس يومه السابع عندما
أحاط الفرنج بالقدس يحاصرونها[٢].

(٢٦)

موقع القدس

١ ـ تقع مدينة القدس في إقليم جبلي يخلو من الأشجار والمجاري المائية باستثناء بحيرة سليمان التي تقع على مرمى قوس من المدينة. وفي بعض الأحيان يكون بها ما يكفي من المياه، وفي أحيان أخرى يقل ماؤها بسبب تسربه. وهذه العين الصغيرة

---

(١) استخدم فوشيه كلمة «الوثنيين» للدلالة على المسلمين، وهو ما يتردد كثيرا في ثنايا مؤرخته مما يكشف عن رؤيته المتعصبة. (المترجم)

(٢) ترجمنا هذا السطر بتصرف، وأسقطنا منه جملة واحدة لا ضرورة لها. وهذه محاولة شعرية أخرى يختتم بها فوشيه الفصل الخامس والعشرين من الكراسة الأولى. (المترجم)

موجودة في الوادي تحت سفح جبل صهيون في مجرى نهر يفيض عادة زمن الشتاء في وادي يهوشافاط.

٢ ـ وهناك الكثير من خزانات المياه داخل المدينة لحفظ مياه الأمطار، بحيث يكون بها ما يكفي من المياه. وهناك أيضا آبار خارج المدينة يشرب منها الناس والحيوان.

٣ ـ ومن المسلم به عموما أن المدينة قد بنيت في تناسق بحيث لا تبدو مفرطة في الصغر أو في كبر الحجم. وعرضها فيما بين السورين يعادل مرمى القوس أربعة أضعاف. وفي ناحية الغرب يقوم برج داود الذي تحيط به أسوار المدينة من الجانبين، وإلى جنوبي المدينة جبل صهيون على مسافة تقل عن مرمى القوس، وفي ناحية الشرق جبل الزيتون على مسافة حوالي ألف خطوة من المدينة.

٤ ـ وبرج داود المذكور مشيد من أحجار صلبة، ونصف الطريق الصاعد إليه مبني من كتل مربعة ضمت بعضها إلى بعض بمواد لاصقة، وفي وسع خمسة عشر رجلا، أو عشرين رجلا، أن يصدوا عنه جميع الهجمات المعادية متى توافرت لهم المؤن.

٥ ـ وفي المدينة نفسها معبد الرب، وهو مستدير الشكل، وقد بني حيث كان سليمان قد شيد معبده الفخم في الزمن القديم، وعلى الرغم من أنه لا يمكن مقارنته من حيث الشكل بالمعبد السابق، فإن هذا المبنى معجزة في فن البناء، وله مظهر في غاية الفخامة[١].

٦ ـ أما كنيسة ضريح الرب، فهي أيضا مستديرة الشكل، ولم يتم إغلاق سقفها، وإنما تركت به فتحات لكي تسمح للضوء بدخولها باستمرار بفضل تصميمات أحد المهندسين المهرة.

٧ ـ إنني لا أستطيع، ولا أجرؤ، ولست أعرف كيف أعدد الأشياء التي تحويها الآن، أو التي كانت تحويها في الماضي حتى لا أخدع أولئك القراء، أو المستمعين

---

(١) هذا المعبد الذي يتحدث عنه فوشيه بصفته معبد الرب «Templum Domini» هو مسجد قبة الصخرة الجميل الذي بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩١ ميلادية فوق الصخرة المقدسة التي ترتبط بقصة رحلة الإسراء الإعجازية التي قام بها الرسول عليه الصلاة والسلام. وقد حول الصليبيون هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلائهم على المدينة.

لهذه الحكاية. وفي منتصف المعبد عندما دخلناه أول مرة، وعلى مدى خمسة عشر عاما بعد ذلك[١]، كانت هناك صخرة محلية. ويقال إن التابوت الخشبي الذي كانت به قوانين الرب وكذلك موائد موسى وإناؤه كانت محفوظة داخلها، وإن يوشع ملك يهودا، أمر بحفظها هناك قائلا: «اجعلوا تابوت القدس في البيت الذي بناه سليمان بن داود ملك إسرائيل ليس لكم أن تحملوا على الأكتاف»[٢]، لأنه كان يعرف الأسر الذي سيحدث لليهود في المستقبل.

٨ ـ ولكن هذا يناقض ما قرأناه في أوصاف القدس، في الكتاب الثاني للمكابيين، أنه هو نفسه خبأه في بلاد العرب، قائلا إنه لن يتم الكشف عنه حتى يتم تجميع شعوب كثيرة سويا. فقد كان جيرمياه معاصرا للملك يوشع؛ وعلى أي حال فإن الملك مات قبل جيرمياه.

٩ ـ وقالوا إن ملاك الرب وقف على الصخرة المذكورة[٣]، ودمر الشعب بسبب تعداد الشعب الذي عمله داود بحماقة وأغضب الرب[٤]. وعلاوة على ذلك، فإن هذه الصخرة لأنها شوهت شكل معبد الرب تم تغطيتها وتسويتها بالرخام فيما بعد. والآن فوقها مذبح قائم، وعليه وضع القساوسة جوقة من المنشدين. وكل المسلمين يبجلون معبد الرب تبجيلا عظيما. وهناك أكثر من أي مكان آخر يفضلون تلاوة الصلوات لدينهم على الرغم من أن هذه الصلوات تضيع سدى لأنها تقدم لصنم أقيم هناك[٥]. ولم يكونوا يسمحون لأي مسيحي بدخول المعبد.

---

(١) هذه العبارة توضح أن فوشيه كان القس الخاص Chaplain للملك بلدوين الأول على مدى خمسة عشر عاما، وعليه فقد دخل «معبد الرب» في تلك الأثناء.

(٢) أخبار الأيام الثاني ٣: ١؛ صمويل الثاني ٢٤: ١٨ ـ ٢٥.

(٣) أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الخامس والثلاثين، ٣.

(٤) جاء في سفر صمويل الثاني (٢٤: ١ ـ ٢) ما نصه: «وعاد فحمي غضب الرب على إسرائيل فأهاج عليهم داود قائلا امض وأحص إسرائيل ويهوذا. فقال الملك ليوآب رئيس الجيش الذي عنده طف في جميع أسباط إسرائيل من دان إلى بئر سبع وعدوا الشعب فاعلم عدد الشعب» ـ انظر أيضا نفس السفر (١٥ ـ ١٧) وكذلك أخبار الأيام الأول ٢١: ١٥. (المترجم).

(٥) هذه الفقرة نموذج صارخ للدعاية النزقة التي كان أمثال فوشيه شارتر يرددونها على أسماع الأوربيين زمن الحروب الصليبية لكي يحرضوا عامة الأوربيين على قتال المسلمين، كما أنها من ناحية أخرى تكشف عن جهل فادح بحقيقة الإسلام الذي قضى تماما على عبادة الأصنام. (المترجم).

١٠ ـ وهناك معبد آخر يسمى معبد سليمان، وهو معبد كبير مدهش، ولكنه ليس هو المعبد الذي بناه سليمان. وهذا المعبد، بسبب فقرنا، لم نستطع المحافظة عليه بالحالة التي وجدناه عليها. حيث إن جزءا كبيرا منه مدمر بالفعل[١].

١١ ـ وكانت هناك خزانات في شوارع المدينة يتم عن طريقها تنظيف المدينة من الأوساخ في وقت المطر.

١٢ ـ وكان الإمبراطور أيلوس هادريان (الروماني) Aeilus Hadrian (١١٧ ـ ٣٨ ق. م) قد زين المدينة زينة فخمة، وهيأ الشوارع والميادين بالأرصفة. وتشريفا له سميت القدس «إيليا». لهذه الأسباب، ولأسباب كثيرة غيرها، مدينة القدس مدينة غاية في الشهرة وقمة في المجد.

(٢٧)

حصار مدينة القدس:

١ ـ عندما تأمل الفرنج المدينة، وأدركوا مدى صعوبة الاستيلاء عليها، أمر قادتنا بصنع السلالم الخشبية. وحملوا هذه السلالم إلى أسوار المدينة حيث نصبوها وصعدوا عليها بهمة شديدة إلى قمة السور آملين أن يدخلوا المدينة بمساعدة الرب.

٢ ـ هذه السلالم صنعت في اليوم السابع بعد أن أصدر زعماؤنا أوامرهم بالهجوم. وعندما دوت أصوات الطبول مع مطلع الفجر هاجم رجالنا المدينة من جميع النواحي بحيوية ظاهرة[٢]، بيد أنهم واصلوا الهجوم حتى الساعة السادسة من النهار دون أن يتمكنوا من الدخول عن طريق السلالم التي جهزوها لأن عددها كان قليلا؛ فأوقفوا الهجوم.

٣ ـ وبعد المشاورات أمر قادتنا بصنع آلات الحرب. وكان أملهم أن يحققوا

---

(١) هذا هو المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين في الإسلام. أما سبب دماره فيرجع إلى أن بلدوين قد هدم سقفه المصنوع من الرصاص وباعه. ثم صار بعد ذلك مركز قيادة فرسان الداوية، كما صار القصر الملكي.

(٢) كان هذا يوم ١٣ من يونيو سنة ١٠٩٩م.

النتائج المرجوة بمساعدة الرب عندما يتم تحريك هذه الآلات بجوار الأسوار. ومن ثم فإنهم فعلوا هذا.

٤ ـ وفي الوقت نفسه لم يكن رجالنا يعانون أي نقص في الخبز أو اللحم. ومع ذلك فإن جفاف المنطقة وخلوها من المياه، وعدم وجود أي مجرى مائي بها، تسبب في معاناة رجالنا وحيواناتنا بسبب نقص مياه الشرب. ولذلك، فإن الضرورة كانت تحتم عليهم إحضار الماء يوميا إلى موقع الحصار من مسافة أربعة أو خمسة أميال، وكانوا يحملونه بمشقة في جلود الحيوانات.

٥ ـ وعندما تم تجهيز آلات الحصار، وهي منصات الإطلاق والمنجنيقات، استعد رجالنا مرة أخرى للهجوم على المدينة. وبين هذه الآلات وضعوا برجا صنعوه من قطع الخشب القصيرة لأن المنطقة لم يكن بها أخشاب طويلة. وعندما صدرت الأوامر نقلوا البرج، مفككا في أجزاء، تحت جنح الليل، إلى ركن من أركان المدينة. ثم أقاموه بسرعة في الصباح قريبا من السور، بالإضافة إلى الأسلحة المساعدة الأخرى التي كانوا قد جهزوها. وبعد أن فرغوا من إقامة البرج وحمايته جيدا بالأغطية من الخارج، أخذوا يدفعونه بالقرب من السور تدريجيا وفي بطء.

٦ ـ ثم صعد بعض الجنود إلى البرج، كان عددهم قليلا ولكن شجاعتهم فائقة، عندما صدرت لهم الإشارة بالطبول. ومع ذلك كان المسلمون يدافعون ضدهم. وكانوا يقذفون كتلا مشتعلة غمست في الزيت والشحم على الجنود والبرج وهم فيه. ولذلك لقى كثيرون من الجانبين حتفهم في هذا القتال بطريقة مفاجئة.

٧ ـ وشن الكونت ريمون ورجاله هجوما عنيفا بآلاتهم من الجانب الذي كانوا يتمركزون فيه، وهو جبل صهيون. ومن الناحية الأخرى، حيث كان الدوق جودفري وكونت روبرت النورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز يتمركزون، شن الجنود هجوما أشد عنفا على الأسوار. وكانت تلك حوادث ذلك اليوم.

٨ ـ وعندما دوت أصوات الطبول في اليوم التالي كرروا نفس الهجوم ببسالة وعنف أشد. وكانت النتيجة أنهم أحدثوا ثغرة في السور بآلات الحصار والنقب. وكان المسلمون قد علقوا لوحين من الخشب قبالة شرفات السور لحمايتهم من

الأحجار التي يقذفها المهاجمون، وقد ربطوهما بالحبال. ولكن ما فعلوه لحمايتهم تحول إلى نقمة عليهم بفضل العناية الإلهية. لأنه حين حرك الفرنج البرج المذكور إلى السور قطعوا الحبال التي كانت الألواح الخشبية معلقة بها، وبهذه الأخشاب مدوا جسرا في مهارة بين البرج وقمة السور.

٩ ـ واشتعلت النيران في أحد الأبراج الحجرية فوق السور، كان رجالنا العاملون على آلات الحصار قد قذفوه بكتل اللهب. وبالتدريج التهمت النيران المواد الخشبية في البرج فنتج عنها لهب ودخان كثيف لدرجة أن أحدا من الحراس لم يستطع أن يبقى هناك.

١٠ ـ ولذلك دخل الفرنج المدينة في الحال يوم الجمعة المقدسة Dies Veneris، وهو اليوم الذي خلص فيه المسيح العالم كله على الصليب [١]. وفي خضم أصوات الطبول، وبينما كان كل شيء يزأر عاليا، واصلوا هجومهم بجسارة وإقدام، وهم يصيحون «ليساعدنا الرب». وفي الحال رفعوا راية بأعلى السور، وتملك الرعب المسلمين تماما؛ إذ تخلوا عن شجاعتهم التي كانوا يتحلون بها من قبل وفروا هاربين عبر شوارع المدينة الضيقة. وكلما أسرعوا في الهرب أسرع مطاردوهم خلفهم.

١١ ـ ولم يلاحظ الكونت ريمون ورجاله، الذين كانوا يشنون هجوما عنيفا في جزء آخر من المدينة، ما جرى حتى شاهدوا المسلمين يقفزون فوق الأسوار. وعندما لاحظوا ذلك جروا فرحين بأقصى سرعة ممكنة إلى داخل المدينة وانضموا إلى رفاقهم في مطاردة أعدائهم الأشرار وذبحهم دون توقف.

١٢ ـ وهرب بعض هؤلاء من العرب والأثيوبيين [٢]، إلى برج داود، وأغلق آخرون على أنفسهم معبد الرب ومعبد سليمان. وتم شن هجوم

---

(١) الجمعة التي دخل فيها الصليبيون القدس يوم ١٥ من يوليو سنة ١٠٩٩م.

(٢) يشير فوشيه في هذا المكان من حوليته، وفي أجزاء أخرى منها، إلى الأثيوبيين العاملين في خدمة المصريين، بسبب سواد بشرتهم مرة، وبصفتهم من الجنود المشاة مرة أخرى. والواقع أنه يقصد الجنود السود العاملين في الجيش الفاطمي، والذين كانوا يمثلون فرق المشاة الذين قضى عليهم صلاح الدين الأيوبي في أثناء محاولته لتوطيد دعائم حكمه في مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمي الأخير، ولم يكن أولئك «السودانيون» من السودان الحديث، وإنما كانوا من مناطق مختلفة من قارة إفريقيا. (المترجم)

وحشي على المسلمين في فناء هذين المعبدين. ولم يكن هناك ما يمكن أن ينجيهم من سيوف رجالنا.

١٣ ـ وكثيرون من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان هاربين أصابتهم السهام في مقتل فسقطوا من فوق السقف. وتم ذبح حوال عشرة آلاف في المعبد. ولو أنك كنت موجودا هناك لغاصت قدماك حتى العقبين في دماء المذبوحين. ترى ماذا أقول؟ إننا لم نترك أحدا منهم على قيد الحياة ولم ينج حتى النساء والأطفال[١].

(٢٨)

الغنائم والأسلاب التي استولى عليها المسيحيون:

١ ـ كم سيكون المنظر مدهشا لو أنك رأيت فرساننا ومشاتنا، بعد أن اكتشفوا خداع المسلمين؛ فشقوا بطون الذين ذبحوهم لكي يستخرجوا من المعدة والأمعاء العملات الذهبية التي كان المسلمون قد ابتلعوها وهم أحياء. ولنفس السبب قام رجالنا بعد أيام قليلة بجمع كومة من الجثث وأحرقوها حتى صارت رمادا بحيث يمكنهم أن يجدوا الذهب الذي ذكرنا خبره بسهولة.

٢ ـ كذلك اندفع تنكرد داخل معبد الرب واستولى على كميات كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة. ولكنه أعاد هذه الأشياء ووضعها مرة أخرى داخل المكان المقدس. وكان هذا على الرغم من الحقيقة القائلة بأنه لم تكن هناك أي خدمة مقدسة تؤدى آنذاك. فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات[٢]، كما أنهم لم يكونوا يسمحون للمسيحيين بالدخول.

---

(١) التفاصيل التي يذكرها فوشيه عن المذبحة المرعبة التي ارتكبها الصليبيون في القدس تتفق مع ما أورده ريمون الأجويلري (RHC, Occ. III 3000)، وكذلك ما أورده المؤرخ المجهول (Gesta Francorum, PP.84 92). ويجب ملاحظة نغمة الفخر التي يتحدث بها القسيس الصليبي فوشيه عن المذبحة. (المترجم)

(٢) يتحدث فوشيه هنا عن المسجد الأقصى الذي استولى عليه الصليبيون، وهو هنا يردد مرة أخرى افتراءاته ودعايته الكاذبة ضد المسلمين. (المترجم)

٣ ـ عندما جرى رجالنا وسيوفهم مشرعة عبر أرجاء المدينة، ولم يبقوا على أحد حتى أولئك الذين كانوا يرجون الرحمة، سقط الجمع كما تسقط التفاحات العفنة من الأغصان المهزوزة، وكما تسقط جوزة البلوط من الأشجار المتمايلة[١].

(٢٩)

استقرار المسيحيين في المدينة:

١ ـ وبعد هذه المذبحة الكبيرة دخلوا بيوت السكان، واستولوا على كل ما وجدوه بها. وتم هذا بطريقة جعلت كل من يسبق إلى الدخول، فقيرا كان أم غنيا، يستولى على البيت ولا يجد من ينازعه من الفرنج الآخرين. وكان له أن يحتل المنزل، أو القصر، ويمتلكه بكل ما فيه كما لو كان ملكية خالصة له. وهكذا اتفقوا جميعا على هذا النمط من حقوق الملكية. وبهذه الطريقة صار كثيرون من الفقراء أغنياء.

٢ ـ ثم توجه القساوسة والعلمانيون إلى ضريح الرب ومعبده المجيد، وأنشدوا ترنيمة دينية جديدة للرب في صوت يشي بالفرح والبهجة، وقدموا القرابين وأعلنوا خضوعهم في تواضع، ثم زاروا الأماكن المقدسة وهم فرحون لأن هذه كانت رغبتهم منذ أمد بعيد.

٣ ـ آه! يا له من يوم طال الشوق إليه! آه يا زمن الأزمنة الخالد في الذكرى! آه أيها الفعل السابق على كل الأفعال! والمرغوب حقا لأن الشوق الداخلي يعتمل في القلب بأمل دائم لدى كل المؤمنين بالعقيدة الكاثوليكية بأن المكان الذي فيه قام الخالق، الرب الذي تجسد رجلا، برحمته الواسعة لبني الإنسان بمولده، وموته، وبعثه، بإسباغ هبة الخلاص بما تحمله من تشريف على أولئك الذين آمنوا به ووضعوا ثقتهم فيه.

٤ ـ لقد كان وقتا يبقى في الذاكرة حقا، لأنه في هذا المكان تجددت ذكريات أعمال المسيح وتعاليمه التي لقنها كرجل يسعى على الأرض ويعيش بين الناس، في ذاكرة المؤمنين المخلصين. وهذا العمل الذي اختار الرب إنجازه من خلال شعبه، من

(١) صاغ فوشيه هذه الفقرة شعرا محاولا تقليد أوفيد.

خلال أبنائه المحبوبين وأسرته الذين اختارهم كما اعتقد لهذه المهمة . هذا العمل سيدوي ويستمر خالد الذكر على ألسنة جميع الأمم حتى نهاية الزمان .

(٣٠)

تعيين ملك وبطريرك في المدينة، واكتشاف صليب الرب:

١ ـ في سنة ألف ومائة تنقص سنة واحدة بعد مولد الرب البديع من العذراء عندما كان قد مر من شهر يوليو خمسة عشر يوما استولى الفرنج بقوتهم على بيت المقدس وسرعان ما عينوا جودفري أميرا على الأرض الأم .

كل الناس في جيش الرب في المدينة المقدسة اختاروا جودفري أميرا على المملكة[١] بسبب نبل شخصيته ، ومهارته العسكرية ، وقيادته المتأنية ، وكذلك بسبب رقي أسلوبه ، وذلك لكي يحمي المملكة ويحكمها .

٢ ـ ثم قاموا كذلك بتعيين القساوسة في كنيسة ضريح الرب (كنيسة القيامة) وفي معبد الرب لخدمته . وعلاوة على ذلك فإنهم قرروا في ذلك الوقت أنه لا يجب تعيين بطريرك في حينه حتى يستفسروا من البابا الروماني عمن يرغب في تعيينه[٢] .

٣ ـ وفي الوقت نفسه ، فإن بعض الأتراك والعرب والأثيوبيين السود عددهم حوالي خمسمائة ، كانوا قد اعتصموا ببرج داود ، توسلوا إلى الكونت ريمون ، الذي كان يعسكر قرب القلعة ، بأن يتركوا أموالهم هناك ، ويسمح لهم بالرحيل . ووافق على ذلك وانسحبوا إلى عسقلان .

٤ ـ وفي ذلك الوقت شاء الرب أن نجد قطعة صغيرة من صليب الرب في مكان

---

(١) إشارة فوشيه إلى جودفري باعتباره Regis Principem، أي أميرا للمملكة تعني أنه تم اختيار جودفري حاميا للبلاد وليس ملكا عليها . وكان هذا بسبب اعتراضات بعض رجال الكنيسة . انظر :
Raymond of Aguilers, RHC., Occ. III, 301.

(٢) يقرر كل من ريمون الأجويلري والمؤرخ المجهول صراحة أن أرنولف دي شوك Arnulf de Chocques قد اختير ليكون بطريرك بيت المقدس (Raymond, RHC, III, 301)، ويؤكد فوشيه أن هذه كانت رغبة البابا إربان . وعلى الرغم من أن عنوان هذا الفصل يتحدث عن تعيين ملك وبطريرك ، مما يشير إلى أن كاتبه شخص آخر غير فوشيه ، فإن جودفري لم يكن ملكا .

سري . وكان الرجال المقدسون قد خبئوه في الزمن القديم . والآن بمشيئة الرب اكتشفه أحد السوريان بمعرفة والده واحتفظ به . وهذه القطعة التي شكلت على هيئة صليب ، كانت مغطاة جزئيا بأشغال الذهب والفضة ، وقد حمل إلى ضريح الرب ، ومن هناك إلى المعبد ، وكان الجميع ينشدون متغنين بانتصارهم ويسدون الشكر إلى الرب ، الذي حفظ كنزه وكنزنا طوال هذا الوقت من أجلنا ومن أجل نفسه .

(٣١)

وصول المسلمين وهجومهم، وانتصار المسيحيين:

١ ـ كما أن ملك بابيلون وقائد جيوشه المسمى لافيداليوس Lavedalius[١] عندما سمع بأن الفرنج قد دخلوا مناطقهم بالفعل بقصد إخضاع مملكة بابيلون لأنفسهم ، أصدر مرسوما بجمع أعداد غفيرة من الأتراك والعرب والأثيوبيين الذين أسرعوا لشن الحرب ضد الفرنج . وعندما وصلتهم أنباء أخرى أن القدس قد سقطت ، استشاط القائد المذكور غضبا وأسرع لقتال الغزاة أو حصارهم داخل المدينة .

٢ ـ وفي أحد الأيام[٢] ، وبينما كان الفرنج يستطلعون حول عسقلان في انتظار المعركة ، اكتشفوا غنائم كثيرة من الثيران والجمال والماشية والماعز . وعندما جمع رجالنا هذه الحيوانات قرب خيامهم في نهاية اليوم ، أصدر قادتنا إعلانا صارما بألا يسوق الرجال هذه القطعان معهم في الغد ، حيث كان من المتوقع حدوث المعركة ، حتى لا يعوقهم عائق ويكونوا أكثر حرية في القتال .

٤ ـ وفي الصباح التالي عرف الفرنج من الكشافة الذين كانوا قد أرسلوا للاستطلاع أن المسلمين يتقدمون . وعندما عرف هذا قام قادة الكتائب والسرايا على الفور بتشكيل رجالهم في أجنحة وصفوف ، ورتبوهم كأحسن ما يكون استعدادا للقتال ، ثم ساروا في شجاعة ضد العدو وراياتهم تخفق عالية .

---

(١) بالنسبة للفرنج بابيلون هي القاهرة ، والملك هنا هو الخليفة الفاطمي المستعلي ، تاسع الخلفاء الفاطميين (١٠٩٤ ـ ١١٠١م) ولافيداليوس تحريف لاسم الوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه (١٠٩٤ ـ ١١٢١م) الذي كان صاحب السلطة الفعلية في البلاد .

(٢) ١١ من أغسطس سنة ١٠٩٩م .

٥ ـ وربما كنت سترى الحيوانات التي ذكرتها وهي تتقدم من تلقائها يمينا وشمالا بجوار تشكيلاتنا كما لو كانت تستجيب لقيادة ما؛ ومع ذلك فإن أحدا لم يكن يسوقها. وبهذه الطريقة، فإن المسلمين الذين كانوا على مسافة بعيدة يرون الحيوانات تمضي مع جنودنا، استنتجوا أن الجيش كله كان جيش الفرنج.

٦ ـ وعلى أي حال، فإن المسلمين الذين كانت أعدادهم لا تحصى، اقتربوا من تشكيلاتنا مثل غزال يطارد قرونه. فقد قسموا تشكيل مقدمتهم، وكشفوا عن جناح من العرب خفيفي الحركة قاصدين أن يطوقوا مؤخرة جيشنا. ونتيجة لهذا اتجه الدوق جودفري نحو المؤخرة ومعه مجموعة من الفرسان ثقيلي العدة وأنقذ المؤخرة. وتقدم الأمراء الآخرون بعضهم في الخط الأول والبعض الآخر في الخط الثاني.

٧ ـ وعندما اقترب الخصم من خصمه لمسافة مرمى حجر أو أقل، بدأ مشاتنا في إطلاق السهام على أعدائهم الذين كانت خطوطهم ممتدة. وسرعان ما حلت الحربة محل السهم في الوقت الذي شن فرساننا هجمتهم العنيفة كما لو كان هناك اتفاق متبادل أقسموا عليه. وفي الهجوم طرحت خيول الأعداء البطيئة فوق راكبيها. وفي مدى ساعة زمنية واحدة كانت الكثير من الجثث ترقد شاحبة وقد هربت منها الحياة.

٨ ـ ولجأ كثيرون من الأعداء في هربهم إلى قمم الأشجار. إلا أنهم رموا بالسهام التي أصابتهم في مقتل فسقطوا على الأرض في حال بائسة. وفي الهجوم الكاسح اندحر المسلمون في كل جانب. وأولئك الذين هربوا لاذوا بمعسكرهم داخل أسوار عسقلان. وهذه المدينة تبعد بمقدار ٧٢٠ مسافة عن بيت المقدس(١).

٩ ـ أما قائدهم لافيداليوس (الأفضل) الذي كان يحتقر الفرنج حتى ذلك الحين، فإنه عند أول مواجهة أدار ظهره هاربا لا يلوي على شيء. وهكذا اضطر إلى ترك خيمته، التي كانت قائمة بين الخيام الأخرى وبها كثير من الأموال. وبعد ذلك عاد الفرنج فرحين بالنصر وتجمعوا مرة أخرى، وقدموا الشكر للرب.

---

(١) على مسافة يوم ونصف يوم بسرعة الخيل وفقا لرواية ريمون الأجويلري: .RHC, Occ., III, 301?

١٠ ـ ثم دخلوا خيام العدو ووجدوا ثروة أميرية هائلة؛ من الذهب والفضة، والعباءات الطويلة، وغيرها من الملابس والأحجار الكريمة. وكانت الأحجار الكريمة اثني عشر نوعا[١]. كما وجدوا كثيرا من الأواني وأنواعا كثيرة من الأشياء مثل الخوذات التي يزينها الذهب، والخواتم النفيسة، والسيوف المدهشة، والغلال والدقيق وغير ذلك كثير.

١١ ـ وقضى رجالنا الليل هناك، وتولوا حراسة أنفسهم بعيون ساهرة يقظة. إذ إنهم كانوا يظنون أن القتال سوف يتجدد في اليوم التالي من جانب المسلمين، ولكن هؤلاء تملكهم الرعب تماما فهربوا في الليلة نفسها. وعندما أكد الكشافون هذه الحقيقة في الصباح، مجد الفرنج الرب وحمدوه بأصوات تفيض بالثناء، لأنهم بعثروا هذه الآلاف المؤلفة من المسلمين بجيش ضئيل من المسيحيين. وكما جاء في المزامير (١٢٤ : ٦) «مبارك الرب الذي لم يسلمنا فريسة لأسنانهم». وفي المزامير أيضا (٣٣: ١٢) «طوبى للأمة التي الرب إلهها الشعب الذي اختاره ميراثا لنفسه».

١٢ ـ ألم يتهددنا أولئك البابلونيون (المصريون) بقولهم: «فلنذهب ونستول على بيت المقدس والفرنج محبوسون بداخلها. وبعد أن نذبحهم جميعا ندمر الضريح الغالي عليهم، ونقذف أحجار المبنى خارج المدينة، ولينته ذكر الضريح بعد ذلك تماما»[٢]؟ ولكن برحمة الرب خاب ظنهم. وبدلا من ذلك حمل الفرنج نفس الخيول والجمال بأموال المسلمين. وإذ لم يتمكنوا من حمل كل الخيام والحراب

---

(١) جاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي (٢١: ١٩ ـ ٢٠) ما نصه: «وأساسات سور المدينة مزينة بكل حجر كريم، الأساس الأول يشب. الثاني ياقوت أزرق. الثالث عقيق أبيض. الرابع زمرد ذبابي. الخامس جزع عقيقي. السادس عقيق أحمر. السابع زبرجد. الثامن زمرد سلغي. التاسع ياقوت أصفر. العاشر عقيق أخضر. الحادي عشر إسمانجوني. الثاني عشر جمشت. والاثنا عشر بابا اثنتا عشرة لؤلؤة كل واحد من الأبواب كان من لؤلؤة واحدة وسوق المدينة ذهب نقي كزجاج شفاف» ـ والواضح أن فوشيه يعكس هنا ثقافته المسيحية ولا يحكي ما حدث فعلا بقدر ما يصوغ القصة في قالب يناسب الأسقف الكاثوليكي الذي يخاطب عامة الناس في غربي أوربا بكتابه. (المترجم)

(٢) هذه صياغة بلاغية من فوشيه لا يسندها دليل تاريخي، كما أنها تكشف عن الدعاية الكنسية المتعصبة ضد المسلمين. والواقع أن كنيسة القيامة كانت بحوزة المسلمين منذ منتصف القرن السابع الميلادي حتى دخول الصليبيين في أواخر القرن الحادي عشر، ولم يفكر أي حاكم مسلم في أي شيء قريب من الكلام الغريب الذي يقوله فوشيه. (المترجم)

والأقواس والسهام المرمية إلى داخل المدينة، فإنهم تركوها جميعا فريسة للنيران، ثم عادوا فرحين إلى بيت المقدس.

(٣٢)

عودة الأمراء إلى بلادهم:

١ ـ بعد أن تم إنجاز هذه الأشياء، أبدى بعض الناس رغبتهم في الرجوع إلى بلادهم. وبمجرد أن استحموا في نهر الأردن، جمعوا بعض سعف النخيل قرب العريش التي قيل إنها جنة إبراهيم، وقد انطلق روبرت كونت نورماندي، وروبرت كونت الفلاندز على متن السفن إلى القسطنطية، ومن هناك عادوا إلى فرنسا إلى ممتلكاتهم. وعلى أي حال عاد ريمون إلى اللاذقية في سوريا، وترك زوجته هناك[١]، وذهب إلى القسطنطينية، على أساس أنه سوف يعود. أما الدوق جودفري، الذي أبقى تنكرد وعددا آخر معه، فقد تولى الحكم في بيت المقدس التي أخذها بموافقة الجميع.

(٣٣)

بوهيموند وبلدوين ورحلتهما للحج:

١ ـ كان السيد بوهيموند، وهو رجل قوي حكيم، في ذلك الوقت يتولى حكم أنطاكية، على حين كان السيد بلدوين، وهو شقيق جودفري السابق ذكره، يحكم الرها والريف المجاور على الضفة الأخرى لنهر الفرات. وعندما سمعا أن رفاقهما قد أخذوا بيت المقدس، غمرهما الفرح وأسديا الثناء والصلوات للرب.

٢ ـ لكن إذا كان أولئك الذين سبقوا في الإسراع إلى القدس قد أتوا أفعالا حسنة وجسورة، فإنه ليس هناك شك في أن هذين الاثنين اللذين جاءا فيما بعد مع رفاقهما لا تنقصهما الشجاعة رغم قدومهما متأخرين.

---

(١) هنا يمر فوشيه مرورا عابرا على حادثة مأساوية للغاية، حيث وجد روبرت كونت نورماندي، وروبرت كونت الفلاندرز، وريمون الساجيلي أن بوهيموند ودايمبرت كبير أساقفة بيزا، وكلاهما من الصليبيين في حصار مخز ضد البيزنطيين الذين كانوا من رفاقهم المسيحيين في اللاذقية، وأجبروهما على رفع الحصار.

٣ ـ وإنه كان من الضروري أن الأراضي والمدن التي تم الاستيلاء عليها من الأتراك بمثل هذه الكفاءة لا بد أن تتم حراستها بعناية. فإذا تسبب الطيش في تركها دون حماية يمكن غزوها بهجوم مفاجئ يشنه الأتراك، الذين تم دفعهم بعيدا حتى فارس. وفي هذه الحال، فإن ضررا كبيرا سوف يلحق بالفرنج، سواء الذاهبين إلى القدس أو القادمين منها. وربما كانت العناية الربانية هي التي أخرت بوهيموند وبلدوين، على أساس أنهما سوف يكونان أكثر فائدة لما قد يأتي أكثر من فائدتهما لما مضى.

٤ ـ آه كم مرة، نال التعب من بلدوين هذا في المعارك التي خاضها ضد الأتراك في بلاد ما بين النهرين! كم من رءوس الأتراك قطعت هناك، هذا شيء يستحيل أن نحصيه. وغالبا ما كان يحدث أن يقاتل بلدوين في عدد قليل من الرجال ضد جموع كبيرة من الأعداء، ويظفر بالنصر بمساعدة الرب[١].

٥ ـ وعندما أرسل بوهيموند يقترح على بلدوين أن يكملا رحلتهما إلى القدس، التي لم يكونا قد أكملاها بعد، أتم بلدوين استعداده للذهاب في وقت قصير.

٦ ـ ولكن عندما سمع بلدوين أن الأتراك قد قاموا بغزو جزء من ممتلكاته أجل الذهاب في الرحلة. وبما أنه لم يكن قد جمع بعد جيشه الصغير للرحلة إلى القدس، فإنه خرج لقتال الأتراك بعدد قليل من رجاله. ففي أحد الأيام ظن الأتراك أن بلدوين قد ذهب فعلا في رحلته، وكانوا آمنين في خيامهم عندما رأوا الراية البيضاء التي كان بلدوين يحملها. وركبهم الخوف وطاروا هاربين بقدر ما أمكنهم من سرعة. وبعد أن طاردهم مسافة قصيرة برجاله القلائل رجع ليواصل مشروع رحلته.

٧ ـ وإذ بدأ الرحلة ومر بأنطاكية التي كانت على يمينه، وصل إلى اللاذقية حيث اشترى المؤن اللازمة للرحلة وأعاد تحميلها على ظهور الحيوانات. ثم انطلق في

---

(١) هنا ربما يكون فوشيه قد حركه النقد الذي انصب على بوهيموند وبلدوين، فيحاول تبرير تقاعسهما في الوقت الذي كانت قوة الصليبيين الرئيسية تتقدم للاستيلاء على بيت المقدس.

سيره. وكان ذلك في شهر نوفمبر. وبعد أن مررنا عبر جبيل أدركنا بوهيموند الذي كان قد أقام خيامه قبالة مدينة تسمى فالانيا(١).

٨ ـ وكان معه كبير أساقفة بيزي واسمه دايمبرت، كان قد جاء عن طريق البحر ومعه بعض التسكانيين والإيطاليين، وهناك انتظر لكي يذهب معنا. وكان هناك أسقف من أبوليا أيضا. أما الأسقف الثالث فكان مع السيد بلدوين(٢).

٩ ـ عندما توغلنا داخل أراضي المسلمين، لم يكن باستطاعتنا أن نحصل من السكان المعادين على الخبز أو أي شيء آخر نأكله. لم يكن أحد منهم يرضى بأن يعطي أو يبيع، وكلما زاد استهلاك مئونتنا زادت معاناة الكثيرين من قسوة الجوع. كما أن الحيوانات عانت معاناة مضاعفة من نقص الطعام. إذ كان عليها أن تسير دون أن تجد شيئا تأكله.

١٠ ـ ولكن في تلك الحقول المزروعة التي كنا نمر خلالها في أثناء سيرنا، كانت هناك نباتات معينة يسميها العامة «قصب العسل» وهي قريبة الشبه بالبوص(٣). والاسم مركب من «قصب» و«عسل»، وفي رأيي أن الاسم هو «خشب العسل»، لأن العسل يصنع بمهارة من القصب. وبسبب جوعنا كنا نمص القصب طوال النهار بسبب طعم العسل.

١١ ـ وبفضل حبنا للرب تحملنا هذه المصاعب ومصاعب أخرى كثيرة مثل الجوع، والبرد، والأمطار الغزيرة. وإذ عانى كثيرون من الرجال قسوة الجوع، أكلوا الخيول والحمير والجمال. وفضلا عن ذلك غالبا ما كان البرد القارص يعذبنا

---

(١) هي مدينة بانياس على شاطئ البحر المتوسط جنوبي اللاذقية، وكان بوهيموند ودايمبرت يعبثان بقواتهما بعد حصارهما الفاشل للبيزنطيين في اللاذقية.

(٢) دايمبرت كبير أساقفة بيزا الذي كان رجلا قويا في مدينته ومرموقا في الدوائر البابوية، وصل إلى ساحل بلاد الشام في منتصف شهر أغسطس مع أسطول بيزي قيل إنه مكون من ١٢٠ سفينة. ولأن البيازنة والبيزنطيين كانوا يتنافسون على التجارة، فقد ألحق بعض الضرر بالممتلكات البيزنطية وانضموا إلى بوهيموند في الهجوم على اللاذقية والبيزنطيين فيها. وكان دايمبرت على استعداد لخوض المزيد من المغامرات بفضل الأسطول البيزي القوي الذي يسانده.

(٣) يبدو أنه يتحدث عن قصب السكر.

مع العواصف الممطرة، لأن حرارة الشمس لم تكن تساعدنا على تجفيف ثيابنا المبللة، حين تداهمنا موجة مطر أخرى تستمر أربعة أو خمسة أيام.

١٢ ـ وقد رأيت أناسا كثيرين ممن لم تكن لديهم خيام يموتون بسبب هطول الأمطار. وأنا، فوشيه الشارتري، وقد كنت معهم، رأيت أشخاصا كثيرين من الجنسين وعددا هائلا من الحيوانات يلقون حتفهم في أحد الأيام بسبب هذه الأمطار التي تجمد الأطراف. وسيطول الأمر كثيرا لو نحكي، كما أن الملل سيتملكنا حيث إن جميع أنماط القلق والبؤس قد حاقت بشعب الرب.

١٣ ـ وغالبا ما كانت أعداد كبيرة من الفرنج يلقون حتفهم بأيدي المسلمين الذين كانوا يحومون حول الممرات الضيقة على طول الطريق، وقد وقعت أعداد كبيرة في الأسر عندما كانوا يخرجون للبحث عن الطعام. وكنت سترى الفرسان النبلاء الذين صاروا جنودا مشاة لأنهم فقدوا خيولهم بطريقة أو بأخرى. كما أنك كنت سترى، بسبب نقص حيوانات النقل، الماعز والكباش التي أخذت من المسلمين وقد أعياها حمل المتاع فوق ظهورها وقد كلت ظهورها بسبب ما فوقها من أمتعة.

١٤ ـ كنا نتناول الخبز والغلال مرتين يوميا وليس أكثر من ذلك، وبثمن مرتفع جدا اشتريناه من طرابلس وقيصرية[١]. ومن هذا يتضح أن المرء لا يستطيع أن يحصل على أي شيء عظيم دون أن يبذل جهدا عظيما. والحقيقة أنه كان حادثا لا ينسى عندما وصلنا بيت المقدس.

١٥ ـ وبهذه الزيارة إلى بيت المقدس انتهت مهمتنا المقدسة. وعندما حملقنا في قدس الأقداس الذي طال الشوق إليه غمرنا الفرح الطاغي. آه كم تداعت إلى عقولنا نبوءة داود القائلة: «لندخل إلى مساكنه. لنسجد عند موطئ قدميه»[٢].

---

(١) كانت طرابلس وقيصرية تخضعان اسميا للخليفة الفاطمي في القاهرة. ولم يكن لدى حاكميهما رغبة في الانحياز إلى جانب الأتراك السلاجقة الذين كانوا يؤيدون الخلافة العباسية في بغداد. وقد جعلهم قصر النظر والأنانية السياسية يظنون أن الفرنج سوف يتركونهم في حالهم. انظر: Gibb, "The Caliphate and the Arab States" in' Setton (ed.) The History of the Crusades, I, 89 - 98

(٢) المزامير، ١٣٢ : ٧.

حقا لقد رأينا النبوءة تتحقق فينا في تلك اللحظة أيا كان وقع ذلك على الآخرين. هناك «حيث صعدت الأسباط أسباط الرب شهادة لإسرائيل ليحمدوا اسم الرب»[١] في مكانه المقدس.

١٦ ـ وفي يوم دخولنا بيت المقدس، كانت الشمس قد أكملت هبوطها الشتوي واستأنفت خط صعودها[٢].

١٧ ـ وعندما انتهينا من زيارة ضريح الرب ومعبده المجيد والأماكن المقدسة الأخرى، ذهبنا في اليوم الرابع إلى بيت لحم للاحتفال بعيد ميلاد الرب. وأردنا في تلك الليلة أن نساعد شخصيا في الصلوات في المكان الذي ولدت فيه الأم مريم المبجلة يسوع.

١٨ ـ وبعد أن انتهينا من التعبد في تلك الليلة واحتفلنا بصلاة القداس الثالثة رجعنا إلى بيت المقدس في الساعة الثالثة من النهار[٣].

١٩ ـ آه من عفن الرائحة التي كانت حول أسوار المدينة، سواء من الداخل أو من الخارج، والتي كانت تنبعث من الأجساد المتعفنة لقتلى المسلمين الذين ذبحهم رفاقنا وقت الاستيلاء على المدينة، والتي كانت مرمية حيثما تم قتلها.

٢٠ ـ وبعد أن نلنا قسطا من الراحة نحن وحيواناتنا كنا في أمس الحاجة إليه، وبعد أن اختار الدوق والزعماء الآخرون دايمبرت السابق الذكر ليكون بطريرك كنيسة القيامة المجيدة، جمعنا المؤن وحملنا حيواناتنا، ثم ذهبنا إلى نهر الأردن.

٢١ ـ وقد اختار بعض جنود الجيش، ممن وصلوا متأخرين، أن يبقوا في بيت المقدس؛ أما الآخرون الذين جاءوا في البداية فقد فضلوا الرحيل معنا. واستمر الدوق جودفري في حكم أملاك بيت المقدس بقبضة قوية كما كان الحال من قبل.

٢٢ـ وفي ثلث أغسطس ويوم، رحل إربان المبجل، بابا روما عن هذا العالم[٤].

---

(١) المزامير ١٢٢ : ٤.

(٢) يقصد بداية الشتاء يوم ٢١ من ديسمبر سنة ١٠٩٩م.

(٣) الساعة التاسعة صباح يوم ٢٥ من ديسمبر سنة ١٠٩٩م.

(٤) هذا التاريخ ١١ من أغسطس سنة ١٠٩٩م غير صحيح؛ فقد كان موت إربان في ٢٩ من يوليو من نفس السنة.

(٣٤)

عودة الدوق بوهيموند والكونت بلدوين إلى أملاكهما:

١ ـ في سنة ١١٠٠ بعد تجسيد سيدنا المسيح، وفي اليوم الأول من السنة[١]، حملنا كلنا سعف النخيل الذي قطعناه كالعادة. وفي اليوم التالي بدأنا رحلة العودة.

٢ ـ وكان من دواعي سرور أمرائنا أن يمضوا عبر مدينة طبرية، التي تقع بجوار بحر. هذا البحر يتكون من المياه المتدفقة، وطوله ثمانية عشر ميلا وعرضه خمسة أميال[٢]. ومن هناك مررنا عبر قيصرية فيليب التي تسمى بانياس عند السوريين. وهي رابضة عند سفح جبل لبنان من مكان تنبثق منه عينان تمدان نهر الأردن بالمياه. وهو يفيض عبر بحر الجليل ليصب في البحر الميت.

٣ ـ فضلا عن أن تلك البحيرة التي تسمى جينسارت عرضها أربعون مرحلة وطولها مائة، وفقا لما يقوله يوسيفوس (المؤرخ اليهودي القديم). ويفيض النهر عبر مجراه ليصب في البحر الذي يسمى البحر الميت لأنه لا يحوي أي كائنات حية وهذه البحيرة الأخيرة تسمى أيضا الأسفلتية، ويعتقد أنها بلا قاع لأن مدنا مثل سدوم وعمورية قد دفنت في أعماقها[٣].

٤ ـ وقد فكرت بعناية في تلك العيون التي ذكرها سان جيروم، الذي قرأت كتابه عن النبي عاموس. وتوصلت إلى أن الحكيم كان داخل حدود المنطقة التي تقع فيها بانياس حاليا. ولأن قبيلة الحكيم بنت مدينة هناك، فقد أسماها الناس دان تيمنا باسم جدهم. ولهذا السبب أظن أن أحد النبعين كان يسمى «دان» والآخر «يور» بالقرب منه.

---

(١) عادة يبدأ فوشيه السنة يوم ٢٥ ديسمبر، ولكنه في هذه الحال يبدو أنه بدأ من أول يناير سنة ١١٠٠. بعد أن استراح الفرنج اختاروا دايمبرت بطريركا، ثم مضوا صوب نهر الأردن وهذه الأحداث استغرقت عدة أيام.

(٢) يتحدث فوشيه هنا عن بحيرة طبرية.

(٣) أحيانا يطفو الأسفلت أو البيتومين على السطح. وقد جاء في سفر التكوين (١٩ : ٢٤ ـ ٢٩) ما نصه: «فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء».

٥ ـ ثم وصلنا إلى مدينة حصينة جدا اسمها بعلبك، أسسها سليمان، وأحاطها بأسوار عالية، وأطلق عليها اسم تدمر. وهذه المدينة على مسافة يومين من أعالي بلاد الشام، وستة أيام من بابل العظمى، وعلى مسيرة يوم واحد من نهر الفرات. وكان اليونان يسمونها بالميرا[1]، وهناك عدد كبير من العيون والآبار في هذه المنطقة، ولكن المياه لا توجد في الصحراء.

٦ ـ وهنا قابلنا حوالي أربعمائة مقاتل تركي من دمشق. ولأنهم كانوا يعرفون أننا مرهقون وضعفاء للغاية بسبب ما قمنا به، ظنوا أن بمقدورهم أن يلحقوا بنا الأذى بشكل ما. ولو لم يكن الحظ قد جعل السيد بلدوين مسؤولا عن حراسة المؤخرة في ذلك اليوم، وهو واجب أداه بعناية وحرص، لكان الكثيرون من رجالنا قد لقوا حتفهم. إذ إن سهامهم أخطأت أهدافها بسبب الأمطار، لأنهم يستخدمون الغراء في صناعة أسلحتهم في تلك البلاد. وكان بوهيموند يتولى قيادة المقدمة. وهكذا بمساعدة الرب لم يحرز العدو أي ميزة علينا[2].

٧ ـ ثم عسكرنا قبالة المدينة آنفة الذكر. وفي اليوم التالي نفسه اقتربنا من البحر ومررنا أمام مدينة طرطوس واللاذقية. وعند اللاذقية وجدنا ريمون الذي كنا قد تركناه هناك. وبسبب ندرة الطعام لم نستطع شراء أي مؤن نستطيع العيش عليها. وهكذا أسرعنا في المسير دون توقف حتى وصلنا الرها.

(٣٥)

أسر الدوق بوهيموند:

١ ـ وصل بوهيموند أولا إلى أنطاكية حيث استقبله أصدقاؤه فرحين مهللين، وهناك ظل يحكم على مدى ستة أسابيع مثلما كان الحال ذلك.

٢ ـ ولكن في شهر يوليو التالي عندما اقترب هو وعدد قليل من رجاله من مدينة تسمى ملطية (التي كان يفترض أن تئول إليه عن طريق جبريل حاكمها

---

(١) هنا وقع فوشيه في خطإ، لأنه لم يمر عبر تدمر بكل تأكيد، فالواحة الشهيرة على بعد حوالي ١٤٠ ميلا شمال شرقي دمشق.

(٢) كان أولئك المقاتلون الأتراك جنود شمس الملوك دقاق حاكم دمشق.

نتيجة لمعاهدة صداقة متبادلة بين الطرفين) هاجمه أمير اسمه دانيسمان[1] ومعه جيش كبير من الأتراك. وكان غرضه أن يقطع الطريق على بوهيموند الذي كان غير مدرك لوجوده.

٣ ـ وفي مكان لا يبعد كثيرا عن المدينة المذكورة انقض الأشرار على بوهيموند من كمين أطبق عليه من كل جانب. ولم يجرؤ رجالنا على القتال نظرا لقلة عددهم وتفرقوا في الحال أشتاتا هاربين. وقتل الأتراك منهم الكثيرين واستولوا على كل ممتلكاتهم. بل إنهم أمسكوا بوهيموند وساقوه أسيرا.

٤ ـ وعندما ذاع خبر هذه الكارثة على أيدي الذين تمكنوا من الهرب تملك شعبنا يأس شديد. وعلى أي حال، فإن الدوق بلدوين حاكم الرها جمع أعدادا كبيرة من الفرنج من الرها وأنطاكية وذهب يبحث عن العدو المذكور في المكان الذي سمع بوجوده فيه.

٥ ـ أما بوهيموند من جانبه فقد قطع خصلة من شعره، وبهذا الرمز الذي كان قد تم ترتيبه من قبل مع بلدوين طلب منه أن يسرع لمساعدته حبا في الرب. أما الدانشمند فإنه عندما عرف بهذا، خاف من الانتقام ولم يستطع أن يبقى أمام ملطية أكثر من ذلك، مع أنه كان قد فرض الحصار عليها، وبدلا من ذلك تقهقر تدريجيا أمامنا وفي خطته أن يرجع إلى بلاده. ولهذا السبب خاب أملنا كثيرا، لأننا طاردنا الأتراك على مدى أيام ثلاثة، بعد ملطية تدفعنا رغبة محمومة في قتالهم.

٦ ـ وعندما عدنا سلم جبريل السابق ذكره مدينة ملطية إلى بلدوين. ولما وطد بلدوين روابط الصداقة وأدخل حراسة في ملطية، عاد إلى مدينة الرها وعاد رجال أنطاكية إلى بلادهم بدون زعيمهم.

---

(١) هو الملك الغازي جمشتكين بن الدانشمند، وهو حاكم تركي سلجوقي تولى حكم معظم منطقة الأناضول بدءا من سيواس خلال الفترة من سنة ١٠٩٧ إلى سنة ١١٠٥م.

(٣٦)

موت الملك جودفري[١]:

١ ـ بينما كان بلدوين يرفل في النعيم، استقبل رسولا من بيت المقدس يعلن له أن الدوق جودفري، شقيقه، مات هناك في اليوم الخامس عشر قبل شهر أغسطس[٢].

٢ ـ وفي بداية السنة التي أعقبت أخذ المدينة، عليك أنت أيها الدوق جودفري، أسبغ الرب عليك تاج الجدارة وأعطاك ذلك الحكم. ولكن ليس لوقت طويل فلم تمارس الحكم طويلا حتى هلكت بقانون الطبيعة. وعندما تدخل الشمس المشرقة برج الأسد سوف تصعد إلى السماء مسرورا يحملك ميخائيل كبير الملائكة[٣].

هنا تنتهي الكراسة الأولى

---

(١) لم يكن جودفري ملكا أبدا، وهو ما يكشف عن أن عنوان هذا الفصل لم يكتبه فوشيه.

(٢) ١٨ من يوليو سنة ١١٠٠م.

(٣) محاولة شعرية لفوشيه يختتم بها هذا الفصل.



الكراسة الثانية

هنا تبدأ الكراسة الثانية عن أعمال الملك بلدوين الأول

(١)

كيف جاء بلدوين لحكم بيت المقدس:

١ ـ عندما أعلن للسيد بلدوين أن كل الشعب في بيت المقدس[١] كانوا يتوقعون منه أن يخلف أخاه وريثا في المملكة، حزن إلى حد ما لموت أخيه، ولكنه ابتهج أكثر بسبب ميراثه. وبعد أن قام بعدة مشاورات أعطى الأراضي التي كان يمتلكها منحة لابن عمه بلدوين[٢]. وبعد أن جمع جيشه الصغير، الذي كان عدده حوالي مائتي فارس وسبعمائة من المشاة، بدأ الرحلة إلى بيت المقدس في الثاني من أكتوبر (١١٠٠).

٢ ـ وقد تعجب البعض من جرأته على المسير خلال هذه المناطق المعادية الكثيرة بمثل هذا العدد الضئيل من الرجال. ولهذا السبب كان كثيرون ضحية الخوف والرعب فانسحبوا من معسكرنا خلسة دون أن نفطن لذلك.

٣ ـ وفضلا عن ذلك، عندما عرف الأتراك والمسلمون أننا نقوم بهذه الرحلة، جمعوا أكبر عدد ممكن من رجالهم وخرجوا بالسلاح لقتالنا حيث ظنوا أن بوسعهم أن يلحقوا بنا الأذى البالغ.

٤ ـ في هذا الوقت ذهبنا عبر أنطاكية، ثم مررنا باللاذقية، وجبيل، وهرقلية، وطرطوس، وأرعش ثم وصلنا طرابلس.

---

(١) لم يكن الجميع مُرحِّبين ببلدوين، لأن فوشيه نفسه يزيح النقاب عن أن تنكرد والبطريرك دايمبرت كانا ضمن المعارضين.

(٢) هو بلدوين البورجي Baldwin de Bourg، وربما كان ابن عمه الثاني، وقد خلفه في حكم الرها (١١٠٠ ـ ١١١٨) كما خلفه أيضا في حكم بيت المقدس (١١١٨ ـ ١١٣١).

٥ ـ في هذا الوقت أرسل ملك طرابلس إلى خيمة السيد بلدوين الخبز والنبيذ والعسل البري، أي السكر، والغنم. كما أخبر بلدوين أن دقاث Ducath ملك الدمشقيين، وجناهادوليس Ganahadoles ملك حلب، ينتظران ومعهما عدد غفير من الأتراك والمسلمين والعرب قد احتشدوا على طول الطريق الذي سوف يمر منه. وعلى الرغم من أننا لم نصدق هذا تماما، فقد أدركنا فيما بعد أنه كان الحقيقة[١].

(٢)

الكمين الذي أعده الأتراك ومواهب الكونت بلدوين العسكرية البارزة:

١ ـ وفي مكان لا يبعد كثيرا عن مدينة بيروت، على بعد حوالي خمسة أميال، يوجد مكان ضيق للغاية في الطريق العام المحاذي للبحر[٢]. ولم يكن من الممكن لنا أن نتجنبه، ولا يمكن أن يتجنبه من يريد أن يمر إذا كان هناك عدو يمتلك الطعام ويريد سد الطريق. وليس بوسع مائة ألف جندي أن ينفذوا من خلاله إذا كان هناك مائة أو حتى ستون من الرجال المسلحين يسيطرون عليه في مواجهتهم. ولذلك كانت خطة الأعداء أن يقطعوا علينا الطريق هناك ويجهزوا علينا. وعندما وصلنا لهذه الفكرة جئنا توا إلى ذلك المكان.

٢ ـ وعندما اقتربت مقدمتنا إلى المكان الضيق سالف الذكر، شاهد رجالنا بعض الأتراك الذين كانوا قد انفصلوا عن الآخرين وتقدموا يستكشفون للبحث عنا. وعندما شاهدهم كشافتنا، ظنوا أن هناك عددا أكبر يختفي في كمين خلفهم. وبمجرد أن شاهدوا ذلك أرسلوا رسولا لكي يخبر السيد بلدوين.

---

(١) الذي يسميه فوشيه «ملك» طرابلس هو القاضي جلال الملك بن عمار. أما دقاث Ducath فهو شمس الملوك دقاق حاكم دمشق، وجناهادوليس Ganahadoles هو جناح الدولة أتابك حمص الذي كان أتابك حلب من قبل.

(٢) هذا المكان الضيق ممر شهير بحذاء البحر على مسافة تسعة أميال ونصف شمالي بيروت. وعلى مدى أكثر من ثلاثة آلاف سنة كان الغزاة يمرون منه، ويتركون نقوشا على الصخور في كثير من الأحيان. وكان من الضروري لبلدوين أن يشق طريقه عبر قطاع من طريق روماني قديم عرضه متر ونصف المتر وطوله خمسمائة، تم شقه في صخرة شديدة الانحدار. ورواية فوشيه عن معركة نهر الكلب هي رواية وحيدة لشاهد عيان اعتمد عليها ألبرت الآيكسي ووليم الصوري.

٣ ـ وعندما سمع بهذا أمر قواته أن تصطف استعدادا للمعركة. وتقدمنا وراياتنا مرفوعة نحو العدو خطوة فخطوة. وعندما ظننا أن المعركة على وشك أن تبدأ، صلينا بقلوب خاشعة طاهرة طالبين مساعدة السماء عندما نواجه العدو. وتقابلنا مع العدو فرادى عند خط المقدمة، ووقع عدد من القتلى في الحال. ومات أربعة فقط من رجالنا.

٤ ـ وعندما أوقف الجانبان القتال اجتمعنا للتشاور. وصدرت الأوامر بنقل معسكرنا وتحريكه إلى مكان أكثر قربا من العدو. ولم نكن نريد أن يبدو أننا خائفون مثلما كان سيحدث لو أننا تركنا المكان كأننا هاربون. كنا نتظاهر بشيء، ولكننا كنا نفكر في شيء آخر. فقد أظهرنا الجسارة، ولكننا كنا نهاب الموت. وكان من الصعب أن نتقهقر ولكن كان أصعب منه أن نتقدم. فقد كنا محاصرين بأعدائنا من جميع الاتجاهات. ففي أحد الجوانب كان هناك أولئك القابعون في السفن في البحر، وعلى الجانب الآخر كان أولئك الذين يضغطون علينا من التلال بلا هوادة. وفي ذلك اليوم لم يكن هناك شيء يسير على ما يرام؛ إذ لم ننل حظنا من الراحة، ولم تشرب حيواناتنا العطشى. والحقيقة أنني تمنيت كثيرا لو أنني في شارتر أو أورليان، وهذا ما تمناه الآخرون. وطوال تلك الليلة كنا خارج خيامنا نترقب في حذر.

٥ ـ وفي فجر ذلك اليوم بدأت أنوار الصباح تفصل الظلام عن وجه الأرض، وبعد أن تناقشنا فيما إذا كان ينبغي علينا أن نحاول الخروج أو نموت هكذا، قررنا أن نجمع خيامنا ونتقهقر عبر الطريق الذي جئنا منه. وحملنا حيواناتنا بمتاعنا وجعلناها تسبقنا يسوقها رجال من سائسي الخيل. وتبعهم الفرسان لحمايتهم من المسلمين إذا اندفعوا نحوهم.

٦ ـ وفي وضوح النهار، عندما رأى الأتراك، ذلك الشعب الملعون، أننا قد ولينا الأدبار نزلوا في الحال من المرتفعات لمطاردتنا. كان بعضهم على متن السفن في البحر، على حين كان البعض الآخر خلفنا على الطريق الذي كنا قد جئنا منه، وآخرون جاءوا من الجبال والتلال، فرسانا ورجالا، وأخذوا يسوقوننا مثل قطيع من الماشية يساق إلى الحظيرة. لقد كانوا يريدون قطعنا في مكان مستو يقع عند

المضيق الكائن بين البحر والمرتفعات بحيث يمكنهم بسهولة أن يوقفونا ويقتلونا. ولكن الأمر لم يكن حسب هواهم.

٧ ـ إذ إن رجالنا وقفوا صامدين يقولون بعضهم لبعض: «إذا استطعنا الالتحام في هذا المكان المفتوح مع أولئك الذين يطاردوننا، فربما استطعنا بمساعدة الرب أن نقاتلهم بحيث نفتح ثغرة في صفوفهم ونهرب منها».

(٣)

معركة مريرة جداً ضد الأتراك:

١ ـ في ذلك الوقت كان الأتراك يقفون خارج السفن والقوارب، ويقطعون رءوس الغافلين الذين اقتربوا من الماء، وجاءوا خلفنا في المكان المستوي الذي سبق ذكره، وهم يطلقون الكثير من السهام. وقد أحاطوا بنا من كل جانب وهم يصيحون ويعوون مثل الذئاب أو الكلاب وهم يشقون الهواء بسيوفهم. ولكن ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا؟ لم يكن ثمة مهرب ولم يكن هناك أمل في السلامة في البقاء هناك.

لم تكن حكمة سليمان أو قدرة شمشون لتهزمهم.

٢ ـ ولكن الرب برحمته العظيمة وقوته، وهو ينظر إلى الأرض من السماء، رأى مهانتنا وضعفنا والهلاك الكبير الذي أطبق علينا لأننا نحبه وفي خدمته. وتحرك بعاطفة أزلية كان بها دائما عونا لشعبه. ومنح رجالنا الشجاعة الفائقة بحيث إنهم استداروا فجأة لدرجة أن عدوهم فر هاربا عبر طريق ذي ثلاث شعب، وبحيث إن العدو لم يفكر أبدا في الدفاع عن نفسه. ونجا بعضهم بنفسه للاحتماء في المرتفعات الصخرية، على حين فر البعض الآخر مسرعين بحثا عن مكان آمن، بينما شلت المفاجأة البعض فحصدتهم السيوف. وكنت سترى البعض فزعوا هاربين في البحر بواسطة القوارب كما لو كنا نستطيع أن نخطفهم بأيدينا. وفر غيرهم بسرعة إلى الجبال والتلال على أقدامهم.

٣ ـ وهكذا فرحنا وابتهجنا بهذا النصر الكبير، وعدنا إلى الرجال الذين كانوا

يحرسون القافلة التي ضمت الحيوانات التي حملت متاعنا على الطريق. ثم قمنا بصلاة الشكر للرب الذي صار يساعدنا بقوة في محنة لا يمكن تقدير مداها.

٤ ـ آه كم تستحق الإعجاب أعمال الرب! وكم هي معجزة وجديرة بالذكر! لقد كنا مهزومين، ولكننا تحولنا من الهزيمة إلى النصر. ولكننا لم ننتصر بأنفسنا. فكيف إذن، لم نحرز نحن النصر؟ لقد انتصر هو القادر الخالق لكل شيء عطفا على مخلوقاته التي تساعده «إن كان الله معنا فمن علينا؟»[1]. حقا من أجلنا، وربنا، وفينا تحقق قوله للإسرائيليين بواسطة النبي: «إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها، أعطي مطركم في حينه وتعطي الأرض غلتها وتعطي أشجار الحقل ثمارها. ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خيركم للشبع وتسكنون في أرضكم آمنين، وأجعل سلاما في الأرض فتنامون وليس من يزعجكم. وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض، ولا يعبر سيف في أرضكم. وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف. يطرد خمسة منكم مئة، ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف»[2]. ولأننا تحملنا كثيرا من المشاق ليلا ونهارا في خدمته، ولم نثق في أحد سواه كسر كبرياء العدو بشكل مدهش. ولأننا خدمنا الرب بقلوب مخلصة خاشعة، فقد اهتم بحالنا الذليل.

٥ ـ ثم صدرت الأوامر بأن ننصب خيامنا. وتم إحضار الكثيرين من الأتراك الأغنياء الذين تم أسرهم أحياء أمام السيد بلدوين، كما أحضرت أسلحة الذين قتلوا. وكانت لدينا الخيول ذات اللجم المذهبة.

٦ ـ وعندما انقضت الليلة التالية، وفي الصباح[3]، وكما لو كان الأمر مخططا بعناية، عدنا مسافة أربعة أميال على طول الطريق. وعندما قام أميرنا بتقسيم الغنائم المذكورة هناك، استرحنا تلك الليلة تحت أشجار الزيتون في رحاب قلعة مهجورة[4].

---

(١) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٨: ٣١.
(٢) لاويين ٢٦ : ٢ـ٨.
(٣) ٢٦ من أكتوبر عام ١١٠٠م.
(٤) هذا المكان هو جونية وفقا لرواية وليم الصوري، وهي على مسافة ثلاثة أميال من نهر الكلب.

٧ ـ وفي صباح اليوم التالي عندما تلألأ ضوء النهار، أخذ بلدوين، بشجاعته المعهودة، بعض فرسانه وساروا إلى الممر الضيق الذي ذكرناه من قبل ليرى ما إذا كان المسلمون الذين كانوا قد سدوا الطريق أمامنا من قبل ما يزالون هناك. وعندما لم يجد أحدا، لأن الجميع قد هربوا عندما سمعوا بالهزيمة التي وقعت، حمد الله وأمر في الحال بإيقاد النيران فوق قمة الجبل. وكانت هذه إشارة لرفاقنا الذين مكثوا في المعسكر، لكي يلحقوا بأولئك الذين كانوا قد ساروا قبلهم. وعندما شاهدنا النيران حمدنا الرب وتبعناهم بسرعة. وقد وجدنا طريقنا خاليا وأنهينا الرحلة على ما نرجوه.

٨ ـ وفي ذلك اليوم عسكرنا قرب مدينة بيروت. وعندما اكتشف أمير هذه المدينة وجودنا، أخذ يرسل القوارب المحملة بالطعام بصفة يومية إلى السيد بلدوين، وهو تصرف ولّده الخوف ولم يكن بسبب الحب.

٩ ـ أما أهالي المدن الأخرى التي مررنا أمامها فقد تصرفوا بالمثل، مثل صور وصيدا، وعكا. فقد أظهروا الصداقة ولم يكن في قلوبهم شيء منها.

١٠ ـ وكان تنكرد قد استولى بالفعل على مدينة حيفا، التي استولى عليها الرجال الذاهبون إلى بيت المقدس في وقت مبكر من هذه السنة. ولكننا لم ندخلها لأن تنكرد أبدى مشاعر غير ودية تجاه بلدوين. ولم يكن تنكرد نفسه هناك، ولكن مواطنيه باعوا الخبز والنبيذ خارج أسوار المدينة، لأنهم عَدُّونا إخوة وكانوا يريدون رؤيتنا[1].

١١ ـ ومررنا عبر قيصرية في فلسطين وقلعة أرسوف الحصينة التي كنا نظنها أشدود بسبب جهلنا آنذاك. ولكنها ليست هي لأن أشدود كانت واحدة

---

(١) وصل بلدوين إلى بوابات حيفا التي كان يسيطر عليها رجال تنكرد حوالي ٢٠ من أكتوبر سنة ١١٠٠م. وكان تنكرد يكره بلدوين منذ طرده الأخير من طرسوس سنة ١٠٩٧م. وكان هو والبطريرك دايمبرت يخشيان أن يؤدي نجاح بلدوين في بيت المقدس إلى تدمير مكانة كل منهما، (وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك)، ولذلك كانا يتآمران ضد بلدوين. أما ما يذكره فوشيه هنا عن سلوك رجال تنكرد، فهو نوع من البلاغة التي تعبر عما يجب أن يكون، وليس ما حدث بالفعل. (المترجم).

من المدن الخمس للفلسطينيين[1] وهي بين يافا وعسقلان. وقد تدهورت كثيرا في هذه الأيام.

١٢ ـ وبعد أن مررنا عبر أنتريباتيدا Antripatida وصلنا في النهاية إلى مدينة يافا الساحلية، وهي ضمن إقليم دان. وهناك في هذا الوقت استقبل الفرنج السيد بلدوين بصفته ملكهم. ولم نتأخر هناك ولكننا أسرعنا إلى بيت المقدس.

١٣ ـ وعندما اقتربنا من المدينة جاء الجميع خارجين لمقابلة بلدوين، القساوسة والعلمانيون، اليونان والسوريان، ومعهم الصلبان والشموع. ثم أخذوه إلى كنيسة القيامة في سرور وترحيب عظيم، وهم يحمدون الرب بأصوات مجلجلة.

١٤ ـ ولم يكن البطريرك دايمبرت حاضرا في هذا التجمع لأنه كان يسيء الظن ببلدوين بسبب اتهام البعض له وما نتج عن ذلك من مشاعر سيئة بينهما. ، وكان الشطر الأكبر من رجال الكنيسة حتى ذلك الحين يكنون الكراهية والبغضاء لدايمبرت. ولهذا السبب أقام في جبل صهيون، محروما من كرسيه البطريركي، وظل هناك حتى ناله العقاب بسبب رذيلة الحسد والحقد[2].

١٥ ـ وعندما استرحنا من أعمالنا وأخذنا حاجتنا من الاستجمام في بيت المقدس على مدى ستة أيام، وعندما فرغ الملك من بعض شئونه، أعددنا العدة للذهاب في حملة جديدة. ذلك أنه من الضروري لكل من لهم أعداء (إنني أتحدث عن أسلوب الرجال) أن يضغطوا عليهم من جميع النواحي دون توقف وبعنف حتى يهزموهم بإرهاقهم في القتال، أو يرغموهم على عقد السلام.

---

(١) جاء في سفر صموئيل الأول (٦ : ١٧) ما نصه: «وهذه هي بواسير الذهب التي ردها الفلسطينيون قربان إثم الرب. واحد لأشدود، وواحد لغزة، وواحد لأشقلون وواحد لجت وواحد لعقرون». (المترجم)

(٢) كان فوشيه القس الخاص لبلدوين، فلا غرو أن يتبنى وجهة نظر سيده. ولكن وليم الصوري ـ في أواخر القرن ـ يدافع عن دايمبرت.

(٤)

حملة بلدوين في بلاد العرب:

١ ـ ومن ثم انطلق السيد بلدوين إلى عسقلان بعد أن جمع رجاله، وسافر عبر أشدود التي تقع بين يافا وعسقلان، والتي كانت واحدة من مدن الفلسطينيين الخمس. كانت عكا على يميننا قرب جبنيل التي تقع على شاطئ البحر. كذلك، فإننا عندما اقتربنا أمام عسقلان دفعنا الذين خرجوا لملاقاتنا إلى داخل الأسوار بسرعة. ولأنه لم يكن مفيدا لنا أن نمضي إلى ما هو أبعد من ذلك، رجعنا إلى خيامنا التي كانت قائمة بالفعل وبقينا هناك

٢ ـ وفي اليوم التالي، مضينا إلى داخل الريف حيث وجدنا الطعام لنا ولحيواناتنا بوفرة في المناطق الغنية، وحيث نهبنا وخربنا أرض عدونا. ثم مضينا في طريقنا، ووجدنا القرى حيث كان السكان المسلمون قد اختبئوا هم وحيواناتهم وممتلكاتهم الأخرى بعيدا عنا في المغاور، وسرعان ما خرجوا إلينا الواحد تلو الآخر بسبب حرارة النار والدخان[١].

٣ ـ وكان بينهم لصوص وقطاع طرق اعتادوا على التسكع بين الرملة وبيت المقدس لقتل رفاقنا المسيحيين. وعندما أخبرنا بعض المسيحيين السوريان الذين اندسوا بينهم بأن أفعالهم السيئة من هذا النمط، صرنا نقتلهم بمجرد خروجهم من الكهف. وقد أبقينا على أولئك السوريان وزوجاتهم. والواقع أننا قتلنا حوالي مائة مسلم.

٤ ـ وبعد أن أكلنا واستهلكنا كل شيء وجدناه هناك، سواء من الحبوب أو الحيوانات، ولم نستطع العثور على شيء آخر يفيدنا، اجتمعنا ببعض أهالي البلاد الذين كانوا من قبل مسلمين ثم تحولوا إلى المسيحية. وقد ناقشناهم فيما يعرفونه عن المناطق المزروعة والمناطق الصحراوية في تلك البلاد وقررنا أن نتوغل في بلاد العرب.

---

(١) يبدو من كلام فوشيه أن الصليبيين أضرموا النيران عند مداخل هذه المغاور والكهوف لكي يجبروا القرويين على الخروج.

٥ ـ وعبرنا إقليما جبليا قرب قبور الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب، وكذلك قبر سارة وربيكا، حيث دفنت أجسادهم بشكل مجيد، ثم وصلنا واديا على مسافة أربعة عشر ميلا من بيت المقدس[١]. وهنا كانت مدينتا سدوم وعمورة الشريرتان قد دمرتا بأمر الرب[٢].

(٥)

البحر الميت:

١ ـ هناك توجد بحيرة كبيرة تسمى البحر الميت لأنه لا يوجد كائن حي يعيش بها. وهي تمتد خمسمائة وثمانين مرحلة طولا ومائة وخمسين عرضا. وهي مالحة جدا لدرجة أنه لا يمكن لحيوان أو طائر أو أي كائن أن يشرب منها. وقد عرفت هذا، أنا فوشيه، بالتجربة عندما ترجلت عن البغل الذي أمتطيه في المياه وأخذت شربة ماء في كفي، ولما ذقتها وجدتها مريرة جدا.

٢ ـ ومن الشمال تتلقى هذه البحيرة مياهها من نهر الأردن، ولكن ليس لها مصب في الجنوب. وليس هناك نهر يأخذ منبعه منها. وبالقرب من هذه البحيرة يوجد جبل كبير مرتفع من الملح يبدو مثل صخرة طبيعية من الملح، وفي مواضع منه فقط يبدو شبيها بالثلج إلى حد كبير. كذلك، فإنه لا يمكن لأي فرد أن يغمس نفسه بسهولة في مياه البحيرة، حتى لو حاول المرء ذلك.

٣ ـ وأظن أن سبب ملوحة هذه البحيرة إلى هذه الدرجة يعود إلى أمرين: أولهما لأنها تتلقى الملح من الجبل الذي تغسله مياه الشاطئ بلا توقف، والسبب الثاني هو أنها تستقبل مياه الأمطار التي تهطل على هذا الجبل. وربما يكون عمق البحيرة كبيرا لدرجة أن البحر الأعظم، المالح، يفيض تحت الأرض ويصب في هذه البحيرة.

٤ ـ وعندما درنا حول البحيرة من الجهة الجنوبية، وجدنا قرية في موقع جميل

---

(١) عبرت قوات بلدوين تلال المنطقة حيث توجد مساحة فضاء مسورة أطلق عليها الفرنج اسم قلعة سان إبراهام. ومن هناك نزلت قوات بلدوين حوالي ٤٣٠٠ قدم على مسافة سبعة عشر ميلا إلى شاطئ البحر الميت من الناحية الشمالية التي تبعد حوالي ١٤ ميلا من بيت المقدس.

(٢) سفر التكوين ١٩: ٢٤ ـ ٢٥.

وبها وفرة من ثمار النخيل التي يسمونها «البلح» وقد أكلنا منها طيلة النهار بسبب طعمها اللذيذ. ولم نجد هناك غير ذلك.

٥ ـ وكان السكان المسلمون في المنطقة قد هربوا عندما سمعوا إشاعات عنا، فيما عدا بعض سود البشرة الذين تركوهم احتقارا لشأنهم كما لو كانوا نوعا من طحالب البحر.

٦ ـ وهناك رأيت بين الأشجار بعض أشجار مثمرة. وجمعت بعض هذه الثمار رغبة مني في أن أعرف ما هي. وعندما كسرت غطاءها وجدت بداخلها مسحوقا أسود، وخرج منها خيط رفيع من الدخان[١].

٧ ـ وعندها دخلنا جبال بلاد العرب وقضينا الليلة التالية في الكهوف الموجودة هناك. وفي صباح اليوم التالي[٢] عندما تسلقنا الجبال وجدنا القرى بعيدة تماما. ولكنها كانت خالية من أي شيء نافع، لأن السكان، عندما سمعوا باقترابنا، اختبئوا بممتلكاتهم في الكهوف. ولهذا السبب كانت مكاسبنا قليلة هناك.

٨ ـ ولهذا مددنا رحلتنا في مناطق أخرى، وكان مرشدونا يسبقوننا على الدوام. ثم وجدنا واديا غنيا جدا بثمار الأرض، والواقع أنه نفس الوادي الذي فيه ضرب موسى التقى، بناء على أمر ربه، الصخرة مرتين فانبثقت منها عين جارية من المياه. هذه العين تفيض اليوم في تدفق لا يقل عن تدفقها آنذاك، لدرجة أن طواحين المنطقة تستخدم قوة جريان الماء في الطحن. وقد سقيت خيولي من هذه العين.

٩ ـ وبعد ذلك وجدنا فوق قمة الجبل دير سان آرون حيث تكلم موسى وهارون مع الرب. وقد ابتهجنا كثيرا ونحن نتأمل هذا المكان المقدس الذي لم نكن نعرفه. ولكن لأن الأرض خارج الوادي كانت صحراء جرداء، لم نهتم بمواصلة السير أبعد من ذلك.

١٠ ـ وعلى مدى أيام ثلاثة نعمنا بالراحة والرفاهية في ذلك الوادي الذي كان غنيا بكل شيء. كذلك زودنا حيواناتنا بالطعام. وبعد أن حملنا حيواناتنا بالمؤن

---

(١) هذه الثمار التي يتحدث عنها فوشيه هي التي تعرف باسم تفاح سدوم، أو تفاح البحر الميت.
(٢) يوم ٢٥ من نوفمبر سنة ١١٠٠ تقريبا.

الضرورية، دوت طبول الملك حوالي الساعة الثانية في اليوم الرابع، إيذانا ببدء رحلة العودة.

١١ ـ ومن ثم رجعنا إلى قرب بحيرة الأسفلت (البحر الميت)، مثلما فعلنا في رحلتنا ونحن قادمون، ثم مررنا بقبور الأنبياء الذين سبق ذكرهم، ومررت ببيت لحم عبر ذلك المكان الذي دفنت فيه راشيل.

١٢ ـ ووصلنا سالمين إلى بيت المقدس يوم ٢١ من ديسمبر (١١٠٠). وعندما تمت الاستعدادات لتتويج الملك، وتم التصالح بين دايبرت والسيد بلدوين وعدد من رجال الكنيسة في الضريح المقدس، بسعي من الرجال العاقلين، توقفت العداوة بينهم.

(٦)

تتويج الملك بلدوين وصغر حجم مملكته:

١ ـ في سنة ١١٠١ بعد تجسد الرب، وفي عيد ميلاده، احتفل بتتويج بلدوين ملكا على يد البطريرك سابق الذكر في حضور الأساقفة والقساوسة الآخرين، وبحضور الناس في كنيسة مريم المباركة في بيت لحم. ولم يكن هذا قد تم بالنسبة لأخيه وسلفه جودفري لأنه لم يكن يرغب في ذلك، وكان هناك أشخاص آخرون لا يوافقون على التتويج. ومع ذلك فإن المشاورات الرزينة تمخضت عن أن التتويج ينبغي أن يتم.

٢ ـ وقالوا: «لماذا المعارضة طالما أن المسيح سيدنا أهين وعومل كمجرم وتوج بتاج من الشوك في بيت المقدس، وطالما أنه ضحى بنفسه بالموت في سبيلنا؟ فضلا عن أن هذا التاج في أذهان اليهود لم يكن علامة على الشرف والكرامة الملكية، ولكنهم ظنوه دلالة على المهانة والاحتقار. ولكن ما فعله أولئك السفاحون على أنه إهانة له تحول بفضل رحمة الرب إلى خلاص ومجد لنا.

٣ ـ «فضلا عن أنه عندما يتم اختيار ملك لا يكون ذلك ضد إرادة الرب، لأنه مادام اختياره قد تم بناء على إرادة الرب وبشكل صحيح فإنه يكون مؤيدا ومكرسا

ببركة الشرعية. وأي شخص ينال هذه السلطة الملكية ومعها التاج الذهبي يلزم نفسه في ذات الوقت بالواجب النبيل لإقرار العدالة. ويمكن أن ينطبق عليه وعلى الأسقف في أسقفيته هذا القول: «من يرغب في الحكم يرغب في عمل الخير، ولكنه إذا لم يحكم بالعدل فإنه لن يكون ملكا حقيقيا».

٤ ـ وفي بداية حكم بلدوين كان يمتلك مدنا قليلة وشعبا صغيرا. ومن خلال ذلك الشتاء نجح في حماية مملكته من جميع النواحي. ولأنهم اكتشفوا أنه محارب بارع، على الرغم من قلة رجاله، فلم يجرءوا على مهاجمته. ولو كانت لديه قوة عسكرية أكبر لكان يقاتل العدو مسرورا.

٥ ـ وحتى ذلك الوقت كان الطريق البري مغلقا تماما أمام حجاجنا. وفي الوقت نفسه فإنهم، سواء من الفرنسيين أو الإنجليز، من الإيطاليين أو البنادقة، كانوا يصلون بطريق البحر حتى يافا. وفي البداية لم يكن لنا أي ميناء آخر.

وكان هؤلاء الحجاج يأتون في خشية في سفن منفردة، أو في أسطول صغير من ثلاث أو أربع سفن، بين القراصنة المعادين ويمرون على موانئ المسلمين، يقودهم الرب في الطريق.

٦ ـ وعندما رأينا أنهم قد جاءوا من بلادنا في الغرب، قابلناهم بفرح وسرور كما لو كانوا من القديسين. وكل واحد منا استفسر منهم في شغف على وطنه وأحبابه. وأخبرنا القادمون الجدد بكل ما يعرفونه. وعندما سمعنا الأخبار الطيبة غمرنا الفرح؛ وعندما كانوا يخبروننا ببعض الأنباء السيئة كان الحزن ينتابنا. ووصلوا إلى بيت المقدس، ثم زاروا قدس الأقداس، وهو الذي جاءوا من أجله.

٧ ـ بعد ذلك بقي بعضهم في الأرض المقدسة، وغادرها البعض الآخر إلى بلادهم. ولهذا السبب بقيت أرض بيت المقدس فقيرة في السكان. ولم يكن هناك من الناس ما يكفي للدفاع عنها ضد المسلمين إذا فكروا في مهاجمتنا.

٨ ـ ولكن لماذا لم يجرءوا على ذلك؟ لماذا خافت هذه الأعداد الكبيرة من الناس والممالك مهاجمة مملكتنا الصغيرة وشعبنا الضعيف؟ لماذا لم يجمعوا من مصر، ومن فارس ومن بلاد الرافدين، ومن سوريا على الأقل مائة ألف محارب يمكنهم

أن يحاربوا ضدنا، بوصفنا أعداءهم، بشجاعة؟ لماذا لم يقوموا، وهم في كثرة الجراد في حقل صغير، بالتهامنا تماما وتدميرنا بحيث لا يبقى ذكر لنا في الأرض التي كانت ملكا لنا منذ زمن بعيد؟

٩ ـ ذلك أننا لم نكن نملك حينئذ سوى ثلاثمائة فارس وعدد مماثل من المشاة للدفاع عن بيت المقدس، ويافا، والرملة، فضلا عن قلعة حيفا. ولم نكن نجرؤ على جمع فرساننا عندما قررنا اتخاذ خطوة ضد أعدائنا. فقد كنا نخاف أنهم ربما قاموا في الوقت نفسه بهجوم ضد تحصيناتنا الخاوية.

١٠ ـ حقا من الواضح للجميع أنها كانت معجزة مدهشة أننا عشنا بين هذه الآلاف المؤلفة ونحن الغالبون، وجعلنا بعضهم أتباعا لنا ودمرنا البعض الآخر بنهب أملاكهم وأخذهم أسرى. ولكن من أين جاءت هذه الفضيلة؟ من أين هذه القوة؟ الحق أنها جاءت من الرب المجيد الاسم، الذي رأى شعبه يعمل في سبيل اسمه فساعد برحمته أولئك الذين وضعوا ثقتهم في اسم الرب وحده. فضلا عن أن الرب وعد أن يكافئ بالمجد الأبدي في الحياة أولئك الذين يجعلهم أحيانا سعداء بمكافأة مؤقتة صغيرة جدا.

١١ ـ يا لها من أوقات جديرة بالذكرى! حقا لقد تملكنا الحزن في أغلب الأحيان عندما لم نكن نحصل على النجدة من أصدقائنا عبر البحر. فقد كنا نخشى أن يعرف أعداؤنا قلة عددنا، فيطبقوا علينا في وقت ما من جميع الجهات في هجوم مفاجئ حيث لا يمكن لأحد أن يساعدنا سوى الرب.

١٢ ـ لم نكن نحتاج لشيء لو لم ينقصنا الرجال والخيول. فالرجال الذين أمكنهم القدوم إلى بيت المقدس عن طريق البحر لم يتمكنوا من إحضار خيول معهم، ولم يجئ إلينا أحد عن طريق البر. ولم يكن بوسع أهل أنطاكية مساعدتنا كما أننا لم نكن نستطيع مساعدتهم[١].

---

(١) كان الفرسان يحتاجون إلى الخيول المدربة على القتال destriers . وكانت أنطاكية على مسافة أكثر من ثلاثمائة ميل من بيت المقدس، وبينهما مناطق إسلامية معادية. كما أن أميرها بوهيموند كان أسيرا لدى الملك الغازي جمشتكين بن الدانشمند حاكم سيواس. (انظر ماسبق).

(٧)

تعيين تنكرد في أنطاكية:

١ ـ ثم حدث في شهر مارس [١] أن سلم تنكرد لبلدوين حيفا، وهي مدينة كان يمتلكها، وطبرية، وسار برجاله إلى أنطاكية. إذ كان أهل أنطاكية قد أرسلوا إليه ممثلين عنهم قائلين: «لا تتأخر، ولكن أحضر إلينا واحكم، وتملك مدينة أنطاكية والأرض الخاضعة لها حتى يعود أميرنا بوهيموند، سيدنا وسيدك، من الأسر. لأنك قريبه، كما أنك جندي شجاع ممتاز، كما أنك أقوى منا. وأنت أقدر على حفظ هذه الأرض أحسن منا، وإذا عاد السيد بوهيموند في أي وقت، فإن الصواب هو الذي سوف يحدث عندئذ». هذا ما طلبوه، وهو ما تم.

(٨)

حصار قلعة أرسوف والاستيلاء عليها:

١ ـ خلال نفس الشتاء، وصل أسطول من الجنوية والإيطاليين ورسا في ميناء اللاذقية. وفي الربيع عندما رأى الرجال هدوء الطقس وأنه مناسب للإبحار أبحروا قاصدين يافا تؤازرهم ريح مواتية. وعندما وصلوا الميناء استقبلهم الملك في سرور. ذلك أن عيد الفصح كان قد اقترب، وبما أنه كان من عادة كل من يستطيع أن يحتفل بهذه المناسبة الجليلة، وضعوا مراسي سفنهم وذهبوا إلى بيت المقدس في صحبة الملك.

٢ ـ وفي سبت النور عم الاضطراب الجميع لأن النار المقدسة لم تظهر في كنيسة القيامة. وعندما انتهى عيد الفصح، عاد الملك إلى يافا واجتمع مع قناصل الأسطول سابق الذكر. وتم الاتفاق على أنه طالما عقد الجنوية العزم علي البقاء في الأرض المقدسة حبا في الرب، وإذا تمكنوا بموافقة الرب ومساعدته، هم والملك، من الاستيلاء على أي مدينة من المسلمين، يكون لهم جميعا ثلث الأموال التي يتم الاستيلاء عليها من العدو، دون أي ضرر يلحق بالجنوية، ويكون للمَلك الجزآن

---

(١) حوالي ٩ من مارس سنة ١١٠١م.

الأول والثاني من الغنائم. وفضلا عن هذا يكون للجنوية حق وراثي في حي يخصص لهم في المدينة التي يتم الاستيلاء عليها بهذه الطريقة[١].

٣ ـ وبعد أن تم الاتفاق وتبادل الطرفان القسم على ذلك بالأيمان، بادروا في الحال إلى محاصرة مكان حصين يسمى أرسوف عن طريق البر والبحر. ولكن عندما تأكد السكان المسلمون أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بأي وسيلة ضد المسيحيين، تفاوضوا مع الملك بذكاء واستسلموا له في اليوم الثالث. بل إنهم رحلوا بكل أموالهم. لأن الملك أعطى الأمان لأولئك الذين أسرعوا بالسير صوب عسقلان[٢].

٤ ـ وعندها أسدينا الشكر للرب ونحن مسرورون لأننا استطعنا الاستيلاء على هذا المكان الحصين، والذي كان يشكل خطرا شديدا علينا، دون أن نخسر واحدا من رفاقنا.

٥ ـ هذا الحصن الذي بناه سليمان[٣] كان مصدر ضيق شديد لنا. وكان الدوق جودفري قد حاصره في السنة الماضية ولكنه لم يستول عليه. وكان سكانه يقتلون كثيرين من أهلينا ويسببون لنا الأسى والبؤس.

٦ ـ وفي أثناء الحصار تمكن الفرنج بالقتال يدا بيد أن يسيطروا على شرفات السور. ثم شاء الحظ أن انهار برج خشبي كان مثبتا إلى السور من الخارج وتهشم قطعا صغيرة بسبب العدد الكبير من الرجال الذين كانوا يصعدون فيه. وسقط حوالي مائة فرنجي منهم وأصابتهم جروح بالغة السوء.

---

(١) يعني هذا بالمصطلح الحديث أن أهل جنوة يكون لهم ميناء حر وحقوق إقليمية إضافية. فقد كانوا يقدمون المساعدة البحرية، التي كان بلدوين يحتاج إليها، مقابل هذه الامتيازات. وكان هذا الاتفاق بمثابة سابقة ونموذج تم الاهتداء به في الاتفاقيات الأخرى التي تم عقدها بعد ذلك مع أهالي المدن التجارية الإيطالية الأخرى مثل بيزا والبندقية (المترجم).

(٢) كان استسلام «أرسوف» يوم ٢٩ من إبريل سنة ١١٠١م، وقد خدع بلدوين حلفاءه من الجنوية لأنه خاف أن ينهبوا المدينة. وكان يرى أن من الأفضل له أن يأخذ مدينة سليمة مزدهرة ولها علاقات تجارية طيبة مع العرب في عسقلان وعرب شرقي الأردن.

(٣) ليس من المعروف المصدر الذي استقى منه فوشيه ما يقوله عن أن سليمان هو اللذين بنى هذا الحصن.

٧ ـ وسجن المسلمون الفرنج الأسرى هناك، وصلبوهم على مرأى من الجميع، ورموهم بالسهام. وقتلوا بعضهم بهذه الطريقة، وأبقوا الآخرين عبيدا لديهم[١].

(٩)

كيف تم الاستيلاء على مدينة قيصرية؟:

١ ـ وبعد أن وضع الملك حامية من رجاله في أرسوف، وهو أمر ضروري، سارع إلى الزحف ضد قيصرية في فلسطين وفرض عليها الحصار. وعلى أي حال، فبسبب ارتفاع السور الشاهق لم يتم الاستيلاء على المدينة بسرعة.

٢ ـ ولذلك أمر بعمل آلة لنقب السور Petrariae، وكذلك أمر بعمل برج خشبي مرتفع من صواري السفن ومجاذيفها. وصنع النجارون الذين معنا البرج بارتفاع عشرين كوبيت Cubit[٢] حسب تقديري فوق مستوى السور. وكان الغرض من ذلك مساعدة جنودنا، عندما يقترب البرج من السور، في أن يقذفوا العدو بالأحجار والسهام. وعندما ندفع المسلمين بعيدا عن السور بهذه الطريقة ربما يتمكن رجالنا من الدخول بحرية إلى المدينة والاستيلاء عليها.

٣ ـ ولكن بعد أن واصل الفرنج الحصار على مدى خمسة عشر يوما ودمروا الدفاعات العلوية في السور إلى حد ما بالكباش (آلات النقب والهدم)، لم يكن ممكنا تأجيل حماستهم الدينية أكثر من ذلك. وهكذا في أحد أيام الجمعة هاجموا المدينة بغتة بالحراب والدروع ولم يستخدموا البرج الخشبي الذي لم يكن قد اكتمل بعد، كما أنهم لم يستخدموا أي مساعدات إضافية[٣].

٤ ـ ودافع المسلمون عن أنفسهم قدر طاقتهم، وكانوا يشجعون بعضهم البعض. وعلى أي حال فإن الفرنج، الذين ربهم هو الله، سرعان ما وضعوا السلالم،

---

(١) يشير فوشيه إلى الحصار الفاشل الذي كان جودفري قد فرضه على أرسوف من أكتوبر إلى ديسمبر سنة ١٠٩٩م.

(٢) الكوبيت وحدة قياس قديمة تتراوح ما بين ١٨ إلى ٢٢ بوصة، أو ٤٥ إلى ٥٦ سم، وبذلك يكون البرج الخشبي الذي صنعه الصليبيون أمام قيصرية حوالي عشرة أمتار، أو أكثر قليلا، فوق مستوى أسوار المدينة. (المترجم)

(٣) استمر الحصار من ٢ من مايو إلى يوم الجمعة ١٧ من مايو سنة ١١٠١م.

التي كانوا قد أعدوها لهذا الغرض، وصعدوا أعلى السور. ثم ذبحوا بسيوفهم كل من قابلوه.

٥ ـ وعندما رأى المسلمون مدى وحشية رجالنا وأنهم استولوا على المدينة بالفعل فروا مذعورين إلى كل مكان حسبوا أنه يمكن أن يعصم حياتهم قليلا. ، ولكنهم لم يستطيعوا الاختباء في أي مكان وذبحوا وقتلوا كما يستحقون[١].

٦ ـ ولم يبق على قيد الحياة من الذكور سوى عدد قليل للغاية، ولكن نساء كثيرات نجون بحياتهن لأنهن يستطعن إدارة الطواحين اليدوية. فعندما أسر الفرنج النساء باعوهن واشتروهن، الحسناء منهن والقبيحة، فيما بينهم، كما تاجروا في الرجال أيضا.

٧ـ وأبقى الملك على حياة أمير المدينة وأسقفها الذي يسميه المسلمون أركاديوس Archadius[٢]. وقد فعل هذا من أجل الحصول على فدية لهما وليس بدافع الحب. ومن المستحيل إحصاء مختلف الممتلكات التي وجدت هناك، ولكن الكثيرين من رجالنا الذين كانوا فقراء صاروا أغنياء[٣].

٨ ـ ورأيت كثرة هائلة من المسلمين القتلى وقد كوموا في كومة كبيرة وأحرقوا. وكانت الرائحة العفنة المنبعثة من أجسادهم مصدر إزعاج لنا. هؤلاء الأشرار أحرقوا من أجل استخراج النقود التي كان بعضهم قد ابتلعوها، وكان البعض الآخر قد خبئوها في حلقوهم، رغبة منهم في ألا يأخذ الفرنج أي شيء يخصهم[٤].

---

(١) من الواضح أن الصليبيين في هجومهم على قيصرية بهذا الشكل أرادوا ألا يمنحوا بلدوين الفرصة لكي يمنعهم من السلب والنهب مثلما فعل في أرسوف.

(٢) هذه إشارة إلى القاضي المسئول عن إقامة الحدود وتطبيق القانون وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية، وقد ظن فوشيه أن وظيفته مشابهة لوظيفة الأسقف الدينية في السلم الكهنوتي للكنيسة الكاثوليكية. (المترجم)

(٣) يشرح المؤرخ الإيطالي كافارو حجم ثروة هذه المدينة الساحلية بشكل تفصيلي من خلال نصيب الجنوية من الأسلاب والغنائم الذي كان هائلا برغم أنهم أخذوا ثلث الغنائم فقط (De Liberatione Civitatum Orientis, RHC, Occ., V, 65).

(٤) هذه الفقرة تكشف بوضوح عن مدى وحشية الصليبيين وجشعهم الذي وصمتهم به المؤرخة آنا كومنينا؛ إذ لم يكتف الفرنج بما نهبوه حتى صار الفقير منهم غنيا مثلما ذكر هذا القسيس؛ ولكنهم راحوا يفتشون الجثث بحثا عن أي شيء ينهبونه، ولكي يكون الأمر أكثر سرعة وسهولة بادروا إلى حرق الجثث والبحث في رمادها عن الذهب. (المترجم)

٩ ـ وإنه كان يحدث أحيانا أن يضرب واحد من رجالنا رقبة أحد المسلمين بقبضته فينزل حوالي عشر أو ست عشرة قطعة ذهبية (بيزنت) من فمه. وكانت النسوة أيضا تخبئ العملات في أجسادهن بلا خجل وبطريقة شريرة يخجل المرء من ذكرها.

١٠ ـ كانت سنة ألف ومائة تزيد سنة

عندما أخذنا قيصرية عن طريق السلالم الخشبية

عندما أخذنا برج ستراتون كما كان اسم المدينة[١].

(١٠)

كيف تم اختيار كبير أساقفة في قيصرية:

١ ـ وبعد أن فعلنا نحن والجنوية ما نشاء في قيصرية وبكل شيء وجدناه فيها، أقمنا هناك كبيرا للأساقفة اخترناه سويا[٢]. ثم تركنا عددا قليلا من الرجال لحراسة المدينة، وأسرعنا بالذهاب إلى مدينة الرملة، التي تقع بالقرب من اللد. وعلى مدى أربعة وعشرين يوما كنا نتوقع هجوما يشنه علينا رجال عسقلان ومصر، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك لهذا الغرض.

٢ ـ ولأن عددنا كان قليلا، لم نكن نجرؤ على الخروج لملاقاة عدونا. فقد كنا نخشى أن نهاجم عسقلان فيحصروننا بين أسوارهم ومنصات القتال بالكر والفر المستمر، فإذا ما أوقعونا في الفخ أجهزوا علينا. ولهذا السبب لم يشنوا الهجوم ضدنا، ظنا منهم أن الأمور سوف تسير على هذا النحو.

٣ ـ وإذ فهمنا مكرهم درسنا أساليبهم بروية وذكاء حتى اكتشفنا حيلهم في نهاية الأمر. وعندئذ خارت نفوسهم من الخوف ونبذوا تماما أي فكرة

(١) كانت قيصرية تسمى أيضا برج ستراتون. وهذه واحدة من محاولات فوشيه لصياغة الأحداث شعرا.

(٢) كان كبير الأساقفة الجديد قسا يدعى بلدوين، قال عنه جيوبرت النوجنتي إنه وضع على رأسه شارة الصليب وأخذ عدة هبات في مقابل ذلك. وربما يكون فوشيه قد أحجم عن ذكره لهذا السبب.(RHC. Occ., IV, 182 3, 251) وكان ذلك ما بين ١٨ من مايو إلى ٢٣ من مايو سنة ١١٠١م.

لمهاجمتنا . ولهذا السبب نفد صبر الكثيرين منهم من التأجيل ، وإذ أعوزتهم الحاجة ، هجروا جيشهم[1] .

٤ ـ وعندما علمنا بهذا عدنا مرة أخرى إلى يافا ، وأدينا صلاة الشكر للرب لأنه أنقذنا بهذه الطريقة من هجومهم .

(١١)

معركة دموية عنيفة بين المسلمين والمسيحيين انتصر فيها المسيحيون:

١ ـ ولكن بعد أن انتظرنا هادئين على مدى سبعين يوما نراقب تصرفات خصومنا ، وصل خبر إلى الملك أنهم يتحركون ضدنا وهم يضمرون لنا العداء، وينوون مهاجمتنا[2] .

٢ ـ وعندما سمع الملك بهذا جمع رجاله من بيت المقدس وطبرية وحيفا . وإذ كان من الضروري أن يكون لدينا فرسان ، أمر الملك بجمع الفرسان من جميع الأنحاء . وبهذه الطريقة وصل عدد فرساننا إلى حوالي مائتين وستين فارسا ومشاتنا حوالي تسعمائة . وفي الوقت نفسه ، كان هناك أحد عشر ألفا من الفرسان وواحد وعشرون ألفا من المشاة في مواجهتنا[3] .

---

(١) هذه صياغة بلاغية لأفكار فوشيه ، ولا تعبر عن الحقيقة . ذلك أن تركيب الجيش المصري زمن الفاطميين كان يجعل منه جيشا نظاميا شديد الانضباط ؛ فقد كانت فرق الفرسان تتألف من عناصر أرمنية ومن الديلم ، وفرق المشاة من الجنود السود . أما الفرق المساعدة فكانت من القبائل العربية ومن المصريين ، ولم يكن ممكنا لأي قسم من أقسام الجيش أن يتصرف على هواه على نحو ماذكر فوشيه . ويغلب على الظن أن فوشيه كتب هذه الفقرة على أساس معرفته بتركيب الجيوش الصليبية التي غلبت عليه التجزئة وتبعية كل قسم منها لأمير إقطاعي تدين له فقط بالولاء . (المترجم)

(٢) استمرت فترة المراقبة من ١٧ من يونيو إلى ٢٥ من أغسطس سنة ١١٠١م تقريبا . ويشير المؤرخ المسلم ابن القلانسي (حوادث سنة ٤١٤ هجرية) إلى أن المصريين جمعوا جيشا في عسقلان في رمضان من تلك السنة أي في شهر يونيو سنة ١١٠١م .

(٣) تقدير فوشيه لقوة الجيش الصليبي تبدو معقولة ومضبوطة ، لكن تقديراته للجيش المصري مبالغ فيها بقصد إظهار شجاعة الصليبيين ، وهو ما فعله ابن القلانسي عندما قدر الجيش الصليبي بألف فارس وعشرة آلاف من المشاة في حديثه عن نفس المعركة . (ابن القلانسي . ذيل تاريخ دمشق ، حوادث سنة ٤١٤هـ) .

٣ ـ عرفنا هذا ، ولكن لأن الرب معنا لم نكن نخاف أن نخرج لملاقاتهم. لم نضع ثقتنا في سلاحنا أو أعدادنا ولكننا وضعنا أملنا كله في الرب. كانت شجاعتنا عظيمة، ولكنها لم تكن تهورا؛ وإنما كانت إيمانا وحبا. وكنا نتحرق شوقا للموت في سبيل الرب الذي قرر برحمته أن يموت من أجلنا.

ومضينا إلى الأمام في جسارة، ونحن مستعدون للقتال حتى الموت

٤ ـ وأمر الملك بحمل خشب الصليب الحقيقي أمامنا، وهو الأمر الذي بعث الراحة في نفوسنا. وذات يوم خرجنا من يافا، وفي اليوم التالي قاتلنا ضد أعدائنا[١].

٥ ـ وعندما تقدمنا واقتربنا منهم، تقدموا بالمثل ليقتربوا منا، ولكننا لم ندرك ذلك. وعندما عرفنا بوجود كشافيهم من استطلاعنا، تأكدنا على الفور أن بقيتهم كانوا يتبعونهم. ولما تقدم الملك وبعض رجاله، رأى عن بعد جيشهم في معسكرهم الكبير في الوادي. وإذ رأى هذا امتطى جواده وعاد إلينا فورا في المؤخرة وأخبرنا بكل ما شاهده.

٦ ـ وعندما اكتشفنا أن المعركة ستأخذ مجراها، ابتهجنا لأننا كنا نتشوق إلى هذا. ولو لم يتقدم أعداؤنا ضدنا، لكنا نحن تقدمنا ضدهم. وكان من الأفضل لنا أن نقاتل في السهل المفتوح لأننا عندما ننتصر بإرادة الرب سيكون عليهم أن يهربوا لمسافة أطول ويعانوا خسارة أفدح مما لو كان هجومنا عليهم قرب الأسوار.

٧ ـ ثم أمرنا الملك بحمل السلاح، وعندما امتثل الجميع لهذا الأمر، جعلنا نصطف في وضع القتال. وبهذه الطريقة أسلمنا أنفسنا للرب بثقة وخرجنا ضد أعدائنا. واختار الملك راهبا لكي يحمل صليب الرب على مرأى من الجميع.

٨ ـ ثم خطب الملك في جنوده بهذه الكلمات التي تغلفها التقوى: «تعالوا يا جنود المسيح لتكن معنوياتكم عالية ولا تخشوا شيئا. تصرفوا برجولة وسوف تكونون أقوياء في هذه المعركة. إنني أحثكم على القتال من أجل خلاص أرواحكم، ارفعوا في كل مكان اسم المسيح الذي يهينه هؤلاء الأشرار ويحقرونه

---

(٣) ٦ ـ ٧ من سبتمبر سنة ١١٠١م.

دائما، ولا يؤمنون بمولده أو عودته. وإذا نالكم الموت هنا، فمن المؤكد أنكم سوف تكونون من بين المباركين. إن بوابة مملكة السماء مفتوحة لكم بالفعل. وإذا نجوتم وانتصرتم فسوف تتألقون بالمجد بين جميع المسيحيين. وإذا أردتم الهرب فتذكروا حقيقة أن فرنسا بعيدة جدا».

٩ ـ وعندما تحدث وافقه الجميع.
وأسرعوا إلى المعركة، فالتأخير الطويل فوق طاقة الجميع
وكل يخطط من الذي سيضربه ويوقع به[١].

١٠ ـ ومرة واحدة هاجمنا هؤلاء الناس الذين يستحقون الازدراء بطريقة شريرة من اليمين ومن الشمال. وعلى الرغم من قلة عدد رجالنا، وبرغم أنهم مقسمون إلى ستة خطوط قتال، فإنهم اندفعوا داخل تشكيلات العدو، مثل الصيادين داخل مجموعة من الطيور، وهم يصيحون «ليساعدنا الرب». وكانت أعداد العدو كبيرة وأطبقوا علينا بسرعة جعلت كلا منا لا يكاد يتعرف على غيره.

١١ ـ وتمكنوا بالفعل من دحر الخطين الأولين في جبهتنا وسيطروا عليهما، ولكن الملك عندما رأى ذلك أقبل من مؤخرة الجيش للمساعدة ومعه أكبر قوة. وعندما رأى أن قوة العدو أكبر اندفع بأقصى سرعة ومعه كتيبته الخاصة لمواجهة هجوم المسلمين، ورفع حربته التي كان يرفرف منها علم أبيض، في وجه قوتهم المتفوقة، وقذفها في عربي كان أمامه. وبقي العلم في بطن العربي عندما أسقط من فوق فرسه على الأرض. ولكن بلدوين سحب حربته، ورأيته أنا، لأني كنت قريبا منه، يمسك بها استعدادا لذبح آخرين.

١٢ ـ وفي ناحيتنا ومن الناحية الأخرى تم خوض المعركة ببسالة. والواقع أنه كان يمكنك أن ترى بعد ساعة واحدة فقط الكثير من الخيول بدون راكبيها من الجانبين. وقد رأينا الأرض وقد غطتها أعداد كبيرة من الدروع والمهاميز، والخناجر وأجربة السهام، والقسي والنشاب، والمسلمون والأثيوبيون، إما قتلى وإما يعانون من جروح قاتلة وكذلك الفرنج، ولكن أعدادهم لم تكن بهذه الكثرة.

---

(١) صاغ فوشيه الفقرة شعرا.

١٣ ـ وكان معنا صليب الرب، عظيم في مواجهة أعداء المسيح. وبفضل الرب لم تفلح هجمة المسلمين ضده. وكما لو كان الأمر مرتبطا بوجود الصليب، إذ إنهم لم يتوقفوا عن مهاجمتنا فحسب، وركبهم الخزي، ولكنهم جميعا فكروا في الهرب بسرعة. وأولئك الذين كانت خيولهم سريعة نجوا من الموت.

١٤ ـ وكم سيكون الأمر متعبا لو جمعنا كل الدروع والنشاب والقسي والسهام التي رماها الهاربون على الأرض. وكان يستحيل على أي فرد، حتى إذا رغب في ذاك، أن يحصي أجساد الموتى التي كانت ترقد هناك. وعلي أي حال، يقال إن خمسة آلاف من فرسانهم ومشاتهم لقوا حتفهم هناك. وحتى قائد الجيش المصري الذي قاد المعركة قتل هناك[١] مع الآخرين. وفقدنا ثمانين من فرساننا، وأكثر من ذلك من المشاة.

١٥ ـ في ذلك اليوم تصرف الملك ببسالة فائقة؛ لقد كان أكبر مصدر لراحتنا وكان محاربا لا يبارى. كذلك فإن جنوده، على الرغم من قلة عددهم، كانوا غاية في الشجاعة. ولا شك في أن المعركة لم تستمر طويلا وعلى الفور قمنا بمطاردتهم.

(١٢)

كم عدد المسيحيين الذين هلكوا هناك؛

١ ـ أيتها الحرب، كم أنت كريهة بالنسبة للأبرياء، ومرعبة في عيون المشاهدين. الحرب ليست جميلة على الرغم من أن اسمها كذلك في المعنى المضاد[٢]. لقد رأيت المعركة، وغلب الرعب على عقلي، فقد كنت أخشى أن تنالني ضربة. لقد كان الجميع يندفعون إلى السلاح كما لو أنهم لا يخشون الموت. حين يختفي وجه الحب تكون هناك مصيبة فادحة. وكانت الضجة الناجمة عن الضربات المتبادلة متصاعدة. يضرب أحدهم فيسقط عدوه. والواحد منهم يعرف أنه لا توجد شفقة،

---

(١) هو سعد الدولة القواميسي على ما يذكر المؤرخ ابن القلانسي. (المترجم)

(٢) يلعب الكاتب هنا بالكلمة اللاتينية bellum التي تعني الحرب، كما أنها تعني «جميل» في سياق آخر.

كما أن الآخر لا يطلبها. أحدهم يفقد يدا، ويفقد الآخر عينا. والتفاهم الإنساني يتلاشى عندما يرى مثل هذا البؤس[1].

٢ ـ إلا أنه من المدهش أن أحكي عن انتصار جيشنا في المقدمة، على حين لحقته الهزيمة في المؤخرة. هناك سقط المسيحيون؛ وفي المقدمة شتتوا المسلمين. وطاردناهم حتى عسقلان على حين كان بعضهم قد ذبحوا كثيرين من رجالنا واندفعوا في الحال إلى يافا. وهكذا لم يعرف أحد في ذلك اليوم نتيجة المعركة.

٣ ـ وعندما أخلى الملك ورجاله ميدان المعركة من المسلمين قتلا ومطاردة، أمرنا بأن نمضي الليل في الخيام التي تركها الهاربون. هكذا صدرت الأوامر وهكذا تم التنفيذ.

وفي اليوم السابع من شهر مارس
خضنا هذه المعركة الجديرة بالذكرى
وفيها أسعدت الرحمة السماوية الفرنج

(١٣)

الحظوظ المختلفة لهذه المعركة:

١ ـ في اليوم التالي تجمعنا في خيمة الملك وسمعنا صلاة القداس لميلاد مريم العذراء المباركة، وكان ذلك اليوم مكرسا لهذه المناسبة. ثم حمّلنا حيواناتنا بالغنائم والأسلاب التي غنمناها من أعدائنا مثل الخبز والدقيق، وخيامهم أيضا. بعد ذلك صدرت الإشارة بالعودة إلى يافا بواسطة الطبول الملكية.

٢ ـ وعندما استدرنا ومضينا بجوار أشدود، مدينة الفلسطينيين الخامسة، التي صارت الآن مهجورة ولكن العامة يسمونها إبلين Ibenium[2]. وشاهدنا حوالي

---

(١) فوشيه الذي يبدي سروره دائما بقتل المسلمين، تملكه الرعب هنا من حجم الخسائر والإصابات في الجانبين.

(٢) هنا يخطئ فوشيه عندما يسمي أشدود إبلين Ibenium لأن هذا المكان الذي ورد اسمه في العهد القديم باسم جبنيل، يقع على بعد عشرة أميال تقريبا شمال شرقي أشدود التي ورد اسمها كواحدة من المدن الفلسطينية الخمس في سفر صمويل الأول (٦: ١٧).

خمسمائة من العرب قادمين نحونا في طريق عودتهم من يافا. وكانوا قد اندفعوا يوم المعركة صوب هذا المكان واستولوا على ما استطاعوا الاستيلاء عليه خارج أسوار المدينة. ذلك أنهم بعد أن أوقعوا مذبحة كبيرة في جنودنا المشاة في مؤخرة الجيش ودمروا أحد خطوط الجناح الأيمن، ظنوا أن مقدمة جيشنا قد دمرت مثل المؤخرة. وأخذوا الدروع والحراب والخوذات اللامعة التي كانت مع القتلى وزينوا أنفسهم بها في فخر ومباهاة. ثم أسرعوا صوب يافا لكي يضعوا أسلحتنا أمام رجالنا في المدينة، ولكي يقولوا إن الملك ورجاله جميعا قد ذبحوا في المعركة.

٣ ـ وعندما سمع أولئك الذين بقوا في يافا لحمايتها بهذا، انتابتهم الحيرة وركبهم الخوف الشديد وصدقوا كلام العرب الذي كان يبدو صادقا. وظن العرب أن المدينة سوف تستسلم في الحال بسبب الرعب الذي انتاب سكانها، ولكن مشروعاتهم باءت بالفشل. وعندما رأوا أنهم لم ينجزوا شيئا، بدءوا رحلة العودة إلى عسقلان.

٤ ـ وعندما رآنا العرب قادمين إلى يافا، ظنوا أننا بعض رجالهم الذين جاءوا للقضاء على من بقي من المسيحيين في يافا بعد أن أجهزوا علينا جميعا. ولهذا السبب انتابتنا الحيرة لأنهم كانوا يقتربون منا على هذا النحو، دون أن يعرفوا أننا من الفرنج حتى رأوا فرساننا يهاجمونهم في هجمة مفاجئة.

٥ ـ ثم شاهدنا أعداءنا يهربون هنا وهناك، دون أن يحاول أحدهم انتظار الآخر. أما الذي لم يكن يملك حصانا سريعا فقد سقط صريعا في الحال، ولكن لأن الفرنج كانوا في غاية التعب، وكثيرين منهم جرحوا في المعركة، فإنهم لم يتمكنوا من مطاردة العرب. وهكذا هربوا، على حين واصلنا نحن مسيرتنا صوب يافا مسرورين.

(١٤)

الرسالة التي أرسلها أهل يافا إلى تنكرد أمير إنطاكية:

١ ـ تخيل الحمد والشكر عندما شاهد أولئك الذين تركناهم في يافا من فوق أسوار المدينة أننا عدنا وراياتنا خفاقة! لن يكون سهلا أن نحكي عن هذا.

٢ـ وقد سارع اثنان من حملة الأنباء الكاذبة إلى يافا، الواحد في أثر الآخر، وأضلوا الناس هناك بالقول بأن الملك وكل رجاله لقوا مصرعهم. وكان وقع هذه الأنباء كارثة على الناس في يافا. ولأنهم صدقوا هذا الكلام، فإنهم أرسلوا خطابا قصيرا إلى تنكرد، الذي كان يحكم في أنطاكية آنذاك. وبناء على أوامر زوجة بلدوين[١] حمل الرسالة بحار كان قد صعد على ظهر سفينته في التو.

٣ـ وكانت الرسالة تتضمن هذه الكلمات للتحية: «تنكرد أيها الرجل المرموق والجندي الباسل. تقبل هذه الرسالة القصيرة التي أرسلها لك سكان يافا، وهم الملكة وسكان المدينة القلائل، وقد أرسلوها معي على وجه السرعة بصفتي مندوبهم. اقرأها بتمعن وفي حرص لأنك ربما تصدق ما هو مكتوب بسهولة أكبر مما أقوله أنا».

٤ـ «آه يا للتعاسة! إن الملك ورجال بيت المقدس الذين خرجوا للقتال ضد المصريين والعسقلانيين، إما نالتهم الهزيمة الكاملة، وإما قتل هو ورجاله جميعا في القتال، لأن أولئك الذين تمكنوا بشجاعة من الهرب من هذه الكارثة فروا إلى يافا وأخبرونا بهذا».

٥ـ «لهذا السبب جئت مندوبا ورسولا إليك، أيها الرجل الشجاع، أطلب المساعدة وأتوسل إليك أن تترك كل مشاغلك وتسرع دون إبطاء لمساعدة شعب الرب في محنتهم الكبرى والذين هم على أعتاب الموت كما أعتقد»[٢].

٦ـ كان هذا مضمون الرسالة. وعندما سمع تنكرد هذا، سكت برهة. ولكنه عندما صدق أن ما سمعه كان حقيقة، بدأ هو وجميع الحاضرين يبكون في حسرة بسبب شدة حزنهم والأسى الذي تملكهم. وأجاب تنكرد على الرسول وأمر بعمل الاستعدادات في شتى أنحاء مملكته لمساعدة أهل بيت المقدس.

٧ـ وعندما استعد الجميع للقيام بالرحلة كانت المفاجأة، إذ وصلتهم رسالة

---

(١) كانت تلك هي زوجة بلدوين الأولى، وهي أميرة أرمنية ابنة تافونز Taphunz تزوجها من أجل أملاكها. أحيانا تسمى أردا Arda.

(٢) فوشيه هو مصدر هذه المعلومات عن طلب النجدة من تنكرد الذي لم يكن يحب بلدوين منذ منازعاتهما في طرسوس سنة ١٠٩٨م.

أخرى فجأة مع رسول تتضمن أخبارا تختلف عن الرسالة الأولى، وأعطاها إلى تنكرد. بينما كانت أنباء الكارثة قد وصلت في الرسالة الأولى، كانت الرسالة الثانية تحمل أنباء سارة. وكان مضمونها: أن الملك عاد سالما إلى يافا وأنه لا شك في أن المسلمين قد لقوا هزيمة نكراء. وهكذا ابتهج أولئك الذين حزنوا لمصيبتنا عندما سمعوا بأخبارنا الطيبة.

٨ ـ آه يا لرحمة الرب العجيبة! لم نهزم أعداءنا بسبب عددنا، ولكن لأننا كنا نثق في القوة الربانية. وهكذا عندما نجونا من أعدائنا بهذه الطريقة رجعنا إلى القدس نسدي الشكر والحمد للرب. ثم استرحنا سالمين آمنين على مدى ثمانية شهور بعيدا عن الحرب حتى فصل الصيف[١].

(١٥)

جيش مصر يتجمع ضد المسيحيين:

١ ـ في السنة التالية، ١١٠٢ في منتصف شهر مايو، تجمع المصريون حول عسقلان. فقد أرسلهم ملكهم هناك لكي يحاولوا تدميرنا نحن المسيحيين نهائيا. وكان هناك حوالي عشرين ألف فارس وعشرة آلاف من المشاة، فضلا عن الذين يسوقون حيوانات الحمل من الجمال والبغال التي كانت تحمل المعدات والمؤن[٢]. وكان هؤلاء يحملون بأيديهم أسلحة ليقاتلوا بها.

٢ ـ وذات يوم وصل المصريون إلى الرملة[٣]، وأقاموا خيامهم في مواجهتها. وفي مواجهتهم في برج حصين من أبراج المدينة كان هناك خمسة عشر فارسا كان بلدوين قد وضعهم للحراسة. وفي مواجهة المدينة كان يعيش بعض السوريان في إحدى الضواحي. وضايق المسلمون بإصرار أولئك المسيحيين محاولين تدميرهم

(١) من سبتمبر سنة ١١٠١م إلى منتصف مايو سنة ١١٠٢م.

(٢) «ملك بابيلون» الذي تحدث عنه فوشيه هو الخليفة الفاطمي الآمر بن المستعلي (١١٠١ ـ ١١٣٠) وكان طفلا في الخامسة من عمره أجلسه على العرش الوزير القوي الأفضل. ويذكر ابن الأثير أن قائد الجيش المصري كان هو «شرف المعالي» ابن الوزير الأفضل. وتقديرات فوشيه لقوة الجيش المصري تفوح منها رائحة المبالغة.

(٣) حوالي ١٦ من مايو سنة ١١٠٢م.

وأخذ البرج، ولم يكونوا قادرين على التجول بحرية في الريف المفتوح بسبب الناس المسيطرين على البرج.

٣ ـ بل إنهم حاولوا أسر أسقف المدينة، الذي كان يسكن كنيسة سان جورج مع أتباعه. وذات يوم أحاطوا بالدير بنية شريرة، ولكنهم بعد أن رأوا قوة المكان عادوا إلى الرملة.

٤ ـ فضلا عن أن ذلك الأسقف عندما شاهد الدخان واللهب المتصاعد من النيران في حقول الغلال خشي أن يعود المسلمون ويفرضوا عليه الحصار. واحتياطا ضد أي خطر محتمل في المستقبل بادر بإرسال رسالة إلى الملك، الذي كان في يافا، لكي يساعده في الحال لأن المصريين كانوا يعسكرون قبالة الرملة وقد أرسلوا فعلا فرقة إلى هناك لحصار الدير[١].

٥ ـ وعندما سمع الملك بهذا أسرع لحمل السلاح، وامتطى فرسه. وتبعه في الحال فرسانه بناء على أوامره، وعندما سمعوا صوت الطبول.

٦ ـ وكان هناك عدد كبير من الفرسان في يافا آنذاك، واختاروا عبور البحر للعودة إلى فرنسا وكانوا بانتظار الريح المواتية. ولم تكن لديهم خيول لأنهم عندما مروا في أراضي رومانيا في السنة الماضية في طريقهم إلى القدس فقدوا خيولهم وكل ما كان لديهم[٢]. وليس خروجا عن الموضوع أن نروي قصة هذه الحادثة هنا.

(١٦)

الحج الثاني المأساوي للفرنج وموت هيو الكبير:

١ ـ عندما سار جيش الفرنج الكبير[٣]، كما سبق القول، كان وليم كونت

---

(١) ١٧ من مايو سنة ١١٠٢م.

(٢) هذه إشارة إلى الحملة الصليبية التي خرجت من أوربا سنة ١١٠١م، ولقيت مصيرها التعس داخل أراضي الدولة البيزنطية والأناضول. والمقصود بكلمة «رومانيا» هنا الأراضي البيزنطية.

(٣) جيش الفرنج الكبير الذي خرج في حملة ١١٠١م تقلص إلى عدد قليل من الهاربين عندما وصلوا بيت المقدس سنة ١١٠٢م.

بواتييه[1] وستيفن كونت بلوا موجودين ضمن الجموع . وكان الأخير قد ترك جيشنا في أنطاكية ، ولكن كيف سعى لإنجاز ما كان قد ترك؟ وكان معه أيضا هيو الكبير الذي كان قد رجع إلى بلاد الغال بعد الاستيلاء على أنطاكية ، ومعه ريمون كونت البروفانس الذي استقر في القسطنطينية بعدما عاد من بيت المقدس . كذلك كان هناك ستيفن كونت برجاندي النبيل ، كما كانت هناك أعداد لا تحصى من الفرسان والمشاة في مجموعتين .

٢ ـ فقد كان التركي سليمان ، الذي كان الفرنج قد أخذوا منه مدينة نيقية قبل فترة طويلة[2] ، ضد الفرنج في بلاد رومانيا . فعندما تذكر سليمان (قلج أرسلان) هزيمته جمع عددا كبيرا من الأتراك ، ومن سوء الحظ تمكن من تشتيت جيش الفرنج وتدميره تماما[3] .

٣ ـ ولكن برعاية الرب سار الفرنج في جماعات اتخذت عدة طرق مختلفة ؛ وبذلك لم يستطع سليمان أن يقتلهم جميعا . وعلى أي حال ، فقد علمنا أنهم قدتعبوا تماما ، ونهشهم الجوع والعطش ، كما أنهم لم يكونوا معتادين على أسلوب القتال بالسهام في المعارك . ولذلك قتل منهم حوالي مائة ألف فارس وجندي مشاة .

٤ ـ والواقع أنه ذبح بعض النساء وأخذ البعض الآخر معه . وكثيرون من الفرنج الذين لاذوا بالفرار في اتجاهات مختلفة عبر الجبال هلكوا بفعل العطش والحاجة والعوز . فقد استولى الأتراك على خيولهم وحيوانات الحمل التي معهم ، فضلا عن كل أنواع الأسلحة والمعدات .

---

(١) الكونت وليم السابع أمير بواتييه مشهور أكثر باسم الدوق وليم التاسع أمير أقطانية (١٠٨٦ ـ ١١٢٧م) . وكان فوشيه الذي جاء من شارتر يفكر في بواتييه القريبة من موطنه . وكان وليم أيضا من التروبادور وهو جد إليانور الأقطانية زوجة لويس السابع ملك فرنسا ، ثم زوجة هنري الثاني ملك إنجلترا بعد ذلك .

(٢) تم حصار نيقية وأخذها في ١٩ من يونيو سنة ١٠٩٧م وكان يحكمها قلج أرسلان الأول سلطان سلاجقة الروم وابن السلطان سليمان .

(٣) لقي صليبيو الحملة التي جاءت من أوربا سنة ١١٠١م عدة هزائم متوالية في داخل الأناضول سنة ١١٠١م .

٥ ـ وفقد كونت بواتو هناك كل ما كان بحوزته؛ سواء متاعه أو ماله. ونجا من الموت بأعجوبة ووصل إلى أنطاكية سيرا على الأقدام، بائسا كسيفا. وتعاطف معه تنكرد في مصيبته فأحسن استقباله وأمده من عنده بما يحتاج إليه. وهكذا فإن الرب «تأديبا أدبني الرب وإلى الموت لم يسلمني»[١].

٦ ـ والواقع أنه بدا لنا أن هذا قد حدث له وللآخرين بسبب خطاياهم وكبريائهم.

٧ ـ أما أولئك الذين هربوا فإنهم لم يتوانوا في الذهاب إلى بيت المقدس باستثناء هيو الكبير الذي مات ودفن في طرسوس بقليقية. وعندما وصلوا أنطاكية، بعضهم عن طريق البر والبعض الآخر عن طريق البحر، واصلوا السير إلى بيت المقدس. وقد فضل الذين كانت لديهم خيول أن يذهبوا عن طريق البر.

(١٧)

الاستيلاء على مدينة طرطوس:

١ ـ وعندما وصل الفرنج مدينة طرطوس التي كانت بحوزة المسلمين آنذاك، لم يترددوا بل هاجموا المدينة برا وبحرا. ماذا يمكن أن أقول؟ لقد استولوا على المدينة، وقتلوا المسلمين وصادروا أموالهم، ثم واصلوا زحفهم دون راحة[٢].

٢ ـ وقد أصيب الجميع بخيبة أمل عندما رأوا الكونت ريمون يبقى هناك، لأنهم كانوا يأملون في أن يواصل السير معهم إلى بيت المقدس. غير أنه رفض وبقي هناك واحتفظ لنفسه بالمدينة.

٣ ـ وتقدم هؤلاء في طريقهم، ومروا بطرابلس وجبيل ثم وصلوا إلى الممر الضيق جدا قرب مدينة بيروت.

٤ ـ وهناك كان الملك بلدوين في انتظارهم لمدة ثمانية عشر يوما يحرس الممر خوفا من أن يستولى عليه المسلمون ويمنعوا الصليبيين من المرور. واستقبل مندوبا عن الجيش يطلب المساعدة عند اقتراب الجيش من ذلك الممر.

---

(١) مزامير ١١٨ : ١٨.

(٢) قدم الجنوية المساعدة البحرية للصليبيين. وتاريخ هذه المعركة حوالي ١٨ من فبراير سنة ١١٠٠م.

٥ ـ وعندما وجد الحجاج أن الملك هناك لاستقبالهم شكروه بحرارة، وبعد تبادل القبلات انطلقوا نحو يافا حيث كان القادمون عن طريق البحر قد رسوا بالفعل.

(١٨)

معركة كارثة بين المسيحيين والأتراك، قتل فيها المسيحيون وانتصر الأتراك[١]

١ ـ عند اقتراب عيد الفصح[٢]، ذهب الرجال إلى بيت المقدس، التي كانوا يشتاقون إلى زيارتها. وبعد أن قاموا بالطقوس المعتادة هناك عادوا إلى يافا.

٢ ـ ثم أبحر كونت بواتو، بسبب فقره وشدة حاجته، إلى فرنسا على ظهر سفينة ومعه عدد قليل من أتباعه[٣].

٣ ـ ثم أبدى ستيفن كونت بلوا وآخرون كثيرون غيره رغبتهم في عبور البحر، ولكن لأن الريح لم تكن مواتية لم يستطيعوا شيئا ولكنهم عادوا. ولهذا السبب كان ستيفن في يافا عندما امتطى الملك فرسه، كما حكينا من قبل لكي يخرج ضد العدو الذي كان يعسكر قبالة مدينة الرملة.

٤ ـ أما جودفري، كونت فندوم، وستيفن كونت بورجاندي، وهيو لوزنيان شقيق الكونت ريمون، فكانوا هناك أيضا. وقد استعادوا الخيول من أصدقائهم ومعارفهم، ثم ركبوا وتبعوا الملك.

٥ ـ والحقيقة أنه كان تهورا من الملك ألا ينتظر رجاله، ويمضي إلى المعركة بطريقة فوضوية لأنه كان يعرف ما هو أحسن من ذلك بالتأكيد. وبدون الجنود المشاة، وبعد أن كاد يترك الفرسان، أسرع لمقابلة العدو حتى ألقى بنفسه في حماقة بين أعداد كبيرة من العرب. ولأنه كان يثق في تفوقه أكثر مما ينبغي، ظن أن عدد العدو لا يزيد على ألف أو سبعمائة رجل. ومن ثم أسرع لمواجهتهم قبل أن يهربوا[٤].

---

(١) عنوان هذا الفصل خطأ لأن المعركة كانت ضد العرب وليس الأتراك.

(٢) ٦ من إبريل سنة ١١٠٢م.

(٣) أبحر وليم دوق بواتو وأقطانية إلى فرنسا في نهاية شهر إبريل، أو بداية شهر مايو سنة ١١٠٢م.

(٤) حدثت هذه الواقعة في ١٧ من مايو سنة ١١٠٢م، وكان بلدوين يظن أنه يواجه ثلة من الجنود القادمين للنهب.

٦ ـ ولكن عندما رأى جيشهم فجأة ارتجف من الخوف. وفي الحال عول على قوة التشجيع، ثم استدار نحو رجاله وخاطبهم قائلا في تدين: «يا جنود المسيح، أصدقائي، لا ترفضوا هذه المعركة ولكن حاربوا بجسارة وأنتم متسلحون بقوة الرب دفاعا عن أنفسكم لأننا إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت، فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن»(١). ذلك أنه إذا حاول أحد أن يهرب فليس هناك أمل في الهرب. فإذا حاربتم فسوف تنتصرون، وإذا هربتم فسوف تهلكون(٢).

٧ ـ ثم اندس الفرنج بين العرب في هجمة شجاعة، لأن ذلك كان المكان والوقت المناسب لإظهار الشجاعة. ولأن عدد فرساننا لم يكن يزيد على مائتي فارس، أحاط بهم عشرون ألفا(٣). وأطبق المسلمون على رجالنا بحيث تم ذبح معظمهم في غضون ساعة واحدة. وولى الآخرون أدبارهم عندما فشلوا في الصمود.

٨ ـ ولكن على الرغم من أن هذه الشرور الكبيرة حاقت برجالنا، فإن ذلك لم يحدث قبل أن ينتقموا من أعدائهم. لأنهم قتلوا منهم الكثيرين وساقوهم بعيدا عن معسكرهم، ثم شاءت إرادة الرب أن يهلك رجالنا بأيدى الذين سقوهم كأس الهلاك.

٩ ـ وهرب الملك بفضل الرب، وبعض كبار فرسانه. ودخلوا الرملة وهم مسرعون هربا من المسلمين، لكنهم لم يتمكنوا من الذهاب أبعد من ذلك.

(١٩)

هروب الملك بلدوين:

١ ـ ولأن الملك لم يرغب في أن يقع في فخ هناك، فإنه فضل أن يلقى الموت في أي مكان آخر بدلا من أن يؤسر بشكل مهين في ذلك المكان. وسرعان ما تشاور

---

(١) رسالة بولس إلى أهل رومية ١٤ : ٨.

(٢) تحكي المصادر التاريخية الصليبية المعاصرة عن عجرفة بلدوين، وكيف أنه قال لستيفن كونت بلوا باحتقار إنه سوف يقاتل حتى لو هرب ستيفن عائدا إلى فرنسا، وأنه قال لأمير صليبي آخر إن بوسعه أن يعود إلى بلاده إذا كان خائفا.

انظر: Guilbert of Nogent RHC Occ, IV 244.

(٣) تبدو مبالغة فوشيه واضحة في هذا الرقم.

مع رجاله، وعندما كان عليه أن يختار بين الحياة والموت، حاول أن يهرب. وأخذ معه خمسة رفاق فقط، ولكنهم لم يمضوا معه مسافة طويلة، لأن العدو أوقفهم. وبادر هو بالهرب إلى الجبال على ظهر حصان سريع[١]. وهكذا انتزعه الرب من أيدي أعدائه الذين كانوا أقوى منه، ولو كان بإمكان بلدوين أن يرحل إلى أرسوف لبادر إلى ذلك مسرورا، ولكن العدو كان يسد عليه الطريق ولم يتمكن من الذهاب إلى هناك.

٢ ـ أما أولئك الذين بقوا في الرملة، فإنهم لم يتمكنوا من الخروج من بوابة المدينة. فقد كان المسلمون يحاصرونهم من جميع الجهات ثم قبضوا عليهم بعد ذلك[٢]. وتم قتل بعضهم، على حين اقتيد الآخرون أحياء.

٣ ـ وعندما سمع أسقف كنيسة سان جورج بهذه الكارثة انسل خارجا في السر إلى يافا.

٤ ـ وا أسفاه كم من الفرسان النبلاء والشجعان ضاعوا في هذه الكارثة، سواء في المعركة الأولى أو في البرج المذكور. ذلك أن ستيفن كونت بلوا، الذي كان رجلا نبيلا مقداما، وستيفن الآخر كونت برجاندي، قد قتلا في هذه المعركة.

٥ ـ وثلاثة من الفرسان نجوا بأنفسهم من هناك، وقد لحقت بهم الجروح والضربات في كل أجسادهم، وفروا هاربين بسرعة صوب بيت المقدس في الليلة التالية. وعندما وصلوا إلى هناك أخبروا مواطني المدينة بنبإ الكارثة التي وقعت. ولكنهم قالوا إنهم لا يعرفون ما إذا كان الملك حيا أو ميتا. وكان هذا الخبر سببا في الحزن الأليم الذي اعترى الجميع.

(٢٠)

كيف دخل الملك أرسوف بعد هربه:

١ ـ اختبأ الملك في الجبال طوال الليلة التالية خوفا من العرب. ثم خرج في اليوم الثالث ومعه فارس واحد فقط وتابعه، وأخذ يتجول كما لو كان شخصا عاديا

---

(١) لا بد أن حصان بلدوين كان مشهورا لأن عددا من المؤرخين المعاصرين له أطلقوا عليه اسم «الغزالة».

(٢) اجتاح العرب مدينة الرملة في اليوم الثالث للحصار ربما في حوالي ١٩ من مايو.

وعـانى الجـوع والعطش في مـسالك الصحـراء ودروبهـا . وأخيـرا دخل مـدينة أرسوف .

٢ ـ وكانت الظروف التي أنقذت بلدوين هي ما يلي : إذ إن خمسمائة من جنود العدو ، ممن كانوا يركبون حول أسوار المدينة لفترة من الوقت بقصد الاستكشاف ، كانوا قد انسحبوا قبل وقت قصير . ولم يكن الملك ليهرب منهم لو أنهم شاهدوه .

٣ ـ وعندما دخل الملك أرسوف استقبله رجاله بفرح عظيم . وأكل وشرب ونام هانئا . وكان ذلك مطلبا للجانب البشري في طبيعته .

(٢١)

كيف أسرع هيو أمير طبرية وبطريرك بيت المقدس لنجدة الملك، وكيف جرت المعركة بقوة ومساعدة الصليب المقدس، وشهدها المسيحيون:

١ ـ وفي ذلك اليوم[١] جاء إلى أرسوف هيو أمير طبرية الذي كان واحدا من أكبر السادة العاملين في خدمة الملك . إذ كان قد سمع بنكبة الملك وأراد أن يواسي الناجين (من المعركة) . وعندما رآه الملك ابتهج كثيرا . وكان ذلك لأن هيو جاء وبصحبته ثمانون فارسا كانت ثمة حاجة ملحة إليهم . ثم أسرع الملك لمساعدة أهل يافا بناء على رسالة جاءته من بيت المقدس .

٢ ـ ولم يجرؤ على أن يوجه رجاله عن طريق البر خوفا من أن يكون أعداؤه متربصين انتظارا له في منحنيات الطريق . وبدلا من ذلك أبحر إلى يافا على ظهر سفينته . وعندما وصل إلى الميناء استقبل بفرح شديد ، إذ إنه وفقا لما جاء في الإنجيل «ولأن ابني هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد»[٢] ، فـإن ذلك الذي رثوه وحزنوا لموته رأوه في تلك اللحظة سالما معافى .

٣ ـ وفي اليوم التالي ترك هيو المذكور أرسوف وأسرع خائفا إلى يافا . وقابله الملك لمساعدته في حالة تعرضه لهجوم من العدو في الطريق .

---

(١) ١٩ من مايو سنة ١١٠٢م .

(٢) إنجيل لوقا ١٥ : ٢٤ .

٤ ـ وعندما وصل الملك يافا لم يضيع وقتا طويلا إذ كانت الحاجة تدفعه، فاستدعى من كانوا في القدس وفي الخليل للقدوم إلى يافا. وأراد مهاجمة العرب الذين كانوا يعسكرون قرب يافا ويخططون للاستيلاء عليها.

٥ ـ وبينما كان يفكر فيمن سيكون رسوله، شاهد أحد السوريان، وهو رجل متواضع رث الثياب. واستولت عليه الرغبة في أن يعهد إليه بهذه المهمة، لأنه لم يجد من يستطيع أو يجرؤ على فعل ذلك. إذ لم يكن أحد يجرؤ على السفر على هذا الطريق بين جنود العدو. ولكن هذا الرجل، الذي أمده الرب بالشجاعة، لم يتردد في القيام بالرحلة. وذهب عن طريق وعر جدا غير مطروق، وتحت ستر الليل، خوفا من أن يراه العدو. وفي اليوم الثالث وصل القدس، وهو في غاية التعب.

٦ ـ وعندما أخبر مواطني المدينة الأخبار الطيبة عن الملك وأنه حي، قدموا جميعا الشكر للرب وأثنوا عليه لهذا السبب. ولم يحدث تأخير بعد ذلك.

٧ ـ وعندما قرءوا الرسالة التي كان السورياني يحملها، استعدوا في الحال وجمعوا أكبر عدد من الفرسان استطاعوا جمعه في بيت المقدس. وأتذكر أنهم كانوا تسعين فارسا، منهم الفرسان وكذلك أولئك الذين تمكنوا من الحصول على خيول وانطلقوا دونما إبطاء. وقد تجنبوا بقدر الإمكان كمائن العدو وساروا عبر طريق مضلل، حتى وصلوا إلى أرسوف بطريق جانبي.

٨ ـ وبينما كانوا يحثون الخطى بحذاء ساحل البحر هاجمهم أعداؤهم الأشرار، على أمل عزلهم ثم قتلهم. واندفع بعض رجالنا في الأمواج لكي يسبحوا، لأن ذلك بدا ضروريا، وربما تكون مصيبة علاجا لمصيبة أخرى. وقد أنقذتهم السباحة من المسلمين، ولكنهم فقدوا حيواناتهم. ولما كان الفرسان يمتطون خيولا سريعة، فقد دافعوا عن أنفسهم ووصلوا يافا. ومع هذا فإنهم هربوا بصعوبة.

٩ ـ وابتهج الملك، وتشجع كثيرا بوصولهم ولم يشأ أن يؤجل أكثر من ذلك. وفي الصباح التالي[1] رتب فرسانه وجنود المشاة وانطلق لقتال أعدائه.

---

(١) ٢٧ من مايو سنة ١١٠٢م.

١٠ ـ والحقيقة أن الأعداء لم يكونوا بعيدين عن يافا، أي على بعد حوالي ثلاثة أميال. وكانوا بالفعل يعدون آلات الحصار لمحاصرة يافا والاستيلاء عليها. ولكنهم حين شاهدوا رجالنا يتقدمون ضدهم للقتال، حملوا السلاح في الحال وواجهونا بجسارة. ولأن عددهم كان كبيرا حاصروا رجالنا من جميع الجوانب.

١١ ـ وعندما تم تطويق رجالنا على هذا النحو، لم يكن هناك من أمل لهم سوى المساعدة الإلهية. ولأنهم كانوا يثقون تماما في قدرة الرب الغالبة، لم يترددوا في أن يضربوا بقوة مدهشة حيثما رأوا العدو في أقوى تشكيلاته وأشدها كثافة. وعندما اخترق رجالنا بالقتال الجسور صفوف الأعداء في أحد المواضع كان من الضروري أن يعودوا القهقرى إلى مكان آخر. وكان هذا السبب في أن أعداءنا عندما رأوا مشاتنا دون حماية الفرسان، اندفعوا في الحال إلى ذلك المكان ليذبحوا الذين كانوا في المؤخرة.

١٢ ـ ولكن جنودنا المشاة لم يكونوا جبناء، فقد أطلقوا رخات من السهام على مهاجميهم لدرجة أنه كان بوسعك أن ترى سهاما كثيرة رشقت في دروع أعدائهم أو وجوههم. ولما تم صد المسلمين ببسالة بسهام المشاة، ولأن كثيرين منهم جرحوا بحراب فرساننا، ولأنهم كانوا قد فقدوا خيامهم بالفعل، فإنهم بمساعدة الرب لنا، أداروا ظهورهم للفرنج وولوا هاربين. وعلى أي حال لم تتم مطاردتهم مسافة طويلة لأن المطاردين كانوا عددا قليلا.

١٣ ـ وقد تركوا خيامهم على السهل وكل مؤنهم للفرنج. ولكنهم أخذوا معهم كل خيولهم تقريبا فيما عدا ما جرح منها أو مات عطشا في أثناء القتال. ونحن[١] حصلنا على كثير من جمالهم وحميرهم. وهلك كثيرون من أفراد العدو في أثناء هروبهم، إما بسبب جروحهم، وإما بسبب العطش.

١٤ ـ فعلا إنه لحق أن من كان يحميهم خشب صليب الرب كان لا بد لهم أن ينتصروا على أعداء الصليب. والواقع أنه لو كان هذا الصليب المبارك قد حمل مع الملك في المعركة السابقة، فلا يمكن الشك في أن الرب كان سيناصر شعبه.

(١) استخدام فوشيه لضمير المتكلم «نحن» لا يعني أنه كان حاضرا هذه المعركة، فالراجح أنه كان في بيت المقدس آنذاك.

١٥ ـ ولكن هناك من الناس من يثقون في قوتهم الذاتية أكثر من ثقتهم في الرب والذين يثقون أيضا في أحكامهم، ويهملون نصائح الحكماء[١]. وهم يتصورون أنه يمكنهم إنجاز مهامهم بسرعة ودون روية. ومن هنا يلحق الضرر الكبير بهم وبكثيرين غيرهم في نفس المهمة. ولهذا السبب اعتاد مثل أولئك القوم أن يلوموا الرب بدلا من أن يعترفوا بحماقتهم.

١٦ ـ إن الذي يبدأ شيئا بحماقة لا يضع النتيجة في حسبانه[٢]. «الفرس معد ليوم الحرب أما النصرة فمن الرب». فإذا لم يلتفت الرب على الدوام لصلاة العادل، فكيف سيكون حال الشرير؟ أو كيف يمكن للمرء أن يلوم الرب إذا لم تتحقق رغبة الإنسان في الحال؟ كيف يمكن أن يستمع للمرء الذي لا يستحق أي خير؟ أليس هو الذي يعرف ما يجب عمله في كل الأمور؟

١٧ ـ يقول بؤيثيوس[٣] في هذه النقطة: «على الرغم من أنك ترى آمالك تسقط قبل تحقيقها، فإنه لا يزال هناك نظام عادل للأشياء، ومسألة وجود نظام معاكس هي مسألة فوضى في عقلك. ولكن الرجل الأحمق يتوقع تحول الحظ، وليس ما هو جدير به». والواقع أنه في كثير من الأحيان يفكر المرء في شيء يظنه شرا ثم يتحول فيما بعد إلى خير لصالحه. وعلى العكس، يحدث أن ما ينجح جيدا مع شخص ما يتحول إلى مصدر متاعب جمة له فيما بعد.

١٨ ـ وعندما انتهت المعركة وانتصر الملك، كما سبق القول، حمل خيامه وعاد إلى يافا. وبعد ذلك تحررت الأرض من الحرب طوال الخريف والشتاء التالي.

---

(١) من الواجب أن نلاحظ، في ضوء ما نعرفه عن شخصية بلدوين، أنه لو علم بأمر هذا النقد الذي وجهه له قسيسه الخاص، لما سمح له بكتابته.

(٢) جاء في سفر الأمثال ٢١ : ٣١ «الفرس معد ليوم الحرب. أما النصرة فمن الرب».

(٣) بؤيثيوس فيلسوف عمل في خدمة ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا في القرن الخامس، وانتهى أمره بالسجن ثم الإعدام نتيجة اتهامه بالاشتراك فيما عرف باسم «المؤامرة الكاثوليكية» ضد الملك القوطي. وقد كتب كتابه «سلوى الفلسفة» في أثناء فترة السجن ـ انظر: De Consalatime philosophiae, IV. (المترجم)

(٢٢)

الملك يحاصر مدينة عكا:

١ - في سنة ١١٠٣ ، في الربيع ، وبعد أن احتفلنا بعيد الفصح في بيت المقدس[١] ، كما جرت عادتنا ، تقدم الملك بجيشه الصغير وحاصر عكا ، التي تسمى أيضا بطلمية . ولكن لأن المدينة كانت قوية جدا سواء من حيث متانة أسوارها أو من حيث دفاعاتها الخارجية ، لم يستطع الملك أن يستولي عليها في ذلك الحين ، لا سيما وأن المسلمين بداخلها دافعوا عن أنفسهم في شجاعة فائقة تستحوذ على أقصى درجات الإعجاب . وبعد أن دمر الملك محصولاتهم ، وكرومهم ، وبساتينهم عاد إلى يافا[٢] .

(٢٣)

تحرير الأمير بوهيموند من الأسر:

١ - في ذلك الوقت انتشرت إشاعة لقيت ترحيبا كبيرا عن السيد بوهيموند ، مؤداها أنه ، بفضل الرب ، تحرر من أسر الأتراك . وأعلن رسوله كيف أنه تحرر من الأسر بفدية مالية ، وكيف استقبله مواطنو أنطاكية مسرورين فرحين ، بصفته حاكمهم الجسور الذي عاد مرة أخرى يملك الأرض ويمارس سلطته عليها .

٢ - كذلك انتقل حكم مدينة اللاذقية إلى بوهيموند ، وهي المدينة التي كان تنكرد قد استولى عليها وانتزعها من رجال إمبراطور القسطنطينية . ولهذا السبب أعطى تنكرد تعويضا مناسبا عن أراضيه وأغدق عليه عطفه[٣] .

---

(١) ٢٩ من مارس سنة ١١٠٣م .

(٢) يخبرنا ألبرت الآيكسي برواية مفصلة عن أخبار الحصار ، ويتفق هو والمؤرخ المسلم ابن الأثير على أن بلدوين استخدم آلات الحصار ، وكاد أن يستولي على المدينة لولا أن وصلتها إمدادات عن طريق البحر .

(٣) فوشيه هنا يصوغ عباراته في خبث شديد . ذلك أن الملك بلدوين والبطريرك برنارد بطريرك أنطاكية كانت لهما يد في إطلاق سراح بوهيموند . واضطر تنكرد إلى أن يسلم المدن التي فتحها في أثناء وجود بوهيموند في الأسر ، ولم يحصل إلا على مدينتين صغيرتين بشق الأنفس .

(٢٤)

جرح الملك الخطير الذي كاد أن يودي بحياته:

١ ـ في ذلك الوقت عندما كان الملك بلدوين يحارب المسلمين كعادته، حدث أن شن في أحد الأيام هجوما على عدد قليل منهم. وبعد أن ركن إلى أنه هزمهم تماما، وسار مبتهجا بهذه الفكرة كان هناك حبشي يختفي وراء صخرة ساكنا في انتظار بلدوين لكي يقتله. وأطلق الحبشي قذيفته القاسية التي جرحت الملك جرحا بليغا في ظهره قرب القلب. وبهذه الضربة جرح الملك جرحا اقترب به من الموت. ولكن لأن بلدوين حرص فيما بعد على أن يعالج نفسه علاجا جيدا، فإنه استعاد عافيته وشفي من هذا الجرح المتعب.

(٢٥)

الاستيلاء على مدينة عكا:

١ ـ في سنة ١١٠٤ بعد انقضاء الشتاء، وعندما كان الربيع مزدهرا، احتفلنا بعيد الفصح في بيت المقدس[١]. عندئذ جمع بلدوين رجاله وسار إلى عكا لكي يفرض عليها حصارا ثانيا. وجاء الجنوية لمساعدته بأسطول مؤلف من سبعين سفينة[٢]. وبعد أن فرض المسيحيون الحصار على المدينة بآلات الحصار وشنوا هجمات عديدة على مدى عشرين يوما، غشي المسلمين خوف عظيم واستسلموا للملك.

٢ ـ هذه المدينة كانت ضرورية جدا لنا بسبب مينائها الواسع الكبير الذي يمكن أن ترسو داخل أسواره الحصينة عدد كبير من السفن في أمان.

٣ ـ لقد كان فوبيوس قد طلع تسع مرات

في برج الجوزاء

---

(١) ١٧ من إبريل سنة ١١٠٤م.

(٢) يذكر ألبرت الآيكسي أن الأسطول كان يتألف من سفن جنوة وسفن بيزا، ويذكر المؤرخ الإيطالي «كافارو» أن أربعين سفينة من سفن الأسطول كانت للجنوية - RHC, Occ., V, 71?. ويقول المؤرخ المسلم ابن القلانسي إن الأسطول كان يتألف من أكثر من تسعين سفينة جنوية.

عندما تم الاستيلاء على عكا التي تسمى بطلمية
في سنة ألف ومائة وأربع[١].
وهذه المدينة ليست عشرون التي يسميها البعض عكا
فالأولى مدينة فلسطينية، ولكن الأخيرة تسمى بطلمية

٤ ـ بعد أن تم الاستيلاء على المدينة بهذه الطريقة قتلوا كثيرين من المسلمين، ولكنهم أبقوا على حياة البعض. واستولوا على جميع ممتلكاتهم[٢].

(٢٦)

بوهيموند يعد العدة للعبور إلى أبوليا:

١ ـ بعد انصرام الصيف، عبر بوهيموند إلى أبوليا، بدافع من عوزه وحاجته الشديدة، وقد صحبته سفن قليلة. وعهد بكل ممتلكاته إلى تنكرد. وكان معه دايمبرت، الذي كان بطريرك بيت المقدس، وهو رجل صلب حسن الرأي[٣].

٢ ـ وقد ذهب بوهيموند على أمل أن يعود ومعه عدد من الرجال من بلاد ما وراء البحر. أما دايمبرت فقد ذهب لكي يخبر بابا روما بشكواه من الضرر الذي ألحقه الملك به. وقد ذهب ونال مأربه، لكنه لم يعد لأنه مات في الطريق[٤].

---

(١) هذه الصياغة الشعرية للتاريخ معناها أن تاريخ سقوط عكا في أيدي القوات الصليبية حدث يوم ٢٦ من مايو سنة ١١٠٤م.

(٢) استسلمت المدينة بناء على شروط الاستسلام التي قدمها بلدوين، ولكن حلفاءه الطامعين من الجنوية والبيازنة قتلوا كثيرين من المسلمين ونهبوا أموالهم ونقضوا بذلك شروط الاستسلام. وشاركهم في ذلك الفرنج بطبيعة الحال. (المترجم)

(٣) كان من ضمن متاعب بوهيموند هزيمة قاصمة ألحقها به الأتراك السلاجقة في حران يوم ٧ من مايو سنة ١١٠٤م، والهجمات المستمرة التي شنها عليه رضوان أمير حلب، والبيزنطيون، فضلا عن النقص الذي كان يعانيه في الرجال والأموال. وقد ترك أنطاكية في أواخر عام ١١٠٤م، ووصل ميناء باري Bary في إيطاليا في يناير سنة ١١٠٥م. وقد تولى تنكرد الوصاية على ممتلكات بوهيموند.

(٤) كان البطريرك دايمبرت يريد أن تكون بيت المقدس دولة كنسية يرأسها بنفسه. وقد أجبره الملك بلدوين على الخروج من بيت المقدس سنة ١١٠١م، فذهب إلى أنطاكية وعاد مؤقتا إلى منصبه بفضل نفوذ تنكرد، بيد أنه لم يلبث أن عزل في نهاية سنة ١١٠١م. وفي نهاية سنة ١١٠٤م عاد إلى إيطاليا برفقة بوهيموند كما يقرر فوشيه هنا. وقد أعاده البابا باسكال الثاني لمنصبه، ولكنه مات في مسينا وهو عائد إلى فلسطين.

(٢٧)

كيف حارب رجال أنطاكية ضد الفرس فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر:

١ ـ في تلك السنة تجمع البارثيون، والميديون، والكلدانيون، وجميعهم سكان بلاد الرافدين، جيراننا، ليهاجمونا نحن المسيحيين ويقضوا علينا بكل وسيلة. وعندما وصلنا الخبر بهذا، استعد زعماؤنا لقتال الأعداء[١].

٢ ـ فقد استعد السيد بوهيموند وتنكرد، وكونت بلدوين حاكم الرها، وجوسلين، وكذلك دايبرت بطريرك بيت المقدس، وكبير أساقفة الرها الذي يسمى بندكت، وقدجهزوا قوة من الفرسان وعامة الناس[٢].

٣ ـ وساروا عبر نهر الفرات حتى وصلوا إلى المدينة التي تسمى حران. وهناك لقوا كتائب أعدائهم وجها لوجه. وبدءوا المعركة في الحال قرب الرقة، ولكن بسبب شدة خطايانا تمزق المسيحيون ونهشتهم الفوضى والتفرق. وكانت هذه المعركة كارثة يفوق حجمها، المعارك السابقة كافة، كما بدا من نتيجة المعركة.

٤ ـ في هذه المعركة أسر السيد بلدوين كونت الرها، الذي صار بعد ذلك الملك بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، ووقع معه في الأسر قريبه السيد جوسلين. وأسر معهم أيضا كبير الأساقفة المذكور. كما غرق رجال كثيرون غيبتهم أمواج النهر المذكور. وضاعت أعداد كبيرة من الخيول والبغال، وفقدت ثروات طائلة.

٥ ـ على أي حال، هرب السيد بوهيموند والسيد تنكرد، وهاما على وجهيهما عبر الطرق المهجورة والممرات الجانبية هنا وهناك، وتجنبا الطرق السالكة والجيدة. ثم هربا في آخر الأمر وهما في حال من الفوضى والاضطراب.

٦ ـ ومات كثيرون رميا بالسهام وطعنا بالخناجر. أولئك الذين كان يمكنهم أن يستولوا على حران دون مشقة كبيرة لو أنهم فرضوا عليها الحصار أولا، لم يعد

---

(١) يتحدث فوشيه هنا عن هجمات المسلمين من أهل الموصل وماردين ضد الصليبيين، ولكنه يستخدم التسميات الواردة في الكتاب المقدس لسكان هذه المناطق. (المترجم)

(٢) يعود فوشيه هنا إلى استرجاع الأحداث بعد أن ذكر في الفصل السابق أخبار رحلة بوهيموند ودايبرت إلى إيطاليا التي تمت بعد نهاية هذه الأحداث. (المترجم)

بوسعهم فيما بعد أن يستولوا عليها سواء في هجومهم أو في رحلة العودة. ولأن الأمن أحيانا يعطي نتائج سيئة بالخداع، فإن المبالغة في الخوف والحرص تكون أحيانا ميزة للحريص والهياب. وكما هو مكتوب: «التأجيل خطر بالنسبة لأولئك المستعدين للعمل».

٧ ـ غير أنه من المؤكد أن عدوين هما، النزاع والحسد، قد سببا الأذى لشعبنا في هذه المهمة، أو الكارثة. هذان العدوان تعودا على هزيمة الرجال وإيرادهما مورد الفقر بعد الثراء والغنى. وقد رأينا هذا يحدث غالبا. وقد عرفناه من التجربة. وأنا لست مخدوعا، ولست مضللا بالمظاهر الخادعة حتى أهتم بالتفاهات.

٨ ـ في هذه الحملة سبب الفرنج بعضهم لبعض كثيرا من الخطر والخوف حتى قبل الكارثة، لدرجة أنهم كادوا أن ينشقوا عن رفاقهم، ويفضوا التحالف الذي أقاموه[١]. والواقع أن الأحمق هو الذي يفعل الشر ويتوقع الخير. إذ إن الرب لا يقبل شيئا يتم عمله دون حب. ولذا فمن الجبن والعار أن تهجر جماعته وهو الرب الذي يجب أن أخدمه حتى الممات.

٩ ـ وفضلا عن ذلك، فإن الرب ساعد كبير أساقفة الرها، الذي كان مقيدا بالأغلال في ذلك الحين. وقد حمله الأتراك أدواتهم ومعداتهم كما لو كان دابة من دواب الحمل. وبمساعدة فارس جسور للغاية خاطر بحياته، وبمشيئة الرب، اختطف كبير الأساقفة من أيدي الأتراك في عملية تتسم بالشجاعة المذهلة. لأن الفارس لم يكن يرى حياته أغلى من روحه[٢].

١٠ ـ وهكذا فإن كثيرين من الرجال في رحلة حجنا هذه كانوا يتحرقون بالحماسة للرب، واختاروا أن يضحوا بهذه الحياة، على أمل أن يموتوا ميتة مباركة وبذلك ينعمون بالراحة مع الرب.

١١ ـ وعلى سبيل المثال، فإن رجلا واحدا، كما سمع بعض الناس ورأوا عندما

---

(١) يحكي وليم الصوري أن بلدوين وجوسلين، تشاجرا حول من سيتولى حكم مدينة حران في أثناء حصارها، مما أتاح الفرصة للأتراك لكي يقاوموا حتى تصلهم النجدة - X, XXX.

(٢) يقصد فوشيه أن هذا الفارس لم ير أن حياته في الدنيا أهم من خلاص روحه في الآخرة.

كنا حول أنطاكية، عندما سمع اسم الرب يهان ويحقر على لسان أحد الوثنيين[1]، حركته حماسته المتأججة لكي يواجهه بالقول وبالفعل. وامتطى جواده في الحال مخاطبا من حوله: «إذا كان فيكم من يرغب دخول الجنة، فليأت الآن ويأكل معي، لأنني ذاهب إلى هناك».

١٢ ـ ثم طوح حربته ودخل وسط الآلاف من جنود العدو، وأطاح بأول من قابله وقتله. وهكذا ذبح وهو يقاتل. وبذلك بفضل الإيمان والأمل الذي أيده والحب الذي قواه، مات ميتة مفرحة. فمن ذا الذي سمع عن مثل هذا الفعل من قبل؟ وقد مجدته السماء وهو ما يزال مطروحا على الأرض.

١٣ ـ ومن هنا تبتهج السماء ومن فيها. وكان ذلك حقا منبعا لفرحنا ومبعثا لشكرنا، لأن الملائكة فرحت عندما انضم إليهم مثل هذا الرفيق. لأن الرب كان قريبا وكافأه بالثواب الذي كان قد أعده، وهو النعيم المقيم[2].

(٢٨)

تحرير الكونت بلدوين والمعركة بينه وبين تنكرد:

١ ـ بعد أن حبس السيد بلدوين مقيدا بالسلاسل حوالي خمس سنوات، وبعد أن تم تقديم رهائن مختارة، وحلفت الأيمان المغلظة بأن بلدوين سوف يحررهم، وعندما قام هؤلاء الرهائن بقتل حراسهم بالحيلة، هرب من السجن[3]. وقد ساعده في ذلك جوسلين مساعدة قيمة.

٢ ـ ولكن عندما عاد بلدوين فيما بعد إلى مدينة الرها، لم يستطع دخولها لأن تنكرد ورجاله كانوا يمنعون الدخول.

---

(١) يتحدث فوشيه هنا عن المسلمين مستخدما هذا الوصف العدائي لهم، ولا غرو فقد كان من رجال الكنيسة الكاثوليكية وأحد الدعاة الكنسيين لشن الحرب الصليبية ضد المسلمين، وهو ما تكشف عنه الصياغة الدرامية للحادثة في السطور التالية. (المترجم).

(٢) جاء في إنجيل يوحنا (١٤ : ٢) «في بيت أبي منازل كثيرة. وإلا فإني قد قلت لكم أنا أمضي لأعد لكم مكانا». (المترجم)

(٣) كان قد تم أسر بلدوين في سنة ١١٠٤م، وتم إطلاق سراحه في منتصف أغسطس سنة ١١٠٨م، وقد تم إطلاق سراحه بفدية دفعها جوسلين.

٣ ـ وأخيرا لأن ذلك كان في صالح بلدوين وجوسلين، وبسبب الاتفاقية التي كان السيد بوهيموند قد سعى لعقدها من قبل، والتي تقضي بعودة أملاك بلدوين إليه في أي وقت يستطيع فيه الهروب من الأسر دون معارضة، شن الحليفان حربا ضد تنكرد في الحال.

٤ ـ ولم يستجيبوا لطلبات تنكرد ودعوته للسلم. وإذ جمع جوسلين سبعة آلاف تركي، استفز تنكرد الذي لم يكن مستعدا للمعركة وقتل خمسمائة من أتباعه بمساعدة الأتراك. وعلى الرغم من أن الهزيمة كادت تلحق بتنكرد في بداية الأمر، فإنه بمساعدة الرب، الذي يسعى من يعتمدون عليه دائما نحو العدل، تمكن من إحراز النصر في ميدان المعركة، النصر مقرونا بالشرف[١].

٥ ـ ولكن عندما رأى أعيان البلاد الدمار والضرر الذي سببته الحرب، جرت المشاورات وتم عقد الاتفاق بين الجانبين المتخاصمين.

(٢٩)

بوهيموند يعبر إلى بلاد الغال:

١ ـ وإذ تم خذلان بوهيموند من عدة جوانب، كما أوضحنا من قبل، مضى إلى بلاد الغال. وهناك تزوج ابنة الملك فيليب[٢] وجرت له أمور أخرى، واسمها كونستانس وأحضرها إلى أبوليا. وأنجب منها ولدين. وقد مات أولهما، أما الثاني الذي أخذ اسم أبيه فقد عاش ليكون وريثه[٣].

---

(١) كانت المعركة التي دارت بالقرب من تل باشر في سبتمبر عام ١١٠٨م مهمة للغاية، لأن كلا من تنكرد من ناحية، وبلدوين وجوسلين من ناحية أخرى، اعتمد على حلفاء من الأتراك.

(٢) فيليب الأول ملك فرنسا (١٠٦٠ ـ ١١٠٨م).

(٣) مات الابن الأول جون في طفولته، أما بوهيموند الثاني فقد جاء إلى أنطاكية سنة ١١٢٦م. ومات أبوه بوهيموند الأول في أبوليا سنة ١١١١م.

(٣٠)

تنكرد يحارب الأتراك ويحرز النص:

١ ـ في سنة ١١٠٥، في اليوم الثاني من شهر مارس، مات الكونت ريمون، الذي كان فارسا متميزا، في قلعته قبالة مدينة طرابلس. وخلفه ابن أخيه وليم جوردان.

٢ ـ وفي نفس الوقت لم تتوقف مضايقات الأتراك والمسلمين، لأنه في شهر إبريل، قام رضوان ملك حلب[1] بجمع جيش غير صغير من البلاد المحيطة به. وفي كبرياء متعاظمة رفع رأسه لقتال تنكرد أمير أنطاكية.

٣ ـ ولكن تنكرد، الذي وضع أمله في الرب وليس في كثرة عدد رجاله، جهز جيشه للقتال في شكل جيد وركب ضد العدو دونما إبطاء. لماذا أطيل أكثر من هذا؟ لقد اندفع تنكرد في جسارة ضد العدو. وبمساعدة الرب ركب الخوف الأتراك في الحال وولوا ظهورهم مدبرين. أما أولئك الذين لم يتمكنوا من الهرب فلم ينجوا من الموت.

٤ ـ وكانت أعداد الموتى منهم لا تحصى، ولكن تنكرد استولى على كثير من خيولهم. كما استولى على راية الملك الهارب. فقد هرب الملك واندفع ومعه كبرياؤه الكسير. وهكذا مجد الرب، الذي يأتي دائما لمساعدة المؤمنين.

٥ ـ وإذا ذكرنا هذه المعركة وتحدثنا قليلا عن رجال أنطاكية، فسوف نحكي الآن عن رجال بيت المقدس.

(٣١)

ملك مصر يرسل جيشه كله مرة أخرى ضد الملك بلدوين، الذي كان قد استعد ضده:

١ ـ يجب أن نحكي كيف حدث في نفس السنة أن جمع ملك بابيلون (مصر) عددا كبيرا من الرجال وأرسلهم في خدمة حاكم عسقلان لشن الحرب ضد

---

(١) رضوان بن تتش حاكم بلاد الشام السلجوقي (١٠٧٨م ـ ١٠٩٥)، ولكن رضوان لم يتمكن من وراثة ملك أبيه، وأخذ حلب فقط وحكمها من سنة ١٠٩٥ إلى سنة ١١١٣م.

المسيحيين[1]. كان ظنه وقصده أن يطردنا جميعا من الأراضي المقدسة. وقد عرف أن عددنا قليل للغاية وبدون المساعدة المعتادة من الحجاج (القادمين من أوربا). وفي عسقلان تجمع الخيالة العرب والمشاة الأحباش. وكان معهم أكثر من ألف من أتراك دمشق الذين تميزوا ببراعتهم الفائقة في استخدام القسي والسهام.

٢ ـ وعندما وصلت أخبار هذا الاستعداد إلى مسامع الملك بلدوين جمع كل رجاله وانتظر العدو قرب يافا. وبدافع الضرورة، ذهب إلى المعركة كل من كان قادرا على حمل السلاح من سكان المدن، باستثناء أولئك الذين كانوا يتولون حراسة الأسوار ليلا.

٣ ـ ثم غشينا الخوف وركبنا الرعب. فقد كنا نخاف أن يستولي أعداؤنا على واحدة من مدننا وهي خالية من الرجال، أو يذبحوا الملك ورجاله في المعركة، لأننا لم نهاجمهم ولم يهاجمونا.

٤ ـ ولكن أخيرا في وقت حدده الرب، كما أعتقد، تقدم الجنس الشرير من عسقلان وأخذوا يقتربون منا. وعندما تم اكتشاف هذا ترك الملك يافا وركب إلى مدينة الرملة.

٥ ـ ولأنه «. . . فالاقتراب إلى الله حسن لي. جعلت بالسيد الرب ملجئي لأخبر بكل صنائعك»[2]، فإن الملك أرسل، بإلهام من الرب، رسولا إلى البطريرك، ورجال الكنيسة، وعامة الناس في بيت المقدس يحثهم على الصلاة بكل طاقتهم من أجل رحمة الرب القدير لكي يمنح مساعدته للمسيحيين في مأزقهم هذا.

٦ ـ هذا الرسول رفض أن يتقاضى أي أجر على الرغم من قوة الإلحاح. فقد خشي ألا يتمكن من إنجاز مهمته، أو إذا كتبت له الحياة، فقد لا يتمكن من الحصول على الثواب. وكان يثق بأن الرب سوف يكافئه بطريقة ما مقابل عمله التقي.

---

(١) في سنة ١١٠٥م، وكانت تلك آخر محاولات الأفضل وزير الخليفة الفاطمي الطفل الآمر (١١٠١ ـ ١١٣٠) الذي يسميه فوشيه «الملك»، للقضاء على الصليبيين وطردهم من بيت المقدس. وكان حاكم عسقلان هو «جمال المُلْك» كما يذكر ابن الأثير.

(٢) مزامير، ٧٣: ٢٨.

وهكذا أسرع إلى بيت المقدس تاركا روحه وجسده بيد خالقه. وبفضل توجيه الرب وصل إلى هناك، وعندما دخل المدينة أعلن عن مهمته.

٧ ـ عندما أعلنت الأنباء، أمر البطريرك بدق الناقوس الكبير وبأن يجتمع الناس كافة أمامه، وقال: «أيها الأخوة، أصدقائي خدام الرب، تأملوا هنا في صدق تام المعركة التي سمعتم بها، لأن الرسول يعلن أنه لا شك في أنها على وشك أن تنقض علينا. ولأننا لا نستطيع أن نقاوم مثل هذه الأعداد الكبيرة دون مساعدة ربانية، فلتصلوا أنتم لكي يسبغ الرب رحمته ومساعدته على ملكنا بلدوين وكل رجاله في هذه المعركة الحاسمة.

٨ ـ لقد أجل الملك المعركة من اليوم [١] إلى الغد حسبما أخبرنا الرسول الذي أرسله، وغدا سيكون يوم الرب، اليوم الذي قام فيه المسيح من بين الموتى، وذلك لكي يحارب الملك بأمل في النصر كبير. وهو يرجوكم أن تقدموا صلواتكم وصدقاتكم للرب لكي يقويه في المعركة فيحارب بثقة أكبر.

٩ ـ «ولذا اسهروا للصلاة وفقا لتعاليم الرسل، وثبتوا إيمانكم، وليكن دافعكم الخير في كل ما تفعلون. وغدا اذهبوا إلى الأماكن المقدسة في هذه المدينة، حفاة الأقدام، وأنتم تظهرون دلائل التواضع والمذلة، وتوسلوا إلى الرب بإخلاص أن يخلصنا من أيدي أعدائه.

١٠ ـ «إنني ذاهب إلى الملك الآن. إنني راحل في التو، وأحثكم على أن يأتي معي من يستطيع حمل السلاح من الباقين هنا حالا. لأن الملك الرجل يحتاج إلى الرجال».

١١ ـ لماذا أتأخر أكثر من ذلك؟ وركبوا خيولهم، وكان مجموعهم مائة وخمسين رجلا، من الفرسان والمشاة. وهكذا انطلقوا بحلول الليل مسرعين. وفي الفجر وصلوا مدينة الرملة.

١٢ ـ أما أولئك الذين بقوا في بيت المقدس فقد كرسوا أنفسهم للصلاة بحماسة، وقدموا الصدقات، وذرفوا الدموع. وكانوا يزورون الكنائس باستمرار

(١) ٢٦ من أغسطس سنة ١١٠٥م.

حتى ساعة الظهر. وبكوا وهم ينشدون، وأنشدوا وهم يبكون، لأن القساوسة كانوا يفعلون هذا في أثناء أداء الطقوس. وأنا أيضا كنت أصلي حافيا مع الباقين. وصام الرجال المسنون حتى الساعة التاسعة من النهار، بل إن الأطفال لم يرضعوا من صدور أمهاتهم حتى تعالى صراخهم من الجوع. كذلك وزعت على الفقراء صدقات سخية. لأن هذه هي الأعمال التي ترضي الرب، وهي التي تدعو الرب لإنقاذنا «. . . فيبقى وراءه بركة تقدمة وسكيبا للرب إلهكم»[1].

(٣٢)

معركة رجال بيت المقدس ضد الأتراك، والنصر الذي تحقق بقوة الصليب المقدس:

١ ـ وعندما جاء البطريرك إلى الرملة كما سبق أن حكينا، وبعد أن بزغ الفجر وبدأ نوره يطغى على النجوم المتلألئة[2]، كنا جميعا مسرورين بوصوله، وأخذنا نحث الناس على الإسراع إلى القساوسة لكي يعترفوا بخطاياهم إلى الرب. كما أسرع الرؤساء إلى البطريرك تحدوهم الرغبة في سماع الكلمات الطيبة المشجعة منه ولكي يتحرروا من خطاياهم.

٢ ـ وبعد أن تم هذا ارتدى البطريرك ثيابه الكنسية، وأخذ في يديه صليب الرب المجيد الذي كان يحمل عادة في مثل هذه المناسبة. وعندما تم ترتيب جماعات الفرسان والمشاة على النحو السليم، تقدموا ضد الجيش المعادي.

٣ ـ كان عدد فرساننا حوالي خمسمائة، باستثناء أولئك الذين لا يعدون فرسانا على الرغم من أنهم كانوا راكبين. ولم يكن عدد مشاتنا يزيد على ألفي رجل. وفضلا عن ذلك، كان المسلمون حوالي خمسة عشر ألفا من المشاة والفرسان. وفي تلك الليلة كان معسكرهم لا يبعد عن الرملة أكثر من أربعة أميال.

٤ ـ وفي الصباح، شاهدوا الملك يتقدم لملاقاتهم فاستعدوا بسرعة للقتال. وعلى أي حال، فشلت خطتهم إلى حد ما، لأنهم خططوا لإرسال جزء من جيشهم ضد الرملة على الرغم من أنه كان جزءا صغيرا، وذلك بهدف خداع

---

(١) يوئيل ٢: ١٤.

(٢) يوم ٢٧ من أغسطس وفوشيه يقتبس هنا بيتا من الشعر لأوفيديوس.

جيشنا. وعلى أي حال فإنهم قرروا أن يرسلوا الشطر الأكبر من جيشهم لمهاجمة يافا دون أن نعلم. ولكنهم حين رأوا الملك راكبا ضدهم، أعادوا تجميع قواتهم في الحال، وارتبكت خطتهم.

٥ ـ لم يكن هناك أي مجال للتأخير؛ وهاجم كل فريق الفريق الآخر. وتعالت أصوات الدروع في تصادمها وارتفع صليل السيوف. وفي خضم القتال المتبادل صاح رجالنا على العدو «المسيح ينتصر، المسيح يملك، المسيح يحكم» تماما كما قضت الأوامر الصادرة لهم.

٦ ـ وأحاط بنا أعداؤنا، ظنا منهم أن يحكموا الخناق حولنا ويقضوا علينا. كما أن رماة السهام الأتراك، كانوا يدورون حولنا بسرعة كعادتهم، ويطلقون علينا السهام. وعندما انتهى دور رماة السهام، استلوا سيوفهم من أغمادها وهاجمونا في قتال متلاحم. وعندما رأى الملك هذا ظهرت شجاعته، وانتزع رايته البيضاء من يد أحد فرساننا، واندفع إلى الأمام ومعه عدد قليل من الرجال، وبدأ في مساعدة من يتعرضون للهجوم.

٧ ـ وبمساعدة الرب تمكن في الحال من تفريق الأتراك بهجومه وقتاله، ثم عاد إلى الهجوم ضد الجزء الأكبر من المسلمين، والعرب، والأحباش.

٨ ـ بيد أنني لن أركز على الهجمات والقتال الذي شنه الجانبان، لأنني أريد أن أضع الحكاية في دائرة أكثر تحديدا. لأن الرب العظيم، الذي لا يغفل أبدا عن عباده، لم يشأ أن يقضي هؤلاء الكفار على المسيحيين الذين جاءوا من بلاد بعيدة إلى بيت المقدس حبا في الرب وتمجيدا لاسمه[1]. وفجأة هرب المسلمون عائدين إلى عسقلان.

---

(١) هنا تتجلى حقيقة نظرة فوشيه ـ رجل الكنيسة الكاثوليكية ـ إلى المسلمين وإلى الحملة الصليبية؛ فهذا التسويغ الأيديولوجي للعدوان على العالم العربي الإسلامي لا بد وأن يقترن ببعض الأوصاف الظالمة للمسلمين الذين عدّهم فوشيه من «الكفار»، كما أن الحملة الصليبية التي كانت دوافعها مزيجا من المطامع الاقتصادية والطموح السياسي، والأحوال الاجتماعية المتردية في الغرب الأوربي، والتي صحبتها أسوأ أنواع الطمع والقسوة البشرية، تصبح في رأي فوشيه حملة في حب الرب وتمجيدا لاسمه! (المترجم)

٩ ـ آه لو أن «سناء الملك»، قائد جيشهم، قد وقع في الأسر، فكم حجم الأموال التي كانت ستدفع فدية له إلى الملك بلدوين. ولكن «جمال الملك» أمير عسقلان، الذي كان رجلا واسع الثراء، لم يهرب. فقد لقى مصرعه، مما سبب كثيرا من الأسى عند أولئك الناس[١].

١٠ ـ وهناك أمير آخر، كان أمير عكا السابق، تم أسره حيا[٢]. وقد طلب ملكنا فدية له مقدارها عشرون ألف قطعة من النقود بالإضافة إلى الخيول وغيرها.

١١ ـ ولأن الأحباش لم يستطيعوا الهرب، فقد ذبحوا في ميدان المعركة، وقيل إن أربعة آلاف من جنود العدو قد قتلوا، من الفرسان والمشاة على حد سواء، ولكن قتلانا كانوا ستين فردا فقط وبقيت خيامهم في أيدينا، وكثير من دواب الحمل مثل الجمال والحمير.

١٢ ـ ثم حمدنا الرب ومجدناه لأننا وجدنا فيه قوة عظيمة، ولأنه أورد أعداءنا موارد البوار. آه يا له من حكم سماوي عادل، تأمل أولئك الذين قالوا: «سوف نأتي لنقتل كل أولئك المسيحيين وسوف نستولى على أماكنهم المقدسة». لكن الأمر لم يحدث على هذا النحو، لأن الرب جعلكم أيها الكفار مثل الغبار المتطاير، مثل القش في مهب الريح. وذلك لكي يبث الرعب في أوصالكم من غضبه. وكانوا قد أقسموا بأيمانهم ألا يهربوا من الفرنج ولكنهم في النهاية وجدوا سلامتهم في الهرب. لقد فضلوا أن يحنثوا في أيمانهم على أن يموتوا ميتة عبثية[٣].

١٣ ـ وأخيرا عاد الملك مبتهجا إلى يافا حيث وزع على فرسانه ومشاته الغنائم والأسلاب التي غنمها في المعركة. وقد فعل هذا وفق حسابات دقيقة.

---

(١) سناء الملك، الذي يسميه فوشيه "Semelmulc" ابن الأفضل، والقائد الثاني هو جمال الملك الذي يسميه فوشيه "Gemelulc". وحديث فوشيه هنا عن الفدية التي كان يطمع فيها الصليبيون لو أسروا سناء الملك، تكشف عن حقيقة وصف الصليبيين بالجشع وحب المال كما وصفتهم «أنا كومنينا». (المترجم)

(٢) هو «زاهر الدولة الجيوشي» كما يذكر ابن الأثير، وابن القلانسي.

(٣) في هذه الفقرة استخدم فوشيه عبارات كثيرة مقتبسة من المزامير، ولا غرو فهو واحد من رجال الكنيسة الكاثوليكية، وتفسير الأحداث التاريخية في سياق ديني أمر يتوافق بالضرورة مع فكرة التاريخ في غربي أوربا آنذاك. (المترجم).

(٣٣)

هروب المصريين:

١ ـ حتى ذلك الحين كان هناك أسطول مصري يرسو قبالة يافا. فقد كان المصريون ينتظرون هناك لبعض الوقت على أمل أن يجدوا الوسيلة والوقت الملائمين لكي يدمرونا جميعا عن طريق البر والبحر، نحن ومدننا البحرية. ولكن عندما أمر الملك بلدوين بحارته بأن يلقوا رأس الأمير جمال الملك، الذي قتل في المعركة، فوق متن إحدى سفن العدو، ركبهم الخوف والرعب العظيم عندما اكتشفوا هذا، ولم يهتموا بالبقاء أكثر من ذلك. وهكذا فإنهم حين علموا بالكارثة التي وقعت على جيشهم عادوا القهقري إلى ميناء صور وميناء صيدا تدفعهم ريح جنوبية لطيفة.

٢ ـ وعندما كان هذا الأسطول في طريق عودته إلى مصر فيما بعد، أسبغ الرب فضله علينا لأن سفن العدو تبعثرت في عاصفة وساقتها الريح القوية إلى موانينا. وأسرنا خمسا وعشرين سفينة مملوءة بالمسلمين. وأبحر الباقون بعيدا وهربوا بجلودهم. لقد أوضح الرب أنه معيننا الرحيم في الملمات، وهكذا أظهر قدرته الشاملة.

٣ ـ وبناء على ذلك أريد أخبركم بتاريخ المعركة.

كان فوبيوس قد صعد للمرة العاشرة في برج العذراء
عندما كان البدر كاملا يطل على الأرض
في اليوم السادس من شهر سبتمبر(١)
عندما منح الرب القدير للفرنج فرحة النصر
عندما هرب العرب والأتراك والأحباش
بعضهم إلى الجبال، على حين بقي البعض جثثا هامدة في الميدان.

---

(١) ٢٠ من أغسطس سنة ١١٠٥م هو تاريخ المعركة، وربما يكون غرام فوشيه بالصياغة الشعرية هو سبب الخطإ.

(٣٤)

الزلزال:

١ ـ وبما أن هذه الأحداث قد تطويها موجات النسيان إن لم تسجل، وإذا لم تكتب بسبب الإهمال أو بسبب عدم مهارة الكتاب، أو لأن هؤلاء الكتاب قليلون، أو محملون بأعبائهم الخاصة، فإنني أنا فوشيه على الرغم من قلة مهارتي وضعف قدرتي، أفضل أن أعرف بخطإ عدم التروي والاندفاع، بدلا من أن أسمح بأن تدخل هذه الإنجازات إلى غياهب المجهول، طالما أنني رأيتها بعيني رأسي وعرفتها وأنا أبحث عن مصادر المعلومات الموثوق بها.

٢ ـ وفضلا عن ذلك، فإنني أرجو من يقرأ هذا أن يغفر بإحسانه نقص مهارتي وأن يصحح أخطائي في هذه المسودة إذا لم تكن قد صححت على يد قارئ فصيح. وعلى أي حال فلا يجب أن يغير ترتيب مؤلفي التاريخي سعيا وراء الفصاحة المدوية لئلا يقع في منزلق إرباك الحقيقة[١].

٣ ـ وبعد الأعمال التي حكيناها فيما سبق، شعرنا نحن الذين كنا في بيت المقدس، قرب نهاية العام، بزلزال عنيف أنزل في قلوبنا رعبا عنيفا. وكان ذلك في أثناء الاحتفالات بميلاد المسيح[٢].

(٣٥)

العلامات التي ظهرت في السماء:

١ ـ في سنة ١١٠٦ ظهر شهاب في السماء سبب لنا الخوف لأننا كنا نرتاب فيه. فقد كان في الاتجاه الذي تغرب نحوه شمس الشتاء. وكان يخرج منه ذيل أبيض مضيء مثل خيط من الكتان، وكان طويلا بشكل مذهل.

٢ ـ هذه العلامة الإعجازية بدأت في الاحمرار في شهر فبراير يوم ميلاد القمر الجديد. ولكن دون محاولة التنبؤ منها فوضنا للرب مشكلة معناها.

(١) يوضح فوشيه هنا أن شخصا آخر كان يقرأ مؤرخته في ذلك الحين ويعيد صياغتها لتحسين الأسلوب. (انظر المقدمة).

(٢) ٢٤ من ديسمبر سنة ١١٠٥م.

٣ ـ وعلى مدى خمسين يوما أو أكثر، كان يمكن مشاهدة هذا الشهاب كل مساء في أنحاء العالم كافة. ومن الملاحظ أنه منذ بداية ظهوره، كان الشهاب نفسه والضوء الجميل الأبيض المنبعث منه يخفت يوميا بدرجة بسيطة حتى فقدان ضوئه في الأيام الأخيرة ثم اختفى عن الظهور تماما.

٤ ـ وبعد ذلك مباشرة في نفس الشهر، في اليوم العشرين من الشهر القمري[١]، ومنذ الساعة الثالثة حتى الظهر، كنا نشاهد في السماء شمسين أخريين تبدوان عن يمين الشمس الحقيقية ويسارها. وعلى كل حال، لم تكونا تشعان مثل الشمس الحقيقية، ولكنهما كانتا معتمتين في الشكل والإشعاع. وعلاوة على ذلك، كانت ثمة هالة بيضاء تحيط بهاتين الشمسين وكانت في اتساعها تشبه مدينة من المدن. وداخل الهالة كان ثمة نصف دائرة تشبه قوس قزح. وكان له أربعة ألوان مميزة. الجزء الأعلى من منحناه كان يعانق الشمس بل ويلمس الشمسين الأخريين اللتين ذكرناهما من قبل.

(٣٦)

حرب المسيحيين ضد أهل دمشق:

١ ـ في الصيف التالي[٢]، شن هيو، الذي كان يحكم مدينة طبرية في ذلك الحين، الحرب ضد جنود دمشق. وبعد أن هزم مرتين أمامهم في المعركة انتصر في هجومه الثالث بمساعدة الرب. وقتل منهم مائتين واستولى على عدد مماثل من خيولهم. ولجأ بقية الأعداء إلى الهرب. يا لها من قصة عجيبة! إذ تمكنت ست فرق من الرجال أن تهزم أربعة آلاف[٣].

٢ ـ وبعد ذلك مباشرة، لقي هيو مصرعه بسهم عندما كان في حملة مع الملك بلدوين في الإقليم نفسه[٤].

---

(١) ٢٣ من فبراير ١١٠٦م.

(٢) سنة ١١٠٦م

(٣) كان هيو وبلدوين يضايقان صور محاولين قطع تجارتها مع دمشق.

(٤) ربما كان موت هيو في سبتمبر ١١٠٦م.

(٣٧)

كيف عبر البطريرك البحر إلى روما، والمعركة التي جرت بين أهل يافا وأهل عسقلان:

١ - في سنة ١١٠٧ عبر البطريرك «إيفرمار» البحر إلى روما لكي يستفسر من الكرسي البابوي عما إذا كان سيبقى في منصبه[1]، لأن دايبرت سابق الذكر، كان قد استعاد البطريركية، ولكنه مات في رحلة العودة.

٢ - وأخيرا في شهر نوفمبر من السنة نفسها، وضع رجال عسقلان الذين كانوا يغلون بوحشيتهم المعتادة، الكمائن في سفوح التلال والجبال الواقعة بين الرملة وبيت المقدس، وكان غرضهم الانقضاض على مجموعة من أهلنا وأسرهم عندما عرفوا أنهم في سبيلهم للرحيل من يافا إلى بيت المقدس.

٣ - ولكن عندما عرف هذا وشاع بين رجال يافا بادروا في الحال إلى ركوب خيولهم. وعندما وصلوا مكان الكمين، وقد وجههم إلى هناك من حمل خبر الكمين، لأنهم كانوا في شك حتى ذلك الحين من أمره، ركبهم الرعب والخوف عندما شاهدوا العدو. ذلك أن رجال عسقلان كانوا حوالي خمسمائة فارس وحوالي ألف من المشاة، على حين لم يكن هناك أكثر من خمسة وستين من رجالنا.

٤ - ولم يكن هناك وقت يفكر فيه رجالنا فيما يجب عليهم عمله. فلم تكن سلامتهم في الهرب، كما كان الموت قريبا إذا حاربوا. واختاروا أن يموتوا ميتة شريفة إذا كان ذلك ضروريا بدلا من أن يعرف عنهم فيما بعد عار الهرب. ومن ثم شنوا هجوما مفاجئا، وتغلغلوا في صفوف العدو وهم يسقطون رجاله ويذبحونهم

---

(١) هذه هي المرة الوحيدة التي يذكر فيها فوشيه Evremar بالاسم، على الرغم من أنه أشار إليه مرتين أخريين. ولم يقم البابا باسكال بإعادة إيفرمار إلى منصبه، ولكن قضيته أعيدت إلى القدس لاتخاذ القرار. والجدير بالذكر أنه عزل سنة ١١٠٣ من منصبه.

انظر خطاب باسكال الثاني المؤرخ ٤ من ديسمبر سنة ١١٠٧ في:

Eugene de Roziere (ed.), Cartulaire de lé Eglise du Saint Sepulere de Jerusalem (Paris, 1849-, No. 10.

بطريقة مذهلة. وعندما رأى المسلمون أنهم ضربوا بشدة في هذه المعركة، فقدوا شجاعتهم، لأنها كانت إرادة الرب، وأوقفوا القتال.

٥ ـ وعندما لاحظ جنودنا هذا زادوا من ضغطهم على المسلمين. وأجبروا أولئك الذين ظنوا أنهم يجبرون رجالنا على الفرار لأن يفروا هم بأنفسهم. وقتلوا منهم كثيرين واستولوا على الكثير من خيولهم. ولم نخسر من رجالنا أكثر من ثلاثة. وعلى أي حال، فإن رفاق العدو سرقوا منا بعض دواب الحمل، لكن رجالنا كالوا لهم الصاع صاعين.

(٣٨)

بوهيموند بعد أن جمع جيشا، يهاجم ممتلكات الإمبراطور:

١ ـ في السنة نفسها جمع بوهيموند، بعد أن عاد من بلاد الغال، أكبر عدد ممكن من الرجال وجهز أسطولا في ميناء برنديزي، الواقع في أبوليا. وبعد أن انتظر الوقت المناسب للعبور أبحر إلى بلغاريا هو ورجاله على متن السفن، ورسا في ميناء أفلونا[١].

٢ ـ وإذ استولى على أفلونا بسرعة، سار بجيشه إلى مدينة درازو وفرض عليها الحصار في اليوم الثالث قبل منتصف أكتوبر[٢]. ولكن لأن هذه المدينة كانت تصلها الإمدادات بشكل جيد سواء من الرجال أو من المؤن، صمدت أمام المحاصرين فترة طويلة[٣]. وكان مع السيد بوهيموند خمسة آلاف فارس وستون ألفا من المشاة. ثم إنه أيضا لم يسمح لأي نسوة بالعبور معه حتى لا يكنّ عبئا وعالة على الجيش.

٣ ـ وكان إمبراطور القسطنطينية المدعو أليكسيوس في ذلك الوقت يعارض

---

(١) عاد بوهيموند إلى أبوليا في يناير سنة ١١٠٥م. وبعد أن حصل على موافقة البابا لشن «حملة صليبية» ضد الإمبراطور البيزنطي أليكسيوس كومنينوس الثاني، ذهب إلى فرنسا في رحلة لتجنيد الرجال سنة ١١٠٦م، ثم عاد إلى إيطاليا في أغسطس من نفس السنة وقضى السنة التالية يعد جيشه وأسطوله في برنديزي، ثم أبحر في ٩ من أكتوبر سنة ١١٠٧م كما يقول فوشيه إلى أفلونا في أبيروس.

(٢) ١٣ من أكتوبر سنة ١١٠٧م.

(٣) كان حصار درازو في الفترة من ١٣ من أكتوبر سنة ١١٠٧م حتى سبتمبر سنة ١١٠٨م.

شعبنا معارضة قوية. وسواء بالخديعة أو بالعنف المفتوح كان يضايق الحجاج الذاهبين إلى القدس عن طريق البر أو البحر ويفرض عليهم طغيانه. ولهذا السبب، قام بوهيموند بغزو أملاك أليكسيوس، محاولا أن يستولي على مدنه وغاباته[١].

(٣٩)

السلام بين الإمبراطور وبوهيموند، وإقراره بالأيمان والقسم:

١ ـ في سنة ١١٠٨ بعد تجسد سيدنا المسيح، وبعد أن كان بوهيموند قد فرض الحصار فعلا على درازو لمدة سنة واحدة، لم يفلح في إنجاز أي شيء. وكان قد أعد عدة خطط ضد الإمبراطور، وفعل الإمبراطور نفس الشيء ضده. وأخيرا وبعد أن تمت مناقشة معاهدة بينهما عن طريق الوسطاء، وبعد أن كان الإمبراطور قد اقترب بجيشه من بوهيموند، صارا صديقين بعد عدة اجتماعات ولقاءات.

٢ ـ وأقسم الإمبراطور على أغلى الذخائر المقدسة، ووعد بوهيموند بأن الحجاج الذين ورد ذكرهم كثيرا، سوف يكونون من ذلك اليوم فصاعدا آمنين سالمين سواء في البر أو في البحر على مدى امتداد سلطة الإمبراطور، وأن أحدا منهم لن يمسك أو تسوء معاملته. وأقسم بوهيموند بدوره أن يحافظ على السلام والإخلاص للإمبراطور في كل الأمور.

٣ ـ وبعد ذلك، عاد بوهيموند، عندما سنحت الفرصة، إلى أبوليا يقود الشطر الأصغر من جيشه. ومضى الجزء الأكبر من الجيش صوب القدس عن طريق البحر حيث كان رجاله قد أقسموا على الذهاب إلى هناك.

٤ ـ وفي تلك السنة نفسها مات فيليب ملك فرنسا[٢].

---

(١) ينبغي أن نلاحظ أن فوشيه تقبل مزاعم بوهيموند عن أن أليكسيوس خان رجال الحملة الصليبية، وحملة سنة ١١٠١م، ومن ثم فهو يدافع عن موقف بوهيموند.

(٢) مات فيليب الأول في ٢٩ من يوليو سنة ١١٠٨م.

(٤٠)

حصار مدينة طرابلس:

١ ـ في سنة ١١٠٩، وبعد إحدى عشرة سنة من الاستيلاء على بيت المقدس[١]، جاء برتراند بن ريمون إلى طرابلس ومعه الجنوية بأسطولهم المكون من حوالي سبعين سفينة [٢]. وكان قصد برتراند أن يحاصر المدينة ويمتلكها بحق الوراثة عن أبيه.

٢ ـ وبمجرد أن أحاطوا بها وحاصروها، نشب نزاع بين برتراند ووليم جوردان، قريبه، الذي كان يحاصر المدينة من جميع الجهات طوال الوقت، والذي كان يعيش في غابة قرب طرابلس اسمها جبل الحجاج منذ موت الكونت ريمون.

٣ ـ قال برتراند: «يجب أن تكون المدينة لي بحق الإرث لأن أبي، الذي بدأ يهاجم المدينة في الأصل، قد بنى هذه القلعة القوية المسماة جبل الحجاج لكي يحاصر المدينة. وعندما كان ما يزال على قيد الحياة منحني طرابلس لكي أتولاها بعد مماته».

٤ ـ من ناحية أخرى، قال وليم: «ولكنها يجب أن تكون لي أنا عن حق لأنني منذ موت الكونت ريمون توليت مراقبة السكان المعادين بصرامة بقوتي الخاصة، وقد ناضلت وعملت على ضم الأرض المجاورة للمدينة».

٥ ـ غير أن العظمة تعاني في ظل الفوضى وتزدهر التفاهة[٣]. إذ إن الكراهية دفعت وليم إلى الانسحاب من الحصار. ومع هذا استمر برتراند يحاصر المدينة بقوة. ولم يكن يريد لوليم النجاح، أما وليم فلم يكن يريد له الحياة.

---

(١) يرى فوشيه أن سنة ١٠٩٩ هي السنة الأولى.

(٢) يذكر ألبرت الأيكسي (RHC, Occ., IV, XI, iii) أن برتراند رحل عن فرنسا ومعه أربعة آلاف رجل وأربعون سفينة وأبحر إلى بيزا حيث انضم إليه الجنوية بنحو ثمانين سفينة. أما كافارو فيذكر (RHC, Occ., V, 72) أنه ذهب إلى جنوا حيث انضم إليه الجنوية بحوالي ستين سفينة. ويذكر ابن القلانسي أن برتراند وصل طرابلس بستين سفينة محملة بالفرنج والجنوية.

(٣) اقتبس فوشيه هذه الصياغة من كتاب «حرب يوجورتا» للمؤرخ الروماني الشهير سالست Sallust، وربما يكون الشخص الذي أعاد صياغة ما كتبه فوشيه هو الذي اقتبس من سالست. وعلى أي حال، فإن مؤرخي أوربا في العصور الوسطى كانوا مغرمين بتقليد سالست. (المترجم)

لقد ناضلوا في سبيل ما هو غير مؤكد، ولم يكونوا واثقين مما هو مؤكد [1].

لقد كانوا يناضلون في سبيل المزايا والمكاسب المؤقتة، وليس من أجل القيم الخالدة. لقد كانوا يجرون مثل من يلهث فلا يمسك شيئا؛ ولذلك تبقى الجائزة محل شك: «فإذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى بل الله الذي يرحم»[2]. إذ إنهم لم يكونوا قد استولوا بعد على المدينة، ولكنهم تنازعوا بالفعل حول ما كانوا يأملون في أن يستولوا عليها. ذلك أن «الرب يعرف أفكار الإنسان أنها باطلة»[3].

(٤١)

كيف تم الاستيلاء على مدينة طرابلس:

١ ـ وبعد ذلك مباشرة، وصل الملك بلدوين إلى مكان الحصار. وبعث إلى الجنوية يرجو منهم مساعدته للاستيلاء على عسقلان وبيروت وصيدا خلال ذلك العام[4].

٢ ـ وحدث عندما كان بلدوين يسعى لإقرار السلم بين الأميرين السابق ذكرهما أن سقط وليم جوردان قتيلا في حادث سيئ لا أفهمه. فقد رمي بسهم من كمين عندما كان يمتطي فرسه ذات ليلة. وتساءل الجميع عن الجاني، ولكنهم لم يتمكنوا من معرفته. وقد حزن البعض؛ وفرح البعض الآخر. ونعى البعض صديقا فقدوه؛ على حين كان آخرون سعداء بموت عدو. وبقي برتراند تابعا مخلصا للملك بلدوين[5].

---

(١) هذا التلاعب بالألفاظ من سمات فوشيه دي شارتر.

(٢) رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ٩: ١٦. (المترجم)

(٣) المزامير ٩٤: ١١.

(٤) كان بلدوين بحاجة إلى موانئ ومنافذ لضمان وصول الإمدادات للكيان الصليبي عن طريق البحر المتوسط. ولم يكن أمامه سوى الاستعانة بأساطيل الجمهوريات التجارية الإيطالية في مقابل تسهيلات وإعفاءات تجارية تمثلت في حصولهم على أحياء تجارية شبه مستقلة في الموانئ التي استولى عليها الصليبيون بمساعدتهم. (المترجم)

(٥) يتجاهل فوشيه المفاوضات التي تمت بين الملك بلدوين، والكونت بلدوين أمير الرها وبرتراند من ناحية، وتنكرد ووليم جوردان من ناحية أخرى حول مصير طرابلس.

٣ ـ ثم فُرض على المدينة حصار من جميع الجهات. وكان أولئك الذين في خارجها يعملون بجد؛ على حين كان من بداخلها يضغطون بشدة. ولكن عندما اشتد القتال على المسلمين وضاع أملهم في الهرب، تم الاتفاق وأقسم الجميع عليه وأكده الملك. وكانت شروطه أن يؤمَّن المسلمون ولا يقتلوا ويذهبوا حيث شاءوا دون منعهم. وبفضل هذه الاتفاقية سمح للملك ورجاله أن يدخلوا المدينة فى أحد أحيائها.

٤ ـ ولكن بينما كان هذا يحدث دقت الطبول فجأة لسبب ما بين عامة الجنوية. وتسلقوا أسوار المدينة بالحبال والسلالم. وفي الحال قتلوا كل من وجدوه من المسلمين. وعلى كل حال، فإن أولئك الذين كانوا قريبين من الملك تمت حمايتهم بمقتضى الاتفاق الذي عقده معهم من قبل[١].

٥ ـ كان ذلك في اليوم السادس والعشرين من يونيو عندما استولت قواتنا المحاربة على مدينة طرابلس[٢].

(٤٢)

كيف تم أخذ مدينة بيروت:

١ ـ في سنة ١١١٠، عندما انتهى شهر فبراير بهطول أمطار الشتاء على البلاد، انطلق الملك بلدوين قاصدا مدينة بيروت وفرض عليها الحصار. وجاء لمساعدته برتراند كونت طرابلس. وقد عسكر جيش برتراند عند أول تل صخري قرب المدينة.

٢ ـ وبعد أن ضغطوا على المدينة من جميع الجهات على مدى خمسة وسبعين يوما، حسب تقديري. وبعد أن قامت سفننا[٣] بسد الميناء أمام السفن التي كانت

---

(١) كان بلدوين، ولأسباب اقتصادية، يريد ميناء بحريا مهما بشرط المحافظة على سكانه من التجار، ولكن عامة الجنوية بادروا إلى ممارسة أعمال السلب والنهب. ويقدم لنا المؤرخ ابن القلانسي في كتابه «ذيل تاريخ دمشق» تقريرا عن نهب المدينة، ويقول إن حاكم المدينة، وجزءا من قواته قد نالوا الأمان مقابل تسليم المدينة.

(٢) التاريخ الذي يضعه المؤرخ ابن القلانسي ١٢ من يوليو سنة ١١٠٩م.

(٣) ربما يشير فوشيه بكلمة «سفننا» إلى الأسطول الجنوي الذي ساعد من قبل في الاستيلاء على طرابلس. ويشير ابن القلانسي إلى أن الجنوية قدموا أربعين سفينة وعلى ظهورها المقاتلون.

راسية فيه لمنعها من مساعدة العدو[1]، حرك الفرنج الأبراج الخشبية حتى السور، وبشجاعة فائقة قفزوا منها إلى السور وسيوفهم مسلولة. ومن هناك نزلوا إلى داخل المدينة على حين كان الكثيرون من رجالنا الآخرين يدخلونها من البوابات. وفي نشاط أخذوا يطاردون العدو، وسرعان ما استأصلوا شأفة أولئك الذين عجزوا عن الهرب واستولوا على كل أموالهم.

٣ ـ في سنة ألف ومائة وعشرة
استولى شجعاننا على مدينة بيروت العظيمة.
في اليوم الثالث عشر من شهر مايو
وقع هذا الحادث.

(٤٣)

كيف انطلق الملك بلدوين والأمير تنكرد ضد الأتراك الذين حاصروا الرها:

١ ـ عندما تم عمل هذه الأشياء عاد الملك إلى بيت المقدس لكي يسدى الشكر للرب الذي انتصر بفضله. ثم أعد نفسه للتوجه ضد الأتراك الذين كانوا يفرضون الحصار على الرها، وهي مدينة في بلاد النهرين[2].

٢ ـ وفي ذلك الوقت رأينا على مدى عدة ليال شهابا تمتد أشعته باتجاه الجنوب.

٣ ـ وفي ذلك الحين، جمع تنكرد أكبر عدد ممكن من رجاله في أنطاكية وقبع في انتظار الملك على مدى عدة أيام. وجمعا قواتهما سويا أمام نهر الفرات.

٤ ـ وبعد عبورهم مباشرة، اشتبكوا في مواجهة مع الأتراك الذين كانوا يسعون

---

(١) يشير ابن القلانسي إلى أن تسع عشرة سفينة مصرية شقت طريقها بالقوة إلى داخل الميناء. كما يشير وليم الصوري إلى أن السفن من صور وصيدا كانت داخل الميناء بالفعل.

(٢) رواية فوشيه هنا مخيبة للآمال؛ فهو يتحدث بشكل غامض عن هجوم تركي على الرها. والواقع أن هذا الهجوم كان ضمن سلسلة من الهجمات القوية تحت راية الجهاد التي رفعها أتابك الموصل «شرف الدين مودود» بالتحالف مع أتابك دمشق طغتكين. ويحكي كل من متى الرهاوي (RHC, arm., 1,91^94) وألبرت الآيكسي (XI, XVI^ XXV) أن الكونت بلدوين أمير الرها طلب مساعدة الملك بلدوين عندما كان الأخير على حصار بيروت.

إليهم. وكان الأتراك يجوبون البلاد في جماعات ينتظرون وصول الملك. ولأنهم كانوا يعرفون أن فرساننا محاربون أشداء يتفوقون في القتال بالحربة، فإن الأتراك لم يجرءوا على الدخول في المعركة. وهربوا بفضل مهارتهم في القتال، ولم يجرءوا على مواصلة القتال أو التقهقر داخل أراضيهم.

٥ ـ وإذ لم تكن لدى الأتراك رغبة في القتال، فإنهم حاولوا على مدى أيام كثيرة أن يرهقوا رجالنا بمكرهم السيئ. ثم إن الملك تدبر الأمر واضعا في حسبانه ما هو ضروري وأفضل ما يمكن عمله، فأمد مدينة الرها بالطعام الذي كان السكان يحتاجون إليه كثيرا. وكان السبب في هذا أن الأتراك قد نهبوا المناطق الريفية المحيطة واستولوا على القرى والفلاحين الذين كانوا يمدون المدينة المذكورة بالطعام.

٦ ـ ولم يتأخر الفرنج أكثر من ذلك، ولكنهم عادوا إلى النهر الذي ذكرناه. وبعد أن عبر الفرنج على مهل بواسطة عدد قليل من الطوافات الصغيرة، هاجمهم الأتراك فجأة في ذلك المكان. وقبضوا على كثيرين من رجالنا المشاة، وأخذوهم إلى بلاد فارس، خصوصا الأرمن المستضعفين الذين كانوا قد نهبوا بلادهم بالفعل[١].

٧ ـ ولأنه كان من الصعب عبور النهر في ذلك الوقت، واصل الفرنج السير في طريقهم المرسوم وقد انتابهم حزن شديد، وتوجه تنكرد إلى أنطاكية على حين توجه الملك إلى القدس.

(٤٤)

كيف تم حصار صيدا، وكيف استولى عليها الملك بلدوين والنرويجيون:

١ ـ في الوقت نفسه أرسى في ميناء يافا عدد من النرويجيين الذين ألهمهم الرب أن يقوموا برحلة الحج من البحر الغربي إلى بيت المقدس. وكان أسطولهم من

---

(١) هنا يكشف فوشيه عن تكتيك الأتراك السلاجقة بالتظاهر بالانسحاب، ثم القيام بهجوم مضاد. وتوافق المصادر الأخرى على أن الأتراك انسحبوا إلى حران، وتوافق أيضا على أن مؤخرة جيش الفرنج التي كانت تتألف غالبيتها من الأرمن وقعت ضحية مذبحة جرت على الضفة الشرقية لنهر الفرات بعد انقضاض الأتراك المسلمين عليها.

خمس وخمسين سفينة[1]. وكان قائدهم شابا وسيما للغاية، وهو من أقارب ملك تلك البلاد[2].

٢ ـ وعندما عاد الملك بلدوين إلى بيت المقدس امتلأ فرحا بوصول هؤلاء القوم. وقد تعامل معهم بطريقة ودية، وهو يحثهم بل ويرجوهم على البقاء، حبا في الرب، في الأرض المقدسة ولو لوقت قصير للمساعدة في توسيع النفوذ المسيحي وتمجيد اسم الرب. فإذا ما أنجزوا شيئا من أجل المسيح، أمكنهم العودة لبلادهم وهم يسبحون بحمد الرب وشكره.

٣ ـ وقد تلقوا الطلب بترحاب، وأجابوا بأنهم لم يحضروا إلى بيت المقدس إلا لهذا الغرض. وقالوا إنه حيثما رغب الملك في الذهاب بجيشه، فإنه يسرهم أن يذهبوا معه في الوقت نفسه عن طريق البحر، بشرط أن يمدهم بما يحتاجون إليه من مؤن. وقد تم الاتفاق على هذا بين الجانبين.

٤ ـ وكان المفروض أولا أن يسيروا ضد عسقلان، ولكنهم في النهاية وافقوا على مشروع أكثر مجدا، وهو حصار صيدا. وحرك الملك جيشه من عكا على حين سار النرويجيون من يافا.

٥ ـ وفي ذلك الوقت كان أسطول أمير مصر يكمن مختبئا في ميناء صور. ومن هناك كان المسلمون يشنون الغارات على حجاجنا المسيحيين وبذلك يوفرون الحماية والمؤازرة للمدن البحرية التي كانت تابعة لملك مصر حتى ذلك الحين. ولكن عندما سمع المسلمون أخبار وصول النرويجيين لم يجرءوا على الخروج من ميناء صور والاشتباك معهم.

٦ ـ وعندما وصل الملك إلى صيدا حاصرها عن طريق البر وحاصرها

---

(١) يقول ابن القلانسي وابن الأثير إن عدد سفن الأسطول كان ستين سفينة.

(٢) كان ذلك الشاب هو Sigurd Jorsalafarer وكان في التاسعة عشرة من عمره. ومعنى اسمه «سيجورد الصليبي»، وكان ملكا على النرويج بالمشاركة مع أخيه Magnus Barefoot سنة ١١٠٣م. وفي أثناء هجوم شنه على شاطئ أيرلندا، بدأ ولداه سيجورد وإيستين الاستعداد للقيام بحملة صليبية. وعندما تم الاستعداد سنة ١١٠٧م تم اختيار سيجورد لقيادة الحملة. وقضى هو ورجاله الشتاء في إنجلترا ضيوفا على الملك هنري الأول. وبعد أن شارك في الحملة ضد صيدا عاد إلى بلاده سنة ١١١١م.

النرويجيون عن طريق البحر. وعندما تم بناء آلات الحصار، انتاب العدو داخل أسوار المدينة خوف شديد لدرجة أن الحامية توسلت إلى الملك أن يسمح لهم بالخروج سالمين وإذا شاء فإنه يمكن أن يحتجز الفلاحين بالمدينة لكي يفيد منهم في زراعة الأراض.

٧ ـ هذا ما أرادوه؛ وهذا ما حصلوا عليه. وغادر الجنود المرتزقة دون أن ينالوا أجورهم. وبقى العامة آمنين في ظل الشروط المذكورة.

كانت الشمس قد رأت القوس تسع عشرة مرة.
عندما استولوا على مدينة صيدا في ديسمبر[١].

(٤٥)

الاضطرابات الشريرة جدا من جانب الأتراك وحملة الملك بلدوين وتنكرد ضدهم:

١ ـ في سنة ١١١١ خرجت جموع غفيرة من الأتراك من فارس، وعبروا بلاد ما بين النهرين، ثم عبروا نهر الفرات، ثم حاصروا قلعة تسمى توربزل Turbezel (هي قلعة تل باشر) وتأخروا هناك شهرا.

٢ ـ وعندما لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، بسبب موقعها الحصين، ضايقهم التأخير فتخلوا عن الحصار، وانسحبوا إلى داخل الأراضي الخاضعة لمدينة حلب. وكان ذلك لأنهم قد خططوا بمهارة وخبث لاستفزاز تنكرد لكي يخرج لمحاربتهم، ثم ينقضوا عليه ويدمروه بعيدا عن أنطاكية[٢].

---

(١) ألبرت الأيكسي يوضح أن الحصار بدأ في سبتمبر واستمر ستة أسابيع. أما ابن القلانسي فيقول إنه بدأ يوم ١٩ من أكتوبر واستمر سبعة وأربعين يوما لينتهي يوم ٤ من ديسمبر سنة ١١١٠م. وتوضح رواية فوشيه رغبة بلدوين في مواجهة أزمة الفراغ السكاني عندما وافق على أن يأخذ المدينة بسكانها بدلا من نهبها وتفريغها من السكان.

(٢) كان تنكرد حاكم أنطاكية يهدد شيزر على نهر العاصي على بعد حوالي ٧٥ ميلا جنوب شرقي حلب. وكانت خطة مودود أن ينضم إلى رضوان حاكم حلب ضد تنكرد. ولكن شكوك رضوان تجاه الأتراك الآخرين جعلته يوصد أبواب حلب في وجههم. ولم يشأ حلفاء مودود أن يتوغلوا أكثر من حلب، أما طغتكين حاكم دمشق فهو الذي انضم لمودود.

٣ ـ ولكن تنكرد قابل المكر بالمكر، لأنه لم يكن يريد أن يضيع سمعته بالتهور الأحمق. وأرسل رسله إلى الملك بلدوين سائلا إياه أن يسرع لنجدة المسيحيين. وعندما سمع الملك بهذا وعد أن يقدم مساعدته التي طلبها. وأوكل أموره إلى من ينوب عنه وأسرع للحرب، وأخذ معه برتراند كونت طرابلس.

٤ ـ وعندما وصلوا مدينة الروج، بالقرب من روصا، كان تنكرد هناك. فقد كان ينتظر وصول الملك على مدى خمسة أيام واستقبله بفرح شديد. وأنزلوا خيامهم ونصبوها قرب النهر، واقتسم أهل أنطاكية المعسكر مع أهل القدس.

٥ ـ ولم يتأخروا هناك بل واصلوا السير إلى مدينة أفامية. وكانت تحت سلطة تنكرد الذي كان قد استولى عليها من قبل بطريقة غاية في البسالة[١].

٦ ـ ثم ساروا ضد الأتراك الذين كانوا يعسكرون تجاه المدينة التي يسمونها «سيسارا Sisara». ولست أعرف التسمية الصحيحة للمدينة، ولكن سكان الريف عامة يسمونها شيزر. وهي على مسافة ستة أميال من أفامية[٢].

٧ ـ ومع هذا، فإن الأتراك عندما عرفوا أن الفرنج يسيرون ضدهم، اختبئوا في ضواحي وتحصينات المدينة المذكورة. وكان هذا لكي يدافعوا عن أنفسهم بطريقة أكثر أمنا حتى لا يفاجئهم هجوم الفرنج. ومع ذلك فإنهم عندما رأوا جنودنا وهم يقتربون منهم، خرجوا من التحصينات المذكورة وأظهروا أنفسهم لرجالنا. بيد أنهم تذرعوا بالحذر، ولم يجرءوا على التقدم كما أنهم لم يرغبوا في الهرب.

٨ ـ أما جنودنا، الذين كانوا يسيرون في جماعات، فإنهم عندما شاهدوا العدو يجري هنا وهناك عبر أنحاء البلاد ولا يستعد للقتال، أحجموا عن مهاجمتهم، ولم يرغبوا في المخاطرة. كذلك فإن الأتراك الذين مسهم الخوف والحذر البادي من كلا الجانبين، بقوا هناك. وعاد رجالنا من حيث جاءوا.

(١) تم الاستيلاء عليها في ١٤ من سبتمبر سنة ١١٠٦م وفقا لرواية كمال الدين بن العديم في كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب».

(٢) كانت شيزر في ذلك الحين قلعة لسلطان بني منقذ عم الكاتب والشاعر والفارس الشهير «أسامة بن منقذ» صاحب «كتاب الاعتبار» الذي يُعَدُّ من أهم مصادر تاريخ تلك الفترة. (المترجم)

٩ ـ وبسبب نقص طعام الرجال وعلف الحيوان، لم يستطع الفرنج البقاء هناك أكثر من ذلك. وعاد الملك إلى بيت المقدس وكنت معه. وعاد تنكرد إلى أنطاكية.

(٤٦)

الملك يحاصر صور، ولكنه لا ينجز شيئا:

١ ـ وبعد ذلك مباشرة، أسرع بتجهيز استعداداته وتقدَّم ضد صور وفرض الحصار عليها. وبعد أن ضايقها كثيرا على مدى أربعة شهور وأكثر، نال الإرهاق منه ومن جنوده بسبب القلق وكثرة العمل، فانسحب من هناك لا يلوي على شيء[١].

٢ ـ وكان قد أمر ببناء برجين خشبيين أعلى من سور المدينة وحركهما نحو السور، وفي ظنه أنه يمكن أن يستولى على المدينة بهذه الطريقة. ولكن المسلمين، الذين شعروا بخطورة ذلك عليهم، هزموا المهارة بالمهارة، وجابهوا المكر بالمكر، وقابلوا الشجاعة بالشجاعة.

٣ ـ فعندما رأوا أن ارتفاع برجينا يفوق ارتفاع سور مدينتهم توصلوا بسرعة إلى حل للمشكلة. فقد بنوا برجين فوق أسوارهم في أثناء الليل. وكان هذان البرجان مرتفعين بحيث تمكن المسلمون من الدفاع عن أنفسهم بشكل جيد تماما من أعلى عندما أشعلوا النيران في برجينا وأحرقوهما. وهزم جنودنا بسبب هذا، وأسلموا أنفسهم لليأس. وعندما انقطع آخر خيط للأمل عاد الملك إلى عكا.

٤ ـ وهذا المثل الذي يقال في وطننا حقيقي تماما: «هناك مزالق كثيرة بين الكأس والشفة». إذ كان رجالنا يوزعون بالفعل الغنائم والأسلاب التي توقعوا الحصول عليها؛ بل إن البعض شك في الآخرين فعلا بسبب نصيبهم الكبير، بل إنهم كانوا واثقين من اليوم الذي سوف يستولون فيه على المدينة: «الفرس معد ليوم الحرب، أما النصرة فمن الرب»[٢]. وفي الوقت نفسه، كان الرجال يثقون في قوتهم ولا

---

(١) بدأ الحصار في ٢٩ من نوفمبر سنة ١١١١م وانتهى في ١٠ من إبريل سنة ١١١٢م.
(٢) سفر الأمثال ٢١ : ٣١.

يلتفتون إلى مايدينون به للرب. فقد كانوا يبجلونه غالبا بشفاههم فقط، ولكنهم يهملون الأعمال الطيبة. وقد أرجعوا نجاحهم إلى فضائلهم بدلا من أن يمجدوا الرب الذي منحهم إياها برحمته.

(٤٧)

موت الأمير تنكرد:

١ ـ في سنة ١١١٢، مات تنكرد الذي كان يحكم إمارة أنطاكية.

والآن رأت الشمس علامة القوس ستا وعشرين مرة عندما
أسلم تنكرد الروح وصار إلى ماكان مقدرا له[١].
وخلفه قريبه روجر. وفي تلك السنة لم تكن هناك حروب.

(٤٨)

العلامات التي ظهرت:

١ ـ في سنة ١١١٣ من تجسد سيدنا، في شهر مارس، وفي اليوم الثامن والعشرين من ظهور القمر[٢] رأينا الشمس من الصباح الباكر حتى الساعة الأولى. وأكثر من ذلك، رأينا كسوفها الجزئي. والجزء الذي بدأ الكسوف أولا في القمة ثم وصل إلى قرص الشمس كله. ومع ذلك، فإن الشمس لم تفقد بريقها الذي لم يخفت إلا في ربع قرصها على ما أظن. وكان هذا الجزء على شكل هلال صغير.

وكان هذا كسوفا، سبب أن تخذلنا الشمس على هذا النحو.

---

(١) كان تنكرد وصيا على أنطاكية منذ عام ١١٠٤م عند أسر بوهيموند الأول الذي كان في ٧ من مارس سنة ١١١١ ثم حكم نيابة عن ابنه بوهيموند الثاني حتى وفاته هو في يوم من ١٢ ديسمبر عام ١١١٢م.

(٢) ١٩ من مارس من ١١١٣م.

(٤٩)

المعركة التي جرت ضد الأتراك، والتي هزم فيها الملك والمسيحيون، والتي نتج عنها شر كثير:

١ ـ ثم حدث في وقت الصيف أن جمع الأتراك قواتهم وعبروا نهر الفرات بقصد التوجه إلى بيت المقدس، ويدمروننا نحن المسيحيين حسب ظنهم (١). وقد تركوا أراضي أنطاكية التي كانت على يمينهم، وعبروا سوريا بالقرب من أفامية، وتركوا دمشق عن شمالهم، وعبروا فيما بين صور وقيصرية فيليبي التي تسمى بانياس في إقليم فينيقيا. وكان قصدهم أن يهاجموا الملك بلدوين. ولكنه سمع عن تقدمهم وحرك جيشه خارج عكا لملاقاتهم.

٢ ـ وبعد أن تزودوا بما قد يحتاجون إليه وبينما نحن غافلون عن قصدهم، أحاطوا ببحر الجليل عبر أراضي الطرف الجنوبي من البحر المذكور(٢)، وهناك تمركزوا بين المجاري المائية لنهر الأردن(٣).

٣ ـ وثمة جزيرة بين جسرين في هذه المنطقة. وكانت آمنة جدا بحيث إن أي أحد يتخذ موقعه هناك لا يمكن مهاجمته بفضل المداخل الضيقة المؤدية إلى الجسور. وعندما أقام الأتراك خيامهم، بادروا بإرسال ألفين من رجالهم عبر أحد الجسور لكي يعدوا كمينا لرجالنا. وكانوا واثقين بأن رجالنا سوف يندفعون حتى هذه المنطقة دون تأخير.

---

(١) حدث هذا قرب نهاية شهر ذي القعدة من سنة ٥٠٦ هجرية (١٨ من مايو سنة ١١١٣م) وفقا لرواية ابن الأثير (الكامل في التاريخ، حوادث سنة ٥٠٦هـ). وفي هذا الفصل يقدم فوشيه الرواية اللاتينية الأساسية عن الغزو التركي الذي قاده مودود أتابك الموصل وطغتكين حاكم دمشق، وقد كاد هذا الهجوم أن يقضي على مملكة بيت المقدس تقريبا. وكان فوشيه نفسه في بيت المقدس أو قريبا منها، ولم يكن مع الملك بلدوين. كما أن ابن القلانسي يورد رواية كاملة عن هذا الهجوم (ذيل تاريخ دمشق حوادث سنة ٥٠٦هـ).

(٢) يقصد فوشيه أن الأتراك السلاجقة قد اقتربوا من الناحية الغربية من بحيرة طبرية.

(٣) هنا اختلط الأمر على فوشيه، فقال إن المسلمين تمركزوا بين نهرين هما: جور ودان (وهما المقطعان اللذان يتركب منهما اسم نهر الأردن Jordan) وقد تخيل وجودهما جنوبي بحيرة طبرية.

٤ ـ وهكذا عندما جاء الملك لكي يعسكر بالقرب من الجسر الذي ذكرناه، وهو الذي يؤدي إلى طبرية، رأى حوالي خمسمائة من الأتراك يندفعون خارجين من مكامنهم لمهاجمة رجالنا. وحمل بعض رجالنا على الأتراك مندفعين في قتالهم ولم يترددوا في مطاردة العدو حتى موضع الكمين. وهنا خرج ألفان من جنود العدو من مكامنهم، وردوا رجالنا في هجوم عنيف وبعثروهم وقتلوا منهم ثلاثة أضعاف ما فقدناه.

٥ ـ يا له من حزن عميق! ففي ذلك اليوم جلبت علينا خطايانا الكبيرة عارا عظيما. فقد هرب الملك وفقد رايته وخيمته الجميلة وكثيراً من الأثاث والأواني الفضية. كما أن البطريرك الذي كان موجودا هرب هو الآخر. وقد خسرنا حوالي ثلاثين من خيرة فرساننا وحوالي ألف ومائتين من المشاة.

٦ ـ كان فوبيوس قد تجلى في برج السرطان اثنتي عشرة مرة عندما قام هذا الجنس الكافر بتمزيق الفرنج الغافلين(١).

٧ ـ بيد أن كل قوات الملك لم تكن قد تجمعت بعد هناك. وخصوصا روجر، أمير أنطاكية، وابن ريتشارد لم يكن موجودا. فقد دعي باسم الرب وحبا فيه وفي الملك وكان في طريقه من أنطاكية يسير مسرعا. وكان عدد من رجال طرابلس قد انضموا بالفعل إلى الجيش الملكي. وكانوا جميعا قد أضيروا إلى حد بعيد. وقد أدانوا عدم فطنة الملك واندفاعه ضد العدو بطريقة عشوائية متهورة دون انتظار لمساعدتهم أو مشورتهم(٢).

٨ ـ ولأن رجالنا في ذلك الوقت كانوا عاجزين عن إلحاق أي ضرر بالأتراك، فإنهم أقاموا معسكرهم غير بعيد عن الأتراك. وهكذا كان كل فريق قادرا على مراقبة الآخر طوال اليوم.

٩ ـ وكان قائد قوات العدو يسمى ماليدوكتوس Maledoctus . وكان قد انضم

---

(١) هذه هي طريقة فوشيه المفضلة في كتابة التواريخ، وهو هنا يقصد ٢٨ من يونيو سنة ١١١٣م، ويوافقه ابن القلانسي على هذا التاريخ (في أوائل سنة ٦٠٦هـ) ولكنه يقول إن خسائر الفرنج بلغت ألفي رجل.

(٢) هذه إشارة إلى رفاق بلدوين من الشباب مثل روجر حاكم أنطاكية، وبونس كونت طرابلس.

إلى Tuldequinus ملك دمشق[1] في تحالف عسكري. وكانت لدى الأول قوات ضخمة؛ على حين جمع الثاني قوات هائلة من الأقاليم الخاضعة له في بلاد الشام.

١٠ ـ وكان الأتراك في الأرض المنخفضة؛ على حين تمركز الفرنج في منطقة مرتفعة[2]. ولم يجرؤ الأتراك على الخروج من جزيرتهم؛ كما لم يكن بوسع الفرنج أن يهاجموهم. فقد كان أحد الجانبين يخطط والآخر خائفا؛ كان أحد الجانبين ماكرا والجانب الآخر قلقا.

وضغطت حرارة الصيف عليهما سويا

ولكنهما كانا غير قادرين على إنهاء مثل هذه المعاناة

١١ ـ وكان الفرنج الغائبون عن ميدان المعركة يتساءلون متعجبين عن سبب تأخر من كانوا في الميدان إلى هذا الحد. وهجرنا المسلمون الخاضعون لنا، وبصفتهم أعداءنا فقد أحاطوا بنا من كل جانب ليوقعوا بنا. كما أن الأتراك كانوا يخرجون من جيشهم في جماعات لتخريب أراضينا ونهبها ويرسلون الغنائم والأسلاب إلى جيشهم بواسطة المسلمين. وقد استولوا على مدينة شكيم التي نسميها نابلس ودمروها بمساعدة المسلمين الذين كنا نحكمهم في الجبال[3].

١٢ ـ والواقع أن أهل عسقلان، الذين كانوا من المسلمين والعرب، على الرغم من قلة عددهم، تقدموا ضد القدس. وفي أحد الأيام وصلوا إلى الأسوار الخارجية للمدينة وأشعلوا النيران في المحصولات التي كان قد تم تجميعها هناك. وقد جرحوا بسهامهم بعض رجالنا في الشرفات على الأسوار؛ ومع ذلك فإن كثيرين من رجالهم نالتهم جروح قاتلة. ولم يكن جنودنا في المدينة، لأنهم كانوا قد خرجوا

---

(١) يقصد مودود أتابك الموصل، وطغتكين أمير دمشق.

(٢) كان جيش الصليبيين يعسكر على تل غرب مدينة طبرية حسب رواية ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق، حوادث سنة ٦٠٦ هـ).

(٣) هذه الفقرة تحمل كثيرا من المعلومات المفيدة، لأنها توضح كيف أن الفرنج كانوا على وشك الدمار الشامل. فالمسلمون الذين يتحدث عنهم فوشيه هم الفلاحون المحليون في ضياع الصليبيين، ولم يتخلوا أبدا عن كراهيتهم للصليبيين. ويذكر ابن القلانسي أن غارات السلاجقة وصلت إلى ضواحي القدس ويافا. ولكنهم رحلوا في ١٦ من أغسطس من تلك السنة.

لملاقاة العدو. وفي الليلة التالية تقهقر رجال عسقلان مما سبب راحة كبيرة لرجالنا الذين كان يرعبهم أن يقوم العدو بفرض حصاره على المدينة.

(٥٠)

الخوف الكبير الذي سيطر على الجميع:

١ ـ في ذلك الوقت كاد أن يكون مستحيلا، بسبب هجمات العدو، أن يغامر أي رسول يرسله أي منا بالخروج إلى الملك أو أن يأتي رسول منه إلى أي مدينة من مدننا. ولذا لم يكن معروفا في المدن ما كان الملك يفعله، كما أنه لم يكن بوسع سكانها أن يخبروه بما يفعلونه.

الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون[١].

لأن أحدا لم يكن يجرؤ على فعل ذلك. ففي ذلك العام كان المحصول وفيرا، ولكن حين يكون البحر هائجا يخاف الناس من صيد السمك. فقد كان كل شيء محل شك بالنسبة لكل الناس، وانتظر الجميع ليروا من الذي سوف يعطيه الرب النصر. فقد أوقف المسيحيون أعمالهم باستثناء إصلاح ما فسد في المدن وأسوارها.

(٥١)

الزلزال، وزواج الملك من كونتيسة صقلية:

١ ـ في الوقت نفسه شعرنا مرتين بالزلزال يهزنا في اليوم الخامس عشر قبل شهر أغسطس مرة، ومرة أخرى في اليوم الخامس قبل الثالث عشر من الشهر نفسه. كانت المرة الأولى في منتصف الشهر، أما المرة الثانية فكانت في الساعة الثالثة[٢].

٢ ـ وفي الوقت ذاته انتظر الأتراك الماكرون شهرين حتى تسنح لهم الفرصة لكي يبعثرونا أو يهزمونا، ولكن كان انتظارهم عبثا لأنه في ذلك الوقت كان الحجاج من بلاد ما وراء البحار يصلون كما كانت عادتهم، وكان جيشنا يكبر وينمو يوما بعد

---

(١) إنجيل متى ٩ : ٧.

(٢) يقصد يوم ١٨ من يوليو ويوم ٩ من أغسطس سنة ١١١٣م.

يوم. وبالإضافة إلى ذلك لم يتخل عنا رجال أنطاكية. وأخيرا انسحب الأتراك إلى داخل المناطق الخاضعة لدمشق.

٣ ـ وحينئذ عاد الملك بلدوين برجاله إلى عكا حيث وجد كونتيسة صقلية. وكانت من قبل زوجة الكونت روجر، شقيق روبرت جويسكارد، ولكنها الآن زوجة للملك بلدوين[١].

٤ ـ وبعد هذه الحادثة مباشرة قتل مودود في دمشق على يد أحد المسلمين[٢]. وكان قاتله يخفي خنجرا تحت ملابسه ثم غرسه في بطن ضحيته حتى معدته، وهناك ارتكبت جريتان فقد ارتكب القاتل جريمته ثم قتل في الحال بأيدي الحاضرين. إنه لنصر سيء الطالع الذي ينتهي بهزيمة المنتصر. وهكذا يصدق عليه قول الفيلسوف:

الحظ من زجاج؛ ينكسر في عز لمعانه

٥ ـ كان مودود واسع الثراء عظيم السلطان ذائع الصيت بين الأتراك. وكان فطنا تماما في أفعاله لكنه لم يكن قادرا على مقاومة إرادة الرب[٣]. فقد سمح له الرب أن يهزمنا لفترة من الوقت، ولكنه بعد ذلك شاء له الموت ميتة مهينة وعلى يد رجل مغمور.

(٥٢)

الزلزال الذي شعر الناس به في أماكن كثيرة:

١ ـ في سنة ١١١٤م انطلق سرب ضخم من الجراد من مكان ما في شبه جزيرة العرب وطار إلى داخل أراضي القدس. وفي غضون أيام قليلة، خلال شهري إبريل ومايو، كان الجراد قد دمر المحصولات تدميرا شاملا.

---

(١) الكونتيسة أديلاد Adelaide أرملة روجر الأول أمير صقلية الذي مات سنة ١١١٣م. وتزوجها بلدوين من أجل أموالها، ولأنه كان يريد المساندة البحرية والدبلوماسية من ابنها روجر الثاني. انظر:
Ranciman, A History of the Crusades, II, PP. 102^ 103.

(٢) تم اغتيال مودود في الجامع الكبير بدمشق في ٢ من أكتوبر سنة ١١١٣م على ما يقول ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق، حوادث سنة ٥٠٦، ٥٠٧ هـ).

(٣) لم يستطع فوشيه أن يمنع نفسه من الإعجاب بهذا الخصم القدير.

٢ ـ وفيما بعد، في عيد سان لورنس (١٠ من أغسطس سنة ١١١٤م) حدث زلزال. ثم حدث بعد ذلك أيضا في الثالث عشر من نوفمبر أن وقع زلزال دمر جزءاً من مدينة المصيصة.

٣ ـ كما أن زلزالا أكثر قوة، كان هو أسوأ ما سمع عنه، قد ضرب مدينة أنطاكية ودمر عددا كبيرا من البلدان تدميرا كليا أو جزئيا، بما في ذلك المنازل والأسوار. وقد هلك بعض عامة الناس الذين يعيشون هناك. وا أسفاه لقد قتلوا جميعا.

٤ ـ وهناك بلدة أخرى اسمها طريالت Trialet، قرب نهر الفرات، دمرت هي الأخرى تماما[١].

(٥٣)

تجميع الجيش التركي، وحصار أهل يافا على أيدي المصريين وأهل عسقلان:

١ ـ في سنة ١١١٥م، عبر الأتراك الذين استأنفوا وحشيتهم وهجماتهم المعتادة، نهر الفرات في يونيو ودخلوا بلاد الشام وعسكروا فيما بين أنطاكية ودمشق، في مواجهة مدينة شيزر[٢]. وكانوا قد عسكروا في هذا المكان قبل أربع سنوات، كما ذكرنا من قبل.

٢ ـ وقد اكتشف طغتكين ملك دمشق هذا، وتأكد أن أولئك الأتراك يكنون له العداء مثل عدائهم للفرنج، لأنه شارك في اغتيال مودود بالتآمر كما ذكرنا من قبل في السنة الماضية. وكان مودود هذا زعيما على جيشهم. وعقد طغتكين سلاما مع الملك بلدوين وروجر، أمير أنطاكية، بحيث ينضم إلى جيوشهما جيش ثالث، وتم عمل قوات حليفة ثلاثية لا يمكن للأتراك أن يهزموها. لأنه كان يخاف إذا هو بقي وحيدا أن يتم القضاء عليه هو ومملكته تماما.

---

(١) لم نتمكن من تحديد هذه البلدة، ويقول سبط بن الجوزي إن بلدة اسمها باليس على نهر الفرات، على مسافة ١٠٠ ميل من أنطاكية شرقا، دمرها زلزال سنة ٥٠٨ هجرية (١١١٥ ميلادية). ويرى هاجنماير في طبعته أنه ربما كانت هي المدينة المقصودة.

(٢) في هذا الفصل يروي فوشيه قصة الهجوم الذي شنه برسق بن برسق، والذي كان قائدا لجيش السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه للجهاد سنة ١١١٥م (٥٠٨ هـ).

٣ ـ الواقع أن الملك بلدوين، بدافع من الحاجة والضرورة، وبسبب نصيحة حملتها سفارة من أنطاكية، جاء ليشارك في المعركة التي ظن أنها سوف تحدث. ولكن عندما عرف الأتراك أنه جاء فعلا بالقرب منهم، فكروا في هذا وفي اقتراب رجال أنطاكية ودمشق الذين توقعوهم منذ حوالي ثلاثة شهور. وخوفا على حياتهم إذا حاربوا مثل هذا العدد الكبير على الرغم من كثرتهم العددية، انسحب الأتراك في هدوء ودخلوا إلى المغاور التي لم تكن تبعد عنا كثيرا. وعندما فعلوا هذا ظن الملك وحلفاؤه أن الأتراك انسحبوا تماما من أراضينا، ولهذا السبب عاد الملك إلى طرابلس.

٤ ـ وبينما كانت هذه الأمور تجري، عرف رجال عسقلان أن مدينة القدس خالية من الجنود فاندفعوا صوب مدينة يافا وفرضوا عليها حصارا بريا وبحريا. وكان الأسطول المصري هناك مكونا من حوالي سبعين سفينة مختلفة الأنواع، وكان بعضها محملا بالمؤن والمعدات.

٥ ـ واقترب رجال عسقلان، بعضهم عن طريق البحر، وبقيتهم عن طريق البر، وأعدوا أنفسهم للهجوم على المدينة. وعندما بذلوا مجهودا جبارا لكي يتسلقوا السور بواسطة السلالم التي أحضروها معهم، صدهم السكان بقوة على الرغم من أنهم كانوا قلة أنهكتهم الأمراض.

٦ ـ وعلى أي حال، فعندما رأى أهل عسقلان أنهم غير قادرين على إنجاز أي شيء مما خططوا له، باستثناء إضرام النيران في بوابات المدينة، خشوا من أن أهل أورشليم الذين كانوا قد وصلتهم الأنباء فعلا، ربما يقدمون لمساعدة أهل يافا، ولذلك تراجعوا عن المدينة. وأولئك الذين كانوا قد جاءوا بطريق البر عادوا إلى عسقلان، أما الذين جاءوا عن طريق البحر فقد أبحروا إلى صور.

٧ ـ وبعد ذلك بعشرة أيام عاد رجال عسقلان إلى يافا ظنا منهم أن استعدادهم قد ييسر لهم شن هجوم مفاجئ لتدمير العدو الذي سيؤخذ على غرة. ولكن الرب القدير، كما فعل من قبل، بسط حمايته علينا ونجانا مرة ثانية. وفي أثناء دفاع الفرنج عن أنفسهم قتلوا بعض جنود العدو واستولوا على خيولهم. ثم بدأ العسقلانيون يفرضون الحصار على المدينة بمعدات الحصار وحاولوا دخولها كما حدث من قبل

بالسلالم التي أحضروها في القوارب الصغيرة. وبعد أن أجهدوا أنفسهم على مدى ست ساعات تقهقروا آسفين ومعهم قتلاهم.

(٥٤)

المعركة التي جرت بين الأتراك ورجال أنطاكية والتي انتصر فيها الأنطاكيون:

١ ـ على أي حال، فإن الأتراك الذين سبق ذكرهم، عندما اكتشفوا أن جيشنا قد عاد لبلاده، عادوا إلى موقعهم السابق وتمركزوا داخل المناطق السورية. واستولوا على ما أمكنهم الاستيلاء عليه من القلاع، ونهبوا القرى، وعاثوا في الريف فسادا، وأخذوا الأسرى والسبايا من الرجال والنساء.

٢ ـ ولكن عندما وصلت هذه الأخبار إلى أهل أنطاكية، الذين كانوا قد انسحبوا فعلا، سارعوا بالعودة للقاء الأتراك على نفس الطريق الذي رحلوا منه. وعندما اقتربوا من الأتراك ولاحظوا أن المعسكر أقرب مما كانوا يعتقدون، بادروا في الحال إلى تشكيل صفوف القتال وانقضوا على معسكر الأتراك، وهم يهاجمون العدو وقد رفرفت بيارقهم. وكانت هذه المعركة قرب مدينة سارمين[1].

٣ ـ وبمجرد أن رأى الأتراك الفرنج، بدأ رماة السهام الأتراك يقاومون في عنف. ولكن الفرنج تملكتهم روح شجاعة عظيمة واختاروا النصر إذا كانت إرادة الرب تؤيدهم أو الهزيمة إذا شاء الرب ذلك، بدلا من أن يهينهم الأتراك على هذا النحو في كل عام. وحملوا على العدو بطريقة مذهلة حيثما رأوا تجمعا كبيرا منهم.

٤ ـ وفي البداية قاوم الأتراك لفترة قصيرة من الزمن، وفجأة هربوا ممن كانوا يقتلونهم ويذبحونهم. ويقدر عدد القتلى الأتراك بثلاثة آلاف، وتم أسر عدد كبير منهم. أما أولئك الذين هربوا من الموت فإنهم وجدوا نجاتهم في الهرب. وتركوا خيامهم التي كان بها الكثير من الأموال والممتلكات. وقدرت قيمة الأموال بثلاثمائة ألف بيزنت. وهناك تخلى الأتراك عن رجالنا الذين كانوا قد أسروهم،

---

(١) تقع مدينة سارمين على بعد حوالي ثلاثة وثلاثين ميلا جنوب شرقي أنطاكية، ونفس المسافة جنوب غربي حلب.

ومنهم الفرنج والسوريان، وزوجاتهم وإماؤهم ومعهم كثير من الجمال. وتم إحصاء آلاف من الخيول والبغال.

٥ ـ حقا إن الرب عظيم في معجزاته. لأنه بينما كان رجال القدس مع أهل أنطاكية ودمشق مستعدين للقتال، فإنهم لم يستطيعوا أن يحققوا شيئا أيا كان. إذ متى كان النصر للمحاربين يعتمد على عددهم؟ فلنتذكر المكابيين وغيرهم كثيرون ممن لم يثقوا في قوتهم الذاتية وإنما وضعوا ثقتهم في قوة الرب، وبهذه الطريقة تغلبوا على آلاف كثيرة.

٦ ـ وهكذا، فإن هذا الوصف يجعل الحادث معروفا للأجيال القادمة. كانت ثلاث ليال قد مضت قبل اختفاء برج العذراء[١] وخان الحظ السيئ الأتراك بقسوة. وبات واضحا تماما للجميع أنهم يجب أن يخافوا لأنه قبل النهاية لا ينبغي التأكد من شيء.

٧ ـ وفي تلك السنةدمرت مدينة المصيصة بزلزال. وقد عانت أماكن أخرى في منطقة أنطاكية أضرارا وخسائر مماثلة.

٨ ـ وفي تلك السنة نفسها وصل أسقف أورانج Orange، وهو الذي أرسله البابا إلى بيت المقدس وعزل البطريرك أرنولف عن منصبه. وقد ذهب أرنولف فيما بعد إلى روما واستعاد منصبه.

(٥٥)

القلعة التي بنيت في بلاد العرب:

١ ـ في تلك السنة [٢] ذهب الملك بلدوين إلى بلاد العرب وبنى قلعة على موقع قوي فوق جبل صغير. وهو ليس بعيدا عن البحر الأحمر، على مسيرة ثلاثة أيام منه، وعلى مسيرة أربعة أيام من القدس. وقد وضع حامية فيها لكي تتحكم في البلاد لصالح المسيحيين، وقرر أن يسمي القلعة

---

(١) ١٤ من سبتمبر سنة ١١١٥م.

(٢) سنة ١١١٥م.

مونتريال Montreal تكريما لنفسه لأنه بناها في وقت قصير وبمساعدة عدد قليل من الرجال بجسارة عظيمة [١].

(٥٦)

حملة الملك في بلاد العرب وما شاهده هناك:

١ ـ في سنة ١١١٦م عندما ذهب الملك من بيت المقدس إلى قلعته في بلاد العرب ليزورها ثانية بصحبة حوالي مائتين من فرسانه، تقدم حتى البحر الأحمر الذي لم يكن قد شاهده، وعلى أمل أنه ربما وجد شيئا يريده في الطريق.

٢ ـ وفي ذلك الوقت، وجدوا مدينة «إيليم» على شاطئ هذا البحر حيث نقرأ أن بني إسرائيل عسكروا هناك بعد عبور البحر[٢]. وعندما سمع سكانها خبر اقتراب الملك انسحبوا وتركوا قواربهم الصغيرة واندفعوا إلى البحر في خوف كبير.

٣ ـ وعلى أي حال، فعندما تفرج الملك ورجاله على المكان، عادوا إلى قلعة مونتريال ومنها إلى بيت المقدس.

٤ ـ وعندما أخبرونا بما شاهدوه فرحنا بحكاياتهم وبقواقع البحر وبعض الأحجار الثمينة التي أحضروها وأرونا إياها. وسألتهم أنا نفسي بشغف أن يوضحوا ماذا يشبه البحر، لأنني كنت حتى ذلك الحين أتساءل ما إذا كان راكدا أم جاريا، مياها متجددة أم بحيرة، وما إذا كان له مدخل ومخرج مثل بحر الجليل، وإذا ما كان محدودا بحدوده وأبعاده مثل البحر الميت، الذي يصب فيه نهر الأردن دون أن يكون له مخرج، لأنه على جنوبي البحر الميت تقع مدينة سدوم وعمورة، مدينة لوط.

---

(١) هي قلعة الكرك، وقدر لها أن تنال شهرة واسعة زمن صلاح الدين الأيوبي على مسافة حوالي تسعين ميلا جنوبي القدس، وخمسة وسبعين ميلا من العقبة.

(٢) هنا يخلط فوشيه بين مدينة إيليم التي تحدث عنها سفر الخروج (١٥ : ٢٧) وبين مدينة آيلة وهي العقبة الحديثة.

(٥٧)

البحر الأحمر:

١ ـ يسمى هذا البحر «البحر الأحمر»، لأن الرمال والصخور في قاعه حمراء، ولذلك يظهر لونه أحمر لمن ينظرون إليه، ولكن مع هذا فإن مياهه إذا وضعت في إناء تكون رائقة وصافية مثل مياه أي بحر آخر. ويقولون إن هذا البحر يخرج من المحيط في الجنوب[١]. وهو يمتد مثل لسان باتجاه الشمال حتى إيليم، التي تحدثنا عنها، حيث ينتهي في مكان غير بعيد من جبل سيناء وهذا يبعد حوالي مسيرة يوم بالخيل.

٢ ـ ومن البحر الأحمر أو من إيليم المذكورة حتى البحر الكبير[٢]، الذي يرتاده المرء إذا ركب من يافا أو عسقلان أو غزة قاصدا دمياط، وهم يقدرون الرحلة بأربعة أو خمسة أيام على ظهر الخيول. وفي الإقليم الواقع بين هذين البحرين تقع مصر كلها ونوميديا وأثيوبيا أيضا التي يمر بها جيحون، نهر الجنة، وهو النيل[٣].

(٥٨)

نهر جيحون:

١ ـ بوسعي أن أعجب لكن لا يمكنني أبدا أن أشرح كيف يخرج هذا النهر، كما نقرأ، من الجنة مع ثلاثة أنهار أخرى، ويبدو أن نهر جيحون هذا قد وجد منبعا ثانيا لأن البحر الأحمر في شرقه وبحرنا في غربه[٤]، وهو يصب فيه، لأنه بين النهر والشرق يوجد البحر الأحمر، ومع ذلك نقرأ أن الجنة في الشرق. ولهذا فإنني

---

(١) يقصد المحيط الهندي.

(٢) يقصد البحر المتوسط.

(٣) كان نهر النيل موضع كثير من الأساطير والخيال في تلك العصور، فقد تصوره الكثيرون من كتاب العصور الوسطى نابعا من الجنة الأرضية التي تصورها البعض في إفريقيا، وتصورها آخرون عند نهاية المحيط الهندي. (المترجم)

(٤) يتصور فوشيه أن جيحون هو النيل وأنه محصور بين البحر الأحمر من الشرق والبحر المتوسط في الغرب، وكلمة بحرنا Mare Nostorum التي استخدمها تعبير روماني قديم يرجع إلى عصر الإمبراطورية الرومانية. (المترجم)

أتعجب كثيرا كيف يستأنف النهر السير في مجراه على هذا الجانب من البحر الأحمر وكيف يعبر البحر، أو أين يعبره.

(٥٩)

نهر الفرات:

١ ـ ونحن نقول الشيء نفسه عن نهر الفرات، الذي له منابع ثانية في أرمينيا. وهو يعبر بلاد النهرين على بعد حوالي أربعة وعشرين ميلا من مدينة الرها حسب ظني.

٢ ـ أما من يرغب في معرفة سبب هذا؛ ومن يستطيع أن يعرف السبب، فعليه أن يفعل لأنني حاولت أن أعرف كثيرا بسؤال أشخاص كثيرين ولكن لم أستطع أن أجد واحدا يمكنه أن يشرح هذا لي. إنني أترك الشرح للرب الذي خلق بمعجزة المياه في السحاب، وفي المجاري المائية، وجعلها تتفجر في الجبال والتلال، وتتفجر في الوديان وتجري رقراقة فوق السطوح الملساء للقنوات الخفية، وأخيرا، وهذا هو العجب، تجد البحر الذي يبتلعها.

٣ ـ وعندما كانت هذه السنة (١١١٦م) تقترب من نهايتها وقع الملك فريسة لمرض جسدي عضال وخاف على نفسه من الموت. ولهذا السبب طرد زوجته أديلاد، كونتيسة صقلية التي سبق ذكرها، والتي كان قد تزوجها بطريقة غير قانونية، لأن المرأة الأخرى التي كان قد تزوجها زواجا صحيحا كانت ما تزال حية في الرها.

(٦٠)

أسراب الجراد الكبرى:

١ ـ في سنة ١١١٧م من تجسد سيدنا رحلت هذه الملكة المذكورة من ميناء عكا، في اليوم الذي تنشد فيه الصلوات الكبرى وفقا لقانون الكنيسة، وقد عبرت إلى صقلية وفي صحبتها سبع سفن.

٢ ـ ثم حدث في شهر مايو أن هجمت أعداد لا تحصى من الجراد على أرض بيت المقدس والتهمت تماما الكروم، ومحصولات الحقول، وأنواع الأشجاركافة. وكان بالإمكان أن نشاهد الجراد وهو يتقدم مثل الجيوش في نظام محكم كما لو كانوا قد رتبوا ذلك من قبل في مجلس للمشاورة. وعندما انتهى الجراد من رحلة يومه، بعضه على الأرض، وبعضه طائر في الجو، اختارت مجموعاته أماكن تستريح فيها. وهكذا عندما التهم الجراد كل ما هو أخضر، وأكل لحاء الأشجار، رحلت أسرابه المجنح منها وما هو بدون جناح في مجموعات.

٣ ـ آه من شرور الإنسان السادر في غيه! كم مرة يمسنا ربنا بعقابه ويهذبنا، ويخيفنا بتحذيراته، ويشدنا بتهديداته، ويمدنا بدروسه، ثم يضغط علينا بالحساب والعقاب. ولكننا دائما نصر على خطايانا، على الرغم من تحذيره لنا، ونخالف تعاليمه بلا وعي.

٤ ـ فما وجه العجب إذا استولى المسلمون أو غيرهم على أرضنا طالما أننا نخرج بأيد لصوصية لننهب جيراننا في حقولهم! الواقع أننا نغشهم بالخطإ سواء عن طريق شقوق المحراث أو بأي وسيلة سرية أخرى للسرقة، ونرتكب أعمالا ملؤها الطمع والخسة وهكذا نثرى من ممتلكاتهم التي نسرقها.

٥ ـ أي عجيب في أن يسمح الرب للفأر بأن يدمر محصولاتنا وهي تنبت من جذورها في الأرض، أو أن يلتهم الجراد كل ما هو أخضر، أو أن تفسد وهي في الصوامع بالسوس والدود من كل نوع أو بالعفن، طالما أننا نبيع في خسة العشور المستحقة للرب أو نستولي عليها ونمنعها كليا؟

(٦١)

خسوف القمر:

١ ـ في الشهر التالي، وهو شهر يونيو، ظهر القمر لنا نحن الذين كنا ننظر إليه في السماء بعد صياح الديك، فبدا أحمر تماما في البداية، وسرعان ما تغير الاحمرار إلى سواد بحيث إن القمر فقد ضياءه على مدى ساعتين تقريبا. وقد

حدث هذا في اليوم الثالث عشر من الشهر. ولو أنه كان قد حدث في اليوم الرابع عشر فمن المؤكد أننا كنا سنحسبه خسوفا.

٢ ـ ولهذا عددناه ظاهرة إعجازية وعلامة تحذير. واستنتج البعض من هذا الاحمرار أن الدماء سوف تراق في المعركة؛ ورأوا في السواد علامة على أن مجاعة سوف تحدث. ولكننا أوكلنا الأمر إلى قدرة الرب ورعايته وهو الذي تنبأ لحوارييه بأن الشمس والقمر يحملان علامات تحذيرية.

٣ ـ فضلا عن أن الرب هو الذي يهز الأرض بمشيئته ثم يأمرها بأن تستقر. وقد حدث هذا بالتالي في الشهر نفسه في صمت الليل وسكونه في اليوم السادس قبل شهر يونيو.

(٦٢)

القلعة التي بنيت قرب صور:

١ ـ ثم بنى الملك قلعة قرب مدينة صور، ،وعلى مسافة خمسة أميال منها. وأطلق عليها اسم «Scandalion» وترجمته «حقل الأسد». وقد أصلح مابها ووضع حامية تراقب أهل صور.

(٦٣)

العلامة الإعجازية التي ظهرت في الشمس:

١ ـ في السنة نفسها، في شهر ديسمبر، في الليلة الخامسة بعد خسوف القمر الذي حدث في اليوم الثالث عشر. ففي ببداية الليل شاهدنا جميعا السماء في الشمال وقد صبغها لون ناصع البريق يشبه النار أو الدم. وإذ ظننا أن هذه الظاهرة حافلة بالعلامات الإعجازية، انتابتنا حيرة شديدة.

٢ ـ وفي غمرة هذا الاحمرار، الذي بدأ أولا يتزايد شيئا فشيئا، شاهدنا أشعة كثيرة بيضاء تبزغ بطريقة ملحوظة من أسفل إلى أعلى، ثم تصبح في المقدمة وتستقر في المؤخرة، ثم في مركز الشمس. وفي الجزء الأدنى من السماء ظهر ضوء يشبه

الفجر عندما تضيء السماء قبيل سطوع الشمس مباشرة. وأمام هذه الظاهرة، شرقا، رأينا ضوءا أبيض كما لو أن القمر على وشك الطلوع. ولهذا السبب تجلت الأرض وجميع الأماكن من حولنا واضحة تماما.

٣ ـ ولو أن هذا قد حدث في الصباح لقلنا جميعا إنه نهار مشرق. ولهذا فكرنا في أن دماء كثيرة سوف تراق في الحروب أو أن شيئا لا يقل خطورة سوف يحل بنا. ولكن ما لم يكن مؤكدا بالنسبة لنا تركناه لمشيئة الرب وإرادته.

٤ ـ وعلى أي حال، فإن بعض الناس، الذين ادعوا القدرة على التنبؤ، قالوا إن ذلك علامة على موت بعض من قدر لهم الموت في السنة التالية. وبالتالي مات هؤلاء فعلا؛ قد مات البابا باسكال في شهر يناير؛ ومات بلدوين ملك بيت المقدس في إبريل؛ كذلك ماتت زوجته في صقلية وهي التي كان قد طردها، كما مات أرنولف بطريرك بيت المقدس، وأليكسيوس إمبراطور القسطنطينية، وكثيرون غيرهم من عظماء الرجال في العالم.

(٦٤)

موت الملك بلدوين:

١ ـ في سنة ١١١٨ بعد ميلاد المسيح من العذراء، قرب نهاية شهر مارس، هاجم الملك بلدوين مدينة الفرما[١]. ثم ذهب يوما يمشي على ضفة النهر الذي يسميه الإغريق نهر النيل ويسميه العبرانيون جيحون، بالقرب من المدينة وهو يتسلى مع بعض أصدقائه[٢]. ثم استخدم بعض الفرسان حرابهم بمهارة في صيد السمك الذي أخذوه معهم إلى المعسكر وأكلوه. وحينئذ عاودت الملك آلام جرح قديم وانتابه ضعف شديد.

٢ ـ وعلم رجاله بالخبر فورا. وعندما سمعوا بهذا انتابهم الحزن والاضطراب وتعاطفوا معه بإخلاص. وقرروا العودة إلى بيت المقدس. ولكن لأن الملك لم يكن

---

(١) مدينة الفرما (بيلوزيوم) كانت على مسافة حوالي ١٢ ميلا شرقي قناة السويس الحالية.

(٢) من الواضح أن بلدوين كان يسير قرب الفرع الشرقي القديم (البيلوزي) لنهر النيل وهو شرقي فرع دمياط الحالي، وقد اندثر ولا وجود له الآن. (المترجم)

قادرا على الركوب أعدوا له محفة من قماش الخيام ووضعوه فوقها. ودقت الطبول تعلن الأمر بالرحيل إلى القدس.

٣ ـ وعندما وصلوا القرية التي تسمى العريش مات بلدوين، وقد أنهك المرض جسده تماما. وقد نزعوا أحشاءه وملحوها، ثم وضعوها في الكفن، وأسرعوا إلى بيت المقدس.

٤ ـ وفي يوم سعف النخيل[1]، بإرادة الرب تقابلت الجنازة التي تحمل الجسد المأسوف عليه مع المسيرة الدينية التي كانت تنزل من جبل الزيتون إلى وادي يوشيفاط.

٥ ـ وعند مرأى هذا المشهد، أسلم كل الموجودين أنفسهم للحداد بدلا من البهجة، وبدءوا الإنشاد للحزن بدلا من الفرح، كما لو كان بلدوين قريبا لهم. لقد بكى الفرنج والسوريان، بل إن المسلمين الذين شاهدوا ذلك حزنوا أيضا. لأن من كان هناك وبكى في تقوى لم يستطع السيطرة على نفسه. ومن ثم عاد رجال الكنيسة والشعب إلى المدينة وفعلوا ما كان معتادا في مناسبة حزينة كهذه.

٦ ـ ودفنوا بلدوين في مدفن داخل كنيسة القيامة بالقرب من أخيه جودفري.

٧ ـ مرثية الملك بلدوين:

عندما مات الملك بكر جنس الفرنجة التقي
لأنه كان درعهم وقوتهم ومددهم،
كان الذراع اليمنى لشعبه،
والرعب والخوف لأعدائه،
مثلما كان يوشع.
أخذ عكا، وقيصرية، وبيروت
وصيدا كذلك
أخذها من العدو المحلي الكافر

---

(١) أحد السعف (الشعانين) ٧ من إبريل سنة ١١١٨م.

وأضاف إليها تحت حكمه وسلطانه فيما بعد
أرض العرب، أو ما جاور منها البحر الأحمر
تحت حكمه وسلطانه
واستولى على طرابلس
وبقوة مماثلة أخذ أرسوف
كما أنجز أعمالا مشرفة أخرى كثيرة

٨ ـ على مدى ثمانية عشر عاما
تحمل الملك الحكم
ثم لقي مصيره كما كان مقدرا له
عندما رحل بلدوين العظيم
كان ذلك في الثاني من شهر إبريل.

الكراســـة الثالثـــة



هنا تبدأ الكراسة الثالثة
أعمال بلدوين الثانـي

(١)

تعيين الملك بلدوين في عيد الفصح:

١ ـ نتيجة لموت الملك بلدوين، دعا أهل بيت المقدس إلى عقد مجلس على الفور خوفا من أن يُعَدّ عدم وجود ملك يحكمهم علامة على ضعفهم. واختاروا بلدوين كونت الرها لكي يكون ملكا عليهم، وهو قريب من أقارب الملك الراحل. وكان قد حدث أنه عبر نهر الفرات وقدم إلى بيت المقدس للتشاور مع سلفه المتوفى. وفي يوم الفصح تم اختياره بالإجماع وعين ملكا[١].

(٢)

حشد الجيش المصري:

١ ـ في نفس السنة عند قدوم الصيف، جمع المصريون جيشا كبيرا جدا يقدر بخمسة عشر ألفا من الفرسان وعشرين ألفا من المشاة بقصد القضاء على المسيحيين في بيت المقدس في أثناء القتال. وعندما وصلوا عسقلان تقدم طغتكين حاكم دمشق، الذي كان قد عبر نهر الأردن، لمساعدتهم بجيشه. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك أسطول خطير يتكون من عدد غير قليل من السفن قد جاء إلى عسقلان.

---

(١) الكونت بلدوين الثاني أمير الرها (١١٠٠ ـ ١١١٨م) كان ابن هيو الأول أمير ريثل وابن عم كل من بلدوين الأول وجودفري. تم تكريسه يوم الأحد الموافق عيد الفصح ١٤ من إبريل سنة ١١١٨م ولكنه لم يتوج رسميا إلا في ٢٥ من ديسمبر سنة ١١١٩، عندما صار واضحا أن أخاه الأكبر إيستاس الثالث أمير كولوني لن يطالب بالعرش.

وعلى أي حـال ، فإن هذا الأسطول المكون من سفن القتال وسفن الإمداد واصل السير إلى صور . ولكن الرجال الذين جاءوا عن طريق البر ظلوا في عسقلان ينتظرون المعركة .

٢ ـ حينئذ أسرع الملك بلدوين ومعه رجال أنطاكية وطرابلس ، الذين كان الملك قد استدعاهم بواسطة الرسل لهذه المعركة ، لكي يعدوا لخوض المعركة ضد الجيش المعادي . وعندما مروا بأشدود ، وهي مدينة قديمة للفلسطينيين ، أمر بإنزال الخيام من فوق ظهور الحيوانات وأن ينصبوها غير بعيد من المصريين بحيث يمكن لكلا الجيشين أن يرى الآخر ليل نهار .

٣ ـ ولكن لأن كل جانب كان يخشى أن يهاجم الآخر ، ولأنهم كانوا يفضلون الحياة على الموت ، فقد ظل الجانبان ، على مدى ثلاثة شهور تقريبا ، يؤجلان القتال لأسباب من هذا النوع[١] . ثم تضايق المسلمون من التأخير فتخلوا عن الحرب . وعاد رجال أنطاكية إلى بلادهم ، ولكنهم أمدوا بلدوين بثلاثمائة جندي . وكان هذا لكي يساندوا الملك في حال تجديد المصريين للقتال .

(٣)

المعركة وذبح رجال أنطاكية الذين كانوا يحاربون الأتراك :

١ ـ في سنة ١١١٩ من تجسد سيدنا المسيح ، مات البابا جيلازيوس ، خليفة باسكال في اليوم الرابع قبل شهر فبراير ،[٢] ودفن في كلوني . وقد تم اختيار كاليكستوس الذي كان كبير أساقفة فيينا لكرسي البابوية .

٢ ـ ولسنا نريد أن نثقل تاريخنا بأن نروي كل الحوادث السيئة التي حدثت في تلك السنة في إقليم أنطاكية ، وكيف أن روجر ، أمير تلك المدينة ، قد خرج مع قادته وكل شعبه لكي يقاتل الأتراك ، وقتل قرب مدينة أرتاح ؛ وكيف أن سبعة آلاف من رجال أنطاكية لقوا مصرعهم ولم يقتل من الأتراك سوى عشرين .

---

(١) هي شهور يوليو ، وأغسطس ، وسبتمبر سنة ١١١٨م .

(٢) مات جيلازيوس الثاني الذي تولى البابوية سنة واحدة فقط في ٢٩ من يناير سنة ١١١٩م .

٣ ـ وليس من المستغرب أن يسمح الرب بهزيمة روجر ورجاله الذين كانوا يرفلون في النعيم من كل نوع، كما أن خطاياهم جعلتهم لا يحترمون الرب أو الإنسان[١].

٤ ـ فقد ارتكب الأمير نفسه جريمة الزنا بشكل مخجل مع كثيرات، بينما كان يعيش مع زوجته. وقد جرد سيده ابن بوهيموند من ميراثه، عندما كان يعيش مع أمه في أبوليا، وكان هو وقادته يعيشون في كبرياء وترف، وارتكبوا الكثير من الآثام والخطايا. وعليهم ينطبق نص داود في المزامير «جحظت عيونهم من الشحم. جاوزوا تصورات القلب»[٢]. ذلك أن الاعتدال لم يكن مرعيا في الملذات الجسدية.

(٤)

الملك بلدوين، يحمل صليب الرب، ويهرع لمساعدة أهل أنطاكية:

١ ـ وقد أعقب المذبحة التي جرت على أهل أنطاكية نصر كبير آخر تم لأهل بيت المقدس بفضل رحمة الرب ورعايته.

٢ ـ لأنه عندما أعلم روجر المذكور الملك في بيت المقدس بأنه ينبغي أن يسرع لنجدته لأن المسلمين خرجوا ضده بجيش كبير، ترك الملك شئونه الأخرى كافة. وكان قد ذهب لقتال أهل دمشق غير بعيد عن نهر الأردن وأخذ معه البطريرك وصليب الرب. وبعد أن طرد العدو من أراضيه أسرع دون أن يلتقط أنفاسه لمساعدة أهل أنطاكية، وأخذ معه أسقف قيصرية، الذي حمل فيما بعد صليب الرب في المعركة ضد العدو. كما أحضر الملك معه كونت طرابلس.

٣ ـ وعندما وصلوا أنطاكية أرسل الملك وفدا إلى أهل الرها، يأمرهم بأن يسرعوا بالمسير للمشاركة في الحملة المزمعة ضد الأتراك. وبعد أن انضموا إلى الملك وجنود

---

(١) يبدو أن فوشيه لم يعرف سوى القليل عن المعركة التي لقي فيها روجر حتفه في مكان غالبا ما عرف باسم Ager Sanguinis أي «ميدان الدم» في ٢٨ من يونيو سنة ١١١٩م واكتفى باستغلال مكانته الكنسية لتوجيه اللوم إلى روجر. فالمعركة التي انتهت بنصر هائل لإيلغازي بن أرتق أمير ماردين وحلب كانت محل اهتمام واسع من وليم الصوري CXII, ix - x

(٢) المزامير ٧٣ : ٧.

أنطاكية الذين كانوا قد هربوا من المعركة الأولى، أو نجوا من الموت بصدفة ما، بدأت المعركة الأولى، قرب المدينة التي تسمى زاردانا[1]، التي تبعد مسافة أربعة وعشرين ميلا عن أنطاكية. وكان عدد فرساننا سبعمائة وكان عدد فرسان الأتراك عشرين ألفا. وكان قائدهم هو غازي[2].

٤ ـ أظن أنني لا يجب أن أغفل عن القول بأن أحد الأتراك، لاحظ أن أحد فرساننا يعرف اللغة الفارسية، فخاطبه بقوله: «إنني أقول لك أيها الفرنجي، لماذا تجعلون أنفسكم موضع سخرية طالما أن عملكم بلا طائل؟ إنكم لن تتمكنوا من أن تتغلبوا علينا لأنكم قلة ونحن كثرة. الواقع أن ربكم قد تخلى عنكم لأنه رآكم لا تحافظون على قانونكم كما ينبغي، كما أنكم لا تحفظون العقيدة والحق فيما بينكم. وغدا بلا شك سوف نهزمكم ونتغلب عليكم». آه! ياله من عار على المسيحيين أن يلومنا من لادين لهم على ديننا! ولهذا السبب كان يجب علينا أن نخجل كثيرا وأن نسكب الدموع ونتوب تكفيرا عن ذنوبنا.

(٥)

المعركة والنصر الذي تم بقوة الصليب المقدس، واستقبال الصليب في أنطاكية:

١ ـ ومن ثم، نشب قتال عنيف للغاية في اليوم التالي حسبما قيل[3]. وكان انتصار أحد الطرفين محل شك لفترة طويلة حتى أجبر الرب القدير الأتراك على الهرب بأن بعث في المسيحيين روحا عجيبة ضدهم. ومع هذا، فإن الأتراك هاجموا المسيحيين في بداية الأمر وبعثروهم في مجموعات صغيرة وطاردوهم حتى أنطاكية، بحيث لم يعد المسيحيون قادرين على إعادة جمع مجموعاتهم. ولكن من ناحية أخرى شتت الرب الأتراك، بحيث دخل بعضهم مدينة حلب طلبا للسلامة، وهرب البعض الآخر صوب فارس[4].

---

(١) زاردانا (ساردنا أو ساردون) مدينة تبعد حوالي أربعين ميلا جنوب شرقي أنطاكية.

(٢) كان قائد الجيش السلجوقي إيلغازي بين أرتق أمير ماردين وحلب ومعه طغتكين أمير دمشق. وربما يمكن الوثوق بتقديره لقوات الصليبيين، ولكن تقديره لقوات المسلمين تفوح منه رائحة المبالغة.

(٣) ١٤ من أغسطس سنة١١١٩م.

(٤) هنا يقصد فوشيه العراق. وكان يظن أن الأتراك مرتبطون بفارس لأن قدومهم إلى العراق كان عن طريق فارس.

٢ ـ وفضلا عن ذلك، فإن ملك القدس وكونت طرابلس ورجالهما أظهروا أنهم حلفاء الصليب الأمجد. فقد اندفعوا إلى المعركة خداما للرب، وحاربوا حول الصليب باستمرار وببسالة ولم يتخلوا عنه، وثبتوا برجولة في ميدان المعركة. ومن خلال قوة هذا الصليب الأمجد الأعز، انتزع الرب القدير خدامه من براثن الجنس الشرير من الأتراك وأنقذ شعبه لكي يقوموا بمهمة في خدمته مستقبلا.

٣ ـ وبعد أن ظل الملك يحرس أرض المعركة على مدى يومين ولم يعد أي من الأتراك للقتال أخذ صليب الرب وتقدم صوب أنطاكية.

٤ ـ وخرج بطريرك أنطاكية لمقابلة الصليب المقدس، والملك، والقساوسة الذين كانوا يحملون الصليب. وأسدوا جميعا صلاة الشكر للرب، وكالوا المديح الحلو للرب القدير، الذي أسبغ النصر على المسيحيين بفضل قوة الصليب المقدس الذي أعاده الرب سليما إلى المسيحيين. وبكوا من التقوى وغنوا من الفرح؛ وانحنوا عدة مرات أمام الصليب المبجل في حب وتعظيم، ثم رفعوا أصواتهم بعبارات الحمد والشكر مرة أخرى.

٥ ـ كانت الشمس قد ظهرت مرتين في برج العذراء،

عندما دارت هذه المعركة، التي هزم فيها البارثيون.

وفي ذلك الوقت كان الهلال يتلألأ في السماء منذ عشرة أيام[1].

(٦)

استقبال الصليب المقدس في بيت المقدس:

١ ـ وبعد أن استراح الفرنج فترة من الوقت في أنطاكية، قرروا العودة إلى بيت المقدس ومعهم الصليب المبارك، كما كان ينبغي. وأمر الملك بإرسال الصليب إلى القدس مرة أخرى ومعه أكبر عدد ضروري من الجنود. ودخلوا المدينة ومعهم

---

(١) يعني هذا أن فوشيه يحدد يوم المعركة في ١٩ من أغسطس سنة ١١١٩م، ولكنه يخطئ هنا على الرغم من دقته المعتادة، والتاريخ الصحيح، كما يحدده هاجنماير في طبعته هو ١٤ من أغسطس سنة ١١١٩م.

الصليب وقد غمرهم الفرح، يوم ١٤ من سبتمبر، مثلما كان الإمبراطور هرقل قد فعل عندما استعاد الصليب من فارس[١]. واستقبل جميع من كانوا بالقدس الصليب في فرح غامر.

(٧)

الملك يحصل على إمارة أنطاكية:

١ ـ على أي حال، فإن الملك بقي في أنطاكية لأن الضرورة اقتضت ذلك حتى أعطى أراضي النبلاء الذين ماتوا لمن يستحقونها قانونا، وحتى زوج الأرامل اللاتي وجد منهن كثيرات من أزواج مناسبين بأسلوب ديني، وحتى عرف الكثير غير ذلك مما يلزم لإعادة التنظيم. إذ إنه حتى ذلك الحين كان مجرد ملك على شعب بيت المقدس، والآن بعد موت روجر أمير أنطاكية، صار بلدوين ملكا على شعب أنطاكية أيضا[٢].

٢ ـ وإنني لهذا، أنبه الملك وأتوسل إليه، أن يحب الرب بمجامع قلبه وفهمه وقوته، وبوصفه عبدا مخلصا للرب يجب أن يهذب نفسه بشكر الرب، وبما أنه وجد الرب صديقا مخلصا بجانبه يجب عليه أن يعترف بنفسه عبدا متواضعا له. فمن هو الذي رفعه الرب من أسلاف بلدوين إلى هذه المنزلة؟ لقد أعطى للآخرين ملك مملكة واحدة ولكنه منح بلدوين مملكتين. وبدون مشقة، وبدون إراقة الدماء، وبدون معاناة التشريع والقوانين، حاز المملكتين في سلام بإرادة الرب.

---

(١) كان يوم ١٤ من سبتمبر هو الذكرى السنوية لما حدث سنة ٦٢٩ ميلادية حين استعاد الإمبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م)، إمبراطور البيزنطيين صليب الصلبوت من يد قورش الثاني ملك فارس الذي كان قد استولى عليه سنة ٦١٤م.

(٢) يقع فوشيه هنا في شباك البلاغة لأن بلدوين لم يتوج أبدا ملكا على أنطاكية. وعلى أي حال، فإن موت روجر، زوج أخت بلدوين في ٢٨ من يونيو سنة ١١١٩م، ألقى عبء مسئولية الدفاع عن أنطاكية على كاهل بلدوين. فزوج أرامل كثيرات ممن لقي أزواجهن مصرعهم مع روجر من الرجال المناسبين حتى يقوم هؤلاء بواجباتهم العسكرية التي تفرضها عليهم الإقطاعات التي تئول إليهم بالزواج. وقد ظل بلدوين يمارس الوصاية على إمارة أنطاكية حتى وصول بوهيموند الثاني سنة ١١٢٦م، كما سنرى.

٣ ـ لقد أعطاه الرب الأرض طولا وعرضا من مصر حتى بلاد النهرين[١]. وقد أظهر الرب يده الكريمة المعطاءة نحوه؛ ومن ثم يجب عليه أن يتقى الله ويرعى حقوقه، لأن الرب يعطي بلاد حدود. وإذا كان بلدوين يريد أن يكون ملكا فليكن العدل أساس ملكه.

٤ ـ وقد عاد الملك من أنطاكية إلى القدس بعد أن أنجز أفعالا كثيرة، وتم تتويجه هو وزوجته بشعائر الملك في بيت لحم في يوم عيد الميلاد[٢].

(٨)

إلغاء الضريبة:

١ ـ في سنة ١١٢٠م من تجسد الرب، أعفى الملك بلدوين الثاني من كل الضرائب جميع من يريدون إحضار الغلال أو الشعير، أو الخضراوات داخل مدينة القدس، وكفلت الحرية للمسيحيين والمسلمين على السواء في الحضور والذهاب، وأن يبيعوا ما يريدون لمن يرغبون. كذلك ألغى الضريبة المعتادة على المقاييس[٣].

(٩)

حشد الأتراك وحملة الملك ضدهم:

١ ـ وعندما كنا قد قضينا ستة شهور من تلك السنة في القدس، جاء الرسل من

(١) هذه جملة بلاغية أيضا ولا تعبر عن الحقيقة التاريخية تماما. فقد كان بلدوين ملكا على بيت المقدس، وله سلطة على كونتية طرابلس، كما كان وصيا على أنطاكية، وكان هو كونت الرها التي منحها إقطاعا لجوسلين أمير الجليل في أواخر سنة ١١١٩م.

(٢) كانت زوجة بلدوين، التي لم يذكرها فوشيه على الإطلاق، هي مورفيا Morphia كما يقول وليم الصوري - X,xxiv XIII، وكانت ابنة جابريل حاكم ملطية. وكان بلدوين الأول هو الذي أرسى تقليد التتويج في بيت لحم يوم عيد ميلاد المسيح.

(٣) كان أحد أهداف بلدوين تنشيط التجارة مع العرب. وقد ذكر ابن القلانسي أن إيلغازي فعل الشيء نفسه بالنسبة لحلب. والجدير بالذكر أن هذا المرسوم الذي أصدره بلدوين الثاني تضمن إعفاء الحجاج من الضريبة التي كانوا يدفعونها أيضا. انظر المرسوم في:

.Roziere, Cartulaire de L'église du Saint^ Supulcre, No. 45.

أنطاكية يعلنون للملك أن الأتراك قد عبروا نهر الفرات[١] وأنهم دخلوا بلاد الشام لضرب المسيحيين كما فعلوا في الماضي.

٢ ـ وبعد أن تشاور كما تقتضي الضرورة طلب من البطريرك ورجال الكنيسة أن يصطحب معه الصليب المقدس. وقال إنه ورجاله يجب أن يتقووا به في ميدان المعركة، لأنه يعتقد أن الأتراك لا يمكن طردهم من البلاد التي كانوا يعيثون فيها فسادا، دون معركة شرسة. ولأنه لا يثق في قوته الذاتية ولا في عدد رجاله الكثيرين، فإنه يفضل أن يكون الصليب بحوزته وأن يساعده الرب، فهذا أفضل من آلاف الرجال. أما ما عدا ذلك، فبدون الصليب فإنه لن يجرؤ هو أو الآخرون على الخروج للحرب.

٣ ـ ولهذا السبب كان هناك خلاف شديد في الآراء بين أولئك الذاهبين إلى الحرب وأولئك الباقين في بيت المقدس، حول ما إذا كان ينبغي في أزمة مثل هذه تلم بالمسيحية أن يحمل الصليب خارج بيت المقدس إلى أنطاكية، وما إذا كان ينبغي حرمان كنيسة القدس من مثل هذا الكنز. وقلنا: «وا أسفاه، ماذا سنفعل إذا قدر الله أن نفقد الصليب في المعركة مثلما فقد بنو إسرائيل مرة تابوت الرب[٢]؟».

٤ ـ لكن لماذا نسجل أكثر من ذلك؟ إن الضرورة تنبهنا وتحذرنا؛ والعقل يعلمنا. لقد فعلنا ما لم نكن نرغب في عمله، وما لم نكن نريده قررنا أن نعمله. وبعد أن ذرفنا دموعا كثيرة إخلاصا للصليب، وأنشدنا الترانيم تمجيدا له وثناء عليه، وكذلك فعل الملك والبطريرك والناس كافة، وهم حفاة الأقدام، صحبوا الصليب إلى خارج المدينة، ورحل الملك مع الصليب وهو يبكي، على حين عادت جموع الناس إلى المدينة المقدسة. وكان هذا في شهر يونيو.

٥ ـ ومن ثم ذهبوا إلى أنطاكية، التي كان الأتراك في ذلك الوقت يضغطون

---

(١) كان إيلغازي قد عبر نهر الفرات في ٢٦ من مايو سنة ١١٢٠م ليشن غاراته ضد الصليبيين في شمالي الشام.

(٢) جاء في سفر صموئيل الأول (٤ : ١٠ - ١١): «فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحد إلى خيمته. وكانت الضربة عظيمة. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل. وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفني وفينحاس». (المترجم)

عليها بشدة لدرجة أن سكانها لم يكونوا يجرءون على الخروج من المدينة إلى مسافة أبعد من ميل واحد. وعندما سمع الأتراك باقتراب الملك رحلوا على الفور، وتقهقروا نحو مدينة حلب حيث يكونون أكثر أمانا. وهناك انضم إليهم ثلاثة آلاف جندي من دمشق.

٦ ـ ولكن بعد أن تقدم الملك في جسارة نحوهم لكي يخوض المعركة، وبعد أن جرح الكثيرون وسقط الكثيرون قتلى من الجانبين برشقات السهام، فإن الأتراك مع هذا رفضوا الحرب الشاملة. وبعد ثلاثة أيام من النضال والقتال الجزئي من هذا النوع، عاد رجالنا إلى أنطاكية وعاد القسم الأكبر من الأتراك إلى فارس(١).

٧ ـ وأخيرا أعاد الملك الصليب المقدس بما يليق به من الشرف إلى بيت المقدس، على حين بقي هو نفسه في إقليم أنطاكية لحماية الأرض. وهكذا في اليوم التاسع عشر قبل شهر نوفمبر استقبلنا الصليب المقدس في فرح عندما وصل القدس(٢).

(١٠)

حملة الملك ضد أهل دمشق وهدم قلعتهم:

١ ـ في سنة ١١٢١ من تجسد سيدنا، جمع الملك كل رجاله من صيدا ويافا. وفي يوم ٥ من يوليو عبروا نهر الأردن. وقد سار ضد ملك الدمشقيين الذي كان هو وحلفاؤه العرب ينهبون الأرض المتاخمة لطبرية، دون أن يتصدى أحد لمقاومتهم.

٢ ـ وعندما عرف (طغتكين) أن ملكنا اقترب بجيشه، أسرع بجمع خيامه وتجنب المعركة، ثم هرب إلى أراضيه.

٣ ـ وبعد أن طارده ملكنا على مدى يومين ولم يجرؤ العدو على القتال، تقهقر ملكنا. وعاد إلى قلعة كان طغتكين ملك الدمشقيين قد أمر ببنائها في السنة السابقة لكي يضغط بها علينا. وفي ظننا أنها تقع على مسافة ستة عشر ميلا من نهر الأردن.

---

(١) يذكر كمال الدين بن العديم في كتاب «زبدة الحلب من تاريخ حلب» أن طغتكين أمير دمشق انضم إلى إيلغازي في ذلك الحين. وظلوا يضغطون على جناحي جيش الصليبيين حتى معرة نسرين، ثم تقهقروا.

(٢) ٥ من يوليو سنة ١١٢١م.

وفرض الملك الحصار عليها، ثم هاجمها بالآلات، واستولى عليها بالقوة، وقبل استسلامها. ثم سمح لحاميتها وعددها أربعون تركيا أن يرحلوا بشروط، ثم سوى القلعة بالأرض.

٤ ـ وكان سكان المنطقة يسمون هذه القلعة جرش. وكانت داخل مدينة بنيت في الزمن القديم على موقع قوي بشكل يبعث على الدهشة والإعجاب. وكانت القلعة مشيدة من الأحجار الكبيرة المربعة. ولكن عندما رأى الملك أنه استولى على المكان بصعوبة وأنه سيكون من الصعب إمدادها بما تحتاج إليه من الرجال والمؤن اللازمة، أمر بتدمير القلعة وعودة رجاله جميعا إلى بلدهم.

٥ ـ كانت هذه المدينة، التي حازت شهرة واسعة ذات يوم في بلاد العرب، تسمى قيصرية[1]. وكانت مجاورة لجبل جلعاد في أرض قبيلة ماناسة.

٦ ـ وانتهت هذه السنة في سعادة من جميع الوجوه

وكانت سالمة، رخية، وغنية بالفواكه من كل نوع

(١١)

حملة الملك ضد كونت طرابلس، ثم ضد الأتراك:

١ ـ في سنة ١١٢٢م من ميلاد الرب تم تعيين كبير أساقفة لصور اسمه «أودو» كان من الجنس اللاتيني أولا، ليكون كبير أساقفة بيت المقدس.

٢ ـ ثم انطلق الملك قاصدا عكا حيث جمع رجاله، من المشاة والخيالة على حد سواء. وإذ حرك جيشه وحمل صليب الرب معه، سار قاصدا طرابلس. وكان هدفه أن ينتقم للمهانة والاحتقار اللذين جلبهما عليه كونت الإقليم، واسمه بونس Pons عندما رفض أن يخضع له مثلما كان أبوه برتراند قد فعل[2]. ولكن بمشيئة

---

(١) كانت هذه قلعة جرش (قيصرية القديمة) على بعد حوالي عشرين ميلا من نهر الأردن، وعلى مسافة ثلاثة وعشرين ميلا من عمان. والبناء الجميل السابق الذي يشير إليه فوشيه بناه الرومان فيما بين سنة ١٣٠ وسنة ١٨٠ ميلادية.

(٢) كان برتراند قد صار تابعا إقطاعيا لبلدوين الأول في سنة ١١٠٩م. وربما كان بلدوين الثاني عدوانيا في رغبته لإخضاع بونس.

الرب وبفضل الكلمات الحكيمة التي قالها النبلاء الحاضرون في كلا الجانبين أصغى الكونت لصوت العقل. وعقد بلدوين وبونس اتفاق صداقة بينهما.

٣ - وبعد أن تصالحا ظهر أحد كبار الأساقفة هناك، وقد أرسله أهل أنطاكية، لكي يستحث الملك أن يسرع إلى أنطاكية بقدر الإمكان لمساعدة أهلها ضد الأتراك فقد كان هؤلاء ينهبون فعلا ويدمرون الأرض دون أن يوجد زعيم مسيحي لمقاومتهم.

٤ - وعندما سمع الملك هذا أسرع في الحال، وبصحبته ثلاثمائة من خيرة الفرسان وأربعمائة من أفضل الرجال المشاة الذين جاءوه من كل مكان. أما بقية رجاله فقد عاد بعضهم إلى بيت المقدس وعاد البعض الآخر إلى بلادهم. ولكن عندما وصل الملك إلى المكان الذي كان قد سمع أن الأتراك احتشدوا فيه وأنهم يحاصرون بالفعل قلعة تسمى زادانا، انسحب الأتراك بعيدا ولم يرغبوا في مواجهة الملك. وعندما عرف هو بذلك كر عائدا إلى أنطاكية(١).

٥ - ثم عاد الأتراك مجددا إلى مشروعهم. وعندما سمع الملك بهذا ركب ضدهم في الحال. ولكن هؤلاء الناس، بما أنهم فعلا بارثيون في أساليب قتالهم ومعداتهم، وبما أنهم يتميزون بأنهم لا يبقون طويلا في أي مكان (وبسرعة أكبر مما يمكن تصوره يديرون وجوههم ثم ظهورهم تجاه أولئك الذين يقاتلونهم، ثم يفرون بسرعة متظاهرين بأنهم يائسون من المعركة، ثم يعودون بسرعة إلى الهجوم)، ولم يدربوا أنفسهم على القتال داخل حدود أي منطقة، ولكنهم يتجنبون المواجهة تماما ويفرون كما لو كانوا قد هزموا(٢).

٦ - ومن ثم، مبارك بيرق صليب الرب الأقدس، وهو المساعدة الموجودة في كل مكان لجميع المؤمنين، وتحت حمايته ورعايته يقوى المؤمنون. فقد شاء

---

(١) هذه إشارة إلى الغزو الذي قام به إيلغازي أمير حلب على الصليبيين في ٢٥ من يونيو سنة ١١٢٢ م وشارك فيه ابن أخيه نور الدين بيليك بالاتفاق مع طغتكين حاكم دمشق فيما بين ٢٧ من يوليو و١١ من أغسطس من السنة نفسها.

(٢) يشير فوشيه هنا إلى أساليب الأتراك القتالية، التي اعتمدت على الفرسان خفيفي الحركة، والتي أرهقت الصليبيين كثيرا. وقد أشار إلى هذه الأساليب القتالية وتأثيرها في فترة الحروب الصليبية سميل في كتابه عن فن الحرب زمن الصليبيين - انظر: R.C.Smail, Crusading Warfare. (المترجم)

للمسيحيين أن يعودوا إلى بلادهم دون أن يلحق بهم أذى أو ضرر. والحقيقة أن عدد جنود العدو قدر بعشرة آلاف جندي، بينما كان عدد جنودنا ألفا ومائتين، إذا لم نحسب المشاة.

٧ ـ وعندما عاد الملك إلى طرابلس ومعه صليب الرب، ظهرت مشكلة استدعت عودته إلى أنطاكية، مع بعض رجاله. أما صليب الرب فقد حمل إلى بيت المقدس حيث دخلها محاطا بمظاهر الفرح الكبير، وأعيد إلى مكانه بتكريم عظيم في اليوم الثاني عشر قبل شهر أكتوبر[١].

(١٢)

أسر كونت الرها:

١ ـ وفي الوقت نفسه، تم أسر جوسلين كونت الرها ومعه قريبه جاليران. وقتل من رجال جوسلين ما لا يقل عن مائة رجل. وقد وقعوا في كمين ماكر أعده لهم أمير يدعى بيليك[٢].

٢ ـ انتهت هذه السنة بالوفرة مثل سابقتها
في المحصولات من كل نوع، من كل ما
ينبت في الحقول
وكان حمل القمح يباع بدينار
أو أربعين حملا مقابل قطعة ذهبية
في ذلك الوقت لم تشن بارثيا أو مصر أي حرب[٣]

---

(١) ٢٠ من سبتمبر سنة ١١٢٢م.

(٢) نور الدين بيليك ابن شقيق إيلغازي، كان شابا نشطا قادرا. وقد أعد كمينا أسر فيه جوسلين وابن عمه جاليران في ١٣ من سبتمبر سنة ١١٢٢م قرب سروج. وقد طلب إمارة الرها فدية لهما، ولما رفض الصليبيون سجن الاثنين في قلعة خربُت.

(٣) استخدم فوشيه كلمة Parthia قاصدا العراق وفارس، واستخدم كلمة بابيلون Bobylonia قاصدا مصر التي كانت تحت حكم الفاطميين في ذلك الحين.

(١٣)

السلام بين البابا والإمبراطور:

١ ـ في سنة ١١٢٣م بعد ميلاد سيدنا المسيح، وفي الفترة الأولى، تصالح الملك هنري ملك ألمانيا مع البابا كاليكستس Calixtus. حمداً للرب، أن توحد التاج والكنيسة مرة أخرى في رحاب الحب.

(١٤)

استعدادات البنادقة للإسراع إلى القدس:

١ ـ في السنة نفسها، قصد البنادقة[١] أن يبحروا بأسطول كبير[٢] إلى سوريا لكي يصلوا إلى القدس بمساعدة الرب ويواصلوا إلى المنطقة المتاخمة لها، وهذا كله في سبيل مجد المسيحيين ولصالحهم. وكانوا قد تركوا بلادهم في السنة السابقة[٣]، وأمضوا الشتاء في جزيرة تسمى كورفو Corfu، في انتظار الوقت الملائم لسفرهم.

٢ ـ كان أسطولهم يتكون من مائة وعشرين سفينة، باستثناء القوارب الصغيرة. وكان بعض هذه السفن سفن قتال على حين كان بعضها سفناً تجارية. وكانت السفن من ثلاثة أنواع.

٣ ـ وقد حملت السفن بأخشاب طويلة جداً صنع منها النجارون فيما بعد بمهارة آلات الحصار واستخدموها في الصعود والسيطرة على أسوار المدن.

---

(١) وصل البنادقة إلى ميناء عكا وغيره من الموانئ الفلسطينية في وقت ما قبل منتصف شهر مايو سنة ١١٢٣م.

(٢) كان هذا الأسطول تحت قيادة Doge Domenico Michiel، خرج في محاولة طموحة للحصول على امتيازات تجارية في موانئ الدويلات الصليبية، وليغزو أيضاً الجزر التي كانت بأيدي البيزنطيين المنافسين لجمهورية البندقية في التجارة العالمية. وقد أبحر الأسطول بعد استعدادات مكثفة استجابة لدعوة كل من بطريرك أنطاكية برنارد وبطريرك القدس جورموند والملك بلدوين الثاني للمساعدة في أعقاب الهزيمة الفادحة التي لقيها روجر أمير أنطاكية.

(٣) ربما في سنة ١١٢٢م، في الثامن من شهر أغسطس.

(١٥)

وقت رحيلهم:

١ ـ في الربيع، عندما كانت الطرق البحرية مفتوحة أمام سفنهم، لم يتأخر البنادقة[١] في الوفاء بقسمهم الذي كانوا قد قطعوه للرب منذ وقت طويل. وبعد أن جمعوا المؤن اللازمة للرحلة وأشعلوا النيران في الأكواخ التي قضوا فيها فصل الشتاء، وطلبوا من الرب مساعدتهم، دقوا طبولهم في فرح وفردوا أشرعتهم.

٢ ـ وكانت السفن، التي طليت بمختلف الألوان، تزهو برونقها، وتبعث السرور في نفوس من كانوا يرقبونها من بعيد. وكانت تحمل خمسة عشر ألفا من الرجال المسلحين، منهم البنادقة والحجاج الذين رافقوهم. كما أخذوا معهم ثلاثمائة حصان.

٣ ـ وهكذا عندما أخذت الريح تهب في لطف من الشمال رفعوا مراسيهم وانطلقوا قاصدين ميثون[٢]، ثم إلى رودس.

٤ ـ وكان ضروريا لهم أن يسافروا سويا وألا يتفرقوا أو يتبعثروا. وبسبب تغير أحوال الريح، كان عليهم في معظم الأحوال أن يستطلعوا أحوال الجو ويغيروا طريقهم حتى لا يفترقوا فجأة بعضهم عن بعض. ولهذه الأسباب كانوا يبحرون مسافة قصيرة، ويبحرون نهارا بدلا من أن يبحروا في الليل. وقد أرسوا سفنهم طلبا للتزود بالمؤن اليومية في الموانئ التي وجدوها حتى لا يقاسوا هم وخيولهم من العطش إذا نقص الماء العذب.

(١٦)

أسر بلدوين وشخص يدعى إيستاس يحل محله:

١ ـ وحدث في ذلك الوقت أن بلدوين، ملك بيت المقدس، وقع في الأسر[٣]. لأن بيليك الذي كان في وقت سابق، قد أسر جوسلين وجاليران، قبض على

---

(١) حاول البنادقة هزيمة الحامية البيزنطية في جزيرة كورفو.

(٢) ميثون Methone ميناء إيطالي على ساحل ميسينيا.

(٣) ١٨ من إبريل سنة ١١٢٣م.

بلدوين أيضا. ولم يكن بلدوين يتوقع هذا ولم يكن مستعدا. ولم يكن هناك شيء يفرح المسلمين أو يرعب المسيحيين أكثر من هذا.

٢ ـ وبعد أن وصلت هذه الأنباء إلينا في القدس اجتمع الكل في مدينة عكا للمشاورة فيما يجب عمله. واختاروا رجلا يدعى إيستاس Eustace، ليكون وصيا وزعيما، وهو رجل ذو شخصية شريفة كان يحكم قيصرية وصيدا في ذلك الوقت[١]. وقام بطريرك بيت المقدس مع كبار رجال المملكة باتخاذ هذا القرار وأعلنوا أنه سوف يسري حتى يعرفوا يقينا مصير مليكهم الأسير.

٣ ـ كان هذا الموقف في منتصف مايو عندما سمعنا فجأة أن المصريين قد وصلوا عسقلان بجيش من قسمين، أحدهما بري والآخر بحري. وإذ كان لدينا بالفعل سفينة صغيرة قررنا إرسال الرسل إلى البنادقة نرجوهم أن يسرعوا بأسطولهم لمساعدتنا في الأزمة التي أحاطت بنا.

(١٧)

حصار يافا مرة أخرى على يد المصريين والمعاناة الشديدة لأهلها:

١ ـ كما أن المصريين اندفعوا بأسطولهم على يافا وخرجوا من سفنهم بضجة عظيمة، وقد تعالت أصوات طبولهم وفرضوا حصارهم على المدينة. وفي الحال نصبوا الآلات لضرب الأسوار وغيرها، وكانوا قد أحضروا هذه الآلات في سفنهم، وهاجموا المدينة من جميع النواحي. وجعلوا المدينة تحت المعاناة، وقذفوها بأحجار من حجم لم يسبق له مثيل.

٢ ـ وكان السبب في هذا أنهم امتلكوا منجنيقات قوية جدا مكنتهم من قذف الأحجار لمسافات أبعد من السهام. أما المشاة الأثيوبيون أو العرب الذين جاءوا بهم مع الفرسان فقد شنوا هجمات عنيفة للغاية على سكان يافا. وعلى كلا الجانبين كان هناك رجال يقذفون الحراب، وآخرون يقذفون الأحجار، وغيرهم يرمون

---

(١) كان Eustace Garnier، وهو من الفلمنج، سيدا على قيصرية وصيدا، وكان من أبرز رجال مملكة بيت المقدس.

بالنشاب . وفضلا عن ذلك فإن الذين كانوا داخل المدينة ، قاتلوا برجولة دفاعا عن أنفسهم ، وقتلوا عددا من المهاجمين بضربات متوالية .

٣ ـ كان الأثيوبيون يحملون الدروع بأيديهم ، وهكذا غطوا أنفسهم وحموها . وكانت نساء يافا مستعدات للمساعدة الكريمة للرجال الذين قاتلوا بقوة . وكانت بعضهن تقدمن الحجارة والأخريات تقدمن المياه للشرب .

٤ ـ وفي غضون خمسة أيام[1] ، ألحق المسلمون قليلا من الضرر بسور المدينة ودمروا كثيرا من الشرفات التي قذفوها بالأحجار . ثم سمعوا باقترابنا وأوقفوا القتال عندما سمعوا أصوات الطبول . وفكوا آلات الحصار وأخذوها معهم إلى سفنهم .

٥ ـ ولو أنهم جرءوا على البقاء هناك وقتا أطول لاستولوا على المدينة بلا شك ، لأن المدافعين عنها كانوا قلة . ذلك أنهم كانوا قد حفروا فعلا حول الأسوار هنا وهناك على أمل الدخول إلى المدينة بسرعة . كما كان لديهم أسطول من ثمانين سفينة .

(١٨)

المعركة ضد الأتراك وانتصار المسيحيين بمساعدة الصليب المقدس :

١ ـ عندما سمع شعبنا من مروجي الإشاعات أن الخطر وشيك الوقوع ، فإنهم تجمعوا من كل مكان في جيش أمام قلعة يسميها السكان المحليون قاقون[2] . وقد جاءوا من طبرية ، ومن قيصرية ، والقدس . وبعد أن تم إحضار صليب الرب إلى مكان الاجتماع أسرع شعبنا بالمسير وهم على استعداد للقتال ضد العدو قرب مدينة الرملة التي تقع قرب مدينة اللد .

٢ ـ ولكننا بقينا في بيت المقدس ، سواء اللاتين ، أو اليونان ، أو السوريان ، ولم نتوقف عن الصلاة من أجل أخوتنا الذين وضعتهم الظروف في محنة ،

---

(١) ستة أيام من ٢٣ من مايو حتى ٢٨ من مايو سنة ١١٢٣ وفقا لتقدير هاجنماير .

(٢) على مسافة عشرة أميال جنوب شرقي قيصرية .

ومنحنا الصدقات للمحتاجين، وفي الوقت نفسه زرنا كل الكنائس في المدينة المقدسة ونحن حفاة.

٣ ـ وفي تلك الأثناء، فإن زعماءنا الذين استيقظوا مع بزوغ النهار، أمروا الرجال الذين كانوا قد استعدوا في صفوفهم، بأن يمضوا صوب الرملة. وبعد أن منحهم البطريرك البركة بدأت المعركة قرب أشدود. وكانت هذه المدينة واحدة من مدن الفلسطينين الخمس في الزمن القديم، وهي تسمى الآن إيبونيوم، وقد تضاءلت إلى قرية صغيرة.

٤ ـ وعلى كل حال فإن المعركة لم تستمر طويلا، لأن أعداءنا عندما رأوا رجالنا المسلحين يتقدمون في نظام بديع لقتالهم، سارع فرسانهم بالهرب كما لو كانوا قد مسهم السحر، وفروا مذعورين بدلا من أن يستخدموا عقولهم. أما جنودهم المشاة فقد ذبحوا.

٥ ـ وبقيت كل خيامهم بما تحويه من ممتلكات قائمة في ميدان المعركة. وتم الاستيلاء منهم على ثلاث رايات فاخرة من النوع الذي نسميه Standarz. وعاد رجالنا بأنواع كثيرة جدا من المتاع والبضائع، وعدد كبير من العربات المحملة بالمتاع، وأربعمائة جمل وخمسمائة بغل.

٦ ـ ومن بين ستة عشر ألفا من جنود العدو الذين دخلوا المعركة قتل ستة آلاف. وقد قتل عدد ضئيل من رجالنا. وكان عدد رجالنا يقدر بحوالي ثمانية آلاف رجل، ولكنهم كانوا شجعانا، مهرة للغاية، مستعدين تماما للقتال، واثقين من حب الرب، وقد ساندتهم ثقتهم في الرب تماما.

٧ ـ كان فوبيوس قد صعد اثنتي عشرة مرة في برج الجوزاء [(١)]، عندما تم تدمير الجنس القاسي بقوة الرب، وتمددت جثثهم في سهول فلسطين حيث صارت طعاما للذئاب والضواري.

---

(١) ٢٩ من مايو سنة ١١٢٣م حسب قول فوشيه، و٣٠ من مايو حسب قول ابن ميسر.

(١٩)

استقبال الصليب المقدس في القدس:

١ ـ بعد كسب المعركة، كما حكينا، بفضل قوة الرب وتمجيدا لاسمه ورفعه للمسيحيين، عاد البطريرك إلى بيت المقدس ومعه صليب الرب، وتم استقباله خارج بوابة داود باحتفال مجيد، وحمل محاطا بالتكريم والتشريف إلى كنيسة القيامة. ثم غنينا «نحمدك يا ألله Te Deum Laudamus»، وأسدينا الشكر للرب القدير على بركاته.

(٢٠)

وصول البنادقة ومعركتهم البحرية ضد المسلمين:

١ ـ في اليوم التالي مباشرة بعد هذا النجاح السعيد توالت الأنباء. وقد ابتهجنا عندما سمعنا أن أسطولا من البندقية قد دخل إلى كثير من الموانئ الفلسطينية. والواقع أن إشاعات كثيرة كانت قد راجت تعلن قدومهم قبل وقت طويل. وبمجرد أن أرسى الدوج، الذي يقود هذا الأسطول البندقي، بسفنه في عكا، عرف في الحال بما جرى عند يافا في البر وفي البحر، وكيف أن المصريين قد ألحقوا ضررا بقدر ما في وسعهم، وكيف أنهم رحلوا بعد أن حققوا غرضهم. ولكن إذا رغب الدوج في مطاردتهم بنشاط، فإن بوسعه أن يلحق بهم بمساعدة الرب.

٢ ـ وفي الحال، عقد مجلسا للتشاور مع بحارته، وقسم أسطوله. وتولى هو نفسه قيادة إحدى الفرق وأبحر صوب يافا. وفي مكر أرسل القسم الآخر من أسطوله إلى أعالي البحار حتى يظن المسلمون أنه يحضر الحجاج من نواحي قبرص.

٣ ـ وعندما رأى المسلمون أن ثماني عشرة سفينة من أسطول البنادقة تقترب منهم بدءوا يستعدون كما لو أن الغنائم من هذه السفن قد صارت بأيديهم فعلا، واستعدوا لكي يبحروا لقتال البنادقة ويهاجموهم في جسارة.

٤ ـ ولكن رجالنا تظاهروا بأنهم خائفون من القتال وانتظروا بذكاء حتى يصل

القسم الآخر من الأسطول تدريجيا خلفهم، ولم يلجئوا إلى الهرب، كما أنهم لم يشتبكوا في القتال حتى رأى المسلمون سفننا القادمة من الخلف وقد طويت أشرعتها وسارت بالمجاذيف .

٥ ـ ولهذا السبب ارتفعت معنويات البنادقة . واندفعوا لينقضوا على أعدائهم بغضب عنيف، وأحاطوا بهم من كل النواحي بحيث لا يستطيعون إلى الفرار سبيلا . وتم التضييق على المسلمين بحيث لم تستطع سفنهم أو رجالهم الهرب في أي اتجاه على حين صعد البنادقة إلى سفنهم ومزقوا رجالهم إربا .

٦ ـ صعب أن نصدق الحقيقة لأنه لم يسمع بمثلها، ولكن أرجل القتلة كانت تغوص في الدماء . وبهذه الطريقة تم الاستيلاء على السفن المحملة بالثروات . وبعد أن ألقيت الجثث من فوق السفن كان سطح البحر قد اصطبغ بحمرة الدماء على مدى أربعة أميال .

٧ ـ ثم أبحر رجالنا مرورا بعسقلان لكي يتبينوا ما يمكن أن يجدوه، واكتشفوا عشر سفن أخرى محملة بالمؤن المختلفة الأنواع، وقد أقبلت نحوهم . وفي هذه السفن كانت توجد أخشاب طويلة مستقيمة تصلح لبناء آلات الحرب . واستولوا على هذه السفن بما تحمله من آلات، والعملات الذهبية والفضية، والفلفل، والكثير من أنواع التوابل والعطور .

٨ ـ وأحرقوا على الشاطىء بعض السفن التي كانت قد هربت إلى الشاطئ، ولكنهم أحضروا الكثير من السفن السليمة إلى عكا . وهكذا ساند الرب خدامه عدة مرات ومنحهم المكافآت السخية .

(٢١)

لم يكن شعب القدس وحدهم على الرغم من أسر ملكهم:

١ ـ كم هو طيب ومجيد للرجال دائما أن يكون الرب بجانبهم! «طوبى للأمة التي الرب إلهها . الشعب الذي اختاره ميراثا لنفسه» [1] لأن الوثنيين

---

(١) مزامير، ٣٣ : ١٢ .

يقولون «لنذهب وندمر المسيحيين ونمحو ذكرهم من الأرض، لأنهم الآن بلا ملك، فالأعضاء بدون الرأس» وهم يتكلمون بصدق، لأنهم لا يؤمنون بأن الرب هو ملكنا[1].

٢ ـ لقد خسرنا بلدوين، ولكننا عَدَدْنا الرب ملكنا جميعا. فقد دعوناه في حاجتنا وانتصرنا بفضله نصرا إعجازيا. وربما لم يكن ملكا ذلك الذي فقدناه في حادثة، ولكن الرب الذي أحرز النصر ليس ملكا على القدس فقط ولكنه ملك الأرض كلها. حقا يجب أن نعترف بأنه كان الرب معنا ملكا حقا في المعركة، وأنه لنا الآن وسيكون لنا مادمنا نفضله على كل الآخرين في أعمالنا كافة. لأنه موجود دائما، موجود لكل من يعولون عليه حقا.

٣ ـ لأنه رآنا في هواننا نتأذى كثيرا، وقدر هواننا برحمته فحررنا. لقد حارب من أجلنا، وأورد أعداءنا موارد التهلكة. فهو المنتصر دوما، ولا يغلبه أحد، هو الغالب المسيطر لا يسيطر أحد عليه، لا يخادع ولا يُخدع من أحد. إنه الملك حقا، لأنه يحكم بالعدل.

٤ ـ كيف يمكن أن يصبح أي فرد ملكا حقا وهو المغلوب بخطاياه؟ كيف يستحق امرؤ لقب ملك إذا كان دائما مخالفا للقانون؟ لأنه لا يحفظ قانون الرب فإنه لا يحصل على الطاعة؛ ولأنه لا يخشى الرب، فإنه سوف يخاف من عدوه الإنسان. إن من يكون زانيا، ظالما، مؤذيا، يخسر اسم الملك. إن المخادع الغشاش، لا يجد من يثق به. وإذا كان محبوبا من غير المؤمنين، فكيف يسمعه الرب؟ إذا كان سارقا للكنائس، وإذا كان عدوا للفقراء، فإنه إذن لا يحكم وإنما ينهب.

٥ ـ فلنتضرع إلى الرب في الأعالي ونضع أملنا فيه، ولن نضيع أبدا[2].

---

(١) من الواضح أن فوشيه يستخدم أسلوب الوعظ الكنسي في هذه الفقرة التي تكشف عن ضيق الأفق من ناحية، والتعصب الشديد من ناحية أخرى. وقد سبق أن اقتبس نفس العبارة من المزمور الثالث والثلاثين مرتين قبل ذلك في المقدمة، وفي الكراسة الأولى. وهو نفس الأسلوب الذي يستخدمه عندما يحاول التعليق على الحوادث التاريخية التي يسجلها. (المترجم).

(٢) هذا الفصل كله كتبه فوشيه على شكل موعظة كنسية، وأغلب الظن أن كتابه كان يروى على جماهير المستمعين في زمن لم تكن الطباعة فيه معروفة، وكانت نسخ أي كتاب محدودة جدا، وكان المؤلف يعول على جمهور من السامعين لا من القراء، ولهذا السبب وضع مثل هذا الفصل الذي يصلح موعظة في كنيسة إذ يخلو تماما من المادة التاريخية (المترجم).

(٢٢)

موت إيستاس وتولي وليام العرش:

١ ـ كذلك في هذا الوقت الصعب مات إيستاس، الذي كان قد تم اختياره وصيا على بلادنا، في اليوم السابع عشر قبل شهر يوليو[١]. وتقرر أن يخلفه وليم بوري الذي كان يحكم طبرية آنذاك[٢].

(٢٣)

كيف هرب الملك بلدوين من السجن:

١ ـ ثم حدث في منتصف أغسطس، أن هرب الملك بلدوين ملك بيت المقدس، برحمة العناية الإلهية، من سجن بيليك الذي كان قد أسره في قلعة معينة[٣]، وكان مع بلدوين في سجنه أيضا جوسلين كونت الرها، وكثيرون غيره. وحكاية هذا الموضوع طويلة إلي حد ما ولكنها مباركة بالتدخل الإلهي تحف بها المعجزات.

٢ ـ فبعد أن مكثوا محبوسين في تلك القلعة وقتا طويلا دون مساعدة من أصدقائهم، بدءوا يناقشون فيما بينهم جميع الخطط التي قد يمكنهم بواسطتها أن يهربوا من هناك. ومن ثم بدءوا يبحثون عن المساعدة في كل مكان من خلال الرسل الموثوق بهم إلى أصدقائهم. وقد عولوا بكل السبل على التآمر مع الأرمن الذين يعيشون حولهم، وقد وضعوا هذا الهدف نصب أعينهم، وهو أنهم إذا تمكنوا من الحصول على مساعدة أصدقائهم في الخارج فإن الأرمن سوف يظلون معاونيهم المخلصين.

٣ ـ وقد تم الاتفاق على هذا، بعد بعض الهدايا وكثير من الوعود، وبعد تبادل التعهد بالأيمان، وكان هناك حوالي خمسين عميلا أرسلوا بطريقة ماكرة من مدينة

---

(١) ١٥ من يونيو سنة ١١٢٣م.

(٢) William de Bure، سيد طبرية السابق كان من رجال المملكة البارزين. انظر:
Lamonte, John L., Feudal Monarch in the Latin Kigdom of Jerusalem (Cambridge 1932).

(٣) هذه القلعة تعرف باسم خَرَبُت في «التركية»، واسمها العربي «حصن زياد» على مسافة ١١٠ أميال شمالي الرها و٣٥ ميلا شرقي الفرات. Encyclopaedia of Islam, "Kharput".

الرها إلى القلعة لهذه المهمة[1] . وقد تنكروا في هيئة متواضعة لرجال يبيعون البضائع التي يحملونها بأنفسهم، وقد انتهزوا الفرصة لكي يقتربوا بهدوء من أبواب القلعة الداخلية .

٤ ـ وبينما كان قائد الحرس يلعب الشطرنج بلا مبالاة بالقرب من أحد الأبواب مع أحد الرجال الموالين لنا، اقترب رجالنا منه في حذر ومكر شديد كما لو كانوا سيقدمون له شكوى من بعض ضرر نزل بهم . ثم نحوا الخوف والحذر جانبا وسحبوا خناجرهم، وفي الحال ذبحوا القائد . ثم أمسكوا الحراب التي وجدوها هناك وبدون تردد قاتلوا وهاجموا في رجولة .

٥ ـ وثارت ضجة عظيمة هناك، وارتبك جميع من بالداخل والخارج . أما أولئك الذين أسرعوا مهرولين إلى مكان الضجة فقد لقوا مصرعهم في الحال . والحقيقة أنه كان هناك حوالي مائة من الأتراك . وفي الحال تم تحرير الملك والآخرين من سجنهم .

٦ ـ وكان البعض ما يزالون في الزنازين عندما بدءوا يضعون السلالم إلى قمة القلعة . وهكذا عرفت الحقيقة وشاعت . وفي هذه القلعة نفسها كانت تقيم زوجة بيليك وآخرون ممن يحبهم .

٧ ـ وسرعان ماحوصرت القلعة من جميع الجوانب بقوات الأتراك . وتم منع من بالداخل من الخروج وكذلك منع من بالخارج من دخول القلعة . وتم إغلاق الأبواب والمنافذ في عدة أماكن .

(٢٤)

كيف هرب كونت الرها من السجن:

١ ـ لا أظن أنني سأسكت عن سوء الطالع الذي لاح لبيليك في منامه . إذ إنه رأى (وحكى ذلك فيما بعد) أن عينيه تمزقتا بيد جوسلين . وقد حكى ذلك في الحال

---

(١) يقرر متى الرهاوي أن عدد العملاء الذين خرجوا من الرها إلى تلك القلعة كانوا خمسة عشر رجلا . .(RHC, Arm., I, P. 133).

لقساوسته[1] لكي يخبروه بتفسير هذا الحلم . وقالوا له : «حقا ، سوف يحدث هذا لك! أو شيء يماثله شرا ، إذا وقعت في يديه» . وعندما سمع بيليك هذا أرسل رجاله لقتل جوسلين ، خوفا من أن يقتله هو كما جاء في تفسير الحلم . ولكن قبل أن يصلوا إلى جوسلين كان قد هرب ، بفضل الرب ، من الأسر على النحو الذي سوف نحكيه الآن .

٢ ـ فقد تشاور الملك بلدوين ورجاله جميعا حول الطريقة التي يمكنهم أن ينقذوا أنفسهم بها . وعندما فكروا في أنسب الأوقات وضع السيد جوسلين حياته على كفه تاركا أمره لخالق الكون ، وانسل خارجا من القلعة ، وتبعه ثلاثة من أتباعه . وبمزيج من الخوف والجسارة مر جوسلين بين جنود العدو في ضوء القمر . وفي الحال أرسل واحدا من رجاله إلى الملك بخاتمه لكي يوضح أنه استطاع أن يتسلل خارجا بين الذين يحاصرون المكان ، كما كان هو وبلدوين قد اتفقا من قبل .

٣ ـ وفيما بعد ، استطاع ، بالهرب والاختفاء والسير ليلا بدلا من النهار ، أن يصل إلى نهر الفرات ، وقد حفيت قدماه تقريبا بسبب تآكل حذائه . ولأنه لم يكن هناك قارب فإنه لم يتردد في القيام بما يمنعه الخوف . فماذا كان ذاك؟ فقد ملأ بالهواء حقيبتين جلديتين كانتا معه ، ووضع نفسه فوقهما وهكذا عام فوق صفحة النهر . ولأنه لم يكن يعرف السباحة فقد جاهد رفاقه بعنف حتى لا يغرق بمعونة الرب حتى وصل إلى الشاطئ سالما .

٤ ـ وتملكه الإرهاق بسبب رحلته غير العادية ، فقد كان منهكا ، أضناه العطش وتقطعت أنفاسه ، ولكن أحدا لم يكن موجودا ليمد له يد المساعدة . ولأنه كان مرهقا بسبب أعماله ، وقد غلبه النعاس ، سمح لنفسه بالنوم تحت شجرة بندق وجدها هناك . وغطى نفسه بأوراق الشجر والأغصان حتى لا يتعرف عليه أحد إذا رآه . وفي الوقت نفسه أمر أحد أتباعه أن

---

(١) هذا النمط من القصص الشعبي كان رائجا في أوربا العصور الوسطى ، وقد شاع في كتابات المؤرخين اللاتين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية ؛ إذ إن كتاباتهم تعج بها المؤرخات التي دونها أولئك المؤرخون وشهود العيان . ويتضح هذا جليا من أن فوشيه ، في هذه القصة ، يظن أن بيليك المسلم كان له قساوسة شأن ملوك ونبلاء الفرنج الذين كان لكل منهم قسيسه الخاص «Chaplain» . وقد كان فوشيه نفسه واحدا منهم . (المترجم)

يبحث عن خبز يشتريه أو يشحذه من السكان المحليين بأي ثمن، لأن الجوع كان يعضه بأنيابه ويعذبه كثيرا.

٥ ـ ووجد الخادم واحدا من الأرمن يحمل بعض التين الجاف وبعض العنب في حقل قريب، وبعد أن ساومه بحذر، أحضره إلى سيده. الذي كان مستعدا لأن يأكل أي شيء لسد جوعه.

٦ ـ وعندما اقترب الفلاح من السيد جوسلين تعرف عليه وخر عند قدميه قائلا: «سيدي جوسلين!». وتنبهت مشاعر الحذر في جوسلين عندما سمع ما لم يكن يريد سماعه، وأجاب: «إنني لست هو الذي تخاطبه، ولكن ليساعده الرب حيثما يكون». وأجاب الريفي: «أتوسل إليك ألا تنكر نفسك لأنني أعرفك على وجه اليقين. ولكن أخبرني بما جرى لك في هذه المنطقة وكيف حدث. أرجوك ألا تخاف».

٧ ـ وأجابه الكونت: «ارحمني، أيا كنت. أتوسل إليك ألا تخبر أعدائي بما جرى علي من بؤس ولكن أرشدني إلى طريق آمن وبهذا تستحق أن تأخذ هذه القطعة من النقود. لأنني هارب، بمساعدة الرب، فقد هربت من سجن بيليك في قلعة اسمها خربُت في بلاد النهرين على هذه الضفة من نهر الفرات».

٨ ـ «لأنك ستقوم بعمل طيب إذا ساعدتني في شدتي هذه، حتى لا أقع مرة أخرى في يدى بيليك وأهلك بائسا. وإذا كنت ترغب في القدوم معي إلى قلعتي في تل باشر، فسيكون حالك حسنا طوال حياتك. ولذا أخبرني ما ممتلكاتك في هذا الجزء، حتى أرد إليك ما هو أكثر منها فى أرضي، إذا كنت ترغب في ذلك».

٩ ـ أجاب الفلاح: «إنني لا أطلب منك شيئا، ولكن أريد أن أرشدك إلى السلامة حيثما شئت. لأنني أتذكر أنك تلطفت مرة وجعلتني آكل معك. ولذلك أنا مستعد لأرد لك صنيعك الطيب. سيدي، إن لي زوجة، وابنة صغيرة وكذلك جحش صغير، وأخوين وثورين. إنني أضع نفسي تماما رهن أمرك لأنك رجل قوي وحكيم للغاية. حتى الآن أنا ذاهب معك بكل ما أملك. كما أن عندي أيضا خنزيرا صغيرا. وسوف أطبخه فورا وأحضره لك».

١٠ ـ أجاب جوسلين : «لا أيها الأخ ، إنك لم تتعود أن تأكل خنزيرا بكامله في وجبة واحدة ؛ لا تجعل الشكوك تراود جيرانك» .

١١ ـ ورحل الأرمني ثم عاد بكل ما يملك ، وفقا للاتفاق الذي تم بينهما . وامتطى الكونت جحش الفلاح الصغير ، وهو الذي اعتاد على ركوب الخيول المطهمة . وحمل أمامه طفلة صغيرة . وهكذا فإن من لم يكن مسموحا له بأن يكون أباها حملها كما لو كان هو أباها . وكان هذا لكي يظن من لا يعرفونه أنه كان لديه أمل في أن ينجب ، على الرغم من أنه لم ينجب بالفعل .

١٢ ـ وعلي أي حال ، فإن الطفلة بدأت تضايق جوسلين بالصراخ المتواصل ولم يستطع أن يهدئها بأي وسيلة . ولم تكن هناك مربية تدللها وتهدئ روعها بالمداعبة . ولهذه الأسباب فكر في أن يتخلى عن هذه الصحبة الخطرة عليه وأن يمضي وحده في أمان . ولكنه عندما فكر في أن هذا قد يغضب الفلاح لم يشأ أن يعكر صفو الرجل واستمر يقوم بالمهمة التي أخذها على عاتقه .

١٣ ـ وعندما وصل تل باشر [١] لقي من الجميع استقبالا سارا . وغمر الفرح والسرور زوجته وأهل بيته[٢] . وليس بإمكاننا أن نشك في أن البهجة ملأت صدور الجميع ، وفاضت دموعهم من الفرح ، وخفقت الصدور وهي تتنهد ارتياحا . أما الفلاح ، فإنه تلقى جزاء كرمه في الحال ، وأخذ ضعف ما قدم .

١٤ ـ ولأن الكونت جوسلين لم يكن قادرا على البقاء طويلا بين أصدقائه ، فإنه ذهب إلى أنطاكية في الحال ، ومن هناك توجه إلى بيت المقدس . وهنا صلى شكرا للرب على رحمته وقدم القيود التي كان مقيدا بها والتي حملها معه تقدمة إلى الرب ، وعلقها على جبل كالفري تذكرة لأسره وتمجيدا لتحرره . وكان أحد القيدين من الحديد ، والثاني من الفضة .

١٥ ـ وبعد ثلاثة أيام ، رحل عن القدس ، وتبع صليب الرب الذي كان قد أخذ إلى طرابلس . لأن جيش القدس كان سيرحل ومعه الصليب إلى خربت ، قلعة

---

(١) في النصف الثاني من شهر أغسطس .

(٢) هي زوجته الثانية «ماريا» أخت أمير أنطاكية .

بيليك، حيث كان الملك وآخرون كثيرون محتجزين، ليس في السلاسل، ولكن داخل جدران القلعة.

١٦ ـ مبارك هو رب الكون الذي ينظم مشيئته وقوته على هذا النحو بحيث إذا شاء دحر القوي وأسقطه من عليائه، ورفع الضعفاء من التراب. وهكذا كان بلدوين يحكم في الصباح؛ فإذا جاء عليه المساء كان عبدا ذليلا. ولم يكن ما حدث لجوسلين أقل من هذا. فمن الواضح تماما أنه لا يوجد شيء مؤكد في هذا الكون، ولا شيء مستقر، ولا شيء مقبول لفترة طويلة. وبالتالي ليس حسنا أن تتنهد على البضائع الأرضية، ولكن من الأفضل أن تجعل القلب متجها نحو الرب دوما. فلا يجب أن نثق في متاع الدنيا لئلا نفقد الحياة الخالدة.

١٧ ـ لقد أكملت الآن عامي الخامس والستين كما حسبت عمري
ولكني لم أر ملكا مثل هذا الملك في انضباطه
ولست أعرف إن كان لهذا مغزى، فالرب وحده يعلم

(٢٥)

حملة أهل بيت المقدس وأسر بلدوين مرة ثانية:

١ ـ وعندما كان أهل بيت القدس ماضين في طريقهم إلى المكان المتفق عليه، انضم إليهم أهل أنطاكية وطرابلس في أنطاكية. ولكن عندما وصلوا جميعا إلى تل باشر عرفوا أنه تم القبض على الملك ثانية في قلعة خربت التي كان محصورا بداخلها. وعندما علموا بذلك غيروا خطتهم وصدرت الأوامر في الحال بالرجوع.

٢ ـ وإذ تملكتهم الرغبة في أن يحرزوا لأنفسهم شيئا، دقوا طبولهم واستداروا صوب مدينة حلب. وقد نهبوا ودمروا كل ما وجدوه خارج الأسوار بعد أن أجبروا كل من خرجوا لقتالهم على العودة إلى داخل المدينة. ولكنهم بعد أن تأخروا هناك أربعة أيام[1] لم يحققوا شيئا خلالها، قرروا العودة إلى ديارهم لأنهم كانوا يعانون بالفعل من نقص الأقوات. وعلى أي حال، فإن الكونت جوسلين بقي في منطقة أنطاكية.

---

(١) من ٢٠ إلى ٢٣ من أكتوبر سنة ١١٢٣ تقريبا

٣ ـ وعندما وصل رجال القدس في طريق عودتهم إلى عكا، وقبل أن يلاحظ المسلمون المجاورون ذلك عبروا نهر الأردن فجأة. ولكن بعد أن أسرعوا عبر الإقليم الذي تحده بلاد العرب وجبل جلعاد وقبضوا على عدد من المسلمين من الجنسين، واستولوا على عدد كبير جدا من الحيوانات، عادوا إلى منطقة طبرية القريبة منهم ومعهم قافلة طويلة من الجمال والماشية وكذلك الأطفال والبالغين. وبعد أن قسموا الغنائم فيما بينهم كما جرت العادة، دخلوا القدس من كل ناحية ووضعوا صليب الرب في مكانه، وكانوا قد أخذوه معهم من قبل.

٤ ـ بيد أني يجب أن أعود إلى الموضوع الذي تركته لفترة قليلة.

(٢٦)

كيف حاصر بيليك الملك وقبض عليه مرة أخرى:

١ ـ عندما عرف بيليك بما جرى في خربُت وكيف هرب الكونت جوسلين من الأسر، أسرع إلى هناك بكل سرعة ممكنة. وتحدث بعبارات لينة مع الملك بلدوين وطلب منه أن يعيد قلعته إليه بشرط أن يسمح له بالرحيل سالما حتى الرها أو أنطاكية وقدم له رهائن مختارين. وإلا فإن البديل سيكون سيئا لأحدهما أو لكليهما.

٢ ـ ولكن عندما رفض بلدوين الموافقة على هذه الشروط جن جنون بيليك وهدد بأن يستولي على القلعة ويقبض على الملك بالقوة وأكد أنه سوف ينتقم من أعدائه. ثم أمر في الحال بتقويض الصخرة التي بنيت عليها القلعة وأن توضع الدعائم على طول الخندق لمساندة العمل الجاري فوق. ثم أمر بحمل الأخشاب إلى داخل القلعة وإضرام النيران فيها. وعندما أحرقت الدعائم انهارت البناية فجأة، ثم سقط البرج القريب من النيران وأحدث سقوطه ضجة عالية.

٣ ـ وفي البداية تصاعد الدخان مع الغبار لأن الردم غطى النيران. ولكن عندما أكلت النار المواد التي كانت تحت وبدأت ألسنة اللهب تظهر بوضوح أغمي على الملك بسبب الحدث غير المتوقع. فقد انهارت آماله وارتعدت فرائصه من هذا الانهيار وداخله الخوف من الحادث. وإذ فقد الملك ورجاله شجاعتهم وخانهم

حسن التقدير استسلموا ووضعوا أنفسهم تحت رحمة بيليك، وهم لا يتوقعون شيئا غير العقاب الذي يرى أن ينزله بهم.

٤ ـ وعلى أي حال، فإن بيليك أبقى على حياة بلدوين، وكذلك فعل مع واحد من أبناء أخوة الملك وجاليران أيضا. ولكن الأرمن الذين ساعدوا الملك، شنق بيليك بعضهم، وسلخ جلود بعضهم وقطع غيرهم نصفين بالسيف[١]. وأمر بأن ينقل الملك وثلاثة من رجاله من القلعة إلى مدينة حران.

٥ ـ ولأن هذه الأمور جرت بعيدا عنا، كان من الصعب علينا التأكد مما حدث بالضبط. ومع هذا دونت ما أخبرني به الآخرون بقدر ما أمكنني من الدقة.

٦ ـ انتهت هذه السنة بانقطاع المطر وجو سيئ
سبب لأهل القدس حزنا كثيرا
وهكذا كان قد مضى من تاريخنا أربع وعشرون سنة[٢]
بعد بداية حملة الحج الشهيرة
التي خرجت من كل أرض

(٢٧)

الاستعداد لحصار صور[٣]

١ ـ في سنة ١١٢٤ بعد ميلاد سيدنا يسوع، تم الاحتفال بعيد ميلاد المخلص في بيت لحم وفي القدس كما هي العادة. وكان دوج البندقية ورجاله موجودين أيضا

---

(١) هذه الطريقة في الإعدام أدخلها الأتراك إلى المنطقة، وكانت تعرف ضمن العقوبات في عصر سلاطين المماليك باسم «التوسيط». وكان المحكوم عليه بهذه العقوبة يضرب بسيف قوي عند وسطه بحيث ينقسم جسده قسمين. (المترجم)

(٢) كلام فوشيه هنا ليس دقيقا تماما، لأن سنة ١١٢٣م كانت السنة الرابعة والعشرين بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩م، وليس بعد بدايتها في سنة ١٠٩٥ ـ ١٠٩٦م.

(٣) كانت صور مهمة جدا بالنسبة للصليبيين، فقد كانت آخر ميناء بقي بأيدي المسلمين شمالي عسقلان، كما أنها كانت منفذا بحريا مهما بالنسبة لإمارة دمشق. وكانت صور غاية في الأهمية للجانبين. ولهذا يخصص لها حيزا كبيرا في الكراسة الثالثة.

للاحتفال بهذه المناسبة، ووافق الجميع وأقسموا على فرض الحصار على صور أو عسقلان بعد يوم ٦ من يناير سنة ١١٢٤م.

٢ ـ ولكن بسبب نقص الأموال في ذلك الوقت لدينا جميعا، تم جمع مبلغ كبير من كل الرجال لدفع رواتب الفرسان والمشاة المأجورين. ومشروع مثل الحصار المقترح لا يمكن أن يتم دون الدفع للرجال. ولهذا السبب كان علينا أن نرهن الأدوات والأواني الثمينة في الكنيسة لكي نحصل على الأموال من دائنينا(١).

٣ ـ ثم توافد الجميع من كل الجهات حسب الاتفاق في المكان المحدد.

وعندما انتعش برج الجدي ثلاث مرات بحرارة الشمس؛
رحل الناس سويا من أورشليم للقاء العدو.
وكان هذا في يوم الأحد، أول يوم من الشهر القمري الجديد(٢).

(٢٨)

كيف حاصر البطريرك والبنادقة مدينة صور:

١ ـ عندما وصلوا عكا رتبوا مع البنادقة أن يذهبوا إلى صور ويحاصروها. ومن ثم أحاط البطريرك بجميع رعاياه والدوج بكل رجاله ـ أحاطوا مدينة صور في اليوم الخامس عشر بالضبط قبل شهر مارس(٣).

عندما كانت الشمس داخلة في مدار الدلو

٢ ـ وعندما سمع رجال عسقلان، الذين لم يستطيعوا أبدا أن يكبحوا عدوانهم، بهذا الأمر لم يترددوا في إلحاق أكبر قدر ممكن من الضرر بنا. وذات يوم، قسموا جيشهم ثلاثة أقسام، وتوجهوا بالقسم الأكبر من جنودهم صوب بيت المقدس. وفي الحال قتلوا ثمانية رجال بقسوة، وكان هؤلاء يعملون في مزارع الكروم خارج المدينة.

---

(١) ربما يكونون قد اقترضوا من التجار البنادقة الذين كان الربح همهم الأول والأخير.
(٢) ٢٠ من يناير سنة ١١٢٤م.
(٣) ١٦ من فبراير سنة ١١٢٤م.

٣ ـ وبمجرد اكتشاف وجودهم، دقت الطبول في برج داود لتعلن لنا الخبر؛ وخرج الفرنج والسوريان لقتالهم وصمدوا أمامهم ببسالة. وبعد أن أرهق كل جانب نفسه على مدى ثلاث ساعات في قتال الآخر انسحب أهل عسقلان حزانى، وحملوا معهم عددا كبيرا من الجرحى.

٤ ـ وقد تبعهم رجالنا مسافة قصيرة، ولكن نقص الفرسان والخوف من الكمائن جعلهم لا يجرءون على متابعتهم أكثر من ذلك. ومع هذا في نهاية الأمر حمل سبعة عشر رأسا من قتلى العدو، وتم الاستيلاء على عدد كبير من الخيول. وتم أسر ثلاثة من الفرسان، وقتل البعض الآخر. ولو كان لدينا الفرسان لما هرب من جنود العدو سوى عدد قليل. ولكن فرساننا كانوا مع الجيش. ثم أقمنا صلاة الشكر للرب الذي ندين بشكره على الدوام.

(٢٩)

صور وشهرتها:

١ ـ وفي الوقت نفسه، كان أهل صور قد تجمعوا داخلها دون رغبة في السلام، ودون أن يخضعوا للحصار. ولأن ثروتهم كانت طائلة وكانت المساعدة والدعم يأتيهم عن طريق البحر، فقد تعودوا دائما على أن يكونوا عدوانيين[١].

٢ ـ هذه المدينة هي أغنى مدن الأرض الموعودة وأكثرها شهرة، باستثناء حاصور التي كان يملكها يابين ملك كنعان في الزمن القديم والتي دمرها يشوع فيما بعد ودمر معها مدنا أخرى كثيرة[٢]. والواقع أن «حاصور» قد دافعت عن نفسها بتسعمائة

---

(١) كانت ثروة صور وقوتها العسكرية محل اهتمام المؤرخ الصليبي وليم الصوري الذي أطنب في الحديث عنهـا (XIII,iii,v)، وقد كان وليم رئيس أساقفة صور منذ سنة ١١٧٥م إلى سنة ١١٨٥م تقريبا. وعندما هاجم الصليبيون صور سنة ١١١١م ـ ١١١٢م، ثم سنة ١١٢٤م جاءتها المساعدة البحرية من مصر، وجاءت المساندة بجيش بري أرسلته دمشق. وقد ذكر المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي هذه الأخبار في حوادث تلك السنة، (ذيل تاريخ دمشق).

(٢) انظر سفر يوشع (١١ : ١ ـ ١٤)، وكذلك سفر القضاة (٤ : ٢).

مركبة من الحديد[1] . ومن ناحية أخرى يقول يوسيفوس (المؤخ اليهودي) إنها كانت تملك ثلاثة آلاف مركبة من الحديد، وثلاثمائة ألف رجل مسلح، وعشرة آلاف فارس، وكان قائد جيشها هو سيزرا [2] .

٣ ـ وكل من هاتين المدينتين، صور وحاصور، بنيت في أرض الفينيقيين. وقد اشتهرت صور بتجارتها الهائلة، واشتهرت الثانية بعدد سكانها الكبير وكانت صور على الساحل، أما حاصور فكانت في أعالي الأرض.

٤ ـ وعندما حوكم جدعون في إسرائيل، كان الفينيقيون قد بنوا صور قبل عصر هرقل بزمن قصير. فهذه المدينة كانت في أرض الفينيقيين. وهي المدينة التي أشار إليها إشعيا يعيب عليها غرورها. وفيها تتم صباغة أفخر أنواع الأقمشة الأرجوانية، ولذلك فإن تعبير «الأرجوان الصوري النبيل» شاع على الألسنة. وكلمة «صور» معنا «المضيق» في اللغة العبرية[3] .

٥ ـ وقد غزا شلمنصر، ملك الآشوريين، صور في أثناء حربه ضد سوريا وفينيقيا عندما كان هلوسايوس يحكم هناك. ولكن لأن أهل صور كرهوا الخضوع لملك الآشوريين فرض عليهم الحصار خمس سنوات. وقد كتب كل من ميناندر ويوسيفوس عن هذا الموضوع.

٦ ـ ثم حدث في ذلك الوقت أن عبر الصوريون البحر تحت قيادة ديدو، ابنة بيلوس، وأسست قرطاجة في إفريقيا. وقد وصف موقعها المؤرخ أوروسيوس وقال إنها محاطة بسور يمتد على مسافة ثلاثين ميلا وليست به مداخل، وكلها تقريبا محاطة بالبحر. ومدخل الميناء عرضه ثلاثة أميال. وقد بني سور قرطاجة من الأحجار المربعة، وعرضه ثلاثون قدما وارتفاعه أربعون ذراعا.

---

(١) جاء في سفر القضاة (٤ : ٣ـ٣) «فباعهم الرب بيد يابين ملك كنعان الذي ملك في حاصور. فصرخ بنو إسرائيل إلى الرب لأنه كان له تسع مئة مركبة من حديد، وهو ضايق بني إسرائيل بشدة عشرين سنة». (المترجم)

(٢) هذه الفقرة تكشف عن البنية الثقافية للقس فوشيه الذي يجد متعة في ربط الأحداث التاريخية التي يعاصرها بالقصص التاريخي الوارد في العهد القديم. (المترجم).

(٣) يخطئ فوشيه هنا لأن كلمة «صور» كلمة سامية الأصل معناها «الصخرة» انظر: Philip K. Hitti, Lebanon in History ? London 1957 -, P. 99, note 1 .

٧ ـ أما القلعة التي تسمى بيرسا Byrsa، فكانت تحتل مساحة أكثر من ميلين. وقد تم تأسيس قرطاجة على يد هيليسا Helisa قبل روما بسبعين سنة، وقد دمرت في السنة السبعمائة من وجودها، وانهار سورها الحجري كله. وقد قضى بوبليوس سكيبيو Publios Scipio بتدمير المدينة تدميرا نهائيا، وكان هو القنصل في السنة السابقة، وقد ظلت المدينة تحترق على مدى سبعة أيام كاملة[١].

(٣٠)

الاستيلاء على صور من قبل ومن الذي حاصرها في الزمن القديم:

١ ـ وفضلا عن ذلك، فإن صور، السابق ذكرها، قد عانت من نقص سكانها، وفقا لرواية إشعيا[٢]. وعندما ثار أهل قبرص ضد صور غزاهم الملك هيلوسايوس Helusaess. ومرة أخرى هاجم شلمنصر ملك الآشوريين صور ثم تقهقر. وفي ذلك الوقت كانت صور وعكا، التي كانت تسمى أكتيبوس، وصور القديمة[٣] ومدن أخرى كثيرة قد سلمت نفسها لملك الآشوريين.

٢ ـ ولأن صور لم تستسلم، زحف شلمنصر ضدها مرة أخرى بستين سفينة على متنها تسعمائة مجذف قدمهم الفينيقيون الآخرون. وأبحر الصوريون ضدهم باثنتي عشرة سفينة، وشتتوا سفنهم وأسروا خمسمائة رجل. ولهذا السبب، ارتفع شرف صور خفاقا.

٣ ـ وعاد ملك الآشوريين ووضع حراسا على امتداد النهر وضواحي المدينة لكي يمنع أهل صور من سحب المياه. وعلى الرغم من أن هذا استمر على مدى سنوات

---

(١) تم تدمير قرطاجة والقضاء عليها على يد القنصل الروماني سكيبيو الشاب Publius Cornelius Scipio Aemilianux الذي انتخب سنة ١٤٧ ق. م قنصلا، وفي السنة التالية ١٤٦ ق. م فرض الحصار على قرطاجة واستولى عليها ودمرها وكانت هذه نهاية الحرب البونية الثالثة.

(٢) جاء في سفر إشعياء (٢٣: ١٥): «ويكون في ذلك اليوم أن صور تُنسى سبعين سنة كأيام ملك واحد، من بعد سبعين سنة يكون لصور كأغنية الزانية».

(٣) يقصد فوشيه بعبارة «صور القديمة» ذلك الجزء البري من مدينة صور، وهو الجزء الذي استسلم للآشوريين، أما الجزء القائم فوق شبه الجزيرة فلم يستسلم.

خمس فإن أهل صور تحملوه، وكانوا يشربون المياه من الآبار التي حفروها. هذه الحقائق عن شلمنصر ملك الآشوريين، مدونة في سجلات صور.

٤ ـ لقد كان هو الذي حاصر السامرة في السنة السادسة من حكم الملك حزقيال وأخذ بني إسرائيل إلى آشور. وقبل شلمنصر كان قد جاء بول Pul، ملك الآشوريين وبعده تغلب فلا سر، ملك الآشوريين الذي أخذ قدش وحاصور والنبطية قرب بانياس، وكذلك كل مدن الجليل وأخذ أهلها أسرى إلى آشور. ثم جاء ملك الآشوريين سرجون الذي أرسل ترتان ليحارب أشدود واستولى ترتان عليها. وهكذا بسبب خطايا الشعب، دُمرت الأرض الموعودة وخضعت لحكم الآشوريين أولا ثم الكلدانيين.

٥ ـ أما نبوخذ نصر ملك الكلدانيين والبابليين، فقد حاصر بيت المقدس واستولى عليها، ولهذا السبب هرب الملك صدقيا، ولكنه أسر قرب العريش وأحضر أمام ملك بابل في منطقة اسمها ربلاطة، في أرض عماث. ويقول جيروم إن عماث الكبرى في أنطاكية وعماث الصغرى في إيبفانيا. وهناك أمر نبوخذ نصر بسمل عيني صدقيا وذبح أبنائه أمامه. ثم جاء نبوزارادان قائد جيشه وأحرق بيت الرب وبيت الملك ودمر أسوار بيت المقدس كلها[١].

٦ ـ وفضلا عن ذلك، فبعد فترة من الوقت جاء الملك الإسكندر وحاصر مدينة صور واستولى عليها، وأخضع صيدا، ودمشق قبلها. كما استولى على غزة في مدى شهرين. ثم أسرع الإسكندر إلى مدينة القدس. ولأنه استقبل بحفاوة، فقد أسبغ شرفا عظيما على الكاهن الأكبر الذي كان اسمه يهودا. وعندما اقترب الإسكند بمفرده بجل يهودا كثيرا، وكان هذا يرتدي غطاء رأس وثوبا من الخز والذهب، وشارة ذهبية عليها اسم الرب. وبعد ترتيب الأمور في بيت المقدس، قاد الإسكندر جيشه لمهاجمة المدن الأخرى.

٧ ـ وبعد عدة سنوات، ولأن خطايا اليهود استدعت ذلك، تحدى أنطيوخوس

---

(١) الملك هو سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م) ولم يكن ترتان اسم شخص ولكنه لقب أو رتبة لقائد الجيش. أما «ربلاطة» فكانت على مسافة حوالي ثمانية وأربعين ميلا جنوبي عمات، وهي مدينة «حماة» في سوريا الآن، وكان اسمها في العصور الكلاسيكية «إيبفانية» "Epiphania".

إبيـفـانس Antiochus Epiphanes ديانتهم وأخضع المكابيين بقسوة. وبعده جاء بومبي، الذي أطاح بشعب القدس بطريقة مجنونة للغاية. وأخيرا جاء فسبيان ومعه ابنه تيتوس الذي دمر القدس تماما. وهكذا من خلال تتابع الأحداث المختلفة حتى أيامنا لقيت المدينة المقدسة والأراضي التابعة لها متاعب جمة.

٨ ـ ومعظم فلسطين وجزء من فينيقيا، التي أخذت اسمها من فونيكس شقيق كادموس، بلاد مقفرة؛ ثم هناك السامرة وأرض الجليل، التي سميت أخيراً باسمين؛ الجليل الأعلى والجليل الأدنى. وهما على الحدود بين سوريا وفينيقيا.

٩ ـ والجزء الذي يلي نهر الأردن يمتد طولا من ماكيروس حتى بلا، وعرضا من فيلادلفيا حتى نهر الأردن. والقسم الشمالي منه بلا Pella؛ وغربا نهر الأردن وتحدها جنوبا أرض مواب وشرقا أرض العرب، وفيلادلفيا، وقيصرية.

١٠ ـ أما أرض السامرة فهي تقع بين يهوذا والجيلي. ومن ناحية أخرى يمتد عرض يهوذا من نهر الأردن حتى يافا؛ وفي الوسط مدينة بيت المقدس، التي هي مركز الأرض.

١١ ـ ثم الجليل الأدنى، الذي يمتد من طبرية إلى عكا، والكرمل، وجبال صور، ويضم الناصرة وصفورية، وهي مدينة قوية جدا، وتابور وكانا وغيرها كثير. ويحدها لبنان ومنابع نهر الأردن، التي هي الآن بانياس التي تسمى أيضا دان أو فيليبي وحولها بلاد التراخونيين والنبطية[١]. وجنوبا السامرة وسكيثو بوليس وهي بيت سان.

١٢ ـ ومدينة بئر سبع تحد يهوذا التي تضم تمنه، واللد، ويافا، ويامينا، وتكوا، وحبرون، وعشتاول، وصور، وغيرها كثير.

١٣ ـ والآن أرجع إلى المجرى الرئيسي، لأنني كنت أجرى في مجريات فرعية كثيرة لوقت طويل.

---

(١) «بـلا» Pella (طبقات فحل) كانت على مسافة سبعة أميال من بيسان في الجنوب الشرقي، أما «بيت سان» (بيسان) فهي في شرقي نهر الأردن. وكانت «مواب» جنوب شرقي البحر الميت. وفيلادلفيا هي عمان عاصمة الأردن الحديثة. وبلاد التراخونيين هي المنطقة التي تقع على مسافة حوالي أربعين أو خمسين ميلا شرقي بحيرة طبرية.

(٣١)

انتصار أهل أنطاكية على الأتراك، وموت بيليك:

١ ـ عندما كنا نعمل خارج صور[1]، ونعد في حذر آلات الحصار، لم يضيع بيليك وقتا في استنفار جيشه وجمع حلفائه ضدنا. وخرج من مدينة حلب حتى وصل هييرابوليس في بداية شهر مايو ومعه خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف من المشاة. وتعرف المدينة باسم نبج. وعندما رفض حاكم هذه المدينة أن يسلمها، دعاه بيليك إلى الاجتماع به خارج المدينة، ثم ذبحه[2].

٢ ـ وفي الحال فرض بيليك الحصار على المدينة. وسرعان ما أخبر الرسل جوسلين الذي كان في أنطاكية آنذاك، فأسرع إلى نبج ومعه رجال أنطاكية. وعلى الرغم من أن عدد المسيحيين كان قليلا للغاية فإن جوسلين لم يتردد في التقدم ضد جموع المسلمين[3]. ولم تتأخر المعركة الشرسة بينهما كثيرا.

٣ ـ وبمساعدة الرب تم دحر الأتراك ثلاث مرات، وعادوا ليقاتلوا ثلاث مرات في جسارة. وجرح بيليك جرحا قاتلا في الاشتباك، فابتعد بقدر الإمكان وهو يحتضر[4]. وبمجرد أن اكتشف رجاله هذا الأمر، هرب منهم من استطاع الهرب فورا. والواقع أن كثيرين ممن فروا لم يستطيعوا الهرب.

٤ ـ ويحكى أن ثلاثة آلاف من فرسانهم قد ذبحوا. وعلى كل حال، فإن عدد الفرسان غير معروف. وسقط من فرساننا ثلاثون قتيلا وكذلك حوالي ستين من المشاة الذين كانوا يسوقون الدواب.

٥ ـ وأراد جوسلين أن يعرف بالتأكيد ما إذا كان بيليك قد مات أو هرب بحياته في مكان ما. وبعد أن تفحص الذين بحثوا بين القتلى الجثث بدقة شديدة، تم

---

(١) استمر الحصار الفرنجي لصور من ١٦ من فبراير إلى ٧ من يوليو سنة ١١٢٤م.

(٢) تقع نبج على مسافة خمسين ميلا جنوب شرقي حلب. وقد قبض بيليك بالحيلة على حاكمها «حسن بن جمشتكين» وقتله. ورفض أخوه «عيسى» أن يستسلم لضباط بيليك وطلب المساعدة من جوسلين الذي قدم لمساعدته.

(٣) استخدم فوشيه هنا كلمة «الوثنيين».

(٤) جرح بيليك وقتل من سهم أصابه، أطلقه أحد الجنود من فوق سور مدينة نبج، كما يقول ابن العديم في «زبدة الحلب من تاريخ حلب».

التعرف على بيليك من شارات سلاحه التي يعرفها من كانوا على صلة به. والرجل الذي قطع رأس بيليك حمله إلى جوسلين مهنئا وتلقى أربعين قطعة نقدية «nomismota» وفقا لوعد بالمكافأة لمن يحضر الرأس.

٦ ـ وفي الحال أمر جوسلين بأن يحمل الرأس إلى أنطاكية برهانا على نجاحه. أما الرجل الذي حمل رأس بيليك في حقيبة إلى عكا، وبيت المقدس، والذي أعلن لنا جميعا الخبر وروى لنا قصة ما جرى، فقد حضر المعركة العظيمة مع المحاربين الذين خاضوها.

٧ ـ والحقيقة أن الرسول كان خادم[١] جوسلين. ولأنه أحضر لنا الأخبار السارة وجيشنا يعسكر قبالة صور، قدم له سلاح فارس ورقي من خادم إلى فارس. والواقع أن كونت طرابلس هو الذي رقاه إلى هذه المرتبة.

٨ ـ وكلنا حمدنا الله وأثنينا عليه لأن بيليك، ذلك الوحش الذي تسلط على المسيحية وآذاها، قد لقي حتفه في نهاية الأمر.

٩ ـ كانت الشمس قد سطعت تسع عشرة مرة في برج الثور
عندما سقط بيليك أو عندما خذله الحظ[٢].

١٠ ـ تأمل كيف اتضح تفسير الحلم الذي سبق ذكره، وهو الحلم الذي حكاه بيليك عن مصيره كما لو كان نبيا، عندما هرب جوسلين من أسره بمعجزة؛ إذ إنه رأى جوسلين يقتلع عينيه. والحقيقة أن جوسلين دمر بيليك تماما لأنه جرده من الرأس والأعضاء.

ولم يعد بيليك يرى، أو يسمع، أو يتكلم، ولا يجلس أو يمشي
ولم يكن له مكان في السماء، أو على الأرض، أو في الماء[٣].

(١) كان تابعا وخادما في ميدان القتال وفقا للتقاليد الإقطاعية، ويمكن لهذا التابع Squire أن يتبع سيده في كل مكان حتى يكتسب المهارة التي تؤهله لكي يصبح هو نفسه فارسا. وقد كان الفارس يصحب تابعا يعتني بالخيول والسلاح، وهذه الدرجة الأخيرة من تقاليد الفروسية الإقطاعية، بعدها يدشن فارسا: انظر: Sidney Painter, A Histoty of the Middle Ages.(1956 - PP. 121^ 132. (المترجم)

(٢) ٥ من مايو سنة ١١٢٤م.

(٣) هذه واحدة من المحاولات الشعرية التي اعتاد فوشيه أن يختم بها فصول كتابه، وقد تكررت كثيرا بطول الكتاب. (المترجم)

(٣٢)

ماذا حدث في أثناء حصار صور:

١ ـ ذات يوم عندما كان أولئك المشرفون على حصار صور الشهير يهجعون للراحة، انتهز أهل صور من الأتراك والمسلمين الفرصة، فاندفعوا خارج بوابات صور واندفعوا جميعا وقد استلوا سيوفهم على أقوى معداتنا.

٢ ـ وقبل أن يتمكن رجالنا الذين تولوا الحراسة من أخذ أسلحتهم، ساقهم العدو أمامه وجرح بعضهم وأضرم النار في المعدات. وكان المعتاد قذف الأبراج القائمة على سور المدينة بالصخور، وإحداث الثغرات في الدفاعات.

٣ ـ في هذه الهجمة المفاجئة فقدنا ثلاثين رجلا، ولكن العدو فقد الضعف. وقد جرح أهل المدينة رجالنا وآذوهم كثيرا بنار السهام السريعة، والصخور والقاذورات التي قذفوها من فتحات السور.

٤ ـ وفي الوقت نفسه، ركب بعض البنادقة، وعددهم لا يزيد على خمسة، قاربا. وبينما كانوا يستمتعون بوقتهم كالعادة نهبوا منزلا صغيرا قرب سور المدينة، وذبحوا رجلين وجدوهما هناك. ثم عادوا فرحين بغنيمتهم المتواضعة. وحدث هذا في اليوم الحادي عشر قبل شهر يونيو.

٥ ـ ولكن هذا لم تكن له جدوى كبيرة، لأنه حدث قبل ذلك بقليل، أن سرق بعض أهل صور قاربا في إحدى الليالي وسحبوه إلى داخل ميناء المدينة. وفي خضم مثل هذا الصراع غالبا ما تحدث أمور كهذه.

واحد يفشل، وواحد ينجح، واحد يفرح، وواحد يبكي

(٣٣)

الغزو المجنون الذي قام به أهل عسقلان:

١ ـ لما عرف أهل عسقلان قلة عددنا، لم يترددوا في مهاجمتنا عندما ظنوا أن في قدراتهم أن يضعفونا ويلحقوا بنا أفدح الأضرار[١]. ونهبوا وأحرقوا قرية صغيرة

---

(١) يوم ٢٢ من مايو سنة ١١٢٤م.

قرب بيت المقدس تسمى البيرة[1]، وحملوا معهم كل الغنائم والأسلاب التي وجدوها هناك، ومعهم موتاهم وعدد كبير من الجرحى.

٢ ـ ولجأ النساء والأطفال إلى برج صغير كان قائما هناك بني في أيامنا، وبهذا نجوا بأنفسهم. وهكذا عاش العسقلانيون في الأرض يسرقون ويقتلون ويسبون، وفعلوا ما حلا لهم من الدمار والتخريب، ولم يكن هناك من يقاومهم.

٣ ـ ولأننا جميعا قصدنا حصار صور، آملين في الرحمة الإلهية، وفي أننا سوف نحرز هدفنا بمساعدة الرب وكيلنا وسندنا. وكان فوق طاقتنا أن نكافح ليلا ونكدح نهارا.

(٣٤)

استسلام مدينة صور:

١ ـ وعندما رأى ملك دمشق أن رجاله، من المسلمين والأتراك، محصورون في المدينة وليس أمامهم مهرب من أيدينا، فضل أن يخلصهم أحياء مع بعض الإهانة بدلا من أن يحزن عليهم بعد موتهم. ولذلك طلب عن طريق الوسطاء الحكماء الاستفسار عن طريقة إخراج رجاله بكل ممتلكاتهم ثم يسلم المدينة لنا.

٢ ـ وبعد أن فكر الجانبان في هذا الموضوع فترة طويلة، تبادلا الرهائن، وخرج المسلمون من المدينة ودخل المسيحيون بسلام. وعلى أي حال، فإن الذين اختاروا البقاء في المدينة من المسلمين فعلوا ذلك سلميا وفقا لشروط المعاهدة[2].

٣ ـ كانت الشمس قد طلعت إحدى وعشرين مرة في برج السرطان
عندما تم الاستيلاء على صور.
هذا ما حدث في الأسبوع الأول من يوليو.

٤ ـ ومن ثم يجب ألا نتوقف أو نتردد في بيان أن الرب معيننا الرحيم الكريم في

---

(١) البيرة على مسافة حوالي ستة أميال شمالي بيت المقدس.

(٢) التاريخ الذي دونه فوشيه ٧ من يوليو سنة ١١٢٤م، ولكن ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق حوادث سنة ٥١٨ هجرية) يوضح أن ذلك حدث في ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٥١٨ هجرية وهو يوافق الثامن من شهر يوليو سنة ١١٢٤م. ويقول ابن القلانسي في حوليته إن الذين اختاروا الرحيل من صور من المسلمين أخذوا من أملاكهم ما قدروا على حمله فقط.

وقت الشدة، وأن نتوجه إليه بالصلاة لكي يستمع لنا. والواقع أن هذا ما فعلناه في بيت المقدس بزياراتنا المتكررة للكنائس، والبكاء، وتوزيع الصدقات، وإماتة الجسد بالصيام. والرب حين يرى ذلك في علاه، أعتقد أنه لن يتركنا بدون أن يسبغ علينا بركته. وسوف يسمع صلواتنا.

٥ ـ وبينما كنا ننتظر بآذان صاغية أي خبر صغير، وصل ثلاثة من الرسل بسرعة كبيرة يحملون خطابات من بطريركنا تعلن أخذ صور.

٦ ـ عندما سمع الناس هذا تعالت أصوات ضجة هائلة. ثم أنشدنا نشيد «نحمدك يا ألله Te Deum Laudamus» بأصوات مبتهجة. ودقت النواقيس وقمنا بمسيرة إلى معبد الرب، ورفعت الأعلام على الأسوار والأبراج. وعبر كل الشوارع رفعت زينات كثيرة ملونة، وصنعت لوحات الشكر، وتمت مكافأة الرسل بما يشتهون، وأخذ الوضيع والشريف في تبادل التهاني، وابتهجت البنات وهن ينشدن في الكورس.

٧ ـ ومثل الأم التي تفرح لابنتها فرحت القدس لصور التي تجلس على يمينها متوجة في مكانها الذي تستحقه. وحزنت مصر لضياع هيبتها، التي كانت تحتفظ بها حتى وقت قريب، ولخسارة أسطولها المعادي الذي اعتادت أن ترسله ضدنا كل سنة.

٨ ـ وعلى الرغم من تضاؤل قيمة صور في الدنيا، فإنها دخلت في الرحمة الإلهية. إذ كان للمدينة وهي بين أيدي الكفار قسيس كبير، أو رئيس قساوسة، فإنها سوف تحظى ببطريرك وفقا لنظم الآباء في القانون المسيحي. إذ إنه حيثما يوجد قساوسة كبار لابد من تكريس كبير أساقفة لكي يحكم المقاطعات (الأسقفيات).

٩ ـ وعندما توجد عاصمة إقليمية Metropolis وترجمتها «مدينة أم» لا بد من تعيين كبير أساقفة يرأس ثلاث أو أربع مدن داخل إقليم المدينة الأم، أو العاصمة.

١٠ ـ ذلك أنه عندما يوجد في المدن الصغرى قساوسة أو شمامسة لا بد من تعيين أساقفة كذلك، فإن القساوسة وبقية رجال الكنيسة من الدرجات الصغرى يعرفون بأنهم رعاة الشعب المسيحي.

١١ ـ وكل سلطة علمانية تتناسب في مكانتها وهيبتها تناسبا طرديا. فأولا هناك الأوغسطس أو الإمبراطور، ثم القياصرة، فالملوك، والدوقات،

ثـم الكونتات. هكذا قال البابوات كليمنت، وأناكليت، وأنيست، وكثيرون غيرهم.

١٢ ـ حمدا للرب في الأعالي لأنه أعاد صور إلينا، ليس بقدرة الرجال، ولكن بمشيئته هو ودون إراقة الدماء. وصور مدينة نبيلة، قوية للغاية ويصعب أخذها ما لم يضع الرب عليها يده اليمني.

١٣ ـ وقد خذلنا أهل أنطاكية في هذا الأمر، لأنهم لم يقدموا لنا أي مساعدة، كما أنهم لم يرغبوا في الحضور للمشاركة في الحصار. ولكن ليبارك الرب بونس أمير طرابلس لأنه كان حليفا مخلصا للغاية.

١٤ ـ عسى الرب أن يصلح ما بين كنيسة أنطاكية وكنيسة بيت المقدس، لأنهما منقسمتان، وتليهما كنيسة صور في المرتبة الثالثة. وتقول كنيسة أنطاكية إن كنيسة صور كانت تخضع لها في زمن البيزنطيين؛ وتقول كنيسة بيت المقدس إنها قويت بفضل الامتيازات التي منحها لها البابا في روما [١].

١٥ ـ لأنه في مجمع أوفريني. الذي ذاعت شهرته بحق، صدر مرسوم باتفاق الجميع يقضي بأن أي مدينة فيما وراء البحار يتم تحريرها من الوثنيين يجب التمسك بها إلى الأبد دونما معارضة. وفضلا عن ذلك أعاد الجميع التأكيد على ذلك في اتفاق عام في مجمع أنطاكية، الذي كان يرأسه أسقف لوبوي.

١٦ ـ وعلاوة على ذلك، فقد حدث في بيت المقدس أن تلقى كل من الدوق جودفري والسيد بوهيموند أرضهما من البطريرك دايمبرت حبا في الرب [٢].

(١) يشير فوشيه إلى حقيقة أنه في زمن السيادة البيزنطية، كان لبطاركة أنطاكية حق الرئاسة على كنيسة صور، ولكن حدث قبل فترة قصيرة أن ادعى بطاركة بيت المقدس حق رئاسة كنيسة صور بسبب غزو الصليبيين لها واستيلائهم عليها، وعلى أساس المرسوم الذي أصدره البابا «باسكال الثاني» سنة ١١١١م. وفي سنة ١١٢٢، وقبل أن يبدأ حصار صور، قام البطريرك «جورموند» برسامة «أودو» أسقفا كبير أساقفة صور، ولكن «أودو» مات قبل الاستيلاء على صور. ولم تتم رسامة كبير أساقفة جديد لصور حتى سنة ١١٢٨م.

(٢) حدث في أواخر سنة ١٠٩٩م، أو بداية سنة ١١٠٠م، أن منح البطريرك دايمبرت لجودفري وبوهيموند إقطاعهما في بيت المقدس وأنطاكية، بصفتهما فصلين إقطاعيين للبابوية. وكان معنى هذه الخطوة أن كلا من الأميرين الصليبيين يدين للبابوية، بصفتها السيد الإقطاعي الأعلى، بالالتزامات الإقطاعية المفروضة على التابع الإقطاعي (الفصل) تجاه سيده. (المترجم)

١٧ ـ ومن وقت لآخر كان البابا باسكال يؤكد هذه الحقوق ونقلها إلى كنيسة بيت المقدس التي ينبغي لها أن تستمتع بحقوقها على الدوام، بمقتضى السلطة البابوية. وهذه الحقوق تضمنتها تلك الوثيقة.

(٣٥)

الامتيازات التي منحها البابا باسكال:

١ ـ من باسكال، خادم خدام الرب، إلى أخيه المبجل جبلين، بطريرك بيت المقدس، وإلى خلفائه الكنسيين.

٢ ـ اتساقا مع مقتضيات الوقت، تتغير أيضا ممالك الأرض. ولهذا السبب، من المناسب أن تتغير حدود الأسقفيات في معظم الأقاليم وأن تنقل. فقد كانت حدود الكنائس الآسيوية في الزمن القديم موزعة في تناسق بحدود ثابتة. وقد اضطربت هذه التوزيعات بسبب غزو الشعوب المعادية ذات الديانات المخالفة. وعلى أي حال، فإنه بحمد الله، عادت في زماننا كنيسة أنطاكية وبيت المقدس وما يجاورهما أو يلاصقهما من مناطق لتكون تحت سلطة الأمراء المسيحيين.

٣ ـ وبما أنه من الضروري أن نضع يدنا في هذا التغير الإلهي وننقل ونغير ما يجب تغييره وفقا لمقتضيات الزمن، فلهذا، فإننا ننقل إلى كنيسة بيت المقدس المدن والمناطق التي تم الحصول عليها بفضل الرب وحكمة الملك بلدوين، ودماء الجيش الذي يقوده.

٤ ـ ومن ثم، فإننا نمنح لك، أنت يا جبلين، الأخ العزيز والأسقف الزميل، ولخلفائك ومن خلالك إلى الكنيسة المقدسة في بيت المقدس، نمنح بنص المرسوم الحالي حق الحكم والإشراف، بمقتضى حق سلطة البطريركية، على جميع المدن والأقاليم التي عادت بفضل الرب إلى حكم الملك المذكور أو التي ستخضع لحكمه في المستقبل.

٥ ـ ولأنه من المناسب أن تنال كنيسة ضريح الرب الشرف المناسب الذي يليق بها وفقا لرغبة جنود العقيدة، ولأنها، بعد تحررها من نير الأتراك والمسلمين، يجب أن تنال تكريما أكثر أريحية على يد المسيحيين.

(٣٦)

توزيع الأراضي المحيطة لصور:

١ ـ تم إقرار مسألة صور حسب الأصول . فقد تمت القسمة على ثلاثة أقسام، قسمان متساويان منها حولت إلى سلطات المدينة . أما الجزء الثالث داخل المدينة والميناء، فقد تحول إلى البنادقة حيازة تنتقل لهم بحق الوراثة نتيجة لاتفاق سابق . ثم عاد الجميع إلى بلادهم .

٢ ـ وعاد بطريرك القدس ومعه جنود المدينة، واستقبل الشعب ورجال الكنيسة الصليب المقدس بما يليق به من تبجيل .

(٣٧)

العلامة التي ظهرت في ذلك الوقت:

١ ـ في ذلك الوقت، ظهرت الشمس لنا في لون مبهر على مدى ساعة تقريبا . ثم تغيرت في جمال جديد أخاذ، ثم تحولت إلى شكل القمر كما لو كان في حال خسوف . وقد حدث هذا في اليوم الثالث قبل منتصف شهر أغسطس عندما كانت الساعة التاسعة في النهار قد قاربت الانتهاء [١] .

٢ ـ ولهذا لا تتعجب عندما ترى علامات في السماء لأن الرب يصنع المعجزات هناك كما يصنعها على الأرض[٢] . لأن الرب ينقل ويرتب كل شيء حسبما يريد في الأرض أو في السماء . لأنه إذا كانت الأشياء التي يفعلها مدهشة، فإن الرب الذي صنعها أكثر مدعاة للدهشة والعجب . فتأملوا وتدبروا كيف حدث في زماننا أن الرب نقل الغرب إلى الشرق .

٣ ـ إننا نحن الغربيين قد أصبحنا الآن شرقيين . فالذي كان رومانيا أو فرنجيا

---

(١) حدث هذا الكسوف يوم ١١ من أغسطس سنة ١١٢٤م .

(٢) يرى فوشيه أن نجاح الصليبيين في الحملة الأولى معجزة . وهو يكتب هذا الفصل المستلفت للنظر لكي يوضح للأوربيين، الذين يأمل في انضمامهم إلى الحملات الصليبية، كيف أن الحياة في المستوطنات الصليبية في الشرق العربي الإسلامي جذابة ويحميها الرب . .

قد صار في هذه الأرض من أهل الجليل أو فلسطين. وذلك الذي كان من أهل ريمس أو شارتر أصبح من سكان أنطاكية أو صور. لقد نسينا بالفعل الأماكن التي شهدت مولدنا؛ فقد أصبح كثير من هذه الأماكن مجهولا لنا أو لا يرد ذكرها على أي لسان.

٤ ـ والبعض يمتلك بالفعل مساكن ومنازل جاءته بالوراثة. وتزوج البعض من غير جنسهم من السوريات والأرمنيات أو حتى من المسلمات اللاتي اعتنقن المسيحية. وهناك من يعيش مع حميه أو مع زوجة ابنه، أو طفله إذا لم يكن طفل زوجته، أو زوج أمه. وهناك نجد أحفادا وأبناء أحفاد. وبعضهم يملك مزارع الكروم، على حين يمتلك البعض الآخر الحقول.

٥ ـ ويستخدم الناس فصاحة وتعبيرات عدد من اللغات في محادثاتهم وكلامهم. لقد صارت الكلمات من شتى اللغات ملكية عامة يعرفها أبناء كل الجنسيات والديانة المشتركة توحد أولئك الذين يجهلون أصولهم. والحق أنه مكتوب «. . . والأسد يأكل التبن كالبقر»[١]. إن من ولد غريبا مثله الآن مثل من ولد هنا؛ ومن ولد أجنبيا صار من أهل البلاد.

٦ ـ ويلحق بنا أقاربنا وأبوانا من حين لآخر، ويضحون بكل ما كانوا يملكونه من قبل، حتى وإن ترددوا. وأولئك الذين كانوا فقراء في الغرب، أغناهم الرب في هذه الأرض. ومن كانت نقودهم قليلة هناك لديهم هنا نقود لا تحصى، والذين لم يكن لديهم سكن هناك يمتلكون مدينة هنا بفضل الرب.

٧ ـ فلماذا يرجع المرء إذن إلى الغرب إذا كان قد وجد في الشرق مثل هذا النعيم؟ إن الرب لا يريد لنا أن يشقى بالحاجة أولئك الذين كرسوا أنفسهم بصلبانهم لكي يتبعوه، حتى وإن لم يتبعوه إلى النهاية.

٨ ـ وبهذا ترون أن هذه معجزة عظيمة ينبغي أن تحوز إعجاب العالم بأسره. فمن الذي سمع من قبل بشيء كهذا؟ إن الرب يريد أن يجعلنا جميعا من الأثرياء وليقربنا إليه أصدقاء أعزاء، ولأن الرب يريد هذا فإننا أيضا نرغب في ذلك تماما، وما يرضى الرب بفعله بقلب محب خاشع حتى نحكم معه خلال الأبدية.

---

(١) جاء في سفر إشعياء (٦٥ : ٢٥): «الذئب والحمل يرعيان معا والأسد يأكل التبن كالبقر». (المترجم)

(٣٨)

إطلاق سراح الملك من الأسر، وحصار مدينة حلب.

١ ـ بفضل الرب القدير، خرج ملك بيت المقدس من الأسر لدى الأتراك في اليوم الرابع قبل شهر سبتمبر، بعد أن ظل سجيناً أكثر من ستة عشر شهراً[١]. ولكن لأنه طلب منه تقديم الرهائن أولاً قبل إطلاق سراحه فإنه لم يرحل في حرية. وكان عليه هو والرهائن أن يعانوا من القلق على مستقبل غير مؤكد.

٢ ـ وبعد ذلك بقليل، وبعد أن تشاور الملك مع رجاله أسرع بحكم الضرورة لفرض الحصار على مدينة حلب. وكان قصده من حصارها أن يفرج عن رهائنه بواسطة أهل المدينة أنفسهم أو ينتهز الفرصة للاستيلاء على المدينة إذا عضتها المجاعة. لأنه كان قد عرف أنها كانت تعاني فعلاً من نقص شديد في الغذاء.

٣ ـ هذه المدينة على مسافة حوالي أربعين ميلاً من أنطاكية الكبرى[٢]. وحدث هنا أن إبراهيم (عليه السلام)، في أثناء رحلته من حران إلى أرض كنعان، جعل رعاته يرعون أغنامه، سواء ما حمل منها أو ما كان على وشك الحمل، في هذه المنطقة الخصيبة ذاتها. وهنا صنع الجبن من اللبن. لأنه كان غنياً يمتلك كثيراً من كل نوع.

٤ ـ ومات البابا كاليكستوس في اليوم الثالث عشر قبل شهر يناير[٣].

(٣٩)

حشد الجيش التركي بهدف كسر الحصار.

١ ـ في سنة ١١٢٥، فرض ملك القدس ورجاله الحصار حول مدينة حلب على

---

(١) كان بلدوين أسيراً منذ ١٨ من إبريل سنة ١١٢٣م، وأطلق سراحه يوم ٢٩ من أغسطس سنة ١١٢٤م. ويذكر ابن العديم (زبدة الحلب، حوادث سنة ٥١٨ هجرية) أن بلدوين خرج من سجنه يوم ١٧ من رجب سنة ٥١٨ هـ (٣٠ من أغسطس سنة ١١٢٤م).

(٢) تقع حلب على مسافة حوالي خمسة وخمسين ميلاً من أنطاكية. ويستخدم فوشيه عبارة «أنطاكية الكبرى Antiochia Magna» ليميزها عن أنطاكية الصغرى «Antiochia Parva» في بيسيديا Pisidia.

(٣) ٢٠ من ديسمبر سنة ١١٢٤. ودقة التاريخ الذي أورده فوشيه محل شك.

مدى خمسة شهور[١] دون أن يحققوا شيئا. وعبر الأتراك، بحذرهم المعهود، نهر الفرات، وأسرعوا المسير إلى المدينة سابقة الذكر بغرض كسر الحصار. وكانوا يخشون من أنهم إذا لم يخفوا لنجدة حلب بسرعة فربما سقطت. إذ كان رجالنا قد فرضوا عليها الحصار منذ وقت طويل.

٢ ـ كان هناك سبعة آلاف فارس من الأعداء وحوالي أربعة آلاف جمل تحمل الحبوب وغيرها من المؤن[٢]. ولكن بما أن رجالنا كانوا غير قادرين على مواجهة العدو، فقد اضطروا إلى رفع الحصار. وانسحبوا في اليوم التالي إلى أقرب قلعة هي سريف[٣] Cereph التي كانت خاضعة لنا.

٣ ـ وبعد أن طاردنا قسما من الجيش التركي لفترة قصيرة، فقد اثنين من أشجع رجاله تم إسقاطهما من فوق حصانيهما وقتلهما. وفقدنا أحد رفاقنا في المعسكر وست خيام.

٤ ـ كان هجوم العدو في اليوم الرابع قبل شهر فبراير[٤]. ولأن الأتراك جاءوا فجأة تحت سواد الليل فقد وجدونا بسهولة غير مستعدين وواجهونا.

٥ ـ والحقيقة أن هذا شيء يخجلني قوله، ولا تشرفني معرفته، ويشينني أن أحكيه، كما يخزيني أن أسمعه، ولكنني أنا الذي أحكيه لا أبتعد عن الحقيقة، فماذا إذن؟ من الذي يمكنه أن يقاوم إرادة الرب؟ وعلاوة على ذلك، فإن المثل الذي يقوله رجل حكيم مثل صحيح. «إن الحوادث التي ما تزال في المستقبل لا يمكن السيطرة عليها». وفي الحقيقة فإن هذا الهجوم المعادي كان محتمل الحدوث، ولكن أحدا لم يعرفه قبل وقوعه. وإذا كان قد تم التنبؤ به لما كان قد حدث لأن الفكرة في العقل

---

(١) ٨ من أكتوبر سنة ١١٢٤م فرض الصليبيون الحصار على مدينة حلب (٢٦ من شعبان سنة ٥١٨ هـ) حتى يوم ٢٩ من يناير سنة ١١٢٥م.

(٢) كان قائد الأتراك السلاجقة هو آقسنقر البرسقي أتابك الموصل، ولحق به طغتكين أتابك دمشق وكيرخان بن قراجا أمير حمص (ابن العديم، زبدة الحلب حوادث سنة ٥١٨ هـ).

(٣) هي حصن الأثارب على مسافة حوالي ٢٠ ميلا غربي حلب. وكان ذلك يوم ٣٠ من أغسطس سنة ١١٢٥م.

(٤) ٢٩ من يناير سنة ١١٢٥م.

تتلاشى إذا لم تكن هناك إرادة للفعل، لأن المرء الذي تنبأ بالهجوم كان يمكن أن يجهضه، وما ينفي لا يحدث.

٦ ـ وأخيرا تقهقر الملك بلدوين إلى أنطاكية، وذهب جوسلين معه. أما الرهائن الذين كان الملك قد قدمهم عندما أطلق سراحه من الأسر فلم يعودوا ولم يطلق سراحهم. وهكذا عاد أهل بيت المقدس وطرابلس إلى بلادهم.

٧ ـ وعلى أي حال، فإن العناية الإلهية تكبح من تجعله جدارته الإنسانية في نعيم حتى لا يفلت. كما أنها تضايق الشرير حتى لا يتمتع بالرفاهية المستمرة.

٨ ـ فمن ذا الذي يعطي الخير كله ويمنع الشر كله غير الرب، مالك الروح ومنقذها؟ فهو الذي يرى من عليائه الأشياء ويدركها جميعا. إن الرب، قبل فترة قصيرة، منحنا نحن المسيحيين من فضله مدينة صور القوية المجيدة ونزعها ممن كانوا يملكونها. والآن يرضى الرب أن يسحب يده.

٩ ـ ربما يكون قد ادخر كرمته لزراع أكثر إيمانا لديهم الرغبة والقدرة على أن يجنوا منها الثمار الوفيرة في الموسم المناسب. والواقع أن بعض من يملكون كثيرا يفعلون القليل. ولا يسدون الشكر والحمد الذي يدينون به للرب الذي يعطي كل ما هو خير. فضلا عن أنهم يذنبون بالكذب المتكرر على الرب بشأن الأمور التي وعدوا بها في صلواتهم، وهم يخدعون أنفسهم بخداعهم.

(٤٠)

استقبال الملك في القدس بفرحة كبيرة.

١ ـ بعد أن كان الملك مقيدا بالسلاسل في قسوة شديدة من قبل الوثنيين على مدى حوالى سنتين عاد إلى مملكته في أورشليم. وفي اليوم الثالث قبل الثلث الثاني من إبريل استقبلناه جميعا باحتفال مهيب [١]. وبعد أن بقي معنا فترة قصيرة عاد مسرعا إلى أنطاكية استجابة لدعوة بالتجمع. فقد كان الأتراك قد نهبوا تلك الأرض

(١) كان بلدوين الثاني في السجن من ١٨ من إبريل سنة ١١٢٣ حتى ٢٩ من أغسطس سنة ١١٢٤م.

فعلا، وكان أقوى زعمائهم برسقوينوس Borsequinus[(١)]، الذي كان يقود ستة آلاف فارس.

(٤١)

البنادقة ينهبون جزر الإمبراطور في طريقهم للعودة إلى بلادهم.

١ ـ في ذلك الوقت عرفنا أن البنادقة في طريق رحلتهم للعودة إلى أوطانهم بعد أخذ صور ارتكبوا أعمال العنف ضد جزر الإمبراطور التي مروا من بينها؛ وهي رودس وميثون، وساموس، وخيوس. فقد هدموا الأسوار، وسبوا الأولاد والبنات في حال يرثى لها، وأخذوا معهم الأموال والممتلكات من كل نوع. ولكن بما أننا لا نستطيع أن نغير الحقيقة عندما نسمع بها انتاب الحزن العميق قلوبنا[(٢)].

٢ ـ غير أن البنادقة كانوا يحترقون غضبا من الإمبراطور، وكان هو حانقا عليهم، ثم تبادلوا الحنق والغضب. لقد كانوا في الحقيقة أعداء. ولكن «ويل للعالم من العثرات، فلا بد أن تأتي العثرات. ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة[(٣)]». فإذا كانت الغلطة غلطة الإمبراطور فلا بد أنه كان شريرا في حكمه، أما إذا كانت غلطة البنادقة فقد جلبوا على أنفسهم اللعنة.

٣ ـ والحقيقة أن الكبرياء مصدر كل الخطايا. ألا يكون الإنسان متكبرا حين يفعل ما نهاه الرب عن فعله؟ لقد كان غرض البنادقة أن يثأروا لأنفسهم؛ وكان هدف الإمبراطور أن يدافع عن نفسه، وهو يقول إن هذا هدف أكثر عدالة. وعلى أي حال؛ فإن البريء في خضم الصراع يعاني من ظلم لا ذنب له فيه ويهلك ظلما وعدوانا.

٤ ـ ولكن ماذا عسانا أن نقول عن أولئك الذين يمارسون القرصنة ولا يتورعون

---

(١) آقسنقر البرسقي أمير طرابلس.

(٢) ليس معروفا متى أو كيف عرف فوشيه أخبار هجوم أسطول البندقية على الجزر التي يملكها الإمبراطور البيزنطي حنا كومنينوس الثاني (١١١٨ ـ ١١٤٣م) في أثناء عودته في شتاء سنة ١١٢٤م. وقد كانت بداية الهجوم على رودس، ثم خيوس وساموس ثم ميثون على شاطئ مسينيا.

(٣) إنجيل متى ١٨ : ٧.

عن إيذاء حجاج الرب بكل وسيلة ممكنة وهم في طريقهم إلى القدس يكابدون مشقة السفر بالحجر ومتاعبه، حبا في الرب الخالق. «طوبى للرحماء لأنهم يرحمون»[1] كما يقول الرب. وعلى العكس، فأي رحمة يمكن أن تنزل على القساة جزاء لعدم تقواهم؟ إنهم ملعونون، مقطوعون، وسوف يموتون دون أن يكفروا عن ذنبهم. فضلا عن ذلك، فإن مثل أولئك القوم سوف يذهبون إلى الجحيم وهم أحياء. إنهم لم يطيعوا الرسول، واحتقروا البطريرك، كما أنهم استهانوا بكلمات الآباء المقدسين.

٥ ـ إنني أعرف، إنني أعرف ما أقوله عنهم، ولست خائفا من قوله. سيأتي وقت سوف تسمعون فيه من الرب، القاضي الصارم «. . . وتقرعون الباب قائلين يا رب افتح لنا يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم»[2]. لقد جئتم متأخرين جدا ولم تجلبوا معكم خيرا. لأن الباب موصد فعلا. في السابق لم ترغبوا في أن تسمعوا لي، والآن لا أريد أن أسمعكم «. . . اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته»[3]. إنني أقول، إنني أقول «آمين»، أنا أقولها. إنني لا أغير أبدا الجملة التي نطقتها. إن ما يبقى في انتظارهم رهيب لا يمكن احتماله؛ إذ سيكون نصيبهم شقاء دائما هم به جديرون.

٦ ـ ولكن الآن وفي سبيل استمرار رواية الأحداث في سياقها الصحيح وحتى لا تكسر مجرى القصة، سوف أحرص على أن أحكي كل حادثة باختصار.

(٤٢)

الشرور التي جلبها آقسنقر والمعركة التي جرت ضده.

١ ـ ومن ثم فإن برسقوينوس (آقسنقر)، الذي تحدثنا عن شجاعته وشره من قبل، أخذ بجمع جيشه ويزيد من عدده يوما بعد يوم، ثم أحاط بمدينة تسمى

---

(١) إنجيل متى ٥ : ٧.

(٢) إنجيل لوقا ١٣ : ٢٥.

(٣) إنجيل متى ٢٥ : ٤١.

كفرطاب واستولى عليها[1] . وقد سلمها لها الرجال الذين كانوا قد دخلوها للدفاع عنها، لأنهم لم يستطيعوا الحفاظ على المكان أطول من ذلك، ولم يكن لديهم أمل في النجدة من أي مكان. كما أن ملكنا لم ينفذ إليهم، ولا كونت طرابلس الذي كان يصحبه معه.

٢ ـ كما أن الملك لم يكن معه سوى عدد قليل من رجال بيت المقدس لأنهم كانوا قد أرهقوا كثيرا في هذه السنة والسنة السابقة.

٣ ـ إذ كيف يمكنهم أن يتحملوا مثل هذه المشاق بشكل مستمر، وهم الذين لم يتمكنوا من الراحة في بلادهم سوى شهر أو أقل؟ من المؤكد أن صاحب القلب القاسي هو الذي لا تحركه العاطفة تجاه من يعيشون حول بيت المقدس، الذين يتحملون ليلا ونهارا كثيرا من المعاناة في سبيل الرب، وهم أيضا الذين عندما يخرجون من بيوتهم لا يدرون إذا ما كانوا سيعودون إليها مرة ثانية. وإذا ذهبوا بعيدا فرضت عليهم الضرورة أن يحملوا معهم المؤن والإمدادات.

٤ ـ فإذا كانوا رجالا فقراء، سواء من الفلاحين أو أصحاب الحرف، يتصيدهم الأحباش من كمائنهم ويأسرونهم ويقتلونهم بين الغابات وفي الأحراش. ومن هذا الجانب يهاجمهم المصريون فجأة برا وبحرا، وفي الشمال ينقض عليهم الأتراك بغتة. والواقع أن الآذان هنا مرهفة تجاه أصوات الطبول إذا ما شاءت الصدفة أن تدق الحرب طبولها. ومن ثم فإننا لو لم نسقط في شباك الرذيلة أحيانا لكنا أصدقاء الرب على أكمل ما تكون الصداقة[2].

٥ ـ ويجوس آقسنقر في سوريا السفلى[3] وهو يبحث في حرص عما يناسبه فيفرض الحصار على زاردانا[4]. ولكنه لم يحرز أي نجاح هناك، فقاد جيشه إلى

---

(١) كفرطاب على مسافة حوالي خمسة وخمسين ميلا جنوب غربي حلب، وقد استولى عليها آقسنقر في ٩ من مايو سنة ١١٢٥م.

(٢) يفكر فوشيه في المخاطر التي كان يتعرض لها الفلاحون حول بيت المقدس. وهو يقصد بالأحباش جنود المشاة في الجيش المصري وكانوا من الأجناس الإفريقية السوداء ويجندون في خدمة الجيش المصري زمن الفاطميين، ويقصد بالأتراك هنا رجال دمشق تحت إمرة طغتكين.

(٣) يقصد فوشيه بعبارة «سوريا السفلى» الجزء الشمالي من وادي نهر العاصي.

(٤) حوالي خمسة وعشرين ميلا جنوب غربي حلب.

مدينة تسمى عزاز[1] ويفرض عليها الحصار في الحال، ويضايقها بآلات الحصار والمنجنيقات.

٦ ـ وأسرع إليه ملك دمشق (طغتكين) استجابة لطلب المساعدة. وفي ذلك الوقت قلق آقسنقر من أنباء اقتراب ملكنا فجمع خيامه وأرسلها مع متاعه.

٧ ـ ولكن بعد أن وصلت عزاز إلى حافة التسليم وحان الوقت لذبح حاميتنا، وصل ملكنا في ثلاث عشرة كتيبة من رجالنا مرتبين في أحسن نظام. فكان رجال أنطاكية في ميمنة الجيش، وكان كونت طرابلس وكونت الرها في الميسرة، على حين كان الملك في المؤخرة ومعه أقوى التشكيلات.

٨ ـ ولأن الأتراك كانوا مقسمين إلى إحدى وعشرين كتيبة، فقد كان عددهم كبيرا بالفعل. وسرعان ما صوبوا أقواسهم المشدودة واستلوا سيوفهم وهاجموا رجالنا في معركة عنيفة.

٩ ـ وعندما رأى ملكنا هذا لم يطل تردده، ولكن لأن صلاته تحميه ويرعاه الصليب، فقد صاح «ليساعدنا الرب». ومع ضجة الطبول العالية هجم على الأتراك وأمر رجاله أن يحذوا حذوه، لأنهم لم يكونوا يجرءون على بدء المعركة ما لم يأمرهم الملك بهذا.

١٠ ـ والحقيقة أن الأتراك قاوموا بشجاعة في بداية الأمر. ثم بمشيئة خالق الكون تملكهم اليأس وعمت الفوضى صفوفهم، وتبعثروا وهرب من استطاع إلى الفرار سبيلا.

١١ ـ كانت الجوزاء قد صعدت خمس مرات
عندما منحنا الرب هذا النصر
هذه المعركة يجب أن نذكرها تكريما للرب
جرت في اليوم الثالث قبل منتصف يونيو[2].

(١) مدينة عزاز على مسافة حوالي خمسة وعشرين ميلا شمالي حلب.
(٢) ١١ من يونيو سنة ١١٢٥م.

(٤٣)

عدد الذين ذبحوا في المعركة.

١ ـ إن حقيقة عدد من ماتوا أو جرحوا في هذه المعركة أو أي معركة غيرها لا يمكن التأكد منها طالما أننا لا يمكن إلا أن نقوم بتقدير الأعداد الكبيرة(١). وغالبا ما تكون المبالغة سببا في كذب مختلف الكتاب. فهم يحاولون أن يكيلوا المديح للمنتصرين من أبناء بلدهم ويحاولون أن يعظموا من شأن قوة بلادهم لصالح الأجيال الحالية والمستقبلة. ومن ثم فمن الواضح تماما أنه مثل هذا الكذب لا يدعو للخجل، ولذلك فإنهم يبالغون في عدد الأعداء الذين قتلوهم ويقللون خسائر أصدقائهم إلى الحد الأدنى أو يحذفونها تماما.

٢ ـ وعلى أي حال، فإن الذين حضروا المعركة حكوا لنا أن ألفين من الأتراك لقوا مصرعهم، وقد شهد الأتراك الذين هربوا بنفس الشيء. وعلى كلا الجانبين هلكت أعداد كبيرة من الخيول بسبب العطش والإجهاد.

٣ ـ كان يوما حارا، وزاده المجهود العنيف حرارة
ودارت معركة حامية؛ يموت رجل ويذهب آخر
رجل يهرب، وآخر يقوم بالمطاردة، وليس هنا من هو بمنجاة من السقوط
اصطبغت الحقول والطرق بحمرة دماء القتلى
كانت المعدات اللامعة ملقاة على الأرض في كل مكان
ويرمي أحدهم درعه على الأرض ويلقي الآخر قوسه أو سيفه(٢)

٤ ـ ولم يهتم آقسنقر بأن يدخر سوطه(٣)، وفضل طغتكين أن يعود إلى دمشق حافيا ويحافظ على ملكه. وخسر الأتراك خمسة عشر ضابطا من

---

(١) هذا الفصل مهم جدا لأن فوشيه يطرح عددا من الملاحظات الذكية عن مدى إمكانية الاعتماد على التقديرات العددية لدى مؤرخي العصور الوسطى.

(٢) كتب فوشيه هذه الفقرة في صيغة شعرية، وهي عادته في الحديث عن أي انتصار كبير يحرزه الصليبيون، وغالبا ما يقتبس أبياتا من الشعر للشعراء الكلاسيكيين. وهو في هذه الفقرة يقتبس من أوفيد وفرجيليوس. (المترجم)

(٣) يريد أن يقول إنه لم يكف عن ضرب فرسه بالسوط لكي يهرب به مسرعا بعد هزيمة جيشه. (المترجم)

القادة . ولم نخسر أكثر من عشرين رجلا منهم خمسة من الفرسان . وكان لدينا ألف ومائة فارس عند بدء المعركة . وكان لدى الأتراك خمسة عشر ألفا . وكان لدينا ألفا جندي مشاة .

(٤٤)

تخليص ابنة الملك.

١ ـ وبعد أن أقام آقسنقر بيننا فترة من الزمن، عبر نهر الفرات إلى بلاده . ولم يجلب لأصدقائه في بارثيا مجدا وإنما جلب لهم الحزن واللوعة والأسى . إن ما جاء مهددا متوعدا عاد بفضل الرب ضعيفا غير مأسوف عليه .

٢ ـ ثم إن ملكنا، بعد أن دفع نقدا فدية ابنته الصغيرة ذات السنوات الخمس ، والتي كانت رهينة[1]، كما دفع فدية عدد من أتباعه كانوا أسرى وفقا للاتفاق الذي عقد بين الجانبين، عاد مسرعا إلى بيت المقدس . وذهب لأداء صلاة الشكر للرب وحمده وأثنى عليه كثيرا على النصر الذي أحرزه على آقسنقر .

٣ ـ لقد ذهب الملك لإسداء الشكر للرب ويحمده حقا، بعد أن كان عرضة للمتاعب لفترة طويلة حتى وصل إلى أدنى نقطة في عجلة الحظ، بل إنه وصل إلى نقطة كاد أن يستسلم في خزي وبؤس، والآن بمشيئة الرب عاد الملك قويا مرة أخرى وعاد له مجده .

٤ ـ كانت قد مرت ست وستون سنة
منذ ولدت حتى السنة الحالية
وعسى الرب أن يوجه ما بقى من عمري

---

(١) هذه الابنة اسمها يوفيتا Joveta، هي التي صارت فيما بعد رئيسة الراهبات في دير سان لازاروس في بثياني .

(٤٥)

القلعة التي بناها الملك.

١ ـ في هذه السنة، في شهر أكتوبر، بنى الملك قلعة فوق جبل بيروت في منطقة خصبة للغاية. ويسمونها Mons Glavianus من كلمة «digladio»(١) لأن الذين كان يحكم عليهم بالإعدام في بيروت كانوا يعدمون هناك. وهي على مسافة ستة أميال من المدينة. وفي الفترة السابقة لم يكن الفلاحون المسلمون يريدون دفع الضرائب عن أرضهم ولكنهم أجبروا على دفعها.

(٤٦)

الحملة التي جردها الملك والمعركة ضد الأتراك.

١ ـ بعد هذا جهز الملك حملة في سوريا ضد دمشق، لأن السلام الذي عقد بينه وبين طغتكين قد انتهك. فقد استولى على ثلاث من أغنى القرى ودمرها ثم عاد إلى بلاده محملا بأكبر قدر من الغنائم والأسلاب استطاع أن يحمله معه.

٢ ـ وبعد أن قسم الغنائم ووزعها بين الفرسان وغيرهم من المشاركين حسب القواعد المستقرة، وجه حملته في اليوم التالي صوب أرض الفلسطينيين(٢).

٣ ـ وفي ذلك الوقت كانت قوات جديدة قد تجمعت في عسقلان، وقد أرسلها المصريون(٣). وقد ظنت قواتنا من الفرسان أنها سوف تنتصر إذا ما أظهرت شجاعتها في أرضنا. وعندما رأى أهل عسقلان رجالنا يقتربون وأعلامهم مرفوعة، خرجوا لقتالهم في شجاعة وهم يطلقون صيحات مدوية.

٤ ـ وعلى أي حال، لم يكن الملك قد تقدم بعد إلى الصفوف الأمامية لأنه كان

---

(١) تحريفا عن الكلمة اللاتينية Gladius ومعناها «السيف». وكانت تلك القلعة على مسافة حوالي ستة أميال من بيروت، وعلى ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر، وتتحكم في وادي سليمة ووادي حمامنا.

(٢) يقصد الأراضي المحيطة بعسقلان.

(٣) اعتاد المصريون أن يرسلوا كل سنة أربع حملات سنوية تتوالى في حماية عسقلان حتى تكون في حال جيدة على الدوام.

يتلكأ بذكاء في المؤخرة حتى يكون قادرا على المساعدة إذا اقتضت الضرورة، وإذا ما حاول بعض رجاله الهرب بحياتهم. أما فرساننا الذين كانوا في المقدمة، ولا يفتقرون إلى الشجاعة، فقد هاجموا العدو بقوة لا تصدق وهم يصيحون «ليساعدنا الرب». وضغطوا على العدو بقوة وروح عالية بحيث دفعوه إلى داخل بوابات المدينة، وهم يقتلون ويجرحون ويذبحون أفراده. وبقدر ما يمكن للمرء أن يحكي، لو كان لدينا عدد أكبر من الرجال المستعدين في هذا المكان فلا شك في أنهم كانوا سيدخلون عسقلان مع أولئك الذين كانوا في مطاردة العدو.

٥ ـ لقد حزن أهل عسقلان الذين نجوا بسبب قتل أكثر من أربعين من خيرة رجالهم، وقد انتابتهم حيرة شديدة بسبب هذا البلاء غير المتوقع.

٦ ـ وبعد أن دقت الطبول أمر الملك رجاله بأن يستريحوا ليلا في خيامهم القريبة من المدينة. وبينما استراحوا بفضل الرب، قضى العدو ليلة بلا نوم يغشاها الحزن. وكما يقول يوسيفوس: «إن من يتمادى في ثقته بنفسه لا يأخذ حذره، لكن الخوف يعلم الحذر».

٧ ـ ويجب أن نسجل أن فرساننا الذين كانوا في المقدمة في ذلك اليوم، لم يجدوا أي حيوان يأكلونه خارج أسوار المدينة، لأن العسقلانيين عندما عرفوا باقتراب الملك أدخلوا قطعانهم إلى المدينة وأغلقوا عليها الأبواب.

(٤٧)

المسلمون يبعثون الرسائل بالحمام

١ ـ من عادة المسلمين الذين يعيشون في فلسطين أن ينقلوا من مدينة لأخرى الحمام المدرب لكي يحمل الرسائل ويطير عائدا بها إلى المدينة التي كانت موطنه حتى عهد قريب. والخطابات مكتوبة على أوراق تربط في أرجل الحمام، تحمل لمن يجدها ويقرؤها أخبارا ومعلومات أو تعليمات بشأن ما ينبغي عمله بعد ذلك. والواضح تماما أن هذا ما حدث في هذه الحال[1].

---

(١) يقصد فوشيه بعبارة «في هذه الحال» أن أهل عسقلان عرفوا بمسير بلدوين ضدهم بواسطة الرسائل التي حملها الحمام الزاجل، وهو ما منحهم وقتا كافيا لإنقاذ ماشيتهم وإدخالها إلى المدينة.

(٤٨)

اختلاف العادات.

١ ـ تختلف العادات والتقاليد بكل مكان حسب تقسيمات الأرض. ففي فرنسا عادات معينة وفي إنجلترا ومصر والهند توجد عادات مغايرة.

٢ ـ وتختلف البلاد في الطيور، والأسماك، والأشجار. ففي فلسطين لم أر الحيتان، أو ثعبان البحر، كما أنني لم أر بين طيورها بعض طيور بلادنا. وفيها الحمير البرية والقنافذ ناهيك عن الضباع التي تحفر قبور الموتى. ومن الأشجار التي رأيتها لم أر عدة أنواع من الأشجار المعروفة لنا.

(٤٩)

الأنواع المختلفة من الحيوانات والزواحف في بلاد المسلمين.

١ ـ منذ وقت قريب، رأينا جميعا قرب نابلس حيوانا لم يسمع إنسان باسمه من قبل. له وجه مثل وجه الجدي، ورقبة غزيرة الشعر مثل الجحش الصغير، وحوافر مشقوقة وذيل يشبه السمكة، وهو أكبر من الخروف.

٢ ـ ومن مصر حيوان آخر يسمونه الزرافة، طويلة من الأمام ولكنها ليست كذلك من الخلف[1]. وفي أيام الأعياد والاحتفالات يضعون فوقها أفخر الثياب وغيرها من الأشياء الفخمة عندما يرغبون في خدمة أميرهم.

٣ ـ وهناك التمساح، وهو حيوان شرير بأربع أرجل يعيش على البر وفي النهر. وليس له لسان، ويحرك الفك الأعلى، وعضته تطبق على الضحية بشدة مرعبة. وينمو حتى أكثر من عشرين ذراعا من الطول. وهو مثل الإوز يضع البيض ولكن صغاره لا تفقس إلا حينما تكون مياه النيل منخفضة بحيث لا تطولهم. وهو مزود بمخالب هائلة الحجم ويعيش في الماء ليلا وعلى الأرض في أثناء النهار. ويمكنه التخفي بمهارة.

٤ ـ في أحد المجاري المائية في قيصرية بفلسطين توجد حيوانات مثل هذا النوع.

---

(١) استخدم فوشيه كلمة «Chemira» للدلالة على الزرافة التي ينطبق وصفه عليها.

ويقال إن هذه أحضرت إلى هناك حديثا من النيل نفسه بخدعة شريرة. ومن ثم فإنها الآن تلتهم الكثير من الحيوانات الأخرى، وتسبب خسائر أخرى كثيرة في المنطقة.

٥ ـ أما فرس النهر فلا يعيش إلا في نهر النيل وفي الهند أيضا. وهو يشبه الفرس في ظهره وشعر رقبته، وفي صهيله، وأنفه المعقوف إلى أعلى، وحوافره المشقوقة، وأسنانه المنطبقة، وذيله الملتوي. وفي الليل يرعى في الحقول الخضراء. وهو يقترب منها، ونظره متجه بعيدا عنها بطريقة مخادعة، بحيث لا يستطيع أحد أن ينصب فخا له في طريق عودته. وجسم هذا الحيوان أكبر من جسم الفيل. وبالنظر إلى هذه الحيوانات وغيرها، الكبير منها والصغير، نعرف أن الرب خالق كل شيء. وهو يخلق ما يشاء ليرضينا، ومن ثم يجب أن نشكره على ذلك.

٦ ـ وأفواه التنين الحقيقية صغيرة ولا تستخدم للعض. وهي نوع من الممر الذي تتنفس منه الحيوانات وتخرج منه ألسنتها. ومن ثم فإن القواطع ليست في أسنانها وإنما في ذيولها. وهي لا تؤذي بالعض وإنما بالضرب بذيولها. وهناك حجر مقطوع من مخها. التنين هو أكبر الزواحف، إن لم يكن أكبر الأشياء على الأرض جميعا وهو غالبا ما يخدع فيخرج من كهفه إلى الفضاء، ثم يحدث ضجة عنيفة في الهواء. وفضلا عن ذلك فإن هذا الحيوان مغطى بالدرقات. وكل ما يمسك به يموت؛ حتى الفيل على الرغم من حجمه ليس في مأمن منه.

٧ ـ وهو مولود في الهند وأثيوبيا في حرارة الصيف الدائم. ويحوم حول الممرات التي اعتادت الأفيال استخدامها، وهو يربط أرجل ضحيته في عقدة بحيث يذبحها. وليست له أقدام[١].

٨ ـ وتوجد في سكيثيا الآسيوية طيور العقاب، وهي طيور غاية في الوحشية تفوق كل تصور. وهناك الهيركانيون، وهم شعب متوحش يعيش في الغابات وأرضهم تعج بالوحوش الضخمة الضارية، ومنها النمور. وهذا النوع من الوحوش يستلفت النظر بسبب لونه الأصفر الزاهي. ولست أعرف سبب سرعته:

---

(١) واضح أن فوشيه يتحدث عن حيوانات وطيور وأجناس أسطورية دارت حولها قصص أسطورية مرعبة في أوربا بالعصور الوسطى. (المترجم)

هل هو التسطيح الطبيعي لقدمه أم عزمه وتصميمه؟ وليس هناك شيء بعيد لا يمكنه الوصول إليه، وليس هناك شيء بعيد لا يمكنه أن ينقض عليه في مكانه.

٩ - وفي هير كانيا توجد فهود تغطي أجسامها بقع صغيرة. ويقال إن قطعان الحيوانات الأخرى تتأثر برائحتها ومنظرها. فعندما تدرك هذه الحيوانات وجود الفهود تتجمع في الحال سويا ويتنابها الخوف فقط عندما تشاهد أنياب الفهد المرعبة. وغالبا ما تقتل الفهود بالسم أكثر من قتلها بالأسلحة بسبب تشبثها الشديد بالحياة.

١٠ - والغزال الجبلي يمكن مقارنته بالبغل لأن له شفة عليا مدلاة. ولهذا السبب لا يمكنه أن يرعى دون أن يتحرك للخلف.

١١ - أما الحرباء، فهي حيوان ذو أربعة أرجل، يكثر وجودها في الهند. وهي تشبه السحلية فيما عدا أن أرجلها مستقيمة وأطول من أرجل السحلية، كما أنها متصلة بالبطن. ولها ذيل طويل ملتو، ومخالب دقيقة مقوسة، بطيئة في مشيها، خشنة الجسد، تجيد التخفي كما رأينا في التمساح. وفمها مفتوح دائما وليس له استخدام آخر.

١٢ - وبينها وبين الغراب عداوة وبغضاء. فإذا قتلها غراب قتلته أيضا. لأنه إذا التهم الغراب حتى قطعة صغيرة من لحم الحرباء مات في مكانه. وعلى أي حال، فإن هناك علاجا يستخدمه الغراب، لأنه إذا أكل أوراق شجر الغار استعاد صحته. وجسم الحرباء بدون لحم، كما توجد بها عروق، وهي تكتسب أي لون تقترب منه.

١٣ - اسمها في اليونانية Salamander وفي اللاتينية Stellio

هذه الستيليو التي تعج باللهب، السلامندر، الحرباء الخشنة
لها أسماء ثلاثة ولكن لها جسدا واحدا[١].

١٤ - وهناك طائر اسمه Pegasus له أذنان تشبه أذني الحصان. وهناك قوم طوال القامة بحيث يمكنهم أن يمتطوا الأفيال بسهولة مثل الفيلة. وهم جنس

---

(١) هذه محاولة أخرى من محاولات فوشيه لصياغة بعض الفقرات صياغة شعرية.

أبيـض اللون في الشبـاب، ولكنـهم يتـحولون إلى اللـون الأسـود عـندمـا يتـقـدم بـهم السن.

١٥ ـ وحيوان اسمه leucocrotta هو أسرع الحيوانات المتوحشة جميعا. وهو في حجم حمار بري ولكن مؤخرته مثل مؤخرة الغزال، وصدره وأرجله تشبه صدر الأسد وأرجله ورأسه مثل رأس الفأر، وله حوافر مشقوقة، وفمه يمتد متسعا ليصل بين الأذنين، وبه عظمة متصلة بدلا من الأسنان، هذا هو شكله، أما صوته فيشبه صوت الإنسان.

١٦ ـ وبين هذه الحيوانات يوجد وحش اسمه Mantichora. له ثلاثة صفوف من الأسنان متصلة بعضها ببعض وتستخدم بالتبادل، ويشبه وجهه وجه إنسان، وعيناه تنفثان الشرر، حمراء بلون الدم، وجسمه مثل جسم الأسد، وذيله مدبب به إبرة مثل ذيل العقرب، وصوته شجي يشبه صوت الناي. وهو يحب اللحم الآدمي ويسعى إليه بشراهة. وقدمه سريعة جدا ويمكنه أن يقفز بعيدا جدا بحيث لا يمكن لأي عقبة أو مسافة أن تعوقه.

١٧ ـ ولكن من ذا الذي يعرف أو يستطيع أن يستقصي أعمال الرب التي تبدو غاية في الكثرة وغاية في العظمة في خضم بحر الحياة الزاخر الذي تعيش فيه حيوانات وزواحف عددها يفوق الحصر؟ إن القليل جدا مما ذكرته استخرجته مما كتبه الكاتب الحكيم والمحقق الحاذق سولينوس Solinus. وما وجده الإسكندر الأكبر أيضا في الهند ورآه هناك سوف أحكيه لكم فيما بعد، وإذا لم أتمكن من حكايته كله، فسوف أحكي جزءا منه على الأقل.

١٨ ـ والآن تقترب هذه السنة من نهايتها، وليحكم الرب
وفقا لمقتضيات الزمان؛ فالآن تنتهي السنة
وتبدأ السنة التي تليها.

(٥٠)

حملة ملك بيت المقدس ضد ملك دمشق

١ ـ في سنة ١١٢٦، وبعد الاحتفال بيوم ميلاد الرب في بيت المقدس[١]، جمع الملك جيشه لمهاجمة ملك دمشق. وبعد إعلان التعبئة لكل رجال مملكة بيت المقدس، الفرسان والمشاة، بدأ الجميع يتحركون. ورجال يافا والرملة واللد مروا عبر نابلس، وأخذوا طريق بيسان. أما رجال عكا وصور فقد أخذوا طريق الشمال.

٢ ـ وتحت قيادة الملك تركوا مدينة صفورية على يمينهم ووصلوا طبرية. ثم لحق بهم رجال بيت المقدس. وعبروا جميعا نهر الأردن واستراحوا آمنين في خيامهم.

كان الليل رائقا والسماء صحوا
وكان القمر مضيئا في ليلته السادسة عشرة[٢].

٣ ـ وقرب الفجر دوت الطبول معلنة بدء الرحيل عن المعسكر. ونقضوا خيامهم جميعا استعدادا للمسير. وحملوا البغال والجمال، وغيرها من الحيوانات بالأثقال والأمتعة التي سببت الكثير من الاضطراب. فقد كانت الحمير تنهق، والجمال تخور، والخيول تصهل. وعندما بدأ الكشافة يحددون خط السير للجنود، دوت الطبول في الوقت نفسه، وسار الرجال على الطريق الذي كانوا يعرفون أنه الأفضل بالنسبة لهم.

٤ ـ وبعد أن توغلوا كثيرا في الأراضي المعادية رفعوا بيارقهم وراياتهم وارتدوا سلاحهم لحماية أنفسهم وحتى لا يؤخذوا على غرة بخطر خفي. ثم دخلو إقليم دمشق حيث توقفوا ليلتين. وهناك ينبع مجرى مائي يفيض باتجاه بيسان من بحر الجليل ويلحق بنهر الأردن.

٥ ـ ثم دمروا برجا وجدوه في طريقهم. ثم وصلوا أيضا إلى قلعة اسمها سالومي[٣]. وخرج السوريان المسيحيون الذين يعيشون بها لمقابلة الملك.

---

(١) ٢٥ من ديسمبر سنة ١١٢٥م وليس سنة ١١٢٦م.
(٢) ١٥ من يناير سنة ١١٢٦م.
(٣) بلدة اسمها الصنمين على طريق حجاج القدس القديم.

٦ ـ وبعد ذلك وصلوا إلى الوادي المسمى «Marcisophar» (مرج الصوفر). وهذا هو المكان الذي ضرب فيه الحواري بولس بيد الرب ففقد بصره لمدة أيام ثلاثة[١]. ومكثوا هناك لمدة يومين. ومن هناك رأوا خيام الدمشقيين الذين كانوا ينتظرون جيشنا في هذا الموقع.

٧ ـ وكان ابن طغتكين[٢] قد عاد بعد أن ذهب لجمع قوة قوامها ثلاثة آلاف فارس من كل مكان، والتقى أباه وهو مستعد للمعركة. وانضم إلى قومه قبل المعركة بيوم واحد.

٨ ـ وبعد ذلك مباشرة، تم تنظيم فرساننا ومشاتنا في اثنى عشر تشكيلا بطريقة تتيح لكل تشكيل أن يساعد الآخر إذا ما اقتضت الضرورة. وبعد أن استمع الكل لصلاة القداس وتناولوا الخبز المقدس اصطفوا في خط القتال وبدءوا المعركة صائحين «ليساعدنا الرب».

٩ ـ وصاح الأتراك أيضا وحاربوا ببسالة شدية. وانتابهم الذهول من شجاعة من ظنوا أنهم هزموا فعلا. وخانتهم شجاعتهم، وتملكهم الخوف والارتباك، فآثروا الهرب. كما هرب طغتكين وابنه. وعلى الرغم من أن رجالنا كابدوا ضغوطا فوق الاحتمال فإن شجاعتهم كانت في تزايد مستمر، وثبتوا بروح عالية.

١٠ ـ ومع هذا، فإن الأتراك أمطروا المسيحيين وابلا من السهام بحيث لم يكن جزء من أجسادهم في مأمن من الإصابة أو الجرح. والحقيقة أن رجالنا لم يخوضوا معركة بهذا القدر من العنف والرعب. وكان الهرج والمرج والضجة وصدمة المعركة كبيرا جدا. وكانت الطبول والأبواق تدوي عاليا.

١١ ـ في هذا الوقت أحاط الأتراك برجالنا وجرح منهم عدد كبير. ولجئوا إلى الهرب، ولكن بعد أربعة أميال استداروا نحو الأتراك وبدءوا يقاتلون، وقد اعترتهم الشجاعة.

كان هذا اليوم المقدس الذي جرت فيه المعركة

---

(١) أعمال الرسل ٩: ٣ـ٩.

(٢) ابن طغتكين وولي عهده «تاج الملوك بوري»، أتابك دمشق فيما بعد، أي منذ سنة ١١٢٨م وحتى سنة ١١٣٢م.

يناسب الذكرى السنوية لاعتناق بولس المسيحية
بولس الذي اختاره الرب[1].

بدأ القتال في المعركة في الساعة الثالثة من النهار. وانتهت في المساء بالنصر الذي أسبغه الرب علينا.

١٢ ـ المعركة خطرة، والهرب عار؛ ولكن من الأفضل أن تعيش ضعيفا بدلا من أن تموت وتنعى إلى الأبد. وهكذا اختار الأتراك الهرب لكي يظلوا أحياء.

والحقيقة أن ما يزيد على ألفين من الأتراك كانوا يرقدون قتلى في ساحة المعركة. وليس هناك إحصاء لقتلى المشاة. وفقدنا أربعة عشر فارسا وثمانين من المشاة[2].

١٣ ـ وقد تصرف ملكنا بفطنة في ذلك اليوم، وكذلك فرسانه ورفاقه في المعسكر، لأن الرب نفسه كان معهم. وهرب ملك سوريا وتبعه من استطاع إلى الفرار سبيلا. وعاد ملكنا فرحا بالنصر إلى بيت المقدس.

١٤ ـ وبعد أن صدر الأمر بالرحيل، استولى رجالنا على برج وقتلوا ستةوتسعين رجلا كانوا فيه. واستولى الملك على برج آخر وعشرين من الأتراك كانوا بداخله مختبئين. وعندما تحقق هؤلاء الأتراك أن رجالنا يحفرون حول الخندق ويخرجون الحجارة الضخمة منه استسلموا للملك خوفا. ووافق الملك على أن يتركهم يذهبون ولكنه أمر بهدم البرج. وكان من الضروري تدميره لأن تحصينه كان يغري الكثيرين على عداوتنا. لأنه كان سيظل ملجأ آمنا لأصحابه ومصدر قلق وتعب لمن يهاجمونه.

١٥ ـ ربما سيتضايق من يستمعون إلى قصتي إذا حكيت كل الأمور التي جرت في الحرب أو من أجلها، سواء بالقوة أو الإستراتيجية. لأن الدمشقيين أحضروا شبابا مختارين لحيويتهم ونشاطهم. وتم تسليحهم وركبوا خلف الفرسان الأتراك.

---

(١) يوم ٢٥ من يناير. ولكن ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق، حوادث سنة ٥١٩ هجرية) يقرر أن يوم المعركة هو ٢٧ من ذي الحجة سنة ٥١٩ هـ الموافق ٢٤ من يناير سنة ١١٢٦م.

(٢) لا نستطيع أن نعول على الأرقام التي يوردها فوشيه إلا بصفتها عبارات مبالغة على نحو ما أوضح هو من قبل كما أن ابن القلانسي وابن الأثير يتحدثان عن خسائر الفرنج الفادحة في المشاة، وكذلك خسائر الأتراك الكبيرة في جنود المشاة.

وعندما قابلوا العدو وثبوا وحاربوا في الحال بصفتهم مشاة، على حين كان الفرسان الذين جلبوهم يهاجمون الجانب الآخر.

(٥١)

حصار مدينة رافانيا ونهر السبت.

١ ـ مكتوب «ليس هناك شيء مبارك من جميع النواحي». ولا يمكن أن نكون مباركين فيما يتعلق بهذه المعركة بما أننا فقدنا أربعة عشر من أشجع الفرسان بالإضافة إلى بعض المشاة البواسل. ولكن هذا شيء تافه قياسا إلى خسائر العدو.

٢ ـ كلمة «دمشق» تفسر بأنها تعني «قبلة الدم» أو «شرب الدم»[١]. فنحن نقرأ أن دم هابيل قد أريق في دمشق[٢]. والواقع أن أهل دمشق كانوا يقدرون على الاستحمام في دم القتيل، بل وكان باستطاعتهم شرب دمائهم بإلقاء أنفسهم على الأرض ووجوههم إلى أسفل[٣].

٣ ـ وأخيرا عاد الملك بجيشه إلى بيت المقدس حيث قضينا اليوم كله في عطلة وفي صلاة الشكر.

٤ ـ وبعد ذلك بوقت قصير، تحرك الملك بناء على توسل كونت طرابلس[٤]، وخرج لمساعدته في حصار بلدة نسميها رافانيا في سفح جبل لبنان[٥]. في هذا الإقليم، كما يحكي يوسيفوس «بين أرعش ورافانيا يفيض نهر له ميزة خاصة تميزه. إذ عندما تفيض مياه كثيرة يكون التيار متدفقا؛ ولكن منابعه تتوقف بعد ستة أيام

---

(١) ربما يكون فوشيه قد اختلط عليه الأمر عندما اعتمد على بعض المصادر القديمة عندما استخدم عبارة «Sanguinis succi et sanguinis osculi» ومعناها «قبلة الدماء وشرب الدماء» نقلا عن: Hieron.

(٢) وردت قصة قتل قابيل لأخيه هابيل في سفر التكوين (٤: ٨) الذي اعتمد عليه فوشيه، ولكن كون دمشق مسرح هذه الحادثة متواتر في التراث العربي وربما عرفه فوشيه بطريقة أو بأخرى.

(٣) واضح أن المؤلف هنا يردد بعض الخرافات والدعاية العدائية ضد أهل دمشق بسبب نشاطهم العسكري الواسع ضد الصليبيين، وهو على أي حال موقف ليس جديدا بالنسبة للكتاب الأوربيين آنذاك. (المترجم).

(٤) كان تاريخ المسير قبل ١٤ من مايو سنة ١١٢٦م، وكونت طرابلس المقصود هو «بونس».

(٥) رافانيا على مسافة ٢٧ ميلا تقريبا جنوب غربي حماة.

ويبدو المكان كما لو كان جافا. وعلى الرغم من أنه لا يبدو أن تغييرا قد طرأ عليه، فإن النهر يفيض مرة أخرى في اليوم السابع وترتفع مياهه، وقد لوحظ أنه على هذا النظام دون تغيير أو تبديل. ولهذا يسمى هذا النهر «السبت» نسبة إلى اليوم السابع الذي يقدسه اليهود.

٥ ـ «والحقيقة أن تيتوس الأمير قضى بعض الوقت حول بيروت. ثم غادرها، وهو يمتدح هذا المنظر الأكثر روعة وجمالا بين كل المدن السورية التي زارها. لقد أعجب كثيرا بهذا النهر، ورأى فيه شيئا جديرا بأن يعرفه الإنسان معرفة حقيقية»(١).

(٥٢)

فيما يتعلق بنهر آخر

١ ـ والمؤرخ نفسه (يوسيفوس اليهودي) يحكي عن عجيبة أخرى، ويقول إن بالقرب من مدينة عكا «كان هناك نهر صغير جدا على مسافة ربع ميل، اسمه بيلوس قرب قبر ممنون. وهو في الواقع يستحق الكثير من الإعجاب.

٢ ـ له شكل الوادي المستدير، ورماله زجاجية، وبعد أن جاءت سفن كثيرة إلى هناك وحملت الرمال امتلأ المكان مرة أخرى. فالريح تجلب المزيد من الرمال بشكل طبيعي من التلال المحيطة بالوادي. وسرعان ما يحول المكان الرمال التي جاءته إلى رمال زجاجية.

٣ ـ «وما يبدو أكثر استلفاتا للنظر عندي أنه عندما تلقى كمية من هذا الرمل إلى حافة المكان يتحول مرة أخرى إلى رمال عادية»(٢).

---

(١) نقلا عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس (Joseph. Bell. Jud. vii, 96^ 99) والنهر المقصود هو نهر الفوار. وقد استولى تيتوس على القدس سنة ٧٠م.

(٢) Josehus, Bell. Jud. ii. 189^ 191، والنهر هو نهر النعمان.

(٥٣)

الاستيلاء على مدينة رافانيا:

١ - كان سقوط رافانيا، وهي مدينة كنت قد بدأت الحديث عنها باختصار، على هذا الشكل. فبعد أن حاصر الملك والكونت المسلمين حصارا شديدا داخل المدينة على مدى ثمانية عشر يوما ضربوها بالأحجار التي تقدمها المنجنيقات، سلم السكان المدينة ثم خرجوا سالمين. وحدث هذا في آخر أيام شهر مارس. وهكذا تملك الكونت المذكور المدينة ملكا له في المستقبل، وحصنها وعاد الملك إلى بيت المقدس.

(٥٤)

موت الإمبراطور الروماني.

١ - بينما كنا نحتفل بيوم الفصح[1] في بيت المقدس، وردت أخبار مع الحجاج الذين وصلوا عندنا تقول إن الإمبراطور الروماني مات[2]. وأضافوا أن دوق السكسون واسمه لوثير اعتلى العرش الإمبراطوري[3]

عندما مات هنري كان برج الجوزاء يلمع
بعد ذلك تولى العرش لوثير ابن أحد الدوقات

(٥٥)

رحيل الملك لقتال المصريين.

١ - وبعد ذلك بقليل خرج الملك من صور إلى سوريا السفلى (جنوبي بلاد الشام) وترك بعض فرسانه وأخذ البعض الآخر معه. وكان هذا على الرغم من

---

(١) ١١ من إبريل سنة ١١٢٦ ميلادية.
(٢) مات الإمبراطور هنري الرابع في ألمانيا يوم ٢٣ من مايو سنة ١١٢٥م.
(٣) كان لوثير Lothair قد صار دوق سكسونيا سنة ١١٠٦، ثم ملك ألمانيا سنة ١١٢٥م، واعتلى العرش الإمبراطوري سنة ١١٣٣. ثم مات سنة ١١٣٧م.

أنه كان قد سمع إشاعات عن أن المصريين يستعدون للحرب وعلى وشك القدوم لقتالنا.

٢ ـ غير أنه أراد أن يسرع أولا إلى المكان الذي سمع أن العدو سيهاجمه منه. ومثل خنزير بري أحاطت به مجموعة من الكلاب وضايقته عضاتها المتكررة، وكان عليه أن يدافع عن نفسه يمينا ويسارا بأسنان متوحشة بارزة. وكما اعتدنا أن نقول بتورية «إن اليد تمتد حيث يكون الألم» ubi dolor, ubi manus.

٣ ـ ولكن قبل وصول الملك إلى هناك، كان الأتراك قد استولوا فعلا على قلعة عديمة القيمة. ولأن هذا المكان كان يضايق الأتراك، فقد كان من الضروري لنا أن نستولي عليه. وكان جنودنا قد هربوا بحيلة ماهرة في أثناء الليل، وتركوا زوجاتهم وأطفالهم، مفضلين إنقاذ الجزء بدلا من أن يفقدوا الكل[١].

٤ ـ ثم حدث في ذلك الصيف في منتصف شهر يوليو أن بدأ شهاب في الظهور بين الشرق والشمال. وكان قد ظهر قبل الفجر مشعا بالضوء حتى الساعة التاسعة تقريبا، كاشفا عن نفسه بضوء باهت. وحاولنا جاهدين أن نفهم مغزاه على مدى ثمانية عشر عاما ولكننا تركنا معناه للرب خالق كل شيء.

٥ ـ وفي ذلك الوقت، فرض الأتراك حصارهم على مدينة تدعى سريف Cereph[٢]. وكان آقسنقر أهم قادتهم. وعلى أي حال، فإنهم عندما سمعوا باقتراب الملك، وكان يسير في أثرهم بالفعل، انسحبوا إلى أماكن أكثر أمنا، وخاب حصارهم. إذ لم يكن هناك أكثر من ستة آلاف جندي. ومن ثم عاد الملك إلى أنطاكية.

(٥٦)

الأسطول المصري.

١ ـ في هذه السنة، أصلح المصريون أسطولهم وجمعوه، ثم أبحروا بريح جنوبية، ودخلوا أرض الفلسطينيين، ودخلوا عن طريق الفرما والعريش، ثم غزة

---

(١) من الواضح أن هذا المكان هو حصن الدير، وقد استولى عليه بابك بن ثلماس أحد قواد آقسنقر ـ انظر ابن العديم (زبدة الحلب، حوادث سنة ٥١٩ هجرية).

(٢) حصن الأثارب، على مسافة حوالي عشرين ميلا غربي حلب.

وعسقلان، وكذلك يافا، وقيصرية وعكا، وصور، وصيدا. واستكشفوا الشاطئ وفحصوه جيدا حتى مدينة بيروت، مفتشين وباحثين في كل ميناء بحثا عما يمكن أن يكون ميزة لهم وخسارة على المسيحيين.

٢ ـ ولكن لأنهم كانوا يعانون بشدة آنذاك من نقص المياه العذبة، اضطروا لأن يرسوا لكي يملئوا خزاناتهم من الأنهار والعيون لكي يرووا ظمأهم.

٣ ـ وعلى أي حال، فإن سكان المدينة المذكورة (بيروت) انتهزوا هذه الفرصة وخرجوا فورا لقتالهم بجسارة. وانضم إليهم بعض المسافرين الذين تصادف وجودهم هناك وشنوا هجومهم. وسقط مائة وثلاثون من أولئك القراصنة، بين قتيل وجريح. وفي الحقيقة، كان عدد الذين نزلوا للقتال خمسة آلاف، بخلاف الذين بقوا لحراسة السفن. وكانت اثنتان وعشرون من هذه السفن تحمل أدوات الحصار Catos، وكانت هناك ثلاث وخمسون سفينة أخرى.

٤ ـ وهكذا كان أعداؤنا قساة بلا رحمة تجاه كل من يستطيعون فرض سلطانهم عليهم، قد كانوا سادرين في قسوتهم نحو شعبنا.

٥ ـ ولكن حمدا لله أنهم لم يحرزوا أي مكاسب في هذه الحال. إذ إن فرساننا بحرابهم ورماتنا بسهامهم قد ساقوهم إلى البحر، وبهذه الطريقة استأصلوا شأفتهم بشكل غير متوقع. وفردوا أشرعتهم وتوجهوا صوب طرابلس ثم قبرص[١].

(٥٧)

رحلة بوهيموند الأصغر.

١ ـ ترى كم مرة أبلغنا الرسل والحجاج عن قدوم بوهيموند الأصغر في هذه السنة؟[٢] بيد أنهم خدعونا بإشاعاتهم الكثيرة. لأن بوهيموند كان خائفا من الأسطول المصري أو أسطول القراصنة الذي سمع أنه منتشر في البحر. فضلا عن أنه كان شديد الاهتمام بأراضيه. ولو لم يكن مطمئنا إلى أنها بأيدي أتباعه

(١) هنا يخطئ فوشيه لأن الأسطول المصري لا يمكن أن يذهب إلى موانئ صليبية مثل طرابلس وقبرص.

(٢) سنة ١١٢٦م. وبوهيموند الثاني، أمير أنطاكية، ابن بوهيموند الأول وكونستانس الفرنسية، وكان الملك بلدوين قد تولى الوصاية على أنطاكية منذ سنة ١١١٩م.

الإقطاعيين لفقدها بحيلة أو أخرى. والواقع أنه مكتوب في أمثال الفلاحين أن «كل من له جار سيئ سيكون صباحه سيئا».

٢ ـ وأخيرا، وبعد أن كان قد استعد للقيام برحلته عدة مرات، جمع في مدينة أوترانتو Otranto في أبوليا، أكبر عدد ممكن من السفن، حوالي اثنتين وعشرين سفينة، عشر منها مجهزة بالمجاذيف، وبدأ يسرع في استعداداته للرحيل. وكان ذلك بعد أن عهد بأرضه لدوق أبوليا، الذي اختاره وعينه وريثا له إذا ما مات قبله. وقد منحه الدوق نفس الحقوق أيضا إذا كان هو السابق إلى الموت. وتم هذا في حضور كبار القوم من كلا الجانبين، وقد شهدوا على ما حدث.

٣ ـ وهكذا رحل بوهيموند بحرا في منتصف سبتمبر. ومر عبر جزر كيكلاديس المبعثرة فوق سطح البحر، ثم وصل إلى ميثون ورودس وباليرا وليكيا، ووصل إلى أداليا ومياهها القاسية التي تبث الرعب في قلوب من يبحرون فيها. ثم مرّ بأنطاكية الصغرى، ووصل أنطاكية الكبرى ومر بإيسوريا ومدينة سلوقية. وكانت قبرص على يمينه، وطرسوس ومدينة ماللوس Mallos الشهيرة على يساره، وكانت قد خربت منذ زمن بعيد.

٤ ـ في ذلك الوقت، انتشر بيننا في القدس كثيرون من الناس المنافقين والشرهين ممن وصلوا حديثا من وراء البحر (أوربا)، ونشروا بيننا قصة مؤداها أن بوهيموند قد هبط بالفعل في أنطاكية، ولكنهم كانوا كاذبين. ومع هذا. فإنهم ظنوا أنهم يقولون الحقيقة لأنهم جاءوا مع بعض جنوده حتى باترا Patra، ومعهم الصقور والعقبان، والكلاب التي أرسلها قبل وصوله.

(٥٨)

الأخطار التي واجهوها في البحر:

١ ـ هناك كثير من الأخطار التي يواجهها الذين يركبون البحر بإرادة الله وإذنه. ففي بعض الأحيان تنكسر المرساة، وفي أحيان أخرى ينكسر الصاري أو الدفة، أو تنفك الحبال.

٢ ـ وعندما تهب الريح تتم مراقبة حاجز الريح للتأكد من أن السفينة تسير في الطريق السليم. وهناك خطر من أن يضيع الاتجاه في أثناء الليل. وعندما تتوارى النجوم خلف السحب، أو عندما تجنح السفينة فوق الصخور يبرز الخطر الداهم الذي يتهدد السفينة بالغرق وركابها بالموت. وهناك أيضا أخطار أخرى كامنة في البحر.

٣ ـ لماذا نعجب من أنفسنا إذا تذكرنا غرق سفينة بولس الرسول؟ لقد رمى بحارته الأثقال في قاع البحر. وإذا لم يكن قد رأى ملاك الرب في محنته لكان اليأس من حياته ملك عليه فؤاده[١].

(٥٩)

البحر الكبير

١ ـ كثيرة هي السفن التي اعتادت مواجهة الأخطار في خليج أداليا. فهناك تهب الريح بعنف من جميع الجوانب، من أسفل التلال إلى داخل الوديان، ثم تنعكس بسبب الأرض المنخفضة وتتحول إلى ريح صرصر عاتية في الخليج تتخذ شكل الدوامات الهوائية. وإذا حدث في بعض الأحيان أن تقابل البحارة مع سفينة قراصنة تعرضوا للنهب وهلكوا بلا رحمة. ولكن أولئك الذين يعانون هذا حبا في الرب، هل يمكن أن يخيب ظنهم أبدا في ثوابه؟

٢ ـ ولنقل كلمات قليلة عن بحرنا: «لا يجب أن نغفل ذكر المكان الذي يجيء منه البحر المتوسط. فالبعض يظن أنه يأتي من مضايق كاديز وليس له أصل آخر غير ماء المحيط الذي يصب فيه. وأولئك الذين يظنون العكس يقولون إن كل مياه البحر تأتي من مضيق البسفور. ويؤكدون هذا بحجة أن المد القادم من جهة البسفور لا يعود في الاتجاه المعاكس أبدا»

٣ ـ ومن ثم وجب الشكر والثناء على الخالق الذي أبدع كل شيء. «ومن حجر البحر بمصاريع حين اندفق فخرج من الرحم. إذ جعلت السحاب لباسه والضباب

---

(١) أعمال الرسل ٢٧: ٢٣ ـ ٢٨.

قماطه. وجزمت عليه حدى وأقمت له مغاليق ومصاريع. وقلت إلى هنا لا تأتي ولا تتعدى . . . »(١).

٤ ـ «وفضلا عن ذلك، فإنه لولا أن قوة القانون السماوي تحول دون ذلك، فما الذي يمنع البحر الأحمر من الاتصال بالبحر المصري عبر أرض مصر، التي تنخفض عن الوديان المسطحة الأخرى التي تتصل بها؟ وأخيرا عرفنا أن ملكين أرادا أن يصلا هذين البحرين بحيث تصب مياه أحدهما في الآخر، أولهما سيزوستريس المصري والثاني داريوس ملك ميديا (٢). وقد حاول هذا الأخير أن ينجز ما فشل الأمير في عمله بسبب ما كان لداريوس من سلطة كبيرة.

٥ ـ «وهذا برهان على أن المحيط الهندي، الذي يتصل به البحر الأحمر، أعلى من البحر المصري الذي يقل منسوبه عنه. وربما كان ذلك سيمنع البحر من أن يفيض من المنسوب الأعلى إلى المنسوب الأدنى وبهذا يغرق الأرض، ولهذا السبب توقف كل من الملكين عن إنجاز المشروع». هذا نص ما ورد في كتاب Exameron لأمبروز. وهو موجود بطريقة أخرى عند سولينوس Solinus.

٦ ـ وهكذا فإن أعمال الرب معجزة، ولكن الأكثر مثارا للعجب هو الرب نفسه خالق هذه الأشياء ومدبرها. وإذا كان هناك ما يبدو قبيحا في عيوننا، فيجب مع هذا أن نثني عليها لأن الرب، خالق كل شيء، هو الذي صنعها. ومن ناحية أخرى، فإن هذه الأعمال لا تقل نفعا عن الأشياء الجميلة.

٧ ـ لقد جعل الله من السموم الناقعات دواء . لقد منح الرب القدرة على التخفي لكائنات البحر صغيرها وكبيرها. ومنح الثعابين الحكمة. وفي بعض الأحيان تقدم هذه الحيوانات علاجا؛ وفي أحيان أخرى تتسبب في المرض بل والموت. في بعض الأحيان تجلب الراحة، وتجلب الأذى أحيانا أخرى. ويقال إن

---

(١) سفر أيوب ٣٨: ٨ ـ ١١.

(٢) سيزوستريس اسم أسطوري في تاريخ مصر الفرعوني. انظر:
James H. Breasted, A Hist. of Egypt from the Earliest times to the Persian Conquest, 2nd ed; New York 1937 - 189; أما داريوس الأول ملك فارس، فقد حكم فيما بين سنتي ٥٢٢ و٤٨٦ قبل الميلاد.

المصل الذي يؤخذ ضد عضة الثعبان من جسم الثعبان، يكون مفيدا وصحيا حين يخلط بمواد أخرى، على الرغم من أن سم الثعبان ولحمه ضار بحد ذاته.

(٦٠)

أنواع الثعابين

١ ـ الثعبان الملكي Basilisk طوله حوالي نصف قدم، أبيض مثل قلنسوة الرهبان وله رأس مخطط[1]. وهو ليس مخلوقا فقط للقضاء على الإنسان والحيوان، وإنما لتدمير الأرض نفسها أيضا، لأنه يسممها ويحرقها. وحيثما يوجد يترك مكانا خربا يتسبب في موت العشب والأشجار. وهو يلوث الجو الذي يعيش فيه لدرجة أن الطيور لا تستطيع التحليق بأمان في الهواء الذي لوثه بأنفاسه السامة.

٢ ـ وعندما يتحرك البازليسك يزحف نصف جسده، ويبقى النصف الآخر عاليا منتصبا. وحتى الثعابين ترتجف من فحيحه. وعندما يهرب تندفع جميعا إلى حيث تستطيع. وكل ما يقتله هذا الثعبان بعضته لا تستطيع الحيوانات الأخرى أن تأكله، ولا يمكن لأي طائر أن يلمسه. ومع هذا فإن النمس الذي يضعه الإنسان في جحوره يتغلب عليه.

٣ ـ والواقع أن أهل برجاموم Pergamum يقدمون بثمن عال بقايا ثعبان البازليسك لكي لا تغطي العناكب بخيوطها المعبد الذي شاده Apelles، ولكي لا تغزوه الطيور.

٤ ـ أما الأمفيسبانيا Amphisbaena، فله رأسان، والرأس الثاني مكان الذيل. وللكيراستيس أربعة قرون صغيرة. وهي تغطى أجسادها بعناية بالرمال ثم تظهر قرونها لكي تبدو مثل الطعام حتى تجتذب الطيور وتقتلها.

٥ ـ والهايمورهويس Haemorrhoisيسحب الدم بعضته. وقطع الشرايين ويمتص مع الدم كل ما بها من حياة. أما البرستر Prester فإنه بضربته يسبب لكل ما يضربه تورما هائلا يعقبه الموت. وغالبا ما يحدث التعفن بعد التورم.

---

(١) من الواضح أن فوشيه في هذا الفصل يبحث عن شيء يشغل به وقته، فهو يعود إلى كتاب سولينوس Solinus Collectamea Rerum Memorabilium لكي يتحدث عن المخلوقات الأسطورية.

٦ـ ويوجد أيضا الأموديتاي Ammodytae، والسنشريس Cenchris، والشرسيدري Chersydri، والشامايدراكونتيس Chamaedracontes. وأخيرا فإن هناك شكلا من الموت محددا تسببه كل من هذه الثعابين أيا كان اسمها.

٧ ـ والعقارب والعناكب واللاسرتا Lacertae تعد من الديدان وليست من الحيات. فهذه المخلوقات المقززة، إذا كانت تصدر فحيحا، فهي أقل خطورة. وهي نادرا ما تحمل سما إلا إذا كانت تبحث عن رفاقها. وهناك أيضا الإياكولي Iaculi الذي يضرب أي حيوان يسوقه القدر إلى طريقه.

٨ ـ ويتلون الإسكيتال Scytale بألوان كثيرة مختلفة على ظهره بحيث يأسر جمالها انتباه من يرونها. وتسبب عضة الديسباس Dispas إحساسا قاتلا بالعطش. أما ثعبان الهبنالي Hypnale، الذي يقتل بالنوم، فهو يستخدم في الانتحار مثلما توضح تجربة كليوباترا. أما سموم الحيات الأخرى، فلا تستحق مثل هذا الاهتمام، نظرا لإمكانية علاجها.

٩ ـ هذه العجائب ليست أقل مثارا للدهشة مما رآه الإسكندر الأكبر في الهند. فقد صرح لأستاذه أرسطو وأمه أوليمبياس قائلا: «لم أكن لأصدق أن هناك مثل هذا العدد من العجائب لو لم أشاهدها بعيني». حقا لقد كان ذلك الملك رجلا عظيما من جميع النواحي، شجاعا عندما تكون الشجاعة قوة عند الحكم، ولم يكن مثل ريشة في مهب الريح أو قشة طافية على سطح الماء.

(٦١)

وصول بوهيموند الأصغر، ابن الدوق بوهيموند، واستقباله في أنطاكية.

١ ـ لأن بوهيموند كان قد خرج في وقت متأخر من تلك السنة[١]، فقد اعتقدنا أنه لن يأتي كما أعلن وحسبما كانت التوقعات العامة. وقلنا بما أنه، وفقا لكلام النبي، ليس بيد الإنسان أن يحدد طريقه، فالرب، لا الإنسان، هو الآمر بتقدم

(١) منتصف سبتمبر سنة ١١٢٦م

البشر. وتخدعنا أوهامنا كثيرا في آمالنا. لأن ما يجري لا يقرره الطمع الإنساني، وإنما يجري لأن الرب يقرره لصالح البشر.

٢ ـ ولكن، عندما جاءتنا في القدس رسائل ملكنا تخبرنا أن بوهيموند وصل أنطاكية فعلا سررنا جميعا وابتهجنا، وحمدنا الرب الذي أوصل بوهيموند سالما.

كانت الشمس قد غربت عندما دخل بوهيموند الميناء ليلا

٣ ـ وعندما وصل بوهيموند أنطاكية رحب به الجميع فرحين. وقد خرج الملك في جمع كبير واستقبله بحفاوة بين هتافات الجمهور المتكررة. وعقد الملك بوهيموند اجتماعا في الحال. وبعد الاجتماع أعاد الملك لبوهيموند أرضه كلها وزوجه إحدى بناته[1].

تأمل الأب وزوج ابنته، والد وولده

كلاهما عون للآخر لتزيد قوتهما معا

٤ ـ وبعد أن اكتملت ترتيبات الزواج، تم الزفاف في شكله القانوني. وجلس بوهيموند على عرشه وتُوّج أميرا وهو يرتدي أفخر ثياب الحكم. واجتمع نبلاؤه وحلفوا يمين الولاء، وأقسموا على حمايته من أي خطر في المستقبل. وتم هذا في حضور الملك وبموافقته.

٥ ـ وبعد الانتهاء من هذه الأمور عاد الملك إلى بيت المقدس.

كان برج العقرب يلمع بين نجوم السماء

عندما تم الترحيب ببوهيموند حاكما على أنطاكية

والآن اكتملت دورة السنة وأوشكت السنة الجديدة أن تبدأ

---

(١) هي أليس Alice الابنة الثانية للملك بلدوين الثاني.

(٦٢)

وباء الفئران.

١ ـ في سنة ألف ومائة وسبع وعشرين، ظهرت أعداد هائلة من الفئران في منطقة فلسطين لدرجة أن بعضها أحاط بثور وأمسكت به من أقدامه الأربع وأسقطته، ثم أكلته وأكلت معه سبعة خراف. وأخيرا بعد أن خربت إلى حد بعيد أراضي أهل عكا ذهبت إلى جبل صور بحثا عن المياه. ومن هناك مضت إلى حدود الوادي في آلاف لا تحصى تحت ضغط ريح عاتية وعاصفة ممطرة عنيفة. وظلت هذه المنطقة ملوثة بشكل فظيع بجثثها العفنة.

هنا ينتهي كتاب تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس

للسيد فوشيه الشارتري



قائمة المصادر والمراجع العربية

(أ) المصادر: القرآن الكريم.

● الكتاب المقدس (الترجمة العربية طبعة أورشليم).

● ابن الأثير (عز الدين على بن محمد بن عبد الواحد الشيباني):

ـ الكامل في التاريخ. دار صادر. بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية.

(تحقيق عبد القادر طليمات). القاهرة ١٩٦٣م.

● ابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد):

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب. جزآن.

(تحقيق سامي الدهان). دمشق ١٩٥٤م.

● ابن القلانسي (أبو يعلي حمزة بن القلانسي):

ـ ذيل تاريخ دمشق.

(نشره أمدروز ـ مكتبة الآباء اليسوعيين). بيروت ١٩٠٨م.

● المقريزي (تقى الدين أحمد بن علي):

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا

(تحقيق محمد حلمي محمد أحمد). القاهرة ١٩٧١م.

(ب) المراجع:

● إسحق تاوضروس عبيد:

ـ روما وبيزنطية من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين (٨٦٩ـ ١٢٠٤م). القاهرة ١٩٧٢م.

● براور (يوشع):

ـ عالم الصليبيين

(ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن). القاهرة ١٩٨١م.

● بيريل سمالي:

ـ المؤرخون في العصور الوسطى.

(ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم). القاهرة ١٩٧٩م.

● جوزيف نسيم يوسف:

ـ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى. الإسكندرية ١٩٦٣م.

● سعيد عاشور:

ـ الحركة الصليبية ـ الجزء الأول. القاهرة ١٩٧١م.

● عبد الغني محمود عبد العاطي:

ـ السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور أليكسيوس كومنين (١٠٨١ ـ ١١١٨م). دار المعارف ١٩٨٣م.

● قاسم عبده قاسم:

ـ الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية ـ دراسة عن الحملة الأولى (١٠٩٥ ـ ١٠٩٩م). دار المعارف ١٩٨٣م.

ـ الحروب الصليبية ـ نصوص ووثائق. القاهرة ١٩٨٥م.

ـ الاضطهادات الصليبية ليهود أوربا من خلال حولية يهودية ـ الظاهرة ومغزاها» في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلدالأول. ١٩٨٢م. تحرير قاسم عبده قاسم ورأفت عبد الحميد. القاهرة ١٩٨٢م.

● نورمان ف. كانتور:

ـ التاريخ الوسيط: قصة حضارة، البداية والنهاية. ترجمة قاسم عبده قاسم، جزآن. القاهرة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤م.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Albert d'Aix, "Historia Hierosolymitana", In R H C, Occ., IV, (Paris 1879).

- Anna Comnena, Alexiad, (Transl. By. E. R.A. Sewter), (Penguin Classics 1979).

- L'un Mille; Ouevres de: Luit Prand, Raoul Glaber, Ademar de Chabannes, Adalborn, Helgaud. (Tours - France 1947).

- AOL; Archives de l' Orient Latin - 2 Toms. (eds. P. Riant et H. Hagenmeyer).(Paris 1881 - 84).

- Baldric of Dol, "Historia Jerosolimitana", In R H C, Occ., IV (Paris 1879).

- Ekkhard of Aura, "Hierosolymitana", In R H C, Occ V, (Paris 1886).

- Guibert of Nogent, "Historia Quae Diciture Gesta Dei Per Francos", In R H C., Occ IV (Paris 1879).

- Raymond D'Aguilers, "Historia Francorum qui Ceperunt Iherusalem", R H C., Occ III (Paris 1866).

- Robert the Monk, "Historia Iherosolimitana" In R H C., Occ., III, (Paris 1866).

- William of Tyre, A History of the Deeds Done Beyond the See, (Transl. by E. A. Babcock and A. C. Krey), 2 Vols. (N Y. 1943 - 47).

- Alphadery, P.:

La Chretiente et L'Idee de Croisade. (paris 1954).

- Archer, T. A.:

- The Crusades. (London 1919).

- Atiya, A.S.:

- The Crusades, Historiography and Bibliograbhy (London 1962).

- Bishop, M.:

- The Penguin Book of the Middle Ages. (London 1971).

- Bloch, M.:

- Feudal Society. 20 Vols. (Chicago 1968).

- Boase, T. S. R.:

- Kingdoms and Strongholds of the Crusaders. (London 1971).

- Bradford, E.:

- the Sword and the Scimitar - The Saga of the Crusades.(London 1974).

- Brehier, L.:

- Les Croisades. (Paris 1928).

Chalandon, F.:

- Essai Sur La Reigne D' Alexis 1Er. Comnene, 1081 - 1118 (Paris 1908).

Le Duc de Castries:

- La Canquete de La Terre - Sainte Par Les Croisees. (Paris 1973).

- Duggan, A.:

- The Story of the Crusades (London 1963).

- Duncalf, F.:

- "The First Crusade, Clermont Constantinople", In Setton (ed.), History of the Crusades Vol. I, PP. 253 - 79. (Philodelphia 1953).

- Frederick H. Ressel:

- The Just War in The Middle Ages. (Cambridge 1973).

- Hanz E. Mayer:

- The Crusades (Transl. From German by: John Gillingham, Oxford 1972).

- Painter, S.:

- A History of the Middle Ages. (England 1955).

- Runciman, S.:

- A History of the Crusades - 3 Vols. (N. Y. 1964).

- Riley - Smith, Louis and Jonathan:

- The Crusades, Idea and Reality (London 1981).



المحتـــوى

رقم الإيداع ٢٠٠١/١١٥٣٧
الترقيم الدولى 2 - 0733 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ـ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الإستيطان الصليبى فى فلسطين

هذا الكتاب

رواية شاهد عيان لأحداث الحملة الصليبية الأولى (1095 ـ 1099م) منذ خروجها من غرب أوربا، ثم ربع القرن الأول من الاستيطان الصليبي في فلسطين. وصاحب هذه الرواية قس كاثوليكي كان أسقفًا في فرنسا وخرج مع أحد الجيوش الصليبية على طول الطريق البري في حوض الراين مرورا بالمجر ومناطق البلقان حتى آسيا الصغرى «تركيا الحديثة» ثم بلاد الشام وفلسطين.

ورواية فوشيه الشارتري للأحداث مثيرة؛ فهو يصف أعمال الصليبيين الوحشية بلا خجل، ويكشف بتلقائية عن روح التعصب والعدوانية الأوربية التي أخرجت الحركة الصليبية، ثم يحدثنا عن أحداث ما يزيد على ربع القرن بعد نجاح الصليبيين في إقامة كيانهم على الأرض العربية.... والكتاب يقدم رواية تاريخية أصلية بحيث ينفع الباحثين المتخصصين، كما يخاطب عامة المثقفين في موضوع مهم جرى بالأمس، ونواجه مثيلا له اليوم....

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨٠٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)